جواسيس في الرمال

التاريخ السري للموساد

تأليف

جوردان توماس

ترجمة

إبراهيم البغدادي

مكتبة الساقي

بغداد

جواسيس في الرمال

التاريخ السري للموساد

الطبعة الأولى

2001

المدراء العامون للموساد

١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ريوقين شيلواه.

١٩٥٢ ـ ١٩٦٣ ايزار هاريل.

١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ مير عاميت.

١٩٦٨ ـ ١٩٧٤ زفي زامير.

١٩٧٤ ـ ١٩٨٢ اسحق هوفي.

١٩٨٢ ـ ١٩٩٠ ناهوم ادموني.

١٩٩٠ ـ ١٩٩٦ شابتاي شانيت.

١٩٩٦ ـ ١٩٩٨ داني ياتوم.

١٩٩٨ ـ افرايم هالقي.

شكر

اسرائيل

مير عاميت	يعقوب كوهين
اليكس دوروت	ران اوليست
رافائيل ايتان	ايزار هاريل
ديفيد كيمي	آرابيل ميراري
ريوتين ميرهاف	داني ناجير
يونيل بن بورات	يوري ساغوي

زي سبيلمان

وأولئك الذين لا يزالون بالخدمة ولا يمكن ذكر اسمائهم.

اشخاص آخرون:

سين كاربري	سيباستيان كودي
كارولين دعيبس	دتير بو ميررينغ
هيلدر فلورنس	بير
اريك هاوتورن	ديانا جونسون
اميري	كارونغو
اوتو كورميك	مارتين ليتماير
باري ليونز	جون ماغي
مادلين موريل	مخائيل تاوك
ديكلان وايت	ستيوارت ونتر

كلٌ بطريقته أو بطريقتها قد لعب دوره أو لعبت دورها.

أخيراً وليس آخراً:

وليام بوكلي ويليام كيزي جواكيم كراز. من بينهم من الهمني الفكرة. وبالطبع ـ آديت وتوم بروك.

كل مؤلف بحاجة إلى محرر هاديء، بعيد النظر، صبور وجاد والذي يهتم بصورة متحمسة للكتاب. كان (توم) متسماً بكل هذه الصفات. لا يمكن ان اطلب المزيد، ولا أقبل بالزهيد. فأنا مدين له بالكثير.

المحتويات

توطئة

يمكن القول أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي (الموساد) هو أكثر أجهزة الاستخبارات سرّيةً في العالم، فقد لاحظ جوردون توماس مؤلف الكتاب نقصاً في المكتبة الانجليزية، بصفة عامة، والبريطانية على وجه الخصوص، في المعلومات المتعلقة بالموساد، بينما توجد عشرات الكتب عن أجهزة وكالة الاستخبارات الأميركية (سي.آي.ايه) أو غيرها من أجهزة الاستخبارات ويكشف توماس، الذي قضى ثلاث سنوات في الإعداد له، العديد من القضايا التي أثارت جدلاً في الثمانينات، من بينها محاولة تفجير طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية اتهمت فيه الاستخبارات الإسرائيلية وقضية لوكربي، والدور الذي لعبته الموساد في توجيه أصبع الاتهام إلى ليبيا، كما يكشف عن جود ٦ من رجال الاستخبارات البريطانية والأميركية من بين ضحايا الحادث، وعن اختفاء بعض الأوراق التي ربما تؤدي إلى إحراج إسرائيل.

من بين الموضوعات التي يشير إليها المؤلف احتفاظ الموساد بعميل داخل البيت الأبيض في عهد الرئيس الحالي كلينتون. إلا أن أهم ما يتضمنه الكتاب بالطبع هو دور الموساد في الشرق الأوسط، ومن هم الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب إسرائيل في العالم العربي؟ وكيف حصلت إسرائيل على معلومات تفصيلية عن الطيران المصري قبل حرب ٦٧ مما مكنها من تحقيق انتصار سريع على الدول العربية،

ومن هو العميل الإسرائيلي في الموساد الذي جندته مصر لحسابها؟ ومن هو العميل الفلسطيني الذي قدم معلومات مكنت رجال الموساد من قتل ٥١ فلسطينياً؟ كما يكشف الكتاب عن دور الموساد في اغتيال رسام الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي في لندن في ١٩٨٧، والمعروف أن مؤلف الكتاب جوردون توماس قدم العديد من الكتب، يدور الجزء الأكبر منها حول قطاعات مختلفة في عالم الاستخبارات والجاسوسية، كما انه عمل مراسلاً صحافياً حربياً، غطى العديد من الأحداث العالمية تتراوح بين أزمة السويس (العدوان الثلاثي) إلى أحداث ميدان تيانانمين في الصين في ١٩٨٩.

وتجدر الإشارة إلى أن توماس ليس غريباً عن منطقة الشرق الأوسط، حيث عاش في مصر طفلاً عندما كان والده مسؤولاً عن عمليات الإنقاذ البحرية التي يقوم بها سلاح الجو البريطاني، كما دخل المدرسة في إسرائيل، وكتب توماس العديد من القصص والسيناريوهات وحصل على جائزة لجنة التحكيم في مهرجان «مونت كارلو» السينمائي، وهي جائزة تقدم باسم الروائي الشهير الراحل «إدغار ألن بو» كما حصل على أكثر من تنويه من جمعية مارك توين.

الفصل الأول:

(خلف المرآة)

في اللحظة التي انطلق فيها وميض اللون الأحمر على الهاتف الموضوع على طاولة صغيرة بجانب السرير، كان جهاز تسجيل متطور قد بدأ الدوران تلقائياً في شقة تقع قرب مركز بومبيدو بالحي الرابع، الذي لا تهدأ الحياة فيه بمدينة باريس، وكان فني إسرائيلي، قدم من تل أبيب لإدخال جهاز التسجيل حيز العمل، فقد ركب ذلك الوميض على الهاتف. والقصد من إعداد توصيلات ذلك الوميض الكهربائي على جهاز الهاتف، تحاشي ما سوف يثار من شكوك لدى الجيران إذا هم سمعوا رنين الهاتف في ساعات غير مألوف فيها الاتصال، وكان ذلك الفني الذي قام بتلك المهمة واحداً من مجموعة «ياهالومين»، وهو قسم من وحدة في الموساد، مهمته تأمين الاتصالات في «المنازل الآمنة» التابعة لجهاز المخابرات الإسرائيلي.

كان ذلك المنزل الآمن في باريس واحداً من منازل آمنة عديدة مماثلة، وكان له، شأنه شأن تلك الأماكن، باب خارجي مضاد للقنابل، كما كانت نوافذه الزجاجية من النوع الذي يشتت أشعة أجهزة المسح الضوئي، وهي نوافذ مماثلة في نوعها للنوافذ المركبة في البيت الأبيض بواشنطن، وكان للمخابرات الإسرائيلية عشرات من تلك الشقق منتشرة في جميع المدن الرئيسية في شتى أرجاء العالم، وهي إما مملوكة أو

مؤجرة بعقود إيجار لمدة طويلة، وكان العديد من الشقق يترك خالياً لفترات طويلة، بيد أنه كان يحتفظ بها جاهزة على الدوام لاستخدامها في أي لحظة حسب الحاجة لأي عملية، عندما وصل السيد موريس إلى تلك الشقة الواقعة في باريس في يونيو (حزيران) ١٩٩٧ لم يكن سبق لها أن شهدت إلا عملية واحدة، وكان السيد موريس يتحدث الفرنسية بطلاقة، وإن كانت تتخللها لكنة خفيفة تشبه طريقة أهل وسط أوروبا في الحديث، وهو واحد من عديدين شاهدهم الجيران يدخلون تلك الشقة، أكثرهم من الرجال وبعضهم من النساء بين حينٍ وآخر، ولكن كلا منهم - رجلاً كان أم امرأة - كان يصل إلى تلك الشقة دون إشعار أحد، ويقضي عدة أسابيع أو شهور بين ظهرانيهم ثم يختفي فجأة كما ظهر فجأة، ومثلما فعل كل من سبقوا السيد موريس في الإقامة في تلك الشقة، كان حريصاً بصورة تتسم باللياقة على عدم إثارة اهتمام الآخرين بأي تفاصيل عن شخصه أو عمله، كان موريس واحداً ممن يطلق عليهم اسم «كاتسا» Katsa (أي واحداً من أفراد الموساد الميدانيين).

ولم تكن لموريس أوصاف جسمانية تميزه بصورة لافتة للنظر، بل يمكن أن يقال أنه حتى لو سار في شارع خالٍ تماماً من المارة لكان من الممكن أن يسير دون أن يلحظ أحد وجوده تقريباً، وقد ألحقه الموساد بالخدمة عندما كان الموساد في ذروة قوته، وهي المرحلة التي كانت سمعة الموساد فيها لا تزال سليمة إلى حد كبير، وتم فرز موريس عندما كان يقضي مدة التجنيد الإجباري في القوات المسلحة الإسرائيلية، حيث أمضى فترة التدريب الأساسي أولاً ثم التحق بعد ذلك بمخابرات القوات الجوية كمجند، ونظراً لأنه كان يعرف الفرنسية والانجليزية والألمانية، كان من السهل ملاحظة تمتعه بالاستعداد اللغوي فضلاً عن تمتعه بقدرات أخرى، فقد كان يتمتع بمهارة الربط في

ما يضطلع به من دراسة الحالات واستنباط الحقائق من الظواهر المحيطة، وكان يدرك حدود ما يمكن أن يحققه الحدس المقترن بالمعرفة، وفوق ذلك كله كان يتمتع بملكة التعامل مع الآخرين، فكانت لديه القدرة على الإقناع والتدليل فإن فشل ذلك كله في تحقيق هدفه لجأ إلى التهديد، وبعد أن تخرج من مدرسة التدريب التابعة للموساد في عام ١٩٨٢، عمل في أوروبا وجنوب أفريقيا والشرق الأقصى، وكان طوال الوقت يعمل تارة تحت ساتر رجل أعمال، وأخرى تحت ساتر كاتب متخصص في أدب الرحلات، وثالثة تحت ساتر مندوب مبيعات. واستخدم أسماء وسير حياة مستعارة مأخوذة من مكتبة معلومات السواتر الموجودة لدى الموساد، وها هو الآن يحمل اسم موريس، ويتحرك مرة أخرى تحت ساتر رجل أعمال.

وخلال مدد عمله في مختلف المناطق كان يسمع عن حركات التطهير التي تتم في «المعهد»، وهو الاسم الذي يطلقه العاملون في الموساد عليه، وكان في ثنايا ذلك، يسمع عن شائعات تثير اليأس عن شخصيات انتهى بها الأمر إلى تدمير سمعتها وحياتها الوظيفية، وتغييرات على مستوى القيادات، ومع كل تغيير يأتي مدير جديد للموساد ليحدد أولويات مختلفة، ولكن لم يكن من بينهم من استطاع وقف التدهور الذي أصاب معنويات أفراد الجهاز.

وتزايدت حدة ذلك الوضع مع مجيء بنيامين نتنياهو إلى السلطة كأصغر رئيس وزراء في تاريخ إسرائيل، فبينما كان من المفترض في نتنياهو، كرجلٍ له خلفيته الطويلة في عالم المخابرات، معرفة طريقة سير الأمور داخل ذلك الجهاز، ومتى ينبغي له أن ينصت إلى ما يقال وإلى أي مدى ينبغي ان يذهب في قراراته، اذا به يفاجيء قدامى ضباط المخابرات بإقحام نفسه بصورة شديدة في تفاصيل العمليات.

في بداية الامر، كان تفسير الآخرين لهذا التدخل أنه يرجع إلى الحماس الزائد من «غربال جديد له شدة» ويريد أن يظهر للآخرين استعداده لفحص كل صغيرة وكبيرة، حتى لا تكون هناك أي أمور خافية عليه. إلا أن الامور أخذت منعطفاً يثير القلق عندما لم يكتف رئيس الوزراء بتخطي الزجاج العاكس إلى داخل المخابرات الإسرائيلية بل أرادت زوجته سارة أن تفعل ذات الشيء، فقد وجهت الدعوة إلى ضباط كبار في الموساد لزيارتها في منزلها والإجابة عن أسئلة تطرحها عليهم بزعم انها كانت تحذو حذو هيلاري كلينتون في اهتمامها بمتابعة شؤون وكالة المخابرات المركزية الأميركية.

وترددت في الدهاليز الخالية من أي معالم، بمقر رئاسة الموساد في تل ابيب اصداء الهمسات الممزوجة برائحة الفضيحة حول طلب سارة نتنياهو الاطلاع على ملفاتٍ تحتوي على معلوماتٍ عن التركيبات النفسية لمن ستقوم هي وزوجها باستقبالهم أو زيارتهم من قادة العالم. بل إنها طلبت على وجه الخصوص الاطلاع على تفاصيل أنشطة الرئيس بيل كلينتون مع الجنس الآخر. كما طلبت الاطلاع على ملفات من ستقيم بمساكنهم الرسمية من سفراء إسرائيل أثناء رحلاتها الخارجية، بدعوى أنها تريد أن تتأكد من نظافة مطابخهم ومعدل تغيير أغطية الأسرة في الأجنحة المخصصة للضيوف بمساكن أولئك السفراء.

ونظراً لاندهاش ضباط الموساد من طلبات زوجة رئيس الوزراء، فقد أوضحوا لها أن الحصول على مثل هذه المعلومات لا يدخل في نطاق التكليفات الصادرة لهم بجمع المعلومات.

وقد أزيح بعض القادة المخضرمين من المراكز الرئيسية في صلب عمل المخابرات وأسندت إليهم مسؤوليات عمليات محدودة لم

تكن تستلزم أكثر من إعداد دراسات وتقارير نادراً ما كان يعبأ أحد بقراءتها. ووجد هؤلاء أن مسار حياتهم الوظيفية تجمد فاستقالوا من وظائفهم وتبعثروا في شتى أنحاء إسرائيل يشغلون أوقاتهم بالقراءة، وخاصة في مجال التاريخ، في محاولة للتكيف مع كونهم أصبحوا الآن من رجال الماضي.

كل هذا جعل موريس يشعر بالسعادة بوجوده خارج تل أبيب وبعودته مرة أخرى إلى الميدان. فقد أتاحت له العملية التي جاء من أجلها إلى باريس فرصة جديدة ليبرهن فيها على دقة أدائه كعميل وقدرته على تنفيذ ما يوكل إليه من مهام. وكانت مهمته هذه المرة سهلة نسبياً، فلم يكن يواجه فيها خطراً حقيقياً على حياته، بل كان ما يواجهه هذه المرة مجرد المخاطرة بحدوث حرج إذا اكتشفت السلطات الفرنسية حقيقة مهمته وبادرت بترحيله من أراضيها في هدوء. أما السفير الإسرائيلي في باريس فقد كان على علم بوجود موريس فيها، لكنه لم يكن على علم بسبب وجوده. وكان ذلك من القواعد المتعارف عليها في العمليات، لأن ذلك يجعل من الممكن للسفير أن يدعي عدم العلم بأي شيء إذا ما سارت الأمور على غير ما يرجى لها.

كانت المهمة الموكلة إلى موريس تتمثل في تجنيد أحد المرشدين، وهي عملية تعرف في اللغة المتعارف عليها داخل الموساد باسم «الاقتراب البارد»، ويقصد بذلك استمالة مواطن أجنبي. وبعد شهرين من العمل في صبر، أيقن موريس أنه على وشك النجاح في مهمته.

كان الهدف من هذه العملية شخصاً يدعي هنري بول، وكان يعمل مساعداً لمدير الأمن بفندق «ريتز» بالعاصمة الفرنسية، وكسائق للمشاهير من ضيوف الفندق.

وكان من بين أولئك المشاهير جوناثان إيتكين الوزير في آخر حكومة شكلها حزب المحافظين في بريطانيا. وكان إيتكين سبق له أن اضطلع بمسؤوليات خاصة تتمثل في تنسيق بيع السلاح وأنشأ شبكة اتصالات مع عدد من تجار الأسلحة من بلدان في منطقة الشرق الأوسط وأدى ذلك إلى مناقشة التلفزيون البريطاني لهذه القضية في تحقيق تلفزيوني في برنامج World in Action. ونشرت صحيفة «الغارديان» البريطانية تقارير عن صلات إيتكين بأشخاص ليس من المتعارف عليه وجودهم بصحبة وزراء في الحكومة البريطانية، الأمر الذي تسبب نشرها في أضرار بالغة. ورفع إيتكين دعوى قذف بات مصيرها متوقفاً على تحديد من قام بدفع تكاليف إقامته بفندق «ريتز» للاجتماع مع بعض من يتصل بهم من العرب. وأمام المحكمة شهدَ إيتكين - بعد أداء اليمين - بأن زوجته هي التي قامت بدفع حساب إقامته بالفندق.

لكن الموساد أبلغ - عن طريق طرف ثالث - مخبرين يعملون لصالح التلفزيون والصحيفة المدعى عليهما في القضية بأن زوجة إيتكين لم تكن في باريس، الأمر الذي أدى إلى خسارة الدعوى. ونجح الموساد بذلك من الناحية الفعلية في تدمير إيتكين الذي طالما اعتبر الموساد أنشطته بمثابة خطر على إسرائيل. لكن فندق «ريتز» ظل نقطة لقاء لسماسرة السلاح من الشرق الأوسط والمتعاملين معهم من الأوروبيين.

قرر الموساد أن يكون له مرشد داخل فندق «ريتز» يستطيع الإبلاغ عن أنشطة هؤلاء. وبدأت أولى خطوات تلك المهمة بالحصول على قائمة بأسماء العاملين في الفندق. عن طريق اختراق شبكة الكمبيوتر في الفندق، واتضح من مراجعتها أنه لم يكن من المحتمل إمكان التقاط أحد كبار مديري الفندق للقيام بهذه المهمة. لكن صغار

العاملين من جهة أخرى، لم يكن في إمكانهم الوصول إلى جميع ضيوف الفندق على نحو يخدم المهمة المطلوبة، فيما عدا هنري بول، الذي كانت مسؤوليته عن الأمن تعني أن كل نقطة في الفندق مفتوحة أمامه. أما مفتاحه المشفر فكان صالحاً حتى لفتح خزانات المحفوظات الشخصية القيمة لضيوف الفندق وبالتالي لن تكون هناك أي تساؤلات تطرح على هنري بول إذا ما طلب نسخة من فاتورة إقامة أحد النزلاء. ولن يدهش أحد إذا ما جاء إليه هنري بول طالباً قائمة المكالمات التي تجري من وإلى الفندق مما يتيح له الحصول على تفاصيل المكالمات التي تجري بين تجار السلاح والمتعاملين معهم. وسيعرف أي امرأة استعان بها واحد من هؤلاء التجار لكي تكون نقطة اتصال غير لافتة للأنظار. وباعتباره يتولى مهام السائق لكبار الشخصيات من نزلاء الفندق، سيمكنه ذلك تماماً من التنصت على محادثات تلك الشخصيات، ومراقبة سلوكها، ومتابعة تحركاتها ومقابلاتها.

كانت المرحلة التالية المطلوبة هي تجميع ملف كامل عن الصفات النفسية والمزاجية لهنري بول. وعلى امتداد عدة أسابيع تمكن أحد أفراد الموساد الميدانيين (الكاتسا) المتمركزين في باريس من كشف النقاب عن معلومات تتعلق بخلفية هنري بول، مستخدماً في ذلك عدداً من السواتر، منها التحرك تارة تحت ساتر مندوب شركة تأمين، والتحرك تارة أخرى كمندوب مبيعات لإحدى شركات التليفونات. وبهذه الطريقة استطاع معرفة أن هنري بول غير متزوج وليست لديه صداقات نسائية دائمة. ويقيم في شقة استأجرها بإيجار متواضع ويقود سيارة سوداء من طراز «ميني». لكنه كان ولعاً بالسيارات السريعة ودراجات السباق النارية التي كان يمتلك واحداً منها بالمشاركة مع آخرين. ومن بين ما يذكره زملاؤه من العاملين في الفندق، أنه يحب تناول الخمر بين

الحين والآخر، بل كانت هناك تلميحات إلى أنه كان يشاهد من وقت لآخر، مع واحدة من فتيات الليل معروفة بالتردد على بعض نزلاء الفندق وتتقاضى منهم مبالغ طائلة لقاء ذلك.

تولى طبيب نفسي بالموساد تقييم تلك المعلومات، واستخلص منها أن شخصية هنري بول بها نقطة ضعف كامنة. ومن ثم أوصى باستمرار الضغط بهدوء على هنري بول على أن يقترن ذلك بوعد بمكافأة مالية كبيرة لتمكينه من الإنفاق على متطلبات علاقاته الاجتماعية. وكان رأى الطبيب النفسي بالموساد، أن ذلك هو أفضل سبيل للوصول إلى تجنيد هنري بول، ولأن عملية التجنيد يمكن أن تستغرق وقتاً طويلاً وتتطلب صبراً بالغاً ومهارة، تقرر إيفاد موريس إلى باريس لهذه المهمة عوضاً عن الاستمرار في الاعتماد على رجل الموساد (الكاتسا) المقيم في باريس.

وسار موريس في تنفيذه لهذه العملية على نفس المنهاج المجّرب المتعارف عليه في العديد من العمليات المماثلة التي سبق للموساد القيام بها. فقد زار أولاً فندق «ريتز» والأماكن المحيطة عدة مرات حتى يألف المكان وما حوله. وتمكن بعد وقت قصير من تحديد هنري بول من أوصافه. حيث كان قوي البنية، ذا هزة خفيفة في مشيته تكشف عن عدم اهتمامه بآراء الآخرين فيه.

ولاحظ موريس تلك العلاقة الغريبة بين هنري بول ومصوري المشاهير الذين لم يكونوا يبارحون مدخل الفندق. والذين كانت نظراتهم مركزة دائماً على التقاط صور لكل ضيف من ضيوف الفندق تظهر عليه سمة الثراء أو الشهرة على نحو يجعله محطاً لاهتمام القراء. ولاحظ موريس أن هنري بول كان يطلب من المصورين من حين لآخر

مغادرة المكان وأنهم كانوا ينصاعون لإرادته عادة بالالتفاف حول مبنى الفندق بدراجاتهم النارية ثم يعودون إلى مكانهم المعتاد عند مدخل الفندق بعد قليل. وفي غضون هذه الالتفافة القصيرة كان هنري بول في بعض الأحيان يخرج إليهم من الباب الخلفي المخصص لدخول وخروج العاملين بالفندق لكي يدخل معهم في مزاح ودي وهم يمرون أمامه.

أما في الليل فقد لاحظ موريس أن هنري بول كان يجلس للشراب مع عدد منهم في إحدى الحانات القريبة من الفندق اعتاد ارتيادها مع زملائه بعد انتهاء ساعات العمل.

وقد أشار موريس في تقاريره التي كان يرسلها إلى تل أبيب عن سير مهمته، إلى قدرة هنري بول على تعاطي كميات كبيرة من الخمر دون أن يفقد اتزانه على الإطلاق. وأكد في تلك التقارير أن صلاحية هنري بول للقيام بدور المرشد تبرر التغاضي عن عاداته الشخصية. فقد كان من الواضح اطلاعه على كل ما هو مطلوب بصورة جوهرية، وأنه يحتل موقعاً يتمتع من يشغله بثقة عالية من رؤسائه. غير أن موريس اكتشف في مرحلة من مراحل مراقبته الهادئة لتحركات هنري بول أنه كان يخون تلك الثقة. فقد كان يتلقى رشاوي من مصوري المشاهير لقاء حصولهم منه على تفاصيل عن تحركات ضيوف الفندق حتى يتمكنوا من التقاط صور للمشاهير منهم.

كانت مقايضته تلك المعلومات بالنقود تتم إما في إحدى الحانات أو في شارع «كامبون» الضيق، حيث يوجد المدخل الخلفي المخصص للعاملين بالفندق. بحلول منتصف شهر أغسطس (آب) كان الموضوع الذي تمت حوله مقايضة من هذا النوع هو توقع وصول ديانا أميرة

ويلز وحبيبها الجديد «دودي الفايد» ابن مالك الفندق للإقامة في «الجناح الإمبراطوري» الذي كان وصفه أقرب ما يكون إلى الأساطير.

مع اقتراب تاريخ وصول ديانا إلى فندق «ريتز»، تلقى جميع العاملين في الفندق تعليمات صارمة بالحفاظ على سرية التفاصيل الخاصة بوصول ديانا وإلا واجهوا عقوبة الفصل من العمل فوراً. ورغم ذلك استمر هنري بول يخاطر بوظيفته حيث واصل تزويد عدة مصورين منهم بتفاصيل تلك الزيارة الوشيكة مقابل تلقي المزيد من المال.

لاحظ موريس كذلك، أن هنري بول بدأ يسرف في تعاطي الخمر. كما علم وهو يسترق السمع متنصتاً على ما يجري بين موظفي الفندق من حوار، أنهم يشكون من نزوعه الزائد إلى الصرامة في تطبيق التعليمات. إذ فصل أخيراً - بوصفه مساعداً لمدير أمن الفندق - إحدى العاملات في خدمة الغرف من وظيفتها لأنها ضبطت تسرق قطعة صابون من غرفة نوم أحد النزلاء. وتردد على ألسنة العديد من موظفي الفندق أن هنري بول أصبح يتعاطى بعض الأقراص المخدرة، وأصبح من المشكوك فيه تحمل المزيد من حالاته المزاجية المتقلبة. واتفقت آراء جميع من حوله من العاملين على أن سلوكه لم يعد من الممكن التنبؤ به، فتارة يبدو معتدل المزاج وأخرى تكاد أعصابه تنفلت بسبب هفوة تصور هو - مجرد تصور - أنها حدثت.

عندئذٍ أدرك موريس أن الوقت قد حان لكي يبدأ التحرك المطلوب.

تم أول اتصال بين موريس وهنري بول في حانة «هاري» بشارع «دونو». فعندما كانت قدما هنري بول تخطوان به إلى داخل الحانة، كان موريس يرشف رشفات من قدح كوكتيل أمامه، فما كان منه سوى أن دخل مع هنري في حوار يبدو عابراً. وبعد أن ذكر موريس في مرحلة

لاحقة من ذلك الحوار أن بعض أصدقائه يقيمون في فندق «ريتز»، وجد هنري بول نفسه يقبل دعوة موريس له لتناول كاس من الشراب، ثم أضاف موريس أثناء الحوار أن أصدقائه أولئك كانوا يتساءلون عن السر وراء كون العديد من ضيوف الفندق من العرب الأثرياء. وحتى لو سلمنا جدلاً أن طرح التساؤل على هذا النحو تم بالمصادفة، فقد أدى هذا السؤال إلى نتيجة لا بأس بها، إذ ذكر أن العديد من أولئك العرب يتصفون بالوقاحة والصلف ويتوقعون منه أن ينتفض واقفاً كلما أشار أحدهم إليه بإصبعه. ورد موريس تعقيباً على ذلك بأنه سمع أن ضيوف الفندق من اليهود ليسوا أفضل حالاً من العرب، فاعترض هنري بول على ذلك الوصف، مؤكداً أن ضيوف الفندق من اليهود أناس ممتازون.

بهذه البداية الواعدة، ختم موريس تلك الأمسية بعد أن رتب مع هنري بول للقاء مرة أخرى بعد بضعة أيام على العشاء في مطعم بالقرب من فندق ريتز. وأثناء الجلوس إلى مائدة الطعام في ذلك اللقاء الثاني، أكدت إجابات هنري بول على أسئلة موريس المرتبة بعناية من حيث توقيتها، ما كان لدى رجل الموساد الميداني من معلومات. فقد تحدث هنري بول عن ولعه بالسيارات السريعة وحبه لقيادة الطائرات الصغيرة، مع عدم قدرته على التمتع بتلك الهوايات اعتماداً على راتبه.

ربما كانت تلك اللحظة بالذات هي أنسب اللحظات التي بدأ فيها موريس يمارس ضغطه على هنري بول. فتدبير المال للإنفاق على هوايات من ذلك النوع مشكلة كبيرة دائماً، لكنها لا تستعصي على الحل. وهذا أمر سيثير اهتمام هنري بول على وجه اليقين.

كان هناك إيقاع تلقائي خاص سارت عليه التطورات اللاحقة، فموريس يلقي بالطعم وهنري بول متلهف دائماً على التقاطه وابتلاعه.

وعندما يبتلع هنري بول صنارة الصياد مع الطعم سيبدأ موريس في لف الخيط وجذبه بكل ما تعلمه من مهارات في مدرسة التدريب التابعة للموساد.

عند منعطف ما وسط هذه التطورات، ربما طرح موريس على هنري بول فكرة إمكان تقديم المساعدة له. وربما ذكر له أنه يعمل لدى شركة تسعى منذ فترة طويلة لتحديث قاعدة بياناتها وأنها ستدفع مبالغ جيدة لمن يساعدها في ذلك، وكان هذا النوع من التحرك ـ المشابه للخطوة الأولى في لعبة الشطرنج ـ هو التحرك المفضل لدى أفراد الموساد المكلفين بتجنيد آخرين في عمليات «الاقتراب البارد» هذه. وبعد هذه الخطوة سيصبح من السهل إفهام هنري بول أن العديد من ضيوف فندق «ريتز» لديهم ـ بدون شك ـ ما ترغب الشركة في الحصول عليه من معلومات.

ماذا لو أحس هنري بول بالقلق إزاء ذلك المنعطف في الحوار بحيث يضطر للتراجع؟ كان على موريس ـ إذا ما حدث ذلك ـ أن ينتقل إلى المرحلة التالية، بأنه وإن كان يتفهم تحفظات هنري بول إلا أن تلك التحفظات تعتبر مفاجأة له، فالسر المكشوف بين المحيطين هو أن هنري بول يتلقى بالفعل مبالغ من المصورين لقاء ما يمدهم به من معلومات، فلماذا يأتي هنري بول الآن ليرفض اغتنام فرصة تعود عليه بمبلغ لا يستهان به؟.

ربما استخدم موريس مهارته المؤكدة في طرح عرض على هنري بول مقروناً بالكشف عما لديه من معلومات عن خلفيته وذلك بمزيج من مغريات الحياة والإقناع مع شيء من الضغط غير السافر. وربما أحدث ذلك التأثير المطلوب على هنري بول. كان لا بد أن يدرك هنري بول ـ

دون سؤال أو جواب - أن الرجل الجالس أمامه على مائدة العشاء كان ضابطاً من ضباط أحد أجهزة المخابرات أو على الأقل شخصاً يتولى التجنيد لصالح جهاز من تلك الأجهزة.

ولعل ذلك يفسر رد فعله. فقد ورد على لسان مصدر بالمخابرات الإسرائيلية كان على علم بذلك الموضوع ما يلي: «جاء رد فعل هنري بول سافراً ومباشراً: إذ سأل عما إذا كان المطلوب منه أن يصبح جاسوساً. وإذا كان الأمر كذلك فما هو المقابل؟ هكذا دون مواربة ودون تردد أو كلام لا طائل من ورائه. كان كل ما سأل عنه هو المقابل في تلك الصفقة و (لحساب من سيعمل). كانت هذه هي النقطة التي وضعت موريس أمام قرار بتحديد ما يجب أن يرد به على ذلك السؤال. هل أخبره موريس بأنه سيعمل لصالح الموساد؟ إن ذلك يخرج عن القواعد الأساسية المعمول بها في مثل هذه الحالة. وكل هدف له أوضاع تعامل مختلفة. لكن هنري بول كان قد وقع في الفخ بالفعل». إذا كان الأمر كذلك، فلعل موريس أخبره بما سيكون مطلوباً منه، وهو الحصول على معلومات عن ضيوف الفندق. وربما دس أجهزة للتنصت في أجنحتهم، وتدوين معلومات عمن يستقبلون في الفندق. ومن المؤكد وقوع مناقشات بين موريس وهنري بول عن المقابل المالي، وعرض من موريس بفتح حساب لهنري بول في أحد المصارف السويسرية أو الدفع له نقداً إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ومن المؤكد أن موريس أعطى الانطباع بأن مثل هذه الأمور لا تمثل مشكلة. وعند ذلك المنعطف من الحوار ربما وصل موريس إلى الإفصاح لهنري بول عن أنه سيعمل لصالح الموساد. كل هذه الخطوات متعارف عليها في قواعد إتمام عملية ناجحة من عمليات «الاقتراب البارد». وربما راود الخوف الشديد هنري بول مما كان مطلوباً. ولم تكن المشكلة بالنسبة له مشكلة ولاء أو عدم

ولاء لفندق «ريتز»، فعلاقته بالفندق ـ شأن علاقة سائر العاملين به ـ كانت علاقة عمل تقترن براتب عالٍ نسبياً ومجموعة من المزايا الإضافية. لكن مبعث الخوف البالغ ـ والمبرر كذلك ـ لدى هنري بول أنه كان مقدماً على عمل مجنون ربما يؤدي به إلى السجن إذا ما ضبط وهو يتجسس على ضيوف الفندق.

ومع ذلك فلنفترض أنه أبلغ الشرطة، فماذا سيكون رد فعلها؟ ربما تعرف الشرطة بالفعل أنه تلقى عرضاً بالعمل كجاسوس. أماإذا رفض ذلك العرض، فما الذي سيحدث عندئذ؟ وإذا علمت إدارة الفندق أنه فرط في أغلى ما منحه إياه فندق «ريتز» وهو الثقة، بتزويد مصوري المشاهير بمعلومات سرية، فقد يفصل من عمله بل وربما يقدم للمحاكمة.

وبدا لهنري بول في تلك الأيام الأخيرة من شهر أغسطس عام ١٩٩٧ أن جميع المسالك باتت مسدودة، فبدأ يسرف في الشراب وتعاطي الأقراص المخدرة، الأمر الذي جعله يعاني من الأرق أثناء النوم ويعامل مرؤوسيه بخشونة، وأصبح إنساناً يترنح قرب حافة الهاوية.

وواصل موريس الضغط من جانبه. وكثيراً ما كان يلح في الوجود في حانة كان هنري بول يتناول فيها الشراب في غير ساعات عمله. فكان مجرد وجود رجل الموساد الميداني في الحانة يذكر هنري بول من جديد بأنه تحت الضغط لكي يفعل ما هو مطلوب منه.

واستمر موريس في التردد على فندق «ريتز» يتناول شراباً في إحدى حانات الفندق أو يتناول طعام الغداء في أحد مطاعمه، أو يحتسي قهوة المساء في إحدى ردهاته. ولا بد أن الأمر بدا لهنري بول كما لو كان موريس أضحى كظله لا يفارقه، الأمر الذي لن يكون من شأنه إلا

زيادة إحساسه بأنه واقع تحت الضغط، وتذكيره دائماً بأن أبواب الهرب أمامه باتت جميعها موصدة. وزاد من وقع الضغط على هنري بول أن موعد مجيء الأميرة ديانا ودودي الفايد إلى الفندق بات وشيكاً. وتلقى تكليفاً بأن يكون مسؤولاً عن أمنهما أثناء مدة إقامتهما في الفندق، مع تحميله على وجه الخصوص مسؤولية إبعاد المصورين عنهما. وفي الوقت ذاته كان يتلقى على هاتفه الجوال مكالمات المصورين يطلبون فيها معلومات عن تلك الزيارة. وكان يتلقى أثناء تلك المكالمات عروضاً بمبالغ مالية كبيرة لقاء تقديم تفاصيل تلك الزيارة. فجاء إغراء قبول تلك العروض بمثابة ضغط جديد عليه، وكلما أدار رأسه بعيداً بدا له أن هناك ضغطاً عليه لا محالة. وعلى الرغم من أن هنري بول أفلح في التظاهر بالهدوء، لكنه بدا في واقع الأمر يفقد اتزانه العقلي. وأخذ يتناول عقاقير مضادة للاكتئاب، وأقراصاً منومة للتغلب على الأرق ليلاً، ثم أقراصاً منبهة ليستطيع ممارسة نشاطه نهاراً. وكانت النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إليها تلك التوليفة من العقاقير هي تراجع قدرته على تقدير الأمور تقديراً صائباً.

كان الوميض الذي أضاء على الهاتف وأيقظ موريس ـ للتنبيه إلى ورود مكالمة هاتفية ـ مضبوطاً توقيته بواسطة جهاز تسجيل على الساعة الواحدة وثمان وخمسين دقيقة قبل فجر يوم الأحد ١٣ أغسطس ١٩٩٧. كان المتحدث على الطرف الآخر أحد أفراد وحدة الحوادث بشرطة باريس، ممن جندهم الموساد للعمل لصالحة منذ بضع سنوات. وتصنيفه في قواعد بيانات الموساد أنه «مابواه» ـ مرشد غير يهودي ـ وكان ترتيبه بين مصادر موريس في باريس متواضعاً للغاية.

ومع ذلك فإن الخبر الذي نقله ذلك الرجل إلى موريس عن وقوع حادث سيارة أصاب الأخير بالذهول. فلم تكن مضت ساعة واحدة على

وقوعه، وهو اصطدام سيارة سيّدان من طراز مرسيدس، بأحد أعمدة الخرسانة المسلحة على جانب الطريق المتجه غرباً في النفق المار أسفل ميدان «ألما» وهي نقطة معروفة بكثرة حوادثها في مدينة باريس.

وكان ضحايا الحادث الذين لقوا مصرعهم فيه هم: ديانا أميرة ويلز وأم ملك انجلترا القادم، ودودي الفايد ابن محمد الفايد المصري الأصل، الذي يمتلك محلات هاردوز بحي نايتسبريدج في لندن التي يطلق عليها عبارة المتجر «الملكي»، وهنري بول. أما الحارس الشخصي لديانا ودودي الفايد فقد أصيب بإصابات بالغة.

وبعد ساعات من وقوع الحادث كان موريس على متن إحدى الطائرات عائداً إلى تل أبيب تاركاً وراءه أسئلة مثيرة ستبقى بلا إجابة.

فما هو الدور الذي لعبه «الضغط» من جانبه في ذلك الحادث؟ وهل فقد هنري بول السيطرة على السيارة المرسيدس، الأمر الذي جعلها ترتطم بعمود الخرسانة المسلحة المشؤوم في النفق المار أسفل ميدان «ألما» لأنه لم يجد مفراً من مخالب الموساد؟ وهل كانت هناك علاقة تربط بين ذلك الضغط وبين تناول جرعات زائدة من العقاقير المخدرة التي كان يتناولها بناءً على توصية طبية ووجدت آثارها في دمه عند تحليله؟ وهل كان ذهنه لا يزال يبحث عن مخرج من هذا الضغط عندما غادر فندق «ريتز» ومعه الركاب الثلاثة في السيارة؟ ألم يقم هنري بول بدور يتعدى بكثير مجرد التسبب في حادث سير مروع وأنه كان علاوة على ذلك ضحية لجهاز من أجهزة المخابرات لا يقيم للرحمة وزناً؟.

كذلك كانت هناك أسئلة لا تزال حائرة في ذهن محمد الفايد، ففي فبراير ١٩٩٨ أدلى بتصريح قال فيه «لم يكن الأمر مجرد حادث، وأنا مقتنع بذلك تمام الاقتناع، ولن تظل الحقيقة خافية إلى الأبد».

وبعد ذلك بخمسة أشهر، عرضت شبكة تلفزيون آي تي في ITV المستقلة البريطانية برنامجاً تسجيلياً تضمّن إدّعاء أن هنري بول كان على علاقة وثيقة بالمخابرات الفرنسية. ولكن هنري بول لم يكن أبداً على علاقة بذلك الجهاز، وألمح البرنامج كذلك إلى أن أحد أجهزة المخابرات ـ دون ذكر اسمه صراحة ـ كان ضالعاً في مصرع أولئك الضحايا. وكانت هناك إيماءات خبيثة إلى أن ذلك الجهاز أقدم على ذلك التصرف، لأن الجهات العليا في بريطانيا كانت تخشى أن يؤدي حب ديانا لدودي إلى مضاعفات سياسية «بسبب كونه مصرياً».

وحتى الآن لا يزال دور الموساد مع هنري بول واحداً من الأسرار الدفينة. وهذا هو ما حرص عليه ذلك الجهاز منذ البداية، إذ أن دور الموساد في هذا الموضوع لم يأت بناءً على إيعاز من أي طرف خارج إسرائيل. بل نكاد لا نجد شخصاً خارج الموساد لديه أي فكرة عن دور ذلك الجهاز في مصرع من كانت في تلك الأيام أشهر امرأة في العالم.

أما محمد الفايد فقد تأثر بما اعتبره حملة تشهير ضده في وسائل الإعلام الإنجليزية. ومن ثم استمر في ادعائه بأن أجهزة أمن لم يعينها بالاسم نفذت مؤامرة ضد ابنه وديانا. ففي يوليو ١٩٩٨ نشر صحافيان يعملان بمجلة «تايم» الأميركية كتاباً تضمن إيماءة إلى أن هنري بول ربما كان على علاقة بالمخابرات الفرنسية. ولم يرد على لسان الفايد ولا على لسان الصحافيين مؤلفي الكتاب ما يقطع بأن هنري بول كان فرداً من أفراد جهاز للمخابرات أو حتى مرشداً له. ولم يشر أي منهم من قريب أو بعيد إلى وجود علاقة بينه وبين الموساد.

وفي يوليو ١٩٩٨ أيضاً أعد محمد الفايد رسالة أرسلت إلى كل عضو من أعضاء البرلمان البريطاني، تضمنت مجموعة من الأسئلة طلب

إليهم طرحها في مجلس العموم. وادعى في تلك الرسالة أن «هناك قوة تعمل من أجل الحيلولة دون حصولي على إجابات عن تلك الأسئلة». ورأى البعض في تصرفه هذا رد فعل أب حزين يوجه ضرباته عشوائياً في كل اتجاه. أما ما طرحه الفايد من أسئلة فهي تستحق إعادة طرحها هنا، ليس لأنها تلقي أي ضوء على الدور الذي لعبه الموساد في الأسابيع الأخيرة من حياة هنري بول قبيل نهايتها، بل لأنها توضح كيف أن المأساة برمتها اكتسبت الآن قوة دفع لا يمكن وقفها إلا بمعرفة الحقيقة. لقد تحدث الفايد عن «مؤامرة» للتخلص من ديانا ومن ابنه. وحاول أن يربط بين أسئلته وبين أحداث شتى لا رابط بينها حيث قال:

«لماذا ظلت الأميرة ساعة وأربعين دقيقة قبل نقلها للمستشفى؟ ولماذا لم يسلم بعض المصورين بعض الصور التي التقطوها؟ ولماذا جرى في نفس الليلة اقتحام مسكن في لندن يقطنه واحد من المصورين الذي يتعاملون في الصور التي يلتقطها مصورو المشاهير؟ ولماذا لم يتم استخراج صوره واحدة من أي من الدوائر التلفزيونية المغلقة التي تراقب هذا القطاع من مدينة باريس؟ ولماذا كانت كاميرات رصد السرعة على الطريق الذي مرت به السيارة خالية من الأفلام وكاميرات مراقبة حركة المرور مغلقة؟ ولماذا لم يتم الإبقاء على مسرح الحادث كما هو وأعيد فتحه لحركة المرور بعد بضع ساعات؟ ومن هو ذلك الشخص الذي كان بين مجموعة الصحافيين خارج فندق «ريتز» ويحمل معدات مماثلة لمعدات مصوري الصحف؟ ومن هما الشخصان المجهولان اللذان كانا مندسين وسط الزحام ثم ظهرا بعد ذلك جالسين في حانة فندق «ريتز»؟ وقدما طلباتهما بالانجليزية وكانا يراقبان ما يدور وينصتان إلى ما يقال من حولهما باهتمام ظاهر؟.

لم تكن العلاقة بين ديانا ودودي تهم الموساد في شيء. وكل ما

كان يهم الموساد هو تجنيد هنري بول كمرشد في فندق «ريتز». أما في ما يتعلق بالمصور الصحافي الغامض فيمكننا القول أن الموساد سبق أن سمح لأفراده بالتحرك تحت ساتر صحافي، وربما كان ذلك الشخص هو موريس، حيث كان يراقب الوضع خارج الفندق. وربما كان الرجلان المجهولان الجالسين في حانة الفندق على علاقة ما بالموساد، وإذا صدق ذلك فلا شك أنه سيكون مبعثاً على شعور محمد الفايد بالارتياح.

انتاب بعض زملاء موريس شعور متزايد منذ ذلك الحين بأن محاولة الإيقاع بهنري بول في الفخ جاءت دليلاً جديداً على تخطي الموساد لحدود ما ينبغي التوقف عنده، حيث أصبح ينفذ عمليات دولية متهورة لا يراعي فيها العواقب طويلة الأمد عليه كجهاز، وعلى إسرائيل، وعلى السلام في الشرق الأوسط وكذلك ـ في خاتمة المطاف ـ على العلاقة مع أقدم وأوثق حلفاء الدولة اليهودية، ونعني بذلك الولايات المتحدة الأميركية. وادعى بعض أفراد الموساد أن الأمور في هذا الصدد ازدادت سوءاً منذ وصول بنيامين نتنياهو لمنصب رئيس الوزراء في عام ١٩٩٦.

وعلق واحد من الأعضاء المخضرمين في دوائر المخابرات الإسرائيلية على ذلك الوضع بقوله «إن الناس في الغالب ينظرون إلى من يعملون في الموساد على أنهم مجرمون يختفون خلف قناع الوطنية. وهذا أمر له أثر سيىء علينا وعلى حالتنا المعنوية وسيكون له أثره السيىء في نهاية المطاف ـ على علاقة الموساد بأجهزة أخرى».

وجاءت عبارات شخص آخر من قدامى ضباط المخابرات الإسرائيلية مماثلة في صراحتها حيث قال «يتصرف نتنياهو كما لو كان الموساد جزءاً من الطريقة التي يريد عن طريقها محاكاة بلاط الملك آثر،

حيث لا بد من وجود شيء جديد يدخل السرور على قلوب فرسان المائدة المستديرة لئلا يشعروا بالملل. ولهذا اضطربت أوضاع الموساد بصورة شديدة، ولا بد من دق ناقوس الخطر قبل فوات الأوان».

كان أول درس تعلمته خلال ربع قرن قضيتها في الكتابة عن أجهزة المخابرات أن الخداع والتضليل والتخريب والإفساد والابتزاز بل والاغتيال أحياناً، تستخدم في هذا المجال يومياً. فالأفراد العاملون في أجهزة المخابرات يتم تدريبهم على الكذب وعلى استخدام الصداقات بأساليب نظيفة وغير نظيفة على السواء. فهم يتصرفون بصورة معاكسة تماماً للقول المأثور القائل بأن «الرجل الفاضل لا يطلع على خطابات غيره». كانت أول مرة تعاملت فيها وجهاً لوجه مع سلوك رجال المخابرات عندما كنت أجمع معلومات عن العديد من فضائح التجسس الكبرى التي شهدتها سنوات الحرب الباردة مثل: تسريب كلاوس فوكس أسرار قنبلة أميركا النووية، وتسريب ثلاثة هم جي بيرجس، ودونالد ماكلين، وكيم فيلبي لأسرار عن جهازي المخابرات البريطانيين «MI-5 و MI-6». إذ أن كلا من هؤلاء كان شعاره في الحياة هو الخيانة والتضليل. كذلك كنت ـ من ناحية أخرى ـ واحداً من أوائل من أتيح لهم الاطلاع عن قرب على هوس المخابرات المركزية الأميركية بالسعي إلى السيطرة على العقول، وهو شاغل من شواغلها اضطرت هي نفسها إلى الاعتراف به بعد عشر سنوات من ظهور كتابي «رحلة في عالم الجنون Journey into Madness عن هذا الموضوع. ذلك أن الإنكار حيلة شيطانية طالما احترفتها جميع أجهزة المخابرات.

ومع ذلك، فخلال رحلتي للبحث عن الحقيقة، لقيت مساعدة جمة من اثنين من ضباط المخابرات المحترفين أولهما يواكييم كرينر، وهو والد زوجتي. وكانت مهمته في السنوات التالية لنهاية الحرب العالمية

الثانية قيادة إحدى شبكات جهاز MI-6 في مدينة درسدن الالمانية. وثانيهما بيل باكلي، الذي عمل من قبل رئيساً لمحطة المخابرات المركزية الأميركية في بيروت. وكانت بين الإثنين أوجه تشابه عديدة، فكلاهما كان طويلاً وتحيف القامة وسيماً، تظهر عليه سمة التحفز الدائم لمقابلة الصعاب. ولم تكن نظرات أي منهما من النوع الذي يفصح عن أي شيء بداخله اللهم إلا رسالة إليك حين تقابل أياً منهما فحواها الشك الدائم. أما سماتهما الفكرية فكان جوهرها الصلابة، الأمر الذي جعل كلا منهما يوجه النقد بلا تحفظ إلى الأجهزة التي عمل فيها.

كان كل منهما يذكرني طوال الوقت بإمكانية الحصول على الكثير والكثير مما كان بيل يسميه «تمتمات الاستياء بعبارات رخيصة»: كان يتعلق الأمر بمواجهة فاصلة بين شخصين في أحد الشوارع الجانبية المهجورة، أو يتعلق بوقوف الجهاز كله على أعصابه عند انكشاف أحد أفراده أو إحدى شبكاته. أو التورط في عملية سرية يمكن أن تضيع سنوات وسنوات من جهود بناء الجسور السياسية. أو الحصول على معلومة بسيطة من نوع لا يسترعي النظر لكنها تكمل خيوط ملف ما من ملفات المخابرات، وكان يواكييم يضيف إلى ذلك في بعض الأوقات قوله: في بعض الأحيان ربما يتطوع شخص بالتفوه ببعض كلمات بصورة عفوية لكنها قد تلقي ضوءاً جديداً على موضوع ما.

ونظراً لاعتزاز الإثنين بالانتماء إلى ما أسماه يواكييم «ثاني أقدم مهنة في التاريخ». لم تكن علاقتي بهم علاقة صداقة فحسب وإنما اقتنعت على أيديهما بأن العمل السري للمخابرات هو السبيل لفهم العلاقات الدولية والسياسية العالمية والدبلوماسية فهماً كاملاً ـ بل وكذلك ـ بطبيعة الحال ـ فهم ظاهرة الإرهاب فهماً كاملاً. وعن طريقهما أمكنني إقامة شبكة علاقات مع عدد من أجهزة المخابرات المدنية

والعسكرية وهي: هيئة المخابرات الاتحادية الألمانية BND، والإدارة العامة للأمن الخارجي الفرنسية DGSE، ووكالة المخابرات المركزية الأميركية، وجهازي المخابرات الكندي والبريطاني.

توفي يواكييم بعد تقاعده من الخدمة، أما بيل فقد لقي مصرعه على أيدي بعض الأصوليين الإسلاميين الذين اختطفوه في بيروت وتسببوا في أحداث أزمة الرهائن الغربيين في العاصمة اللبنانية.

كذلك التقيت ببعض أعضاء دوائر المخابرات الإسرائيلية الذين أمدوني في البداية بملفات عن خلفية محمد علي آغا، المتطرف التركي الذي حاول اغتيال البابا يوحنا بولس الثاني. ورتب تلك الاتصالات شيمون فيزنتال صائد النازيين الشهير، الذي عمل «كمصدر» بالغ الأهمية لدى الموساد على مدى أكثر من أربعين عاماً. ونظراً لشهرة فيزنتال وسمعته، لا يزال يجد الأبواب مفتوحة أمامه بكل ترحاب لا سيما في واشنطن.

وخلال وجودي في واشنطن في مارس عام ١٩٨٦ م علمت ببعض التفاصيل عن تأزم العلاقة بين دوائر المخابرات الأميركية والإسرائيلية. فقد كنت في تلك الآونة في زيارة للعاصمة الأميركية لإجراء حوار مع ويليام كيسي، مدير وكالة المخابرات المركزية الأميركية آنذاك، كجزء من الإعداد لكتابي «رحلة في عالم الجنون» الذي يتناول في جانب منه مصرع بيل باكلي. وعلى الرغم من أن كيسي كان يرتدي بذلة تفصيل، إلا أن مظهره كان يوحي. على العكس من ذلك ـ بالافتقار إلى حسن الهندام. وكان فكاه بارزين ووجهه شاحباً وعيناه حمراوين. وكانت جلستنا معاً في أحد النوادي بواشنطن وبدا أثناءها كما لو كانت الدماء هربت من بشرته، بعد خمس سنوات قضاها مديراً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية.

وخلال الحوار الذي دار بيننا، ونحن نتناول كأسين من المياه المعدنية الغازية من نوع «بيرييه»، أكد كيسي أولاً على الشروط الواجب الالتزام بها في لقائنا، حيث طلب الا أدون ملاحظات أو أسجل اللقاء. وإن ما يقوله يجب أن يؤخذ على أنه توضيح لخلفية الأمور. ثم أخرج ورقة بلا عناوين أو علامات طبعت عليها بالآلة الكاتبة تفاصيل سيرته الذاتية، وتتضمن أنه ولد في نيويورك في ١٣ مارس عام ١٩١٣ م، وحصل على درجة جامعية في القانون من جامعة سانت جون عام ١٩٣٧ م. ثم التحق بالخدمة العسكرية كضابط في قوات الاحتياط التابعة للبحرية الأميركية في عام ١٩٤٣ م، وفي غضون أشهر تم نقله إلى «مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS» الذي أصبح فيما بعد «وكالة المخابرات المركزية الأميركية». وفي عام ١٩٤٤ م أصبح رئيساً لفرع المخابرات الخاصة بأوروبا، التابع لمكتب الخدمات الاستراتيجية. وبعد ذلك جاءت الفترة التي شغل فيها منصب رئيس لجنة الأوراق المالية والبورصات الأميركية (١٩٧١ ـ ١٩٧٣ م). ثم تلاحقت التطورات في حياته العلمية بعد ذلك، من وكيل وزارة الخارجية الأميركية للشؤون الاقتصادية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ م) إلى رئيس ومدير تنفيذي للبنك الأميركي للتصدير والاستيراد (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ م)، إلى عضو المجلس الاستشاري للمخابرات الخارجية التابع مباشرة للرئيس الأميركي. وفي عام ١٩٨٠ م تولى إدارة حملة انتخاب رونالد ريجان رئيساً للولايات المتحدة، وهي الحملة التي توجت بفوز ريجان في الانتخابات. وبعد ذلك بعام واحد، وعلى وجه التحديد في ٢٨ يناير ١٩٨١ م عينه الرئيس ريجان مديراً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية، ليصبح بذلك الرجل الثالث عشر من بين من شغلوا ذلك المنصب، الذي يعتبر أقوى منصب في أجهزة المخابرات في الولايات المتحدة.

وقد ذكرت له خلال حديثنا، كيف يبدو لي أنه نجح في العديد من المناصب، فرشف رشفة من الماء، وغمغم معقباً بقوله: أنه لا يريد الخوض في جوانب شخصية. أعاد كيسي ورقة سيرته الذاتية إلى جيب سترته وجلس متاهباً لأول سؤال أطرحه عليه. فسألته عما يمكن أن يقوله لي عن بيل باكلي الذي اختطف في بيروت قبل عامين تقريباً من لقائنا. وبالتحديد يوم الجمعة ١٦ مارس ١٩٨٤ م. ولقي حتفه. وكنت اريد معرفة الجهود التي بذلتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية سعياً لإنقاذ حياة بيل، حيث سبق لي أن قضيت بعض الوقت في منطقة الشرق الأوسط بما في ذلك إسرائيل أحاول جمع خيوط ذلك الموضوع.

فقاطعني كيسي بسؤال قائلاً: «هل تحدثت مع ادموني أو أي من رجاله في هذا الشأن؟».

كان ناحوم أدموني قد أصبح رئيساً للموساد منذ عام ١٩٨٢. وكان معروفاً في حفلات الكوكتيل التي تقيمها السفارات المعتمدة في تل أبيب بأنه ذواقة للخمور. وأثناء الحوار وصف كيسي أدموني بأنه «يهودي يمكنه أن يفعل أي شيء من اجل تحقيق أهدافه». لكن من الأمور المؤكدة عن أدموني أنه ولد في القدس في عام ١٩٢٩ لأبوين من المهاجرين البولنديين ينتميان إلى الطبقة المتوسطة. وتلقى تعليمه في المدرسة الملحقة بمركز رحابيا الرياضي بمدينة القدس. واستطاع تنمية مهاراته اللغوية على نحو ساعده على الترقي إلى رتبة ملازم حيث خدم كضابط مخابرات في حرب لاستقلال عام ١٩٤٨ م.

وعقب كيسي على ذلك بقوله: «أن ادموني يستطيع أن يفهم أكثر من عشر لغات».

بعد ذلك درس أدموني العلاقات الدولية في جامعة بركلي. ثم

تولى تدريس تلك المادة في مدرسة التدريب التابعة للموساد في أطراف تل أبيب. كذلك عمل تحت ساتر في كل من أثيوبيا وباريس وواشنطن التي كون فيها علاقات تعاون وثيقة مع كل من ريتشارد هيلمز ووليام كولبي وسلفي كيسي في منصبه. وساعدت هذه المهام الخارجية على صقل مهارات ادموني، فأصبح من مسؤولي المخابرات المحترفين الذين يتحدثون بنبرة هادئة. ثم جعلته قادراً، عندما أصبح رئيساً للموساد ـ على حد تعبيره ـ «على قيادة الجهاز باقتدار رغم الأزمات. وساعده حسه الاجتماعي على الاهتمام بالنساء وبمصلحة إسرائيل في آن واحد».

مضى كيسي يدلل على عبارته فوصف أدموني بأنه رجل مخابرات «استطاع ارتقاء درجات السلم في هذا العالم اعتماداً على مهارته في تحاشي «النطح» من جانب رؤسائه». ثم جاءت عبارته التالية بنفس نبرة التمتمة الخفيفة: «ولكن ليس أبعث على الدهشة من سلوك شخص كنت تتوهم أن لديه استعداداً للوقوف إلى جانبك. فنحن لم ندرك أن أدموني لن يساعدنا في أي شيء إلا بعد أن لقي بيل باكلي مصرعه. ولعلك تذكر، ما كانت عليه الأوضاع هناك في ذلك الحين. فقد شهد مخيمان للاجئين في بيروت مجزرة راح ضحيتها قرابة ألف فلسطيني، حيث نفذ المسيحيون اللبنانيون عمليات القتل. أما اليهود فاكتفوا بموقف المتفرج وكأنهم يتلون التوراة بالمقلوب. وواقع الحال أن أدموني كان متواطئاً مع ذلك المجرم السفاح الذي يدعى الجميل». مشيراً إلى بشير الجميل الذي كان في ذلك الوقت زعيماً لحزب الكتائب ثم أصبح بعد ذلك رئيساً للبنان.

وأضاف كيسي قائلاً: «كان الجميل يعمل لحسابنا، لكنني لم أكن أثق في ذلك المأبون. أما أدموني فقد كان يتعامل مع الجميل طوال

الوقت الذي كان باكلي يتعرض فيه للتعذيب. ولم تكن لدينا أي فكرة عن مكان احتجاز بيل في بيروت. وطلبنا من أدموني معرفة مكانه، فوعدنا بأنه لن تكون هناك صعوبة في ذلك. وانتظرنا وطال انتظارنا وأوفدنا خيرة رجالنا للتعاون مع الموساد في تل أبيب. وقلنا إننا لن نواجه مشكلة في تغطية أي نفقات مالية في هذا الصدد، وكان رد أدموني دائماً: حسناً، إنني أدرك ذلك».

رشف كيسي رشفة أخرى من قدح الماء أمامه، واستغرق في استرجاع الأحداث. ثم جاءت كلماته التالية خالية من أي نبرة، كما لو كان رئيساً لهيئة محلفين يعلن قرار المحلفين في قضية: «ما حدث بعد ذلك هو أن أدموني خرج علينا بمحاولة إيهامنا بأن منظمة التحرير الفلسطينية وراء عملية الاختطاف. وكنا نعلم أن الإسرائيليين كانوا دائماً على استعداد لإلقاء مسؤولية أي شيء على ياسر عرفات. ولم يقتنع رجالنا في بداية الأمر بذلك، إلا أن أدموني كان يستطيع أن يوهمك بأنه يملك حجة مقنعة. وأفلح في إقناعنا بذلك. ولم نستطع اكتشاف عدم علاقة عرفات بعملية الاختطاف إلا بعد مصرع باكلي بمدة طويلة. فما لم نكن نعلمه في تلك الآونة[1] (هو أن الموساد كان يلعب لعبة شديدة القذارة. لقد كان يزود حزب الله بالأسلحة لقتل المسيحيين)، وفي نفس الوقت يقدم المزيد من الأسلحة للمسيحيين لقتل لفلسطينيين».

جاء وصف كيسي المقتضب لما تراه وكالة المخابرات المركزية الاميركية الآن في سياق ما حدث لبيل باكلي ـ وهو أن الموساد تعمد الامتناع عن المساعدة في إنقاذه على أمل إلقاء المسؤولية عن ذلك على

---

(١) لم نستطع الحصول على وثيقة تؤكد ذلك. وفي رأيي، فإن المؤلف التبس عليه الأمر (وقد يكون هذا نوع من الدس) (المترجم)

منظمة التحرير الفلسطينية ومن ثم إحباط آمال ياسر عرفات في كسب تعاطف واشنطن ـ جاء ذلك الوصف صدمة لي في دلالته على حقيقة العلاقة بين جهازين من أجهزة المخابرات يفترض فيهما أن يكونا جهازين صديقين. كان ما أوضحه كيسي يعني وجود جانب آخر للعلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل خلاف جمع التبرعات وسائر التحركات في سياق التضامن الأميركي ـ اليهودي. وهي التحركات التي حولت الدولة اليهودية إلى قوة إقليمية عظمى بدافع الخوف من العدو العربي.

وقبل أن ينتهي لقائي مع كيسي، جاءت على لسانه ملحوظة ختامية قال فيها: «أن كل أمة تنشيء أجهزة المخابرات التي تحتاج إليها. وأميركا تعتمد على الخبرة الغنية والدراية لأننا نهتم باكتشاف الحقيقة أكثر من ممارسة الحكم بصورة سرية. بينما يعمل الإسرائيليون بقواعد جد مختلفة، والموساد على وجه الخصوص يرى أن عملياته تستقي أهميتها من أهمية بقاء الدولة».

وهذا الاتجاه هو الذي جعل الموساد يتمتع بحصانة من الرقابة الدقيقة على امتداد سنوات طويلة. لكن خلال السنتين اللتين قضيتهما في جمع مادة هذا الكتاب شهد الموساد سلسلة من الأخطاء ـ بلغت حد الفضيحة في بعض الحالات ـ الأمر الذي دفع بذلك الجهاز إلى بؤرة الوعي العام في إسرائيل. فقد ثارت تساؤلات أدت ـ لعدم التقدم طواعية بإجابات عنها ـ إلى ظهور شروخ في الدرع الواقي الذي طالما لفه الموساد حول بنيته في مواجهة العالم الخارجي.

وقد تحدثت مع ما يربو على مائة شخص، عملوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة مع أجهزة مخابرات إسرائيلية وغير إسرائيلية.

الموساد متخطياً به الحدود الصارمة المتعارف عليها، في عالم التجسس وجمع المعلومات. وأجريت العديد من اللقاءات مع أطراف شاركوا في عمليات لم يدر حولها أي حوار من قبل. وفي أغلب الأحيان كانت الخلاصة التي توصلت اليها أنه مهما يكن مدى التعمق في الحوار معهم فلا يمكن للمرء من خلالها الخروج بتفسير مقنع للطريقة التي تصرفوا بها هم أو غيرهم. وبلغت صراحة العديد منهم لدرجة أثارت دهشتي، وإن لم يوافق بعضهم على الإشارة إليه بالاسم. أما الأفراد الذين لا يزالون يعملون في الموساد فإن القانون الإسرائيلي يحظر قيامهم طواعية بالسماح بنشر أسمائهم. وأجريت حوارات مع بعض المصادر من غير الإسرائيليين، فاشترطوا عدم ذكر أسمائهم. والتزمت بذلك.

أما في ما يتعلق بخرائط الهياكل التنظيمية التي تحاول الصحف تجميعها ونشرها، فقد وجدت أن العديد من المصادر ممن التقيت بهم لا ينتمون إلى أي موقع على تلك الهياكل التنظيمية، ولا يزالون حريصين حرصاً جاداً على بقاء هويتهم غير معروفة بينما أعرب بعضهم عن رغبته في أن يشار إليه في صفحات هذا الكتاب باسم مستعار، أو باسمه الأول فقط، لكن هذا لا ينقص على أي وجه، من قيمة ما أدلوا به. أما بواعثهم الشخصية على الخروج عن صمتهم، فقد تباينت تبايناً شاسعاً: من الحاجة إلى أن يكون لهم ذكرهم في سجلات التاريخ، إلى الرغبة في تبرير ما قاموا به من أعمال، وإلى إشباع رغبتهم كرجال طاعنين في السن في سرد الحكايات، بل وكذلك الرغبة في التكفير عما قاموا به من أفعال. وتنطبق نفس البواعث على أولئك الذين وافقوا على الإشارة إليهم بأسمائهم الحقيقية.

ولعل أفضل باعث دفعهم إلى الخروج عن صمتهم هو الخوف

الحقيقي الصادق مما يتعرض له الجهاز - الذي يعتزون بخدمتهم فيه - من أخطار من داخله، وأحساسهم بأن السبيل إلى الحفاظ على ذلك الجهاز هو كشف النقاب عما حققه بالأمس وما يقوم به اليوم. وهما أمران يجب معرفتهما أولاً معرفة كيف نشأ ذلك الجهاز وماذا كانت دواعي إنشائه.

الفصل الثاني:

(قبل البداية)

بزغ الفجر فاندفعت جموع المصلين صوب أقدم حائط على الأرض قاطبة، ذلك الأثر الذي لم يتبق غيره من ثاني معابد هيرودس العظيم في القدس، ألا وهو حائط المبكى. شق الجميع طريقهم نحوه عبر الشوارع الضيقة أو قدموا من خارج أسوار المدينة، فلم يتخلف منهم صغير أو كبير، ولا نحيل أو بدين، ولا ملتح أو حليق.

وسار موظفو المكاتب إلىٰ جوار الرعاة، قادمين من التلال المحيطة بالقدس، وزحف فتية بالغون في زهو وخيلاء يرافقهم رجال في خريف العمر. وأتى المعلمون من المدارس الدينية اليهودية بالمدينة جنباً إلى جنب مع أصحاب الحوانيت الذين قطعوا رحلة طويلة من مدينتي حيفا وتل أبيب القاصيتين والقرى النائية المحيطة ببحيرة طبرية.

وبدأ الجميع متشحين بالسواد ويحملون في أيديهم كتب ترانيم الصلاة وقد وقفوا قبالة الحائط الشاهق يرتلون أجزاء من الكتاب المقدس.

وعلى الرغم من أن هذا كله هو دأب اليهود على مدى قرون خلت، فإن ذلك السبت من شهر سبتمبر ١٩٢٩ م كان مختلفاً عن غيره. إذ حث

الحاخامات أكبر عدد من الرجال على الاتحاد في صلاة جماعية عامة لإظهار عزمهم على تمسكهم بحقهم في أداء هذه الصلاة. ولم تكن النية متجهة إلى التعبير عن معتقداتهم فحسب، بل تقديم رمز حي جلي لعقيدتهم الصهيونية من خلال هذه الصلاة، وتذكرة السكان العرب ـ الذين كانوا يفوقونهم في العدد أضعافاً مضاعفة ـ بأن يد الترويع والتهديد لن تمسهم بأية حال من الأحوال.

وكانت شائعات قد سرت لعدة شهور مؤداها أن السكان المسلمين استشاطوا غضباً من جديد لما رأوه من توسع صهيوني هنا وهناك. وبدأوا يتوجسون خيفة من هذا التوسع عندما صدر وعد بلفور في عام ١٩١٧ م الذي تعهد فيه بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، مما شكل للعرب، الذين عاشوا هناك، إهانة وانتهاكاً لحرماتهم. فالأرض التي زرعوها على مدى قرون عديدة باتت معرضة للتهديد، بل ويسلبها الصهاينة وحماتهم البريطانيون الذين حلوا بها مع نهاية الحرب العظمى ليضعوا فلسطين تحت الانتداب. وكان البريطانيون قد حكموا هذه الأراضي كدأبهم في بقاع أخرى من امبراطوريتهم، محاولين إرضاء الطرفين معاً. وما هذا إلا وصفة لكارثة ستحدث لا محالة. إذ تصاعد التوتر في العلاقات بين اليهود والعرب، واحتدمت المناوشات وأريقت الدماء، لا سيما حينما أراد اليهود بناء معابدهم ودور عبادتهم، بيد أن اليهود كانوا قد وطدوا عزمهم على ممارسة حقهم في الصلاة عند حائط المبكى في القدس، تلك الصلاة التي كانت تمثل لهم لُب العقيدة وجوهرها.

وبحلول وقت الظهيرة، أي ساعة أداء اليهود لصلاة الاعتراف، وقف ما يقرب من ألف عابد يتلون بصوت عالٍ نصوصاً قديمة من الكتاب المقدس أمام الحائط المشيد من الحجر الرملي الأصفر. واكتنف

نبرات أصواتهم التي علت تارة وانخفضت تارة أخرى إيقاع ملطّف ونغمة مسكنة.

وفجأة انهمرت عليهم القذائف والأحجار والزجاجات المحطمة والعلب المملوءة بالطوب وأخذتهم على حين غرة، في هجوم شنه العرب من مواقع أحسنوا اختيارها حول حائط المبكى، حيث صب القناصة المسلمون نيرانهم وأرسلوا وابلاً من رصاص بنادقهم من طراز «سكيت» القديمة لتهز أصوات الطلقات النارية المكان كله. وسقط من اليهود من سقط ليسحبهم من فر من جيرانهم. وتحدث المعجزة، إذ لم يقتل أحد، وإن كان عدد الجرحى لا يُعد ولا يُحصى. وفي هذه الليلة اجتمع قادة «الييشوف» أي الجالية اليهودية في فلسطين، لتدارس الأمر وفطنوا على الفور إلى أن تظاهرتهم التي أحكم التخطيط لها افتقرت إلى شيء جوهري وهو العلم المسبق بالهجوم الضاري الذي شنه العرب.

وتحدث أحد الذين حضروا الاجتماع نيابة عن الكل قائلاً: «لا بد لنا أن نتذكر الكتاب المقدس. ولا نغفل عنه. كنا نعول دائماً منذ عهد الملك داود وحتى الآن على مخابراتنا ومعلوماتنا الدقيقة عن أعدائنا». وأخذ القادة وهم يحتسون أقداح القهوة التركية، ويتناولون قطع الحلوى، يضعون بذور ما قدر له أن يصبح في ما بعد أعتى جهاز مخابرات في العالم الحديث وهو الموساد. غير أن هذا الجهاز ما كان لينشأ إلا بعد ربع قرن من الزمان على ذلك اللقاء. وكل ما استطاع زعماء «الييشوف» اقتراحه كخطوة عملية أولى في تلك الليلة الدافئة من ليالي شهر سبتمبر، هو تجميع كل ما يمكن ادخاره من أموال ومناشدة جيرانهم على حذو حذوهم. وكان في نيتهم استخدام تلك الأموال في رشوة العرب المهادنين لليهود والذين ينتظر منهم إعطاء إنذار مبكر عن هجمات العرب المتوقعة.

وكان على اليهود في نفس الوقت ألا يتوقفوا عن ممارسة حقهم في الصلاة عند حائط المبكى، وألا يركنوا إلى الحماية البريطانية، بل يعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على قوات الهاجاناه وهي الميليشيا اليهودية المشكلة حديثاً. وفي الأشهر التالية تصدى اليهود لهجمات العرب مستفيدين من الإنذار المبكر، ومن قوات الميليشيا المتوفرة لديهم، وحل الهدوء النسبي بين العرب واليهود على مدى السنوات الخمس التالية.

ومضى اليهود إبان هذه السنوات في تطوير جهاز مخابراتهم سراً، وإن لم يحددوا له اسماً رسمياً أو قائداً بعينه. وبدأوا تجنيداً مؤقتاً وادرجت أسماء الباعة المتجولين العاملين في الحي العربي بالقدس، وكذا أسماء الصبية ماسحي أحذية ضباط قوات الانتداب وطلبة كلية (روضة) العربية ذات الشأن بالمدينة، ومعهم المدرسين ورجال الأعمال. وكان بمقدور أي يهودي أن يجند جاسوساً عربياً بشرط واحد وهو مشاركة المعلومات. وبدأ قادة «البيشوف»، متحلين بالأناة واليقين في الحصول على معلومات هامة، لا عن العرب فحسب بل عن نوايا البريطانيين أيضاً.

وكان تولي هتلر للسلطة في عام ١٩٣٣ م إيذاناً بهجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين. وبحلول عام ١٩٣٦ م قطع ما ينيف على ثلاثمائة ألف يهودي رحلة طويلة عبر أوروبا إلى فلسطين. وكان أكثرهم يعانون الفاقة عندما وطئت أقدامهم الأراضي المقدسة. ودبر لهم قادة «البيشوف» الطعام والمأوى حتى أمسى اليهود يشكلون ما يزيد عن ثلث السكان هناك. ولم يختلف رد فعل العرب عن ردود أفعالهم السابقة، إذ تعالت صيحات الأئمة من مائة مأذنة مسجد تنادي بإلقاء الصهاينة في البحر. وفي كل المجالس العربية، حيث ملتقى السكان

العرب المحليين، ارتفعت ذات أصوات الاحتجاج الغاضب تقول: علينا منع اليهود من سلب أراضينا، والبريطانيين من تدريبهم وتزويدهم بالسلاح والعتاد. وعلى الجانب الآخر، احتج اليهود قائلين أن العكس هو الصحيح وأن البريطانيين كانوا يشجعون العرب على سرقة أراض مدفوع ثمنها قانوناً. ومضى البريطانيون في محاولتهم استرضاء الطرفين، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل.

وفي عام ١٩٣٦ م تحولت أعمال عنف متقطع إلى ثورة عربية عارمة ضد البريطانيين واليهود معاً. ومع أن البريطانيين استطاعوا إخماد الثورة دون رحمة أو هوادة، فإن اليهود أدركوا أن المسألة كلها مسألة وقت قبل أن يهب العرب مرة أخرى في ثورة عارمة جديدة.

بعد ذلك اندفع شباب اليهود من كل حدب وصوب للانضمام إلى قوات الهاجاناه. وأصبحوا يشكلون عماد جيش سري مرعب، أجسام قواته من فولاذ، يسمع دوي رصاصهم وهم يجوبون النقب كثعالب الصحراء الماكرة.

واتسعت الشبكة العربية لتشمل عدداً أكبر من متقصي الأخبار وجامعي المعلومات. كما أنشئت إدارة سياسية لبث بذور الشقاق بين العرب عن طريق المعلومات المضللة. وجدير بالذكر أن الرجال الذين أصبحوا في ما بعد أسطورة في جهاز المخابرات الإسرائيلية اكتسبوا مهاراتهم إبان تلك الفترة الحاسمة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، وأضحت الهاجاناه ـ والكلمة تعني «الدفاع»، على دراية تامة بكافة القوات المنتشرة في الأراضي المقدسة.

جلبت الحرب العالمية الثانية معها حالة سلم غير مستقر للفلسطينيين. واستشعر اليهود والعرب معاً المستقبل المظلم الذي

ينتظرهم إذا انتصر النازيون في الحرب. ووصلت التفاصيل الأولى لما كان يحدث في معسكرات الموت الأوروبية إلى «الييشوف». وكان كل من ديفيد بن جوريون وإسحق رابين بين الذين حضروا اجتماعاً عقد في حيفا عام ١٩٤٢ م، أجمع الحاضرون فيه على ضرورة إعادة الناجين من محرقة الإبادة الجماعية إلى وطنهم الروحي: أرض إسرائيل. ولم يكن باستطاعة أحد أن يقدر عددهم، غير أنهم اتفقوا على أن وصول اللاجئين سيشعل نار المواجهة مع العرب، وسيقف البريطانيون علانية هذه المرة ضد إسرائيل. وتشبثت بريطانيا بموقفها معلنة أنها سترفض استقبال الناجين في فلسطين بعد هزيمة هتلر، على أساس أن ذلك سيؤدي إلى زعزعة التركيبة السكانية هناك.

ووافق المجتمعون تماماً على طلب بن جوريون تعزيز قدرة مخابرات الهاجاناه، وعلى تجنيد المزيد من المخبرين، وإنشاء وحدة لمكافحة التجسس لكشف اليهود الذين كانوا يتواطأون مع البريطانيين، إضافة إلى إماطة اللثام عن الشيوعيين والمنشقين اليهود في أوساط الهاجاناه. وعُرفت الوحدة الجديدة باسم «ريجول هجدي» وكانت تخضع لقيادة محارب فرنسي سابق يعمل تحت ساتر مندوب مبيعات متجول.

وعلى الفور بدأ قتل اليهوديات اللاتي كن يعاشرن ضباط قوات الانتداب البريطاني، وأصحاب الحوانيت الذين كانوا يتعاملون مع البريطانيين، وأصحاب المقاهي الذين يستضيفونهم. وكان المتهمون يمثلون أمام محكمة ميدان عسكرية في جنح الليل. وكان يحكم على المدنيين إما بالضرب المبرح أو الإعدام وسط التلال اليهودية برصاصة واحدة في مؤخر الرأس. وكان هذا نذيراً بما سيظهره الموساد في ما بعد من معاملة لا تعرف الرحمة أو الهوادة.

وبحلول عام ١٩٤٥ م ضمت الهاجاناه إليها وحدة مسؤولة عن

شراء الأسلحة والعتاد. وعلى الفور بدأ تهريب الأسلحة الإيطالية والألمانية، التي تم الاستيلاء عليها بعد هزيمة رومل في شمال إفريقيا من الجنود اليهود الذين خدموا في صفوف الحلفاء، وذلك عبر صحراء سيناء المصرية إلى فلسطين. وقد نُقلت الأسلحة في شاحنات عتيقة وعلى ظهور الجمال ثم خُزنت في كهوف بالصحارى والقفار التي حاول فيها الشيطان إغواء المسيح. وكان أحد هذه المخابيء قريباً من المكان الذي كانت فيه لفائف أوراق البحر الميت تنتظر من يكتشفها.

وبعد أن أدت هزيمة اليابان في أغسطس ١٩٤٥ م إلى انتهاء الحرب، وصل اليهود، الذين سبق لهم الخدمة في وحدات المخابرات العسكرية للحلفاء، لتزويد الهاجاناه بخبرتهم العملية. وتجمعت كل العناصر اللازمة للاستعداد كما سبق لبن جوريون التنبؤ به وهو «الحرب من أجل استقلالنا».

وكان بن جوريون يعلم أن نقطة الانطلاق هي «بريخا» وهو الاسم العبري للعملية التي لم يسبق لها مثيل وهي جلب الناجين من محرقة الإبادة الجماعية من أوروبا. وقد أتوا في البداية بالمئات، ثم بالآلاف ثم بعشرات الآلاف. وكان أكثرهم ما زال يرتدي زي معسكرات الاعتقال ويحمل وشماً مقترناً برقم تحقيق الشخصية النازي. وقد أتوا براً بالقطارات عبر البلقان ثم عبروا البحر المتوسط إلى شواطيء إسرائيل.

واشترت وكالة الغوث اليهودية في الولايات المتحدة كل السفن المتوفرة أو أجرتها بأسعار شديدة الارتفاع. واشتملت السفن على ما يلي: سفن الشحن وسفن الإنزال من شواطيء نورماندي، والقوارب النهرية وكل ما كان يطفو أُدخل إلى الخدمة عنوة. ولم تحدث عملية إخلاء كهذه منذ تلك التي وقعت في دنكرك عام ١٩٤٠ م.

كان في انتظار الناجين على السواحل بين حيفا وتل أبيبت بعض الجنود البريطانيين الذين أبحروا بالعبارات من دنكرك إلى إنجلترا. وكان سبب وجودهم هو تنفيذ أوامر حكومتهم بمنع الناجين من محرقة الإبادة الجماعية. ونشبت هناك صراعات مروعة شارك فيها الجنود، ولعلهم كانوا يتذكرون لحظة خلاصهم هم، وإن مرت أوقات غض الطرف عن حمولة قارب من اللاجئين يكافحون على الشاطيء.

ورأى بن جوريون أن أفعال الشفقة هذه غير كافية، ولا بد من انتهاء فترة الانتداب، وهذا أمر لن يتحقق إلا بالقوة المسلحة، واستطاع بحلول عام ١٩٤٦ م توحيد الحركات اليهودية السرية اليائسة. وصدر أمر أذكته روح المستوطنين الأوائل التي لا تنطفيء بشن حرب عصابات ضد البريطانيين والعرب معاً. وأدرك كل قائد يهودي أن الأمر ينطوي على مغامرة خطيرة، فالقتال على الجبهتين سيستنزف المواد، استنزافاً كبيراً، والفشل مهين لا تحمد عقباه أبداً. وأصدر بن جوريون تعليماته بتطبيق سياسة لا يقيدها قيد ولا تعوقها اتفاقية أو معاهدة. وسرعان ما بدأ سجل المذابح الوحشية المروع للجانبين المتصارعين يمتليء، فأطلق الرصاص على اليهود المشتبه في تواطئهم مع قوات الهاجاناه وعلى الجنود البريطانيين الذين قصفت ثكناتهم بالقنابل أيضاً. وأحرقت القرى العربية حرقاً في وحشية أشبه ما تكون بوحشية العصور الوسطى. كان جهاز المخابرات والمعلومات أساسياً للهاجاناه، على الأقل لنشر معلومات مضللة تعطي البريطانيين والعرب انطباعاً بأن في حوزة اليهود قوات يفوق عددها قدرتهم الفعلية على حشدها. وهنا اكتشف البريطانيون أنهم يتعقبون عدداً كالسراب، وعند هذه المرحلة بدأت الروح المعنوية لقوات الانتداب تنخفض انخفاضاً ملحوظاً. وشعرت الولايات المتحدة بأنه قد آن لها أن تتدخل، فسعت إلى التوسط

في صفقة خلال ربيع ١٩٤٦ م تحث فيها بريطانيا على السماح لمائة ألف ممن نجوا من محرقة الإبادة الجماعية بدخول فلسطين. بيد أن طلبها قوبل بالرفض واشتعل القتال المرير من جديد. وفي نهاية المطاف وافقت بريطانيا في فبراير ١٩٤٧ م. ومنذ ذلك الحين أصبح على الأمم المتحدة علاج مشكلات ما كان سيصبح في ما بعد دولة إسرائيل.

وعندما أدرك بن جوريون وقادته اقتراب وقوع صراع وشيك مع العرب، ولضمان عدم قتل هذه الدولة الوليدة في مهدها، قرروا حتمية الاعتماد على جهاز مخابرات قوي لا يبارى. فبدأوا في جمع المعلومات الأساسية عن الروح المعنوية للعرب وقوتهم العسكرية. وسرق الجواسيس اليهود المتمركزون في القاهرة وعمان خطط الهجوم التي أعدها الجيشان المصري والأردني. وعندما استعرت ما أطلق عليها (حرب الاستقلال)، أحرز الإسرائيليون انتصارات مذهلة في المعارك التي خاضوها. غير أنه اتضح لبن جوريون أثناء القتال أن النصر النهائي لا بد من اعتماده على تفرقة واضحة بين المطامع العسكرية والأماني السياسية. وعندما تحقق النصر في النهاية عام ١٩٤٩ م، لم تكن هذه التفرقة استقرت بعد، مما أدى إلى وقوع خصومة بين أعضاء جهاز المخابرات الإسرئيلي حول تحديد مسئولياتهم في زمن السلم.

وبدلاً من معالجة بن جوريون - بوصفه أول رئيس وزراء إسرائيلي - الموقف مستخدماً بصيرته المعتادة، قام بتكوين خمسة أجهزة مخابرات تعمل في الداخل والخارج في آنٍ واحد. وعمل جهاز المخابرات في الخارج على نمط أجهزة الأمن البريطانية والفرنسية التي وافقت دون أي تردد على خدمة الإسرائيليين. كما جرى الاتصال مع المكتب الأميركي للخدمات الاستراتيجية OSS في واشنطن عن طريق مدير مكتب الوكالة لمكافحة التجسس في إيطاليا واسمه جيمس

جيسوس أنجلتون. وكان من المقدر لاتصالاته بجواسيس إسرائيل حديثي العهد أن تلعب دوراً حاسماً في إقامة ذلك الجسر القوي بين جهازي المخابرات. وعلى الرغم من هذه البداية الواعدة. فإن حلم بن جوريون في إنشاء جهاز مخابرات متكامل متجانس ضاع في خضم مخاض ولادة أمة تناضل هي ذاتها لإيجاد هوية خاصة بها. وأصبح استعراض العضلات هو السمة البارزة هناك، إذ استمات وزراؤه ومسؤولوه سعياً وراء السلطة والمناصب القيادية. ونشبت الصراعات على كل المستويات حول من سيضع الاستراتيجية العامة للمخابرات، ومن سيقيم البيانات والمعلومات الخام الواردة؟ ومن سيجند، الجواسيس؟ ومن هو أول من سيطلع على تقارير هؤلاء الجواسيس؟ ومن سيفسر هذه المعلومات لزعماء البلد السياسيين؟.

ولم يشهد أي مكان آخر مناورات حادة كتلك التي دارت بين وزيري الخارجية والدفاع، اللذين طالبا بحقيهما في إدارة نشاط المخابرات خارج البلاد. أحس أيسار هارئيل، الذي كان عضواً شاباً آنذاك، أن زملاءه كانوا ينظرون إلى نشاط المخابرات من منظور حالم مغامر. وادعوا أنهم خبراء بكل صغيرة وكبيرة في العالم، وسعوا إلى التصرف مثل جواسيس الروايات الدوليين المستمتعين بما حققوه من أمجاد وهم يعيشون في ظل الخط الرفيع الفاصل بين القانون والنظام من ناحية، والتسيب والتحرر من الناحية الأخرى، واستمر الناس يتساقطون صرعى أمام هجمات الإرهابيين العرب وقنابلهم وشراكهم الخداعية، وظلت جيوش سورية ومصر والأردن ولبنان مصدراً للتهديد، وخلف هذه الجيوش ملايين العرب المتأهبون للجهاد. ولا توجد أمة على وجه الأرض نشأت وسط هذا المناخ المعادي مثل إسرائيل.

بالنسبة لبن جوريون كان هناك إحساس مقدس في الطريقة التي

ينظر بها إليه شعبه لحمايتهم. وهي ذات الحماية التي سبق أن وفرها جل زعماء إسرائيل الكبار. غير أن بن جوريون كان يعلم أنه ليس نبياً، بل مجرد مقاتل عركتة حروب الشوارع حتى انتصر في حرب الاستقلال ضد عدو عربي يملك قوات بلغ حجمها أكثر من عشرين ضعف القوات التي كانت تحت قيادته. ولم يحدث أن تحقق نصر أعظم منذ أن قتل جالوت على يد الراعي الصبي داود الذي قضى كذلك على الفلسطينيين القدماء.

بيد أن العدو لم ينته أمره بعد، بل أضحى أكثر مهارة وأشد قسوة. فقد كان يضرب ضربته في جنح الليل ويقتل دون هوادة أو ندم ثم يختفي.

وعلى مدى سنوات أربع طويلة لم تتوقف المنافسة ولم ينته النزاع والنقد خلال كل الاجتماعات التي ترأسها بن جوريون محاولاً إيجاد حل للأمور الشائكة التي صادفت جهاز المخابرات.

في هذه الأونة أحبطت وزارة الدفاع خطة واعدة وضعها وزير الخارجية لاستغلال أحد الدبلوماسيين كجاسوس في القاهرة. إذ كانت الوزارة تريد تولي أحد ضباطها هذه المهمة. إلا أن ضباط الأمن المصريين قبضوا على هذا الضابط ـ الذي لم تكن لديه خبرة فعلية بأعمال المخابرات ـ في غضون أسابيع قليلة. وتبين وقتها أن العملاء الإسرائيليين كانوا يعملون في السوق السوداء المتفشية في كل مكان لتمويل نشاطاتهم بسبب الافتقار إلى موازنة رسمية تغطي تكاليف أعمال الجواسيس. ومن ناحية أخرى أخفقت محاولات تجنيد قوات الدروز المعتدلة في لبنان حيثما اختلفت أجهزة المخابرات الإسرائيلية المتنازعة حول أسلوب استخدام هذه القوات. وأدت حالة الشك القائمة إلى انهيار كل المخططات العظيمة التي وُضعت في تلك الفترة. وبات

الطموح الشخصي المجرد هو السمة العامة للعمل في كل مكان.

وجاهد أقوى الرجال آنذاك وأشدهم بأساً، وهم وزير خارجية إسرائيل ورئيس أركان الجيش والسفراء، لتحقيق غلبة جهازهم المفضل على باقي الأجهزة الأخرى. فأراد أحدهم التركيز على جمع المعلومات الاقتصادية والسياسية. بينما رأى آخر أن تجعل المخابرات من القوة العسكرية للجيش محور عملها. وأصر السفير المعتمد لدى فرنسا في أن تدار المخابرات بنفس الأسلوب الذي كانت تدار به قوات المقاومة الفرنسية أبان الحرب العالمية الثانية، مع حشد كل اليهود الموجودين دون استثناء. بينما أراد، السفير المعتمد لدى واشنطن، أن يتوفر غطاء دبلوماسي لجواسيسه، وأن يدخل نشاطهم في إطار العمل الروتيني للسفارة كي يكونوا فوق مستوى الشبهات.

ورغب السفير الإسرائيلي في بوخارست في تبني جواسيسه أسلوب عمل المخابرات السوفيتية، وأن يتسم عملها بنمط لا يأخذ بأحد شفقة أو رحمة. وطلب السفير الإسرائيلي في بوينس آيرس تركيز العملاء على الدور الذي تلعبه الكنيسة الكاثوليكية في مساعدة النازيين على الاستيطان في الأرجنتين. أما بن جوريون فقد اتسع صدره لكل هذه المطالب والمقترحات.

وفي النهاية، استدعى يوم٢ مارس ١٩٥١ م مديري وكالات المخابرات الخمسة في مكتبه. وأخبرهم بعزمه على تركيز نشاطات إسرائيل لجمع المعلومات خارج حدودها في جهاز واحد سماه «معهد التنسيق». وخصصت لهذا الجهاز موازنة قدرت بعشرين ألف جنيه إسرائيلي، يُنفق منها مبلغ خمسة آلاف جنيه على «العمليات الخاصة شريطة الحصول على موافقة مسبقة مني» حسبما قال. وتقرر تعيين

أفراده من بين أفراد أجهزة المخابرات الموجودة بالفعل، وأن يطلق على الجهاز الجديد أثناء تعامله اليومي اسم «موساد» ولا اسم سواه.

فضلاً عن ذلك تقرر إشراف وزارة الخارجية على الجهاز الجديد في ما يتعلق «بالأمور الإدارية والسياسية على وجه الخصوص». وأن تشتمل هيئته على ضباط كبار يمثلون المنظمات الأخرى داخل قطاع المخابرات الإسرائيلي وهي: «شين بيت» أي جهاز الأمن الداخلي، و «أمان» أي جهاز المخابرات العسكرية، ومخابرات القوات الجوية، ومخابرات القوات البحرية. وأنيطت بهؤلاء الضباط مهمة إحاطة الموساد علماً بمطالب «عملائهم» المحددة. وفي حالة الاختلاف على أي مطلب من هذه المطالب، يُحال الأمر برمته إلى مكتب رئيس الوزراء.

وقال بن جوريون بجرأته وصراحته المعتادة: «سوف تزودون الموساد بقائمة مطالبكم وتتولى هي تدبير هذه المطالب. ولا يعنيكم من أين حصلت عليها وكم كلفتها». وأصبح بن جوريون يؤدي وظيفة لجنة مراقبة قوامها رجل واحد لصالح الجهاز الجديد. وأصدر أمراً في مذكرة بعث بها إلى أول رئيس لهذا الجهاز، وهو ريئوفين شيلوح، مفاده الآتي: «سيعمل الموساد تحت قيادتي المباشرة ويؤدي وظيفته وفقاً لتعليماتي ويوافيني دوماً بتقاريره». وبذا تكون دعائم الجهاز قد أرسيت. وبعد مرور ثماني وعشرين سنة حافلة على اجتماع اليهود بالقدس في إحدى ليالي سبتمبر عام ١٩٢٩ م لمناقشة الأهمية القصوى لجهاز المخابرات في درء أي هجمات عربية أخرى والتصدي لها، أمسى أبناؤهم يمتلكون جهاز مخابرات، قدر له أن يغدو أقوى من أي جهاز آخر على وجه الأرض.

ومما لا شك فيه أن مولد الموساد، مثله في ذلك مثل إسرائيل، لم

يكن يسيراً. كان الجهاز قد تولى إدارة شبكة تجسس في العراق ظلت تعمل لعدة سنوات تحت إشراف الإدارة السياسية التابعة لقوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت المهمة الرئيسية للشبكة هي اختراق القيادات العليا للجهاز العسكري العراقي وتشغيل شبكة هجرة سرية لليهود العراقيين إلى إسرائيل. وفي مايو ١٩٥١م، أي بعد تسعة أشهر من توقيع بن جوريون للأمر القاضي بإنشاء الموساد، انقض عملاء الأمن العراقي في بغداد على الشبكة، وتم القبض على عميلين إسرائيليين وعشرات اليهود العراقيين والعرب الذين قبضوا رشاوى لإدارة شبكة التهريب الممتدة عبر الشرق الأوسط ووجهت تهمة التجسس لثمانية وعشرين شخصاً، وحكم على العميلين بالإعدام وعلى سبعة عشر آخرين بالسجن المؤبد، وأطلق سراح الباقين للتدليل على نزاهة العدالة العراقية». بعد ذلك أطلق سراح عميلي الموساد من السجن العراقي الذي لقيا فيه كل صنوف العذاب، مقابل مبلغ كبير من المال أودع في حساب وزير الداخلية العراقي في أحد المصارف السويسرية.

ولم يمضِ وقت طويل حتى وقعت كارثة أخرى. إذا اتضح أن تيودور جروس، جاسوس الإدارة السياسية الذي عمل لمدة طويلة في روما، كان يعمل آنذاك لصالح الموساد في ظل التنظيم الجديد الذي وضع لها. وفي يناير ١٩٥٢ تلقى أيسار هارئيل، الذي كان وقتذاك رئيس «شين بيت» أي جهاز الأمن الداخلي لإسرائيل، «قرينة دامغة» على أن جروس يعمل عميلاً مزدوجاً لحساب المخابرات المصرية. وقرر هارئيل التوجه إلى روما حيث أقنع جروس بأن يعود معه إلى تل أبيب مقنعاً إياه بأنه على وشك تقلد منصب هام في «شين بيت». وحوكم جروسي سراً وثبتت إدانته فصدر حكم ضده بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً، غير أنه مات في السجن بعد ذلك.

واستقال روفون شيلوخ بعد إن خابت آماله وأصبح كسير الفؤاد، وحل محله هارئيل الذي قدر له أن يشغل منصب رئيس الموساد لمدة لم يسبقه فيها أحد من قبل ولا من بعد وهي إحدى عشرة سنة.

وكثيراً ما راعت هيئة هارئيل ومظهره الخارجي كبار العاملين برئاسة الموساد عندما استقبلوه مرحبين في صباح يوم من أيام سبتمبر ١٩٥٢ م، إذ كان طوله يصل بالكاد إلى أربعة أقدام وثماني بوصات، وعلى جانبي رأسه أذنان كالأباريق ويتحدث العبرية بلكنة وسط أوروبية ثقيلة، حيث كانت أسرته قد هاجرت من لاتفيا عام ١٩٣٠ م. وكان يرتدي ملابس يبدو أنه استخدمها للنوم في ليلته السابقة.

وأول ما تفوه به عند لقائه بهيئة العاملين هو: «إن الماضي قد ولى وانقضى، ولن نسمح لأخطاء أخرى أن ترتكب، وسننطلق متكاتفين معاً، ولن نتحاور إلا مع أنفسنا». وفي هذه الليلة بالتحديد أعطى مثالاً يدلل على ما كان يعنيه بكلامه، إذ استدعى سائقه بعد الغداء، ولما سأله السائق عن وجهته أجاب: بأن هذا سر لن يبوح به، ثم أبعد السائق وجلس إلى عجلة القيادة بنفسه وعاد بصندوق خبز البيجال اليهودي وأعطاه لهيئة العاملين. وبذا يكون قد وضع الأساس الذي أراده فأصبح هو الذي يوجه الأسئلة ولا يتلقاها. وكانت هذه هي اللحظة الحاسمة التي جعلت هيئة العاملين المنهارين معنوياً يحبون هارئيل ويثقون به. فبدأ يحثهم ويرفع معنوياتهم استرشاداً بالمثال الذي أعطاه لهم. وسافر خفية إلى بعض البلدان العربية المعادية لينظم بنفسه شبكات الموساد فيها، ويلتقي شخصياً بكل الذين أراد أن يضمهم إلى الجهاز، ويبحث عن كل الذين عملوا مثله في الكيبوتز (المزارع اليهودية الجماعية). وقال

ذات مرة لاحد كبار مساعديه رداً على استفسار عن السياسة المتبعة: «إن مثل هؤلاء هم أدرى الناس بأعدائنا. فالكيبوتزيون يعيشون على مقربة من العرب، ولم يتعلموا التفكير مثلهم فحسب، بل التفكير أسرع منهم».

كان هارئيل يعتبر كل من هم خارج دائرته المغلقة انتهازيين عديمي المبادئ، ولم يكن يتعامل مع الذين يعتبرهم «متعصبين متنكرين في لباس الوطنيين، ولا سيما المتعصبين الدينيين». وبدأ يظهر شيئاً فشيئاً كرهه الصريح لليهود الأرثوذكس. وقد كان بعض هؤلاء من العاملين في حكومة بن جوريون، فبدأوا على الفور يبدون استياءهم من هارئيل ويبحثون عن سبيل للتخلص منه. بيد أن رئيس الموساد الماكر كان واثقاً من قربه من كيبوتزي آخر هو رئيس الوزراء.

وساعده في هذه المرحلة أن سجل الموساد كان يتحدث عن نفسه بطريقته الخاصة. فقد ساهم عملاء هارئيل في إنجاح مناورشات سيناء ضد المصريين. وكان لديه جواسيس نشطون في كل العواصم العربية يزودونه بفيض من المعلومات القيمة. ثم ضرب ضربة موفقة أخرى عندما سافر إلى واشنطن عام ١٩٥٤ م للقاء آلان دالاس الذي كان تولى لتوه رئاسة وكالة المخابرات المركزية الأميركية. وهناك أهدى هارئيل مدير المخابرات المحنك خنجراً منقوشة عليه عبارة النبي داود «إن حامي إسرائيل لا يغفو ولا ينام».

ورد دالاس قائلاً: «باستطاعتك أن تعتمد على عيني الساهرة معك على الدوام». ووضعت هذه الكلمات أساس علاقة مشتركة بين الموساد ووكالة المخابرات المركزية الأميركية.

وبدأ دالاس يدبر للموساد أحدث ما توصل إليه العلم من معدات

مثل أجهزة التنصت والتتبع، وآلات التصوير عن بعد، ومجموعة أخرى من الآلات اعترف هارئيل بأنه لم يكن يتصور وجودها. وأقام الرجلان أول «قناة خلفية» للمخابرات بين جهازيهما يستطيعان خلالها تحقيق اتصال هاتفي سري في الحالات الطارئة. وتجاوزت كفاءة القناة كفاءة القنوات الدبلوماسية المعتادة مما أثار حفيظة كل من وزارة الخارجية الأميركية ووزارة الخارجية الإسرائيلية. ولم تلعب هذه القناة أي دور في تحسين مركز هارئيل في الأوساط الدبلوماسية.

كان هارئيل العقل المدبر وراء استقدام آلاف اليهود المغاربة إلى إسرائيل في عام ١٩٦١ م. وفي عام ١٩٦٢ م توجه رئيس الموساد المثابر إلى جنوب السودان لمساعدة الثوار المنحازين لإسرائيل في صراعهم مع النظام القائم هناك. وفي ذات العام عاون هيلا سيلاسي إمبراطور أثيوبيا في سحق محاولة لقلب نظام الحكم في أثيوبيا: كان الامبراطور حليفاً لإسرائيل منذ زمن طويل.

كان صوت اليهود الأرثوذكس داخل مجلس الوزراء أصبح أكثر علواً وصخباً. يشكون من أن هارئيل بات أوتوقراطياً لا يحتمل وغير مكترث بمعتقداتهم الدينية. وأنه رجل له أهدافه الخاصة وربما يطمح في تبوء أكبر منصب سياسي في البلاد. واستشعر بن جوريون الخطر القائم بحاسته السياسية المرهفة. وبدأ الفتور يعتري علاقته بهارئيل. وبعد الصلاحيات المطلقة، بدأ يطلب منه معلومات تفصيلية عن كل عملية. وعلى الرغم من نفور هارئيل من هذا القيد الشديد على حركته، فإنه لم ينبس ببنت شفة، وبدأت حملة الهمس هذه تتصاعد يوماً بعد يوم.

في فبراير عام ١٩٦٢ م كثر اللغط عن مصير صبي في الثامنة

من عمره اسمه جوسيل شوماخر، اختطفته طائفة أرثوذكسية متطرفة من أبويه قبل ذلك بعامين. وكان جد الصبي لامه واسمه ناحمان شتاركس عضواً في طائفة نيطوري كارتا أو «نواطير المدينة». واشتبه في اشتراكه في عملية اختطاف الصبي. وبدأت بالفعل حملات تفتيش وبحث واسعة عن جوسيل ولكنها لم تسفر عن شيء يحل لغز اختطافه. وكان ناحمان قد سجن مؤقتاً لرفضه التعاون مع جهات التفتيش. واعتبر اليهود الأرثوذكس الرجل العجوز شهيداً من الشهداء، وتظاهر الآلاف وهم يحملون أعلاماً ثم أطلق سراح ناحمان بعد ذلك لدواع صحية. ومع ذلك مضت الاحتجاجات ولم تتوقف. وتلقى بن جوريون تحذيراً من مستشاريه السياسيين بأنه ربما يخسر الانتخابات القادمة بسبب هذه الواقعة. والأسوأ من ذلك أن الجماعات اليهودية الأرثوذكسية ربما تساعد العرب إذا نشبت حرب أخرى بينهم وبين إسرائيل. وبعث رئيس الوزراء الذي لم ينس أنه يستعد لمعركة قادمة، في طلب هارئيل وأمر الموساد بالبحث عن الصبي. غير أن هارئيل قال إن هذا لا يدخل في اختصاص جهاز المخابرات. وقال بعد ذلك: «لقد تجمد الموقف بالفعل. فقد أخذ يكرر القول بأنه يعطيني أمراً. وقلت: أنني أحتاج على الأقل إلى الاطلاع على ملف الشرطة ولكن رئيس الوزراء قال لي ليس أمامك إلا ساعة واحدة».

كان الملف كبيراً إلا أن شيئاً استوقف هارئيل بشدة وهو يطلع عليه، وهو حق أبويه في استرجاع الطفل دون تعرضهم لأي ضغط ديني متطرف. كان جوسيل قد ولد في ١٩٥٣ م لأبوين يدعيان آرثر وايدا شوماخر ونظراً لتعثر الأسرة مالياً، فقد أرسل جوسيل ليعيش مع جده في القدس، حيث وجد الطفل نفسه في حصار ديني عزله روحياً عن باقي أجزاء المدينة. وبدأ ناحمان يغرس في نفس حفيده تعاليم

الطائفة. وعندما أتى والدا الطفل لزيارته، عنفهما ناحمان على مواقفهما العاصية المتمردة على الدين. وبعد أن سئم والد جوسيل ووالدته من نقد ناحمان المستمر، طلبا إعادته إليهما. ولكن الرجل أبى قائلاً: «أن ذلك سيؤدي إلى توقف تعليمه الصلاة التي ستعود عليه بالنفع العميم عندما يشب ويكبر». واستمرت المشاحنات الغاضبة بينهم وعندما زارا القدس بعد ذلك، كان جوسيل قد اختفى. واستغل اليهود الأرثوذكس والعلمانيون هذه الواقعة لإظهار قضية طالما أدت لانقسام الأمة على نفسها. ودلل على ذلك أن حزب العمل تحت رئاسة بن جوريون لم يستطع أن يصمد في الحكم إلا بالتحالف مع الجماعات الدينية غير المتجانسة داخل الكنيست. وفي المقابل، حصلت هذه الجماعات على تنازلات أخرى بسبب القوانين اليهودية الأرثوذكسية الصارمة، وإن استمروا دائماً في المطالبة بالمزيد. أما اليهود الليبراليون فقد طالبوا بضرورة إعادة جوسيل إلى أسرته.

وبعد أن اطلع هارئيل على الملف قال لبن جوريون أنه سيحشد موارد الموساد اللازمة، فشكل فريق بحث وخصص أربعين من أمهر العملاء لقضية جوسيل، الذين اعترضوا علانية على ما اعتبروه إساءة استخدام لقدراتهم. غير أن هارئيل أسكتهم بكلمة قصيرة قال فيها: «إننا وإن كنا سنعمل خارج نطاق أهدافنا التقليدية، فهذه قضية هامة للغاية. وهي مهمة لأن سمعة وهيبة حكومتنا وقوتها عرضة للخطر. وهي مهمة بسبب الجوانب الإنسانية التي تنطوي عليها القضية». اكتشف الفريق خلال الأسابيع القليلة الأولى من البحث والتحري مدى وعورة المهمة المناطة به وخطورتها. وحاول عميل، أصبح في ما بعد رئيساً للشين بيت (الاستخبارات العسكرية)، التسلل بين صفوف اليهود الأرثوذكس، ولكنه فشل. وصدرت الأوامر لعميل آخر في الموساد بمراقبة مدرسة

يهودية. وتم اكتشافه خلال أيام. وحاول عميل ثالث الانسلال بين جماعة من المعزين من اتباع «حسداي» كانوا في طريقهم إلى القدس لدفن قريب لهم بين أسوار المدينة، غير أنه تم اكتشافه عندما عجز عن ترديد ترانيم الصلاة الصحيحة. على أن كل الإخفاقات هذه لم تزد هارئيل إلا تصميماً وإصراراً. وعلم الفريق أن الطفل ليس بالقطع في إسرائيل بل في مكان آخر في أوروبا أو مكان قصي آخر. ونقل هارئيل مركز عملياته إلى بيت آمن من بيوت الموساد في باريس. ومن هناك دفع برجاله ليندسوا وسط الجاليات اليهودية الأرثوذكسية في إيطاليا والنمسا وفرنسا وبريطانيا. وعندما أخفقت كل هذه المحاولات أرسل عملاءه إلى أميركا الجنوبية والولايات المتحدة.

وتعرضت التحريات لأحداث غريبة. فقد اندس عشرة عملاء وسط المصلين صباح يوم السبت بمعبد يهودي في ضاحية هيندون اللندنية. واستدعت الجموع الغاضبة الشرطة للقبض على أدعياء الدين بعد أن سقطت لحاهم المستعارة أثناء العراك. غير أن الشرطة أطلقت سراح العملاء في هدوء تام بعد تدخل السفير الإسرائيلي لدى وزارة الداخلية.

ودعي حاخام أرثوذكسي جليل لزيارة باريس بحجة أن أحد الأثرياء طلبه ليرأس حفلاً للختان واستقبله في المطار رجلان يرتديان المعاطف السوداء والقبعات التي تميز اليهود الأرثوذكس. ولم يكن الرجلان سوى عميلين من عملاء الموساد اللذين قدما تقريراً يحوي ما يشبه الكوميديا السوداء، إذ جاء فيه «اصطحبنا الرجل إلى أحد مواخير بيجال وليست عنده أية فكرة عما يحدث ثم ظهرت أمامه فجاة عاهرتان استأجرناهما وأحاطتا بالحاخام واحتضنتاه والتقطنا لهما معه بعض صور البولورايد وعرضناها عليه قائلين إننا سنرسلها إلى زملائه من رجال الدين إن لم يحدد لنا مكان الصبي المختفي. وفي النهاية اقتنعنا

الحاخام بأنه لا يعرف شيئاً، فمزقنا الصور على مرأى منه». وظهر حاخام آخر خلال بحث هارئيل الشامل بين اليهود الأرثوذكس واسمه شاي فريار. وكان عملاء الموساد قد التقطوا الرجل أثناء رحلته من باريس إلى جنيف. وعندما اقتنعوا بعد تحقيق مرير أنه لا طائل من ورائه، أمر هارئيل بسجن فريار في أحد بيوت الموساد الآمنة بسويسرا إلى حين انتهاء البحث، إذ خشي من تحذير الحاخام للجالية الأرثوذكسية وتنبيههم. وظهر دليل واعد آخر، تمثل في مادلين فري، المنتمية إلى أسرة ارستقراطية فرنسية وبطلة من بطلات المقاومة الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية. وكانت مادلين قد انقذت عدداً كبيراً من الأطفال اليهود، عندما حالت دون ترحيلهم إلى معسكرات الموت التي اقامها النازيون، واعتنقت اليهودية بعد ذلك.

وقد كشفت التحريات عن أنها كانت زائرة مستديمة لإسرائيل، تقضي وقتها مع أعضاء طائفة نيطوري كارتا. كما قابلت جد جوسيل في عدة مناسبات أخرى، وتزامنت زيارتها الأخيرة لإسرائيل مع وقت اختطاف الصبي تقريباًولم تعد مادلين إلى إسرائيل حتى هذا التاريخ.

وفي اغسطس (آب) ١٩٦٢ م تعقبها عملاء الموساد حتى مشارف باريس وعندما قدموا انفسهم لها اعتدت عليهم بالضرب، فاستدعى أحدهم هارئيل. وشرح لمادلين الخطأ الفادح الذي ارتكب في حق والدي جوسيل. وقد كان لهما الحق الأدبي في تربية طفلهما بالطريقة التي يريدانها، وهو حق لا ينبغي أن ينكره عليهما أحد. غير أن مادلين أصرت على جهلها بما حدث للصبي. ولاحظ هارئيل أن رجاله صدقوها ولما طلب جواز سفر مادلين، اكتشف وجود صورة إحدى بناتها تحت صورتها. فطلب من أحد رجاله إحضار صورة لجوسيل. وهنا وجد

تطابقاً تقريبياً بين ملامح وجه ابنتها والصبي. اتصل هارئيل بتل أبيب قائلاً:

«لقد عرفت كل ما أردت معرفته، من واقع تفاصيل حياتها الغرامية أثناء فترة الدراسة حتى اتخاذها قرار الانضمام إلى الحركة الأرثوذكسية بعد تخليها عن عقيدتها الكاثوليكية. وعدت إلى مادلين وقلت لها ـ وكأني أعرف كل شيء ـ أنت صبغت شعر جوسيل لإخفاء معالمه ثم هربته خارج إسرائيل. غير أنها أنكرت ذلك إنكاراً تاماً. فأوضحت لها أهمية أن تعي أن مستقبل البلد الذي أحبته محفوف بالمخاطر. وأن الناس الذين أحبتهم يتراشقون بالحجارة في شوارع القدس، ومع ذلك أبت أن تعترف بشيء فأخبرتها أن للصبي أماً أحبته كما أحبت كل الأطفال الذين ساعدتهم إبان الحرب العالمية الثانية». أثر على مادلين تذكير هارئيل لها بماضيها، إذ بدأت تشرح كيف سافرت بحراً إلى ميناء حيفا كسائحة لزيارة تل أبيب. وخلال الرحلة عقدت صداقة مع عائلة من المهاجرين الجدد كانت لديهم طفلة في عمر جوسيل تقريباً. فاصطحبت الطفلة أثناء هبوطهم من السفينة، وظن ضابط الهجرة أن الطفلة ابنتها، وسجل ذلك في الأوراق الرسمية. وبعد اسبوع وعلى مرأى ومسمع من الشرطة الإسرائيلية طارت إلى زيوريخ مع «ابنتها» بل أنها أقنعت جوسيل بارتداء ملابس فتيات ثم صبغت شعره. وقضى جوسيل فترة في مدرسة أرثوذكسية بسويسرا كان الحاخام شاي فرير يعمل فيها مدرساً. وبعد اعتقاله طارت مادلين ومعهاجوسيل إلى نيويورك، وتركته تحت رعاية أسرة تنتمي إلى طائفة نيظوري كارتا. ولم يوجه هارئيل إليها غير سؤال واحد «هلا أعطيتني اسم الأسرة وعنوانها»؟.

ومضت فترة صمت طويلة قبل أن ترد مادلين بهدوء «أنه يعيش

في المنزل رقم ١٢٦ شارع بن في بروكلين بمدينة نيويورك، ويسمونه هناك يانكيل چيرتنر». وابتسم هارئيل للمرة الأولى منذ أن تقابلا وقال لها شكراً مادلين، وأود أن أن أعرب لك عن تهنئتي بأن أعرض عليك وظيفة بالموساد، فمن المؤكد أن إسرائيل ستستفيد من موهبتك أعظم استفادة».

ورفضت مادلين العرض.

وطار عملاء الموساد إلى نيويورك. وكان في انتظارهم فريق من موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي، الذين كلفهم المدعي العام الأميركي روبرت كينيدي بالتعاون معهم. وكان قد تلقى طلباً شخصياً من بن جوريون بذلك. وانتقل فريق الموساد إلى المنزل الكائن في شارع بن، حيث فتحت لهم زوجة چيرتنر الباب، فدفعوها أمامهم واتجهوا للداخل حيث كان زوجها يؤدي الصلاة وإلى جواره صبي شاحب الوجه وعلى رأسه قلنسوة تتدلى منها جدائل شعر على جانبي الوجه. وقال أحد أعضاء فريق الموساد للصبي بلطف: «أهلاً بك جوسيل، لقد أتينا لنعيدك إلى وطنك الأم» وكانت قد مضت ثمانية أشهر منذ أن بدأ الموساد بحثه عن الصبي، في عملية تكلفت نحو مليون دولار أميركي. غير أن عودة جوسيل سالماً إلى وطنه لم تساهم في تضييق هوة الانقسام الديني داخل إسرائيل. واستمرت الحكومات المتعاقبة في السقوط والوقوع في حبائل الجماعات اليهودية الأرثوذكسية المتطرفة المنتخبة في الكنيست.

وعلى الرغم من نجاح هارئيل في العثور على الصبي، فقد عاد إلى إسرائيل ليواجه شخصاً جديداً يتصدى له بالنقد اللاذع، وهو الجنرال (مائير عاميت) الرئيس الجديد المعين لقيادة «أمان» أو المخابرات العسكرية. ومثلما سبق لهارئيل أن تآمر على سلفه، فقد وجد نفسه عرضة لنقد عاميت الشديد حول عملية إنقاذ جوسيل.

وكان عاميت، ذلك القائد العسكري الـ اذق، قد بات شديد الصلة بـ «بن جوريون» إبان فترة التحولات السياسية العاصفة التي شهدتها إسرائيل وقال لرئيس الوزراء أن هارئيل «أهدر الموارد وأن عملية الإنقاذ بأسرها كانت سمة بارزة لرئيس مخابرات قضى فترة طويلة في وظيفته. وقبل بن جوريون ذلك بعد أن نسي أنه هو الذي أصدر أوامره لهارئيل بإتمام العملية. وفي الخامس والعشرين من مارس (آذار) ١٩٦٣ م وبعد أسابيع من الانتقادات المكثفة، استقال هارئيل وهو في الخمسين من عمره.

وبعد عدة ساعات، أتى رجل نحيل طويل القامة بملامح حادة لممثل وهي المهنة التي كان من الممكن أن يشغلها، وسار بخطوات واثقة داخل مقر الموساد ليتسلم القيادة. ولم يكن هذا الرجل سوى مائير عاميت. ولم يحتج أي أحد لإخباره بأن تغيرات جذرية على وشك الحدوث.

فبعد خمس عشرة دقيقة من استقراره في مكتبه، استدعى رئيس الموساد الجديد كل رؤساء الإدارات التابعة له. فاصطفوا أمامه بينما لاذ هو بالصمت محدقاً في أعينهم، وبصوته الحاد القوي الذي أدار به من قبل معارك أرضية لا تعد ولا تحصى خاطبهم:

«لن تنفذ في ما بعد أية عمليات لاستعادة أطفال مفقودين. ولن يسمح بأي تدخل سياسي لا مبرر له». وأنه سيناضل للحصول على مزيد من الأموال من ميزانية الدفاع للحصول على أحدث المعدات والموارد الأخرى المساندة. غير أن ذلك كله لم يكن مؤشراً على إغفال أثمن ما يمتلكه على الإطلاق وهو العنصر البشري في عمل المخابرات وطلب إلى معاونيه أن تكون هذه هي أعظم المهارات التي يجب أن يتحلى بها الموساد.

وبعد تولي مائير عاميت القيادة بفترة وجيزة تقدم رجل سمى نفسه «سلمان» إلى السفارة اليهودية الأرثوذكسية في باريس ويحمل في جعبته عرضاً مذهلاً: في مقابل مليون دولار أميركي نقداً يضمن تزويدهم بالطائرة التي أحيطت بسرية كبيرة في العالم آنذاك وهي الطائرة المقاتلة الروسية ميج - ٢١. واختتم سلمان عرضه المذهل هذا على أحد الدبلوماسيين الإسرائيليين بطلب غريب غير مألوف مفاده «أرسل شخصاً إلى بغداد، واطلب هذا الرقم تلفونياً، واسأل عن جوزيف، وجهز مبلغ المليون دولار المطلوب». وأرسل الدبلوماسي تقريره إلى الضابط المختص المقيم في السفارة الذي كان أحد الناجين من حركة التطهير التي أعقبت تعيين مائير عاميت، فبعث بالتقرير إلى تل أبيب مرفقاً به رقم التلفون الذي تركه سلمان. ومضى مائير عاميت يقلب الأمر في ذهنه ويتصفحه لعدة أيام. فربما يكون سلمان هذا محتالاً محترفاً أو دجالاً، أو أن يكون هذا جزءاً من مؤامرة عراقية لمحاولة الإمساك بأحد عملاء الموساد، كما كانت هناك مخاطرة شديدة في انكشاف سواتر ضباط مختصين آخرين يعملون تحت ساتر قوي في العراق. غير أن الفرصة التي لاحت في الأفق للحصول على طائرة ميج - ٢١ لم تكن لتقاوم. فسعة خزان وقودها وطيرانها على ارتفاعات عالية وسرعتها وتسليحها وزمن مناورتها الكبير جعلت منها الطائرة الأولى المقاتلة على خط المواجهة عند العرب. وكان قادة السلاح الجوي الإسرائيلي على استعداد لأن يدفعوا ملايين الدولارات لمجرد إلقاء نظرة على نموذج تصميم هذه الطائرة، فما بالك بالطائرة ذاتها في أيديهم.

ذهب مائير عاميت إلى فراشه يفكر في الطائرة وكان يردد قائلاً: «اصحو من نومي منشغلاً بها، وهي معي وأنا أستحم وأراها أمامي على

ـائدة العشـاء، فهـي لا تغيـب عنـي لحظـة. ومتـابعـة شبكـات التسلـح المتقدمة للعدو يأتي في صدر أولويات أي جهاز مخابرات فاعل نشط والاستحواذ على هذه الطائرة أمر لا يحدث عادة إلا في ما ندر».

تمثلت الخطوة الأولى في إرسال عميل إلى بغداد واختار مائير عاميت إسماً مستعاراً له وكان إسماً إنجليزياً حمله جواز سفره: جورج بيكون. وقال: «لن يخطر على بال شخص أن يهودياً يمكن أن يحمل إسماً كهذا «وتقرر أن يسافر بيكون إلى بغداد بوصفه مدير مبيعات شركة مقرها لندن تبيع أجهزة أشعة للمستشفيات».

وصل بيكون إلى بغداد على طائرة أميريكية ومعه صناديق تحوي عينات من الأجهزة وأظهر حسن استيعابه للمهمة المنوطة به بأن باع اجهزة كثيرة للمستشفيات. وفي مستهل أسبوعه الثاني هناك اتصل برقم الهاتف الذي وافاه به سلمان. احتوى تقريره للموساد على العديد من التفاصيل الحية: استخدمت هاتفاً بالعملة في بهو الفندق. وكان احتمال تسجيل مكالمات هاتف البهو أقل من هاتف الغرفة. وجاء رد المكالمة على الفور من شخص يتحدث الفارسية يسأل عن المتكلم، فاجبته بالانـجليزية معتذراً عن طلب رقم خاطىء، فرد بالانجليزية مستفسراً عن المتحدث، قلت له أني صديق لجوزيف. فسأل هل يوجد شخص هنا بهذا الاسم؟ ثم طلب مني الانتظار واعتقدت أنهم ربما يتتبعون المكالمة وأن هذا فخ منصوب. ثم سمعت صوتاً مهذباً يقول لي انه جوزيف وأنه سعيد لاتصالي ثم سألني إن كنت أعرف باريس، فأدركت أن الاتصال تحقق!

وجد بيكون نفسه يوافق على حضور اجتماع في مقهى ببغداد ظهر اليوم التالي. وفي الساعة المحددة جاءه رجل وقدم نفسه مبتسماً

على أنه جوزيف، بوجه تكسوه التجاعيد وشعر أبيض. وجاء تقرير العميل مرة أخرى معبراً عن المناخ السريالي لهذه اللحظات أصدق تعبير:

«أعرب جوزيف عن فرط سعادته للقائي وكأنني قريب له طال انتظاره. ثم بدأ يتحدث عن أحوال الطقس وكيف أن نوعية الخدمة تدنت في مثل هذا النوع من المقاهي. وبدأت تراودني فكرة أنني هنا في وسط بلد معادٍ سيقتلني أعضاء جهاز الأمن فيه حتماً إذا ما أتيحت لهم الفرصة وهم يستمعون إلى حديث غير مترابط لرجل عجوز هرم. واستقر رأيي على أنه أياً كان هذا الشخص وأياً كانت علاقته بسلمان في باريس، فإن جوزيف لا يمكن بأية حال أن يكون ضابط مكافحة تجسس، فهدأت نفسي كثيراً لهذا الخاطر. وقلت له إن أصدقائي أبدوا اهتماماً كبيراً بالبضاعة التي نوه إليها صديقه، فأجاب: «أن سلمان هو ابن أخ لي يعيش في باريس ويعمل نادلاً في أحد مقاهيها، وأن أفضل العاملين في هذه المهنة غادروا المكان». عندئذٍ اتكأ جوزيف على الطاولة قائلاً: «لقد جئت من أجل الميج، أليس كذلك؟ سأرتب لك الأمر، وإن كان سيكلفك مليون دولار»، على هذا القدر من البساطة. وأحس بيكون أنه ربما يكون لجوزيف مظهر لا يدل عليه، ثم وجد نفسه متيقناً من هذا الظن. وعندما بدأ يطرح عليه الأسئلة أجاب الرجل: «ليس هنا، فربما تكون للناس آذان في كل مكان». ثم رتب لموعد آخر في اليوم التالي في متنزه عام على ضفاف نهر الفرات الذي يشق المدينة بأسرها. وفي هذه الليلة جافاه النوم وهو يفكر في ما إذا كان قد وقع في فخ تنصبه له المخابرات العراقية على مهل وعلى أقل تقدير، أو محتالون يستخدمون جوزيف كواجهة ليس إلا. وكشف اجتماع اليوم التالي شيئاً عن خلفية جوزيف ودوافعه. كان جوزيف سليل أسرة

يهودية عراقية فقيرة. وعمل في صباه خادماً لدى عائلة مسيحية ثرية من الموارنة في بغداد. وبعد ثلاثين عاماً من الخدمة المخلصة طرد فجأة لاتهامه خطأ بسرقة الطعام. ووجد نفسه يوم عيد ميلاده الخمسين شريداً في الشوارع. ولما منعته سنه المتقدمة من البحث عن عمل آخر، اكتفى بالعيش على راتبه التقاعدي المتواضع. وقرر أيضاً البحث عن جذوره اليهودية. وناقش الأمر مع أخته الأرملة «مانو» التي كان ابنها «منير» طياراً بالقوات الجوية العراقية. واعترفت له مانو بأنها تود من صميم قلبها أن تذهب إلى إسرائيل، ولكن كيف يتأتى لها ذلك؟ فمجرد طرح الفكرة يودي بهما إلى المعتقل. وترك أحد هناك بعد رحيلهما يضمن للسلطات إنزال أشد العقاب بهم وربما قتلهم. ثم من أين يحصلون على المال؟ عندئذٍ تنهدت وذكرت أن ذلك حلم مستحيل. غير أن الفكرة سيطرت على عقل جوزيف. وعلى مائدة العشاء ذكر منير أن قائده تباهى دائماً بأن إسرائيل على استعداد لدفع ثروة مقابل طائرة ميج مثل التي يقودها، وقال: «ربما يصل المبلغ إلى مليون دولار أميركي يا خال جوزيف».

وأثار المبلغ اهتمام جوزيف. فبمقدوره أن يرشو المسؤولين ويدبر وسيلة للهروب، بل يستطيع بهذا المبلغ دفع تكاليف رحلة الأسرة كلها خارج العراق. وكلما تعمق في التفكير، ازداد قناعة بإمكانية التنفيذ. ومنير يحب أمه وعلى استعداد أن يفعل أي شيء من أجلها حتى سرقة طائرته من أجل مليون دولار. ولن يكون جوزيف بحاجة إلى الترتيب لهروب العائلة، كل ما في الأمر أنه سيدع الإسرائيليين ينفذون ذلك، ومهارتهم في هذا الصدد لا تخفى على أحد. وكان ذلك هو السبب الذي من أجله أرسل سلمان إلى السفارة. وابتسم جوزيف منشرحاً وهو يقول لبيكون: «إذن أنت هنا بيننا يا صديقي»[1].

«وماذا عن منير؟ هل لديه فكرة عما يحدث؟».

«أجل، ووافق على سرقة الطائرة الميج شريطة حصوله على نصف المبلغ الآن، والباقي قبيل التنفيذ مباشرة».

وأصاب بيكون الذهول. فكل ما سمع عنه بدا صحيحاً وممكناً. وكان عليه إبلاغ مائير عاميت بالتفاصيل.

وفي تل أبيب، ظل رئيس الموساد يستمع لتقرير بيكون طوال فترة بعد الظهر. وفي النهاية سأل مائير عاميت: «أين يرغب جوزيف في تسلم المبلغ؟». «في مصرف سويسري. فلجوزيف ابن عم في أمس الحاجة إلى علاج طبي غير متوفر في بغداد. واستأذن السلطات العراقية له بالسفر إلى سويسرا. وعندما يصل إلى هناك، فإنه ينتظر الحصول على المبلغ الذي أودعناه بالبنك».

وعلق مائير عاميت ساخراً: «داهية، جوزيف هذا. فما أن يتم إيداع المبلغ في المصرف حتى يستحيل استعادته ثانية».

ثم طرح سؤالاً آخر على بيكون: «لماذا تثق كل هذه الثقة بجوزيف؟».

فأجابه بيكون: «لأن هذا هو الخيار الوحيد أمامي».

وأقر مائير عاميت بضرورة إيداع نصف مليون دولار في الفرع الرئيسي لبنك كريدي سويس بجنيف. كان يقامر بما هو أخطر من المال. وكان يدرك أنه ربما لا يستمر في منصبه لو ثبت أن جوزيف هو ذلك المخادع الفذ الذي يعتقد ضباط الموساد أنه على هذا القدر من البراعة.

وحان وقت إطلاع بن جوريون رئيس الوزراء ورئيس أركانه

إسحق رابين. وأعطى الرجلان الضوء الأخضر لتنفيذ العملية. وإن كان مائير عاميت لم يبلغهما بالخطوة الأخرى التي اتخذها وهي سحب شبكة الموساد بأكملها من العراق. وجاء في التقرير:

«لم أكن أريد إذا فشلت المهمة، قطع رأس أحد سواي. وقد شكلت خمس مجموعات: «المجموعة الأولى للاتصال بيني وبين بغداد. ولن تستخدم هذه المجموعة اللاسلكي إلا إذا نشبت أزمة ما. وعدا ذلك لا أريد سماع أصواتهم على الإطلاق. أما المجموعة الثانية فقد تقرر أن تبقى في بغداد دون أن يعلم بها أحد، بمن فيهم بيكون نفسه والمجموعة الأولى ذاتها ـ لا أحد على الإطلاق. ومهمتها تهريب بيكون خارج البلاد إذا وقعت مشكلة معينة، ومعه جوزيف أيضاً إن أمكن.

وكلفت المجموعة الثالثة بمراقبة الأسرة كلها، والمجموعة الرابعة بالاتصال بالأكراد الذين سيساعدون الأسرة في المرحلة الأخيرة من الهروب. وكانت إسرائيل تزودهم بالسلاح اللازم. وكلفت المجموعة الخامسة بالاتصال بواشنطن وتركيا. وحتى تخرج الميج من العراق، كان لا بد لها من الطيران فوق المجال الجوي التركي حتى تصل إلينا. وكان على واشنطن، التي تمتلك قواعد في شمال تركيا إقناع الأتراك بالتعاون في العملية بالقول إن الميج ستنتهي رحلتها في الولايات المتحدة. وهنا علمت أن العراقيين خشوا احتمال انشقاق أحد طياريهم والسقوط في أحضان الغرب. ولذا كانوا يزودون خزانات الوقود بنصف سعتها المقررة فقط، وكان هذا أمراً لا نملك شيئاً حياله».

غير أنه كانت هناك مشكلات أخرى. إذ قرر جوزيف ضرورة ألا تقتصر فرصة الهروب من جحيم النظام العراقي على أفراد أسرته المقربين فحسب، بل تمنح لأبناء عمومته أيضاً. أي أنه أراد نقل ثلاثة

وأربعين شخصاً إلى بر الأمان. ووافق مائير عاميت، ليواجه مزيداً من القلق والتوتر. فها هو بيكون يبعث من بغداد برسالة مشفرة مفادها أن منير متردد. «وشعر رئيس الموساد بكل ما يدور هناك».

فمنير عراقي أولاً وأخيراً، والعراق لم يبخل عليه بشيء. ومسألة خيانة بلده لحساب إسرائيل هي فكرة غير مستحسنة. وقد تعلم طوال حياته أننا العدو والخصم. ورأيت أن الأسلوب الوحيد، إقناعه بأن الميج سوف تتجه إلى أميركا مباشرة. ولذا طرت إلى واشنطن لمقابلة ريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزية وقتذاك. واستمع الرجل لي وقال مخففاً إنه لا توجد مشكلة من أي نوع كدأبه دائماً. ثم رتب الرجل مقابلة بين منير والملحق العسكري الأميركي في بغداد..

أكد الملحق أن الطائرة ستسلم للولايات المتحدة. وتحدث كثيراً مع منير عن مسألة معاونة أميركا على اللحاق بما حققه الروس من تقدم. ويقبل منير ويوافق على التنفيذ». وتمضي العملية في مسارها الطبيعي، ويتسلم قريب جوزيف تصريح الخروج من السلطات العراقية ويطير إلى جنيف، ومن هناك يرسل بطاقة بريدية تقول بأن «ترتيبات المستشفى على أكمل وجه. وأكد لي المستشفى الخاص على إتمام شفاء الحالة». وكانت هذه الإشارة تدل على أن دفعة النصف مليون دولار قد تم إيداعها بالبنك.

وبعد أن اطمأن جوزيف إلى سير الأمور، أخبر بيكون أن الأسرة على استعداد تام. وقام جوزيف، عشية إقلاع منير بطائرته، باصطحابهم في قافلة من السيارات صوب الشمال إلى منطقة الجبال الباردة. ولم تعترضهم نقاط التفتيش العراقية، إذ كان من عادة العراقيين أن يفروا كل صيف من حر بغداد الخانق وكان الأكراد في

انتظارهم ومعهم مجموعة الاتصال الإسرائيلية. وهناك قادوا الأسرة إلى أغوار الجبال حيث كانت الطائرات المروحية التابعة للقوات الجوية التركية في انتظارهم. وعبرت الطائرات المجال الجوي إلى تركيا تحت مستوى الرادار.

واتصل عميل إسرائيلي بمنير، يخبره أن أخته وضعت طفلة في ولادة طبيعية آمنة. وكانت هذه رسالة مشفرة أخرى متفقاً عليها.

وفي صباح اليوم التالي في الخامس عشر من أغسطس ١٩٦٦ م، أقلع منير بطائراته في مهمة تدريبية. وبعد أن تأكد من ابتعاده عن المطار بمسافة كافية زاد سرعة الطيران إلى أقصى درجة وبدأ يعبر الحدود التركية قبل أن تسنح الفرصة لأي طيارين عراقيين آخرين بأن يتلقوا تعليمات بإطلاق النيران على الطائرة وإسقاطها. وهبط منير في إحدى القواعد الجوية في حراسة طائرات الفانتوم الأميركية، حيث تزود بالوقود وأقلع بطائرته مرة أخرى. وتلقى رسالة لاسلكية تقول له صراحة هذه المرة «إن أسرتك في أمان تام وهم في سبيلهم إلى الانضمام إليك».

وبعد ساعة هبطت الطائرة الميج في إحدى القواعد الجوية العسكرية بشمال إسرائيل. وبذا أصبح الموساد جهازاً خطيراً فاعلاً على الساحة الدولية. وأصبحت العمليات التي يديرها جهاز المخابرات الإسرائيلي تعرف فيما بعد أما بعمليات «BA- قبل عاميت» أو «AM بعد ماثير».

الفصل الثالث:

(خطط جيلوت)

استمر مائير عامير في قيادة سيارته بسرعة تتعدى السرعة المسموح بها بقليل حتى بعد خروجه من الطريق السريع ولم يكن ذلك جديداً عليه إذ كان عدم الإنصياع للقانون والنظام قد صار جزءاً من حياته منذ أن دبر ـ قبل ذلك بأربعين عاماً ـ سرقة طائرة نفاثة عراقية.

كانت مقاومته المتهورة لكل ما هو قواعد امتدادا لما نشأ عليه في الجليل حيث يقول سكانها: «نحن عنيدون» فقد ولد مائير عاميت في طبرية المدينة الأثيرة لدى الملك هيرودوس قرب شاطيء بحر الجليل. وقضى سنوات نشأته الأولى في إحدى المزارع الجماعية (الكيبوتزات) لكن لكنته ابتعدت منذ مدة طويلة عن لهجته المحلية بفضل ما تعلمه على يد أمه من طريقة الحديث حيث كانت تعمل مدّرسة لمادة البلاغة، كما زرعت في ابنها شعوره بالإستقلال وعزوفه عن التهاون مع الحمقى، وعدم قدرته على إخفاء مشاعر الإزدراء لسكان المدن، وأهم من ذلك كله إنها شجعت لديه ملكة التحليل والقدرة على التفكير المتعمق.

على امتداد حياته المهنية الطويلة، استخدم مائير عاميت هذه الصفات في اكتشاف نوايا العدو، لأن التحركات التي كانت يتعين عليه القيام بها كانت في الغالب من نوع لا يتحمل انتظار الوصول إلى التأكد القاطع من كل شيء. كما أن الخداع كان محور عمله. وفي بعض الأحيان كان القلق يساور ناقديه في أجهزة المخابرات الإسرائيلية إذ

كانوا يرون أن خياله يشتط بعيداً في بعض الأحيان، وكان يرد دائماً على ناقديه بقوله: عودوا إلى ملف قضية سرقة الميج. في صباح ذلك اليوم من أيام شهر مارس ١٩٩٧ كان مائير عاميت ـ وهو يواصل قيادة سيارته على الطريق السريع خاجاً من تل أبيب، قد أصبح من الناحية الرسمية في صفوف المتقاعدين، لكن دوائر المخابرات الإسرائيلية بأسرها لم تكن تصدق ذلك، فقد كان لديه من المعرفة ما لا يمكن التضحية به بتلك السهولة وإيداعها زوايا النسيان.

قبل ذلك بيوم واحد كان مائير عاميت قد عاد من مدينة هوشي مينه حيث كان يزور بعض الضباط السابقين في مخابرات الفيت كونج. وفي تلك الزيارة تبادل معهم الدروس المستفادة التي حقق بها كل منهم التفوق على خصمه: تفوق الفيتناميين على الأميركيين وتفوق إسرائيل على العرب. كانت زيارة مائير عاميت لفيتنام واحدة من زيارات عديدة سابقة شملت عمان (الأردن) والقاهرة وموسكو، قام خلالها بمناورات سرية أثارت الهلع لدى ناقديه ولم يكن أحد يجرؤ على التشكيك في أغراض تلك الزيارات تماماً كما لم يستطع أحد أن ينجح في الطعن في أي من مصادره أو أساليب عمله طوال خمس سنوات حاسمة (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨) قضاها في منصب مدير عام الموساد.

في تلك السنوات الخمس استطاع مائير عاميت أن يجعل من العنصر البشري في عمل المخابرات (المعروف اصطلاحاً باسم Humint) إلى فن قائم بذاته، ولم يستطع أي جهاز آخر من أجهزة المخابرات أن يباري رجال مائير عاميت في جمع المعلومات من الميدان، فقد زرع جواسيسه بأعداد أكثر من ذي قبل في كل بلد عربي، وفي طول أوروبا وعرضها، وفي أميركا الجنوبية وفي أفريقيا وفي الولايات المتحدة، واخترق رجال المخابرات الميدانيون (الكاتسا) المخابرات الأردنية التي تعد أفضل جهاز

مخابرات عربي والمخابرات العسكرية السورية التي تعد أشدها وحشية فقد كان رجاله في الميدان من النوع الذي يتسم بهدوء الأعصاب والعزم الذي لا يلين.

في أعقاب تولي مائير عاميت منصب مدير عام الموساد وزع على أفراد الجهاز نسخاً من مذكرة كان أحد عملائه في الميدان قد سرقها من مكتب ياسر عرفات وكان نص تلك المذكرة كالآتي: «لدى الموساد ملف عن كل واحد منا فهم يعرفون أسماءنا وعناوين مساكننا ونحن نعلم أن كل ملف من ملفاتهم عنا فيه صورتان أولاهما بدون الكوفية والأخرى بالكوفية ولذا فإن الموساد لن يجد صعوبة في تعقبنا ونحن نضع الكوفية على رؤسنا أو ونحن نسير حاسري الرؤوس».

لكي يزرع مائير عاميت المزيد من الخوف قام بتجنيد عدد لم يسبق له مثيل من المرشدين العرب إذ كان يستند في عمله على مبدأ مفاده أنه بالمجرى العادي لسير الأمور سيكون في وسعه اكتشاف عدد كافٍ ممن تثبت فائدتهم. فقد سبق أن جعلت الرشوة بعض العرب يخونون عناصر مسلحة في منظمة التحرير الفلسطينية، ويبلغون عن أماكن إخفاء أسلحتهم، والمساكن الآمنة التابعة لهم، وترتيبات سفرهم. وكان مائير عاميت يدفع لكل مرشد دولاراً أميركياً واحداً كمنحة إضافية مقابل كل واحد.

وفي الأيام التي كانت تشهد الإعداد لحرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧ م كان هناك إما فرد ميداني (كاتسا) من الموساد أو مرشد مجند من قبل الموساد في كل قاعدة جوية وكل قيادة عسكرية في مصر. وكان هناك عدد لا يقل عن ثلاثة من هؤلاء في مقر القيادة العامة في القاهرة وكان هؤلاء من ضباط الأركان الذين أغراهم مائير عاميت بذلك. أما كيف تمكن من ذلك فقد ظل سراً لا يبوح به إذ كان يقول: «هناك أمور من الأفضل أن تظل سراً كما كانت».

وكانت تعليماته لكل مرشد وكل فرد ميداني هي نفس التعليمات وهي أنه يريد «الصورة كاملة» وعلاوة على ذلك يريد «التفاصيل الدقيقة». فما هو عدد الخطوات التي يخطوها الطيار من تكنته إلى «الميس» لتناول طعامه؟ وما هو الوقت الذي يضطر ضابط أركان لقضائه حبيساً لزحام الطرق الذي تشتهر به القاهرة؟ وهل لأحد القادة العاملين في التخطيط عشيقة؟ لقد كان مائير عاميت وحده هو الذي يفهم تماماً كيفية الاستفادة من هذه الأمور التي لا رابط بينها.

نجح واحد من أفراد الموساد الميدانيين (الكاتسا) في الحصول على وظيفة «سفرجي» في ميس الضباط بإحدى القواعد الجوية على خط الجبهة. وكان يقوم كل أسبوع بإرسال تفاصيل عن درجة استعداد الطائرات، وأسلوب حياة الطيارين والفنيين، تلك كانت المعلومات الخاصة بعاداتهم في تناول الشراب ومتعهم الجنسية من بين ما يرسل باللاسلكي سراً إلى تل أبيب.

كان الموساد قد أنشأ منذ وقت قريب إدارة جديدة هي إدارة الحرب النفسية (لوح أما بيسكولوجيت) (LAP) وكانت تلك الإدارة تعمل ليل نهار لإعداد ملفات عن الطيارين والأطقم الأرضية وضباط الأركان المصريين ومهاراتهم في الطيران وما إذا كانوا يشغلون مناصبهم بالكفاءة أو «بالواسطة» ومن منهم يشرب الخمر ومن منهم يتردد على المواخير أو يعاني من الشذوذ الجنسي.

وكان مائير عاميت يقضي ساعات طويلة من الليل يتفحص تلك الملفات بحثاً عن نقاط الضعف، ومن يمكن ابتزازهم لإجبارهم على العمل لصالحه وكان يقول: «لم تكن هذه مهمة تبعث على الارتياح لكن عمل المخابرات يتسم غالباً بالقذارة».

وبدأت عائلات عسكريين مصريين تتلقى خطابات من مجهولين مرسلة من القاهرة تكشف عن تفاصيل فاضحة عن سلوك الأب الذي تحبه العائلة، وأبلغ المرشدون تل أبيب بتفاصيل المشاكل الأسرية التي أجبرت بعض الطيارين على طلب إجازات مرضية. وبدأ بعض ضباط الأركان يتلقون مكالمات هاتفية من مجهولين، تقدم تفاصيل عن الحياة الشخصية لزملاء لهم. وتلقى مدرس بإحدى المدارس مكالمة ذات يوم من سيدة تبدو نبرات صوتها في حالة من الشفقة تقول له فيها: «إن ضعف المستوى الدراسي لإحدى تلميذاته يعود إلى أن والد تلك التلميذة وهو ضابط برتبة رفيعة على علاقة جنسية سراً برجل آخر». وقد أدت تلك المكالمة إلى انتحار ذلك الضابط بالرصاص. وقد سببت تلك الحملة التي نفذت بلا هوادة بلبلة واضحة بين العسكريين المصريين الأمر الذي حقق الكثير من الارتياح لدى مائير عاميت.

وفي أوائل عام ١٩٦٧ م أصبح واضحاً من كل الدلائل التي ترسلها إليه شبكته في مصر، أن زعيمها جمال عبد الناصر كان يعد لشن حرب ضد إسرائيل. وتم تجنيد المزيد من المرشدين بطرق نزيهة أو غير نزيهة لمساعدة الموساد على معرفة كل ما يمكن معرفته عن سلاح الطيران والقيادة العسكرية في مصر، وكذلك فعلت القاهرة نفس الشيء.

في أوائل شهر مايو عام ١٩٦٧ م استطاع مائير عاميت أن يعطي قادة سلاح الطيران الإسرائيلي الوقت الصحيح الذي يمكنهم فيه أن يوجهوا ضربة قاضية إلى القواعد الجوية المصرية، فقد نجح محللو الموساد نجاحاً كبيراً في رسم خريطة للحياة في جميع القواعد الجوية المصرية.

ففيما بين السابعة والنصف والسابعة وخمس وأربعين دقيقة كانت وحدات الرادار بالقواعد الجوية في أشد أوضاعها انكشافاً.

في تلك الدقائق الخمس عشرة كان الذين أمضوا نوبتهم المسائية قد حل بهم التعب بعد النوبة الطويلة، بينما لم يكن زملاؤهم القادمون للحلول محلهم قد أخذوا أهبتهم كاملة بعد، بل إنهم عادة ما يتأخرون في تسلم عملهم بسبب بطء الخدمة في قاعات الطعام. وكان الطيارون يتناولون وجبة الإفطار ما بين السابعة والربع والثامنة إلا ربعاً صباحاً، ويتوجهون بعد ذلك إلى ثكناتهم لارتداء ملابس الطيران. وتستغرق هذه العملية في المتوسط عشر دقائق. ويقضي معظم الطيارين عدة دقائق أخرى في دورات المياه قبل التوجه إلى مكان اصطفاف الطائرات. وقد وصلوا إلى هناك في الثامنة صباحاً، الموعد الرسمي لبدء العمل. وفي تلك الأثناء كانت الأطقم الأرضية قد بدأت في إخراج الطائرات من حظائرها لتموينها بالوقود وتسليحها. وعلى مدى ربع الساعة التالي ازدحم مكان الاصطفاف بعربات الوقود والذخيرة.

وكان هناك جدول تفصيل مشابه يجري أعداده لتحركات ضباط الأركان في القيادة العليا بالقاهرة. وكان الضابط يستغرق في المتوسط ثلاثين دقيقة بالسيارة من منزله في إحدى ضواحي القاهرة إلى مقر عمله. ولم يكن المخططون الاستراتيجيون يصلون إلى مكاتبهم قبل الثامنة والربع. ويقفون عادة عشر دقائق أخرى في ترتيب الأشياء للعمل واحتساء القهوة وتناول الحديث مع الزملاء. ولم يكن ضابط الأركان في المعتاد يبدأ قراءة ملفات الإشارات الليلية الواردة من قواعد الطيران قبل الثامنة والنصف تقريباً.

وأبلغ مائير عاميت قائد سلاح الطيران الإسرائيلي أن الطائرات

يجب أن تصل إلى الأهداف المحددة لها في ما بين الثامنة والثامنة والنصف صباحاً. وفي تلك الدقائق الثلاثين بمقدورها أن تدمر قواعد العدو نظراً لأن القيادة العليا في القاهرة لن يكون بها من القادة ما يكفي لتوجيه الرد على الطائرات المغيرة. وفي الخامس من يونيو ١٩٦٧ م ضرب الطيران الإسرائيلي ضربته في الثامنة ودقيقة واحدة تماماً وأصاب أهدافه بإصابات مدمرة حيث اندفعت طائراته بخفة وبارتفاع منخفض فوق سيناء تقصف وتدمر كيفما تشاء. وتحول لون السماء في لحظات إلى اللون الأسود المشوب بالحمرة مع تصاعد ألسنة اللهب من عربات الوقود المحترقة والذخيرة المتفجرة والطائرات.

وفي تل أبيب كان مائير عاميت يطل من نافذة مكتبه باتجاه الجنوب واثقاً من أن محللي جهاز المخابرات قد حسموا بالفعل نتيجة الحرب. ولقد كانت تلك واحدة من الأمثلة المذهلة على مهاراته الفذة بل والأكثر روعة قياساً على حجم العاملين بالموساد.

ولقد قاوم مائير عاميت منذ تولى منصبه على رأس الموساد كل المحاولات الرامية إلى تحويل الجهاز إلى نسخة من المخابرات الاميركية (سي. أي. إيه) أو المخابرات السوفياتية (كي. جي. بي).

وكان هذان الجهازان يستخدمان مئات الآلاف من المحللين والعلماء وخبراء الاستراتيجية والمخططين لدعم جهود العملاء الميدانيين. وكان لدى العراقيين والإيرانيين ما يقدر بعشرة آلاف عميل ميداني. بل أن المخابرات الكوبية (دي. جي. أي) لديها ما يقرب من ألف جاسوس. لكن مائير عاميت أصر على ألا يتجاوز إجمالي العاملين الدائمين بالموساد ٢١٠٠ فرد. ويتم اختيار كل منهم بعناية بحيث يكون متعدد المواهب، فالعالم يجب أن يكون قادراً على العمل الميداني عند

الاقتضاء، والعميل الميداني يجب أن تكون لديه القدرة على استخدام مهارات متخصص لتدريب الآخرين.

أما هو فلن يكون بالنسبة لهم إلا (ميميون) وهي كلمة عبرية معناها بالتقريب الأول بين أكفاء. وبهذا اللقاء فإنه يتمتع بصلاحيات الاتصال برئيس الوزراء ومقابلته دون عوائق، وعرض ميزانية الموساد سنوياً على مجلس الوزراء الإسرائيلي لتنال موافقة مضمونة.

أرسى مائير عاميت قدرة الموساد على بث الرعب الفتاك في نفوس أعداء إسرائيل قبل وقت طويل من حرب الأيام الستة، واختراق صفوفهم وسحب أسرارهم من بين أيديهم وقتلهم ببراعة فائقة. وسرعان ما جعل للموساد منزلة أسطورية.

إن جانباً كبيراً من هذا النجاح يرجع إلى القواعد التي وضعها لاختيار العملاء الميدانيين الذين يمثلون في الأساس العنصر الفعال في نجاح الموساد. لقد كان يدرك تمام الإدراك الدوافع العميقة والمقدرة التي جعلتهم يصافحونه عند اختيارهم للعمل، في إيماءة إلى أنهم أصبحوا الآن طوع بنانه، يأمرهم بما يريد.

وبينما كانت هناك أشياء كثيرة لمستها يد التغيير في الموساد، فإن مائير عاميت كان يعرف في صبيحة ذلك اليوم من شهر مارس ١٩٩٧ م أن معاييره لاختيار العاملين ظلت كما هي.

فلا يقبل أي عميل ميداني للعمل بالموساد إذا كان المال هو دافعه الأول. كما أن الصهيوني المفرط الحماس لا مكان له أيضاً في هذا العمل. فهذا النوع من الحماس يقف حائلاً دون الفهم الواضح لطبيعة العمل وأهدافه. إنه عمل يتطلب التقدير الهادئ الواضح بعيد النظر والنظرة المتوازنة للأمور. إن الناس يرغبون في الانضمام للموساد

لأسباب عديدة. فهناك ما يسمى بالبريق. كما أن البعض يفتن بفكرة المغامرة. ويرى البعض أن الانضمام للموساد يعزز مكانتهم فقليل الشأن يريد أن يصبح ذا شأن. وقليلون يرغبون في النفوذ الخفي الذي يعتقدون أن الانضمام للموساد سيقدمه لهم وما من سبب من هذه الأسباب يصلح للانضمام.

ويجب على الدوام ضمان أن يعرف رجلك في الميدان أنك تسانده تمام المساندة، وأنك تسهر على عائلته وتتأكد أن أطفاله سعداء. وفي الوقت نفسه يجب أن تحميه. فإذا بدأت زوجته تتساءل عما إذا كانت له علاقة غرامية بامرأة أخرى يجب أن تطمئنها إلى أن هذا لم يحدث. وإذا كان على علاقة بامرأة فلا تخبرها. وإذا كانت زوجته هي التي تخونه، أعدها إلى طريق الاستقامة والفضيلة ولا تخبر زوجها. فأنت لا تريد لشيء أن يشتت انتباهه. وإن من مهمة معلم الجواسيس أن يعامل رجاله كأنهم عائلته وأن يجعلهم على يقين بأنه حاضر دائماً لمساندتهم ليلاً ونهاراً وأياً كان الوقت. وبهذا تشتري الولاء وتجعل العميل الميداني يؤدي ما تريد. وفي نهاية الأمر فإن ما تريده هو المهم.

يخضع أي عميل ميداني لتدريب مكثف مدته ثلاثة أعوام بما في ذلك استخدام عنف بدني شديد أثناء استجوابه. ويصل كل عميل، أو عميلة، إلى درجة البراعة في استخدام سلاح الموساد المختار مسدس بيرتا عيار ٢٢.

وقرر الموساد أن يرسل عملاء ميدانيين للعمل خارج البلدان العربية، في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا. وفي الولايات المتحدة كان هناك عملاء ميدانيون دائمون في نيويورك وواشنطن. وكان للعميل الميداني في نيويورك مهمة خاصة هي اختراق كل البعثات الدبلوماسية لدى الأمم المتحدة، والمجموعات العرقية المتعددة في

المدينة. أما العميل الميداني في واشنطن فكانت له مهة مماثلة إضافة إلى مسؤولية «مراقبة» البيت الأبيض.

وأما العملاء الميدانيون الذين يقومون بمهام في مناطق الأزمات فإنهم يعودون إلى الوطن عندما تنتهي المهمة.

كما وسع مائير عاميت حجم الموساد إلى حد كبير ليضم إدارة التجميع المسؤولة عن عمليات جمع المعلومات في الخارج وإدارة العمل السياسي والاتصال التي تعمل مع ما يسمى أجهزة المخابرات الأجنبية الصديقة، وهي في المقام الأول المخابرات الأميركية (سي. أي. إيه) والخابرات البريطانية M16. وكانت إدارة البحوث تضم ٥١ قسماً أو «شعبة» مختصة بالدول العربية.

وكانت هناك أيضاً شعب تختص بالولايات المتحدة وكندا وأميركا اللاتينية وبريطانيا وأوروبا والاتحاد السوفياتي. وعلى مدى الأعوام اتسع هذا الهيكل ليشمل أيضاً الصين وجنوب إفريقيا والفاتيكان لكن الموساد سيظل من حيث الأساس المنظمة الصغيرة ذاتها.

لم يكن يمر يوم دون وصول مجموعات جديدة من التقارير الإخبارية من مراكز الموساد في الخارج.

وكان يجري توزيع هذه التقارير على مختلف الأقسام في مبنى الموساد المرتفع بلونه الرمادي الفاتح في شارع الملك شاؤول. وعلى حد تعبير مائير عاميت «إذا كان ذلك يجعل المرء يبدو أكثر طولاً، فلا بأس بهذا، كما أنه يضاعف الخوف بالطبع في نفوس أعدائنا».

ويتمتع عملاء الموساد الميدانيون بكفاءة مدروسة وبراعة تفوقان الحد، كما أنهم مجهزون لمحاربة النار بالنار. فقد حرضوا على قلاقل تستهدف إحداث سوء الظن بين الدول العربية وغرسوا دعاية مضادة

سوداء وجندوا الوشاة والمخبرين، منفذين بذلك فلسفة عاميت «فرق تسد». وقد أرسى رجال عاميت في كل ما قاموا به قواعد جديدة لروح الاحتراف التي لا تعرف العواطف، حيث يتحركون في الظلام كاللصوص تاركين خلفهم آثار الموت والدمار. ولم يكن أحد بمأمن من انتقامهم.

وما أن تنتهي المهمة حتى يعودا إلى مائير كي يستخلص ما لديهم من معلومات في مكتبه بنافذته الركنية التي تطل على الشارع العريض الذي أطلق عليه اسم أمير الحرب الإسرائيلي في العهد القديم. ومن هذا المكتب أدار عاميت بنفسه العمليات التي قام بها جاسوسان لا نظير لشجاعتهما في سجلات الموساد. وعندما يتذكر عاميت أعمالهما يبدو التردد في صوته وابتسامة عارضة تحمل معنى التبرير (تبرئة النفس) وهو يروي تفاصيل حياتهما.

ولد إيلي كوهين في الإسكندرية بمصر في ١٦ ديسمبر ١٩٢٤ م وكان مثل أبويه يهودياً مستقيماً ورعاً. وفي ديسمبر ١٩٥٦ م كان من بين اليهود الذين طردوا من مصر في أعقاب أزمة السويس. وعندما وصل إلى حيفا شعر بالغربة في مكانه الجديد. وفي عام ١٩٥٧ م تم تجنيده في جهاز مكافحة التجسس العسكري. لكنه شعر بالملل من وظيفة المحلل التي أسندت إليه. ومن ثم بدأ يتحرى عن كيفية الانضمام للموساد لكن طلبه رفض. ويتابع مائير عاميت حكايته قائلاً: «علمنا أن رفضنا له ضايقه أشد الضيق مما دفعه للاستقالة من الجيش وتزوج امرأة عراقية اسمها نادية».

وأمضى كوهين فترة هادئة لمدة عامين عمل خلالها كاتباً للمحفوظات في شركة تأمين بتل أبيب. وبدون أن يدري، كان مائير

عاميت قد التقط تقريراً عن نشأته وتاريخه من خلال مراجعة «ملفات المرفوضين» في الموساد. فقد كان مائير يبحث عن «عميل يعينه لأداء مهمة متميزة»، وعندما لم يجد الشخص المناسب في ملفات العاملين اتجه إلى ملفات المرفوضين. وبدا أن كوهين هو الشخص الوحيد الملائم لهذه المهمة. ومن ثم فإنه وضع تحت مجهر المراقبة. ووصفته تقارير التجنيد التي تصدر عن الموساد أسبوعياً بأنه صعب الإرضاء في ما يتعلق بعاداته، مخلص لزوجته وأسرته الصغيرة، كما أنه مثابر في عمله وسريع الاستيعاب ويحسن العمل تحت الضغوط وأخيراً تم إبلاغه أن الموساد قرر أنه «صالح» للعمل في نهاية الأمر.

ومن ثم بدأ إيلي في تلقي تدريب مكثف لمدة ستة أشهر في مدرسة تدريب الموساد.

ولقنه خبراء التخريب طريقة صنع المتفجرات والقنابل الموقوتة من أبسط المكونات. وتعلم فنون القتال بلا سلاح وأصبح رامياً من الطراز الأول وضليعاً في فنون السطو على المنازل واكتشاف أسرار الكتابة بالرموز وحل الشفرات واستخدام اللاسلكي والحبر السري وإخفاء الرسائل. وكان دائماً يثير إعجاب مدربه بما يبديه من مهارة. وكان صاحب ذاكرة فذة نتيجة حفظه عن ظهر قلب مقطوعات من التوراة وهو بعد شاب يافع. وأوضح تقرير التخرج أن لديه كل الخصائص اللازمة لكاتسا (عميل ميداني). ومع ذلك ظل مائير عاميت متردداً.

«وسألت نفسي مئات المرات هل يستطيع إيلي أن يفعل ما أريد؟ لقد أبديت له بالطبع أن ثقتي دائماً في محلها. ولم أرغب أبداً أن يفكر لحظة واحدة في أنه دائماً على مقربة من الباب المسحور الذي يدخل عن طريقه إلى المملكة. ومع ذلك فإن عدداً من أصحاب أفضل العقول

في الموساد لقنوه كل ما لديهم من علم وخبرة. وفي النهاية قررت استخدام إيلي».

أمضى مائير عاميت عدة أسابيع يعد قصة يغطي بها نشاط عميله. وكانا يجلسان معاً لدراسة خرائط الشوارع والصور الضوئية لمدينة «بوينس أيرس» حتى يتعود كوهين تماماً على بيئته الجديدة واسمه الجديد (كمال أمين ثابت). ورأى مدير الموساد أن إيلي تعلم بسرعة مصطلحات عمليات الاستيراد والتصدير مع سورية. وحفظ عن ظهر قلب الفرق بين وثائق الشحن وشهادات الشحن والعقود والضمانات وكل ما يحتاج إلى معرفته. كان مثل الحرباء يمتص كل شيء. وأمام عيني تلاشى إيلي كوهين وحل محله ثابت السوري الذي لم يكف أبداً عن الحنين للوطن ودمشق.

وازدادت ثقة إيلي بمرور الأيام وازداد يقينه وتوقه إلى إثبات قدرته على أداء الدور المطلوب منه. لقد كان مثل عداء الماراثون الذي تدرب على أن يبلغ الذروة عند بدء السباق. لكنه سيعدو في هذا السباق لسنوات. ولقد بذلنا ما في وسعنا لكي نبين له كيفية تنظيم إيقاع حياته الجديدة كي يحياها. أما الباقي فمتروك له. كلنا نعرف ذلك. ولم يكن هناك حفل توديع كبير أو اصطحاب للمطار، وإنما انسل من بيننا تاركاً إسرائيل إلى الطريق الذي سلكه كل جواسيسي».

في العاصمة السورية، ثبت كوهين أقدامه سريعاً في مجتمع الأعمال وكون لنفسه دائرة من الأصدقاء ذوي النفوذ الذين كان من بينهم (معذي زهر الدين).

وكان زهر الدين رجلاً متباهياً يتوق إلى الحديث عن قوة سورية ومنعتها. ومن هنا نفذ كوهين إليه. وفي وقت قصير أتيحت له جولة

بصحبة مرافق إلى تحصينات مرتفعات الجولان السورية. وهناك شاهد الدشم المحصنة الخرسانية في عمق الهضبة حيث نصبت المدافع الروسية طويلة المدى. بل أنهم سمحوا له بالتقاط الصور. وهكذا فإنه بعد ساعات من وصول مائتي دبابة روسية من طراز تي ٤٥ إلى سورية، كان كوهين قد أبلغ هذه المعلومات إلى تل أبيب. بل أنه حصل أيضاً على مخطط كامل لاستراتيجية سورية لعزل شمال إسرائيل. ولم تكن تلك المعلومات تقدر بثمن.

وعلى حين ظل كوهين خير دليل على اعتقاد مائير عاميت بأن عميلاً ميدانياً واحداً يساوي فرقة من الجنود فإنه أصبح أخيراً يتصرف بتهور. فقد كان دائماً من المولعين بكرة القدم. وعندما تمكن فريق زائر من الفوز على فريق إسرائيل في تل أبيب، فإن كوهين كسر القاعدة الصارمة «العمل فقط ولا شيء غيره» في الرسائل، بعد يوم واحد من هذه المباراة وأرسل برقية لاسلكية يقول فيها «لقد حان الوقت لكي نتعلم تحقيق الانتصار في كرة القدم.

وتضمنت رسائل أخرى غير مسموح بها عبارات مثل «لطفاً، أرسلوا لزوجتي بطاقة تهنئة» «أو عيد ميلاد سعيد لابنتي».

وقد احتفظ مائير بغضبه لنفسه، لكن تفهمه للضغوط الواقعة على كوهين جعله يأمل أن سلوكه «ليس إلا انحرافاً طارئاً يحدث في أحوال كثيرة لأفضل العملاء».

«وقد حاولت أن أنفذ إلى ما في رأسه. فهل بلغ منه اليأس مبلغه وأن هذا هو أسلوبه في التعبير عنه بعدم توخي الحذر؟ وقد حاولت أن أفكر مثله عن معرفة بأني وضعت له حياة جديدة. وسعيت لاختيار وتقدير مئات العوامل. ولكنني توصلت في النهاية إلى أن العامل المهم الوحيد هو: هل يستطيع إيلي مواصلة أداء عمله؟

وقرر مائير عاميت أن إيلي يستطيع ذلك.

في إحدى أمسيات يناير ١٩٦٥م كان إيلي كوهين في غرفة نومه بمسكنه في دمشق ينتظر إرسال رسالة. وبينما كان يضبط جهاز الاستقابل اقتحم شقته ضباط المخابرات السورية.

لقد وقع كوهين ضحية واحدة من أكثر وحدات الكشف المتنقلة تقدماً في العالم والتي حصلت عليها سورية من الروس.

وأجبر خلال استجوابه على إرسال رسالة إلى الموساد. غير أن السوريين لم يلاحظوا التغير الدقيق في سرعة وإيقاع الإرسال اللاسلكي. وفي تل أبيب علم مائير عاميت أن إيلي كوهين تم اعتقاله. وبعد يومين أكدت سورية نبأ الاعتقال.

وكان ذلك بكلمات مائير مثل فقدان واحد من أفراد عائلتك. وتسأل نفسك ذات الأسئلة التي ترددها عندما تفقد عميلاً: هل كان بمقدورنا إنقاذه؟ كيف انفضح أمره؟ هل كان ذلك نتيجة إهماله؟ أو بسبب أحد المقربين إليه؟ هل أصبح ورقة محروقة ونحن لا ندري؟ هل كانت لديه رغبة في الموت؟ إن هذا أيضاً يحدث. أو كان الأمر مجرد سوء حظ؟ تظل تسأل نفسك ولا تتلقى الإجابة عن يقين. لكن طرح الأسئلة قد يكون وسيلة للتغلب على ما حدث».

لم يفلح السوريون مطلقاً في حمل إيلي كوهين على الإفضاء بأسراره برغم التعذيب الذي تحمله قبل الحكم عليه بالإعدام.

وكرس مائير عاميت كل وقته تقريباً سعياً لإنقاذ إيلي كوهين بينما شنت نادية كوهين حملة دعاية عالمية لإنقاذ زوجها، فاتصلت بالبابا وملكة انجلترا وبرؤساء وزارات ورؤساء. وأدى عاميت عمله في تكتم حيث سافر إلى أوربا لمقابلة رؤساء المخابرات الفرنسية

والألمانية. ولم يكن بمقدورهما عمل شيء. وأجرى اتصالات غير رسمية مع الاتحاد السوفياتي. وظل عاميت يكافح حتى يوم ١٨ مايو ١٩٦٥ م بعد الثانية بقليل أثناء الليل حين خرجت قافلة من السيارات من سجن المزة بدمشق وفي إحداها إيلي كوهين.

وكان برفقة كوهين في السيارة نسيم عنتابي حاخام سورية الأكبر الذي يبلغ من العمر ٨٠ عاماً. ولأن الحاخام لم يستطع أن يتحمل ما سيحدث فقد أخذ يبكي بصوت مسموع. هدأ كوهين روع الشيخ ووصلت القافلة إلى ميدان المرجة في قلب دمشق. وهناك تلا إيلي صلاة الفيدوي وهي صلاة الاعتراف قبل الموت «يا إلهي القادر على كل شيء إغفر لي جميع خطاياي وآثامي».

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين وأمام أعين الآلاف من السوريين ووهج أضواء التليفزيون أعدم إيلي شنقاً.

في تل أبيب كانت نادية كوهين تشاهد زوجها وهو يموت وحاولت الانتحار. لكنها نقلت إلى أحد المستشفيات حيث أنقذت حياتها.

في اليوم التالي وقف مائير عاميت إجلالاً لإيلي كوهين في مراسم خاصة حضرها جمع صغير في مكتبه، ثم انصرف إلى إدارة شؤون عميله الممتاز الثاني.

وصل فولفجانج لوتس وهو يهودي ألماني إلى فلسطين في أعقاب وصول هتلر إلى السلطة. وفي ١٩٣٦ م وقع اختيار مائير عاميت عليه من قائمة مختصرة للمرشحين لتولي مهمة تجسس في مصر. وفي الوقت الذي خضع فيه لوتس لنفس التدريب الصارم الذي تلقاه إيلي كوهين، كان مائير عاميت يبحث عن قصة يغطي بها نشاط عميله. وقرر عاميت أن يجعل من لوتس مدرباً للفروسية باعتباره لاجئاً من ألمانيا

الشرقية خدم في الفيلق الإفريقي أثناء الحرب العالمية الثانية وعاد إلى مصر ليفتح مدرسة للفروسية ومثل هذا العمل يجعله ينفذ بسهولة إلى الطبقة الراقية في القاهرة المهتمة برياضة الفروسية.

وسرعان ما تمكن لوتس من تكوين دائرة من المتعاملين معه، وكان من بينهم نائب رئيس المخابرات الحربية المصرية ومدير الأمن بمنطقة قناة السويس. واغرى لوتس أصدقاءه الجدد، مقلداً كوهين بذلك، بمشاهدة دفاعات مصر الحصينة: منصات إطلاق الصواريخ في سيناء وعلى الحدود مع النقب. كما حصل لوتس على قائمة كاملة بأسماء العلماء النازيين الذين يعيشون في القاهرة ويعملون في برنامج الصواريخ والأسلحة المصري. وسرعان ما تمت تصفيتهم بانتظام على يد عملاء الموساد.

وبعد عامين من العمل متستراً القي القبض على لوتس وادين بجرمه. غير أن المصريين استشعروا أهميته فلم يعدموه واحتفظوا به انتظاراً لمبادلته بجنود مصريين يقعون مستقبلاً في أي حرب مقبلة مع إسرائيل. ومرة أخرى أبدى مائير عاميت قلقاً بالغاً بشأن اعتقال لوتس.

وكتب عاميت إلى جمال عبد الناصر الرئيس المصري وقتذاك ملتمساً منه مبادلة لوتس وزوجته بأسرى حرب مصريين في أيدي إسرائيل. لكن ناصر رفض، فلجأ عاميت إلى استخدام الضغوط النفسية. ويقول عاميت «لقد أخبرت الأسرى المصريين أنهم معتقلون لأن ناصر رفض مبادلتهم باثنين من الإسرائيليين. وسمحنا لهم بالكتابة لذويهم في الوطن حيث أعربوا عن مشاعرهم بكل وضوح».

وكتب مائير عاميت لناصر مرة أخرى قائلاً إن إسرائيل سوف تنسب إليه الفضل علانية في استرداد أسرى الحرب المصريين وستلتزم الصمت إزاء عودة لوتس وزوجته. غير أن ناصر استمر في

رفضه. ولذا آثار عاميت المسألة مع قائد قوات الأمم المتحدة التي تتولى حفظ السلام في سيناء. وطار الضابط إلى القاهرة حيث حصل على تأكيد بأن لوتس وزوجته سيطلق سراحهما في وقت ما في المستقبل. وفهم ـ مائير عاميت ـ الرمز في الرسالة. وبعد شهر غادر لوتس وزوجته القاهرة في سرية كاملة متوجهين إلى جنيف. وبعد عدة ساعات عادا إلى إسرائيل واستقبلتهما في مكتبي.

أدرك مائير عاميت أن العمل الميداني بحاجة إلى دعم في الميدان، ومن ثم فإنه أنشأ نظام الـ «سيانييم» أو المعاونين اليهود المتطوعين. ويعد كل سيان في حد ذاته نموذجاً للتماسك التاريخي للمجتمع اليهودي العالمي. فالمعاون أو المعاونة لديه في التحليل الأخير، وبغض النظر عن الولاء للبلد الذي يعيش فيه، ولاء له أعظم له صبغة روحية هو الولاء لإسرائيل والحاجة إلى تقديم العون لحمايتها من أعدائها.

وكان نظام السيانييم يفي بعدة أغراض. فالسيان الذي يدير وكالة لتأجير السيارات يقدم للعميل الميداني سيارة بدون الوثائق المعتادة. أما السيان الذي يعمل بوكالة لتأجير المنازل فيقدم المسكن للعميل الميداني. ويقدم السيان العامل في مصرف المال للعميل الميداني في غير أوقات العمل الرسمية. أما السيان الطبيب، فإنه يقدم المساعدة الطبية ـ بمعالجة إصابة من رصاصة على سبيل المثال دون إبلاغ السلطات. ولا يتقاضى السيان شيئاً سوى التكاليف الفعلية لقاء ما يقدمه من خدمة.

ويجمع المتطوعون في ما بينهم بيانات فنية، وكل المعلومات العلنية المتعلقة بالعدو مثل شائعة في حفل، أو خبر تبثه الإذاعة وفقرة في صحيفة وقصة غير مكتملة على مائدة طعام. وبذلك يتيحون للعملاء الميدانيين مؤشرات تفيد في عملهم، ولم يكن من الممكن للموساد العمل بدون نظام السيانييم.

ومرة أخرى يستمر مائير عاميت برغم ترامي ميادينه. ففي عام ١٩٩٨ م كان هناك ما يربو على أربعة آلاف سيان في بريطانيا أو ما يصل إلى أربعة أمثال عددهم في الولايات المتحدة على وجه التقريب. وبينما كان مائير عاميت يعمل بميزانية متقشفة فإن الموساد ينفق الآن من أجل استمرار عملياته في أنحاء العالم مئات الملايين من الدورلات شهرياً للحفاظ على «أصوله» وسداد نفقات المتطوعين وإدارة المقار الآمنة وتقديم العون اللوجستي وتغطية تكاليف العمليات. وقد ترك عاميت للموساد شيئاً آخر يذكرهم بالوقت الذي كان يرأس فيه الجهاز: لغة خاصة بهم فأسلوبه في كتابة التقارير الذي يعرف «ضوء النهار» يعبر عن أقصى درجات الحذر. فهناك الـ «كيدون» وهو: عضو فريق اغتيالات بالموساد والـ «تيفيوت» وهو: متخصص في المراقب والـ «ياهالومين» وهي: الوحدة التي تجري الاتصالات مع العملاء الميدانيين و«الصفانيم» وهي: الوحدة التي تختص بمنظمة التحرير الفلسطينية و«البالدور» وهو: المبعوث و«السليك» وهو: مكان آمن لحفظ الوثائق و«التيعود» وهي: الوثائق المزورة.

في صباح ذلك اليوم من مارس ١٩٩٧ م الذي كان عاميت يقود فيه سيارته، للحاق بموعد مع الماضي، كان يعرف أن الكثير قد تبدل في الموساد. فبسبب المطالب السياسية لا سيما من رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو أصبح الموساد معزولاً على نحو خطير عن أجهزة المخابرات الأجنبية التي كان مائير عاميت يتودد إليها بحرص. فالالتزام بشعار «إسرائيل أولاً وآخراً ودائماً وعلى الدوام» شيء، وأن تضبط متلبساً، على حد تعبير عاميت «بتحسس جيوب أصدقائك» أمر مختلف. ويضيف قائلاً بابتسامة باردة «أن الكلمة المحورية هنا هي أن تضبط».

والمثال على ذلك هو اختراق الموساد المتزايد للولايات المتحدة عن طريق التجسس الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي. ودخلت وحدة خاصة اسمها الشفري آل وهي: كلمة عبرية معناها «أعلى» خلسة إلى وادي السيلكون بكاليفورنيا، وطريق ١٢٨ في بوسطن سعياً وراء أسرار التكنولوجيا المتقدمة. وحددت المخابرات المركزية الأميركية، في تقرير قدمته إلى لجنة المخابرات بمجلس الشيوخ الأميركي - إسرائيل باعتبارها واحدة من ست دول أجنبية «تبذل جهداً سرياً ومنظماً وموجهاً من حكومتها لجمع أسرار اقتصادية من الولايات المتحدة». وكان رئيس منظمة المخابرات الداخلية الألمانية/البوندسامت فير فرفاسونچشاتز (بي. إف. دي) قد حذر رؤساء الأقسام في المنظمة من أن الموساد هو الخطر الرئيسي في ما يتعلق بسرقة أحدث أسرار الكمبيوتر في ألمانيا. وصدر تحذير مماثل من الإدارة العامة للأمن بجهاز دي. جي. إس الفرنسي بعد اكتشاف وجود عميل للموساد بالقرب من مركز تفسير صور الأقمار الصناعية في كريل وكانت إسرائيل تسعى، منذ فترة طويلة إلى دعم إمكانياتها في الفضاء لمجاراة إمكانياتها النووية على الأرض. وفي بريطانيا وضع جهاز مكافحة الجاسوسية إم. أي - ٥ في تقريره لرئيس الوزراء المنتخب حديثاً توني بلير تفاصيل عن جهود الموساد للحصول على بيانات علمية وعسكرية حساسة من المملكة المتحدة. ولم يعترض مائير عاميت على هذه المغامرات في حد ذاتها وإنما انصب اعتراضه على تنفيذها بدون تخطيط كافٍ ولا مراعاة لما يترتب عليها من نتائج بعيدة الأثر.

يسري الحكم نفسه في حق خبراء إدارة الحرب النفسية بالنسبة لكيفية إدارة الحملات النفسية. ففي عهد عاميت أقامت الإدارة شبكة عالية من الاتصالات الإعلامية استخدمتها ببراعة فائقة. فحادث إرهابي

سيؤدي إلى اتصال بصديق في منظمة إعلامية وإمداده بخلفيات ذات أهمية كافية بحيث يمكن إضافتها للموضوع، مما يقدم التأثير الذي ترغب فيه الموساد. كما كانت الإدارة تلفق معلومات للملحقين الإعلاميين بالسفارات الإسرائيلية لنقلها إلى أحد الصحفيين أثناء احتساء شراب أو تناول طعام بحيث يمكن مشاطرة «سر» دون شكوك أو تلطيخ سمعة شخص وبدون أن يبدو هذا مقصوداً. وعلى حين ظل جوهر هذه الدعاية السوداء دون تغيير فإن هناك فارقاً جوهرياً في الوقت الحالي وهو: اختيار الهدف أو الضحية. وبالنسبة لعاميت يبدو القرار في أحيان كثيرة مستنداً إلى متطلبات سياسية مثل الحاجة إلى تحويل الانتباه عن مناورة دبلوماسية نفعية تعتزم إسرائيل القيام بها في الشرق الأوسط، أو استعادة شعبيتها المتذبذبة ولا سيما في الولايات المتحدة.

فعندما لقي ٢٣٠ راكباً مصرعهم في حادث تحطم طائرة في دبليو إيه بالرحلة رقم ٨٠٠ قبالة الساحل الجنوبي الشرقي للونج أيلاند في ١٧ يوليو ١٩٩٦ م، بدأت إدارة الحرب النفسية بالموساد حملة تقترح أن الحادث من تدبير إيران أو العراق وهما رمزا الكراهية. وسرعان ما ظهرت آلاف التقارير الإخبارية التي استمرأت ترديد هذه الرواية. وبعد قرابة العام وعقب إنفاق نحو ٥٠٠ ألف دولار وعشرة آلاف ساعة عمل، استبعد كبير المحققين في مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. آي) جيمس كالتسروم وجود أي عمل إرهابي أو أي دليل على جريمة تستدعي اللجوء للقضاء وراء الحادث وقال سراً لزملائه «لو كانت هناك طريقة للإيقاع بأولئك الأوغاد في تل أبيب لإهدار الوقت لنفذتها فوراً. ويجب علينا التدقيق في صحة أي خبر يدسونه لأجهزة الإعلام».

وعقب التفجير الذي حدث أثناء دورة أطلنطا الأولمبية تحركت إدارة الحرب النفسية مرة أخرى. فقد لفقت قصة مؤداها أن القنبلة تحمل كل الدلائل، على أن من قام بصنعها تعلم مهاراته من صانعي القنابل في وادي البقاع اللبناني. وانتشرت القصة، واستطاع خبراء الإدارة التأثير في الجمهور الأميركي الخائف، لأسباب مقنعة، من شبح الإرهاب. وكان المشتبه فيه الوحيد هو حارس أمني سيىء الحظ في الدورة ـ لم تكن له علاقة بالإرهاب الدولي ـ وعندما أعلنت براءته، تلاشت القصة.

ومرة أخرى يبدو مائير عاميت مدركاً لأهمية تنبيه العالم إلى الإرهاب. لكن التحذير «لا بد أن يكون محكماً وهو ما شددت عليه دائماً». وأعقب هذا الاعتراف هزة شماتة بكتفيه طويلة كيف يخفي مشاعره، وألا يكون واضحاً بخصوص التفاصيل. ولسنوات طويلة كانت قوته تكمن في الكتمان.

يعتقد عاميت أن الانهيار المتسارع للموساد بدأ مع اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين، في تجمع من أجل السلام في تل أبيب في نوفمبر ١٩٩٥ م. وقبيل اغتيال رابين على يد متطرف يهودي ـ وهو علامة أخرى على هذه المحنة الذي شاهدها مائير عاميت في المجتمع الإسرائيلي ـ حذر مدير الموساد وقتها وهو شابتاي شافيت الطاقم المحيط برابين من احتمال وجود محاولة لاغتياله. ولكنه وفقاً لما قال أحد أفراد الطاقم «فقد تم تجاهل هذا الاحتمال باعتباره غامضاً بحيث لا يشكل تهديداً محدداً».

ولم يكن للموساد في عهد قيادة مائير عاميت أي تفويض بالعمل داخل إسرائيل يزيد عما تستطيع المخابرات الأميركية عمله داخل

الولايات المتحدة. ومع ذلك ورغم الانتقادات الموجهة له فقد كان يحلو لعاميت القول أن الموساد يشارك إسرائيل مصيرها. وتحت رئاسته كان صدى الأعمال التي قام بها الموساد يتردد، أحياناً كثيرة في العالم. ويعتبر أن الكثير من هذا يرجع إلى الولاء وهي سمة تبدو الآن متخلفة عن العصر. فالعاملون في الموساد ما زالوا يؤدون عملهم ـ بخطورته والتوائه كما كان الحال من قبل ـ لكنهم باتوا يتساءلون هل سيكونون عرضة للمساءلة أمام شخصية سياسة بعيدة عن عملهم إلى جانب محاسبتهم أمام رؤسائهم. ربما تسبب ذلك في نزعة الارتياب والاضطهاد التي تطفو بانتظام على السطح وتتحدى المفهوم القائل أن إسرائيل ديمقراطية حقاً.

إلى جانب الطريق السريع ما بين منتجع هرتسليا وتل أبيب يقع مجمع للمباني تنتشر فيه الهوائيات. هذا المجمع هو مدرسة التدريب التابعة للموساد. ومن بين أوائل الأشياء التي يتعلمها المسؤول السياسي الجديد أو الجاسوس بسفارة أجنبية في تل أبيب هو معرفة موقع هذا المبنى بلونه الداكن. ومع ذلك فإن كشف صحيفة إسرائيلية عن وجود هذا المبنى لا يزال يعرضها لخطر المحاكمة. ففي ١٩٩٦ م ثارت مناقشات غاضبة داخل دوائر المخابرات بالبلاد حول كيفية التعامل مع صحيفة في تل أبيب نشرت اسم أحدث مدير عام للموساد، الرجل الصارم داني ياتوم. ودار حديث عن اعتقال المحرر المخطىء ورئيس التحرير. وفي نهاية الأمر لم يحدث شيء عندما أدرك الموساد أن اسم ياتوم قد نشر في جميع أنحاء العالم.

اعترض مائير عاميت بقوة على هذه التعرية قائلاً إن كشف اسم مدير لا يزال يمارس عمله أمر خطير. فالتجسس عمل سري وليس عملاً مبهجاً. وأياً كان ما فعله شخص ما فإن عليك أن تحميه من الغرباء.

بمقدورك أن تتعامل معه بخشونة وصرامة على النحو الذي تراه مناسباً داخل المنظمة. لكنه بالنسبة للعالم الخارجي يجب أن يظل هو أو هي شخصاً لا يمس ومن الأفضل ألا يساءل أو يعرفه أحد.

وتقدم خدمته العسكرية سيرة حياة جندي قدره العلا: فكان قائد سرية في حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ م. وبعد عامين تولى قيادة لواء تحت إمرة موشيه ديان، وفي غضون خمس سنوات أصبح مدير العمليات بالجيش وهي ثاني أعلى رتبة في قوات الدفاع الإسرائيلية. وأنهت حادثة مستقبله العسكري عندما لم تنفتح مظلة كما يجب عند الهبوط بها. وذهب لتلقي العلم في جامعة كولومبيا على نفقة الحكومة حيث حصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال وعاد إلى إسرائيل بلا عمل.

اقترح موشيه ديان أن يتولى مائير عاميت قيادة المخابرات الحربية. وبرغم المعارضة الأولية التي انصب معظمها على أسباب معقولة هي أنه لا خبرة له في عمل المخابرات فقد فاز بالمنصب. ويقول: «إن الميزة الوحيدة التي كنت أتمتع بها هي أنني كنت قائداً للتشكيلات العكسرية، وأعرف أهمية المعلومات الجيدة للجنود المقاتلين. وفي ٢٥ مارس ١٩٦٣ م تولى قيادة الموساد خلفاً لايسار هارئيل. وتتعدد إنجازاته بحيث أنها في حاجة إلى ملف ضخم لذكرها كلها: فهو الرجل الذي أدخل مبدأ الاغتيال في الموساد، والذي أسس علاقة عمل سرية مع الـ «كي. جي. بي» في الوقت الذي كان فيه الملايين من اليهود يتعرضون للاضطهاد. والذي طور دور النساء واستخدم أسلوب الشراك الجنسية في علم المخابرات والذي أقر اختراق قصر الملك حسين .

ولا تزال كل هذه الوسائل التي ابتكرها تستخدم حتى اليوم، لكن ما من أحد من الخارج سيعرف كيف طور هذه الأساليب في بادئ الأمر. وتتوتر عضلات فكه ويكتفي بالقول أنه توجد أسرار، وتوجد أسراري.

وعندما جاء الوقت الذي شعر فيه بإمكانية استفادة الموساد من ربان جديد على الدفة، ترك منصبه من دون ضجة ودعا طاقم معاونيه ونبههم إلى أنه إذا نشب تعارض بين الدواعي التي تمليها الأخلاق الشخصية ومطالب الدولة بسبب كونهم يهوداً ويعملون في الموساد، فعليهم أن يستقيلوا على الفور، وبعد تبادل المصافحة انصرف.

غير أنه ما من رئيس جديد للموساد لم يزره لاحتساء القهوة في مكتبه بشارع جابوتنسكي في ضاحية رامات غان اللطيفة بتل أبيب. وفي تلك المناسبات كان باب مكتبه يظل مغلقاً بإحكام وتفصل خطوط الهاتف.

وكان يقول بالانجليزية وعلى وجهه ابتسامة ماكرة لرجل عجوز أن أمي كانت دائماً تقول ضياع ثقة تعني فقدان صديق.

ولا يعرف إلا قليلون مائير عاميت حق المعرفة خارج نطاق عائلته وهي قبيلة صغيرة من الأبناء والأحفاد وأبناء الأعمام والأخوال والأنسباء لعدة أجيال. ولم تكن طبيعته تسمح بغير ذلك.

في صبيحة ذلك اليوم من أيام مارس ١٩٩٧ م. بدأ مائير عاميت شاباً على نحو مذهل، أقرب ما يكون إلى الستين مع أنه تعدى الخامسة والسبعين فبنية جسمه التي مكنته من إكمال اختبار إجهاد بسرعة رياضي أولمبي تراجعت، وكان هناك ما يشير إلى امتلاء في البطن تحت السترة الزرقاء الأنيقة ومع ذلك فإن عينيه كانتا من الحدة بحيث تلقيان

الروع في النفس وكان من المستحيل سبر غورها أو النفاذ إليها وهو يقود سيارته تجاه طريق تنتشر على جانبيه أشجار الكافور.

كم من المرات قام فيها بهذه الرحلة مع أنه لم يعد يتذكر عددها، لكن كل زيارة منها كانت تذكره بالحقيقة القديمة بأنه لكي تضمن البقاء وأنت يهودي فيجب عليك الدفاع عن نفسك حتى الموت.

كانت نفس الذكرى مرتسمة على وجوه الجنود الذين ينتظرون سيارات تنقلهم وهم وقوف تحت الأشجار خارج معسكر التأهيل في جيلوت شمال تل أبيب. كان هناك ضرب من الزهو بل وحتى الغطرسة يبدو عليهم، وكانوا يؤدون خدمتهم الإلزامية في قوات الدفاع الإسرائيلية وهم على قناعة مطلقة بخدمتهم في أرقى جيوش الأرض.

لم ينتبه الكثيرون منهم بمشاهدة مائير عاميت. فهو بالنسبة لهم مجرد رجل عجوز جاء ليقدم احتراماته أمام نصب تذكاري حربي قريب من مكان انتظارهم. أن إسرائيل هي أرض النصب التذكارية الحربية ففيها ١٥٠٠ نصب تذكاري للمظليين والطيارين وسائقي الدبابات والمشاة. وتحيي النصب التذكارية ذكرى الموتى في خمس حروب تقليدية واسعة النطاق وما يقرب من خمسين عاماً من المناوشات عبر الحدود وعمليات مكافحة حرب العصابات. ومع ذلك فإنه في أمة تبجل محاربيها الذين سقطوا في الحرب، بطريقة لم تعرف منذ أن احتل الرومان هذه الأرض، ليس هناك في إسرائيل، بل وفي العالم، ما يشبه النصب الذي ساهم مائير عاميت في تشكيله.

يقف النصب داخل محيط معسكر التأهيل ويتكون من عدة مبانٍ بحوائط خرسانية وكتلة من حوائط بالحجر الرملي تتجمع على هيئه مخ بشري. واختار عاميت هذا الشكل لأن الذكاء هو كل ما يعنيه العقل

وليس شكلاً برونزياً يقف وقفه بطولية «يحيـي النصب التذكاري حتى الآن ذكرى ٥٥٧ من رجال دوائر المخابرات الإسرائيلية ونسائها، منهم ٧١ عملوا في الموساد. وهؤلاء ماتوا في كل أركان المعمورة: في صحارى العراق وجبال إيران، وغابات أميركا الجنوبية وأميركا الوسطى، وأدغال إفريقيا، وشوارع أوروبا. وحاول كل منهم بطريقته أن يحيا بشعار الموساد: عن طريق الخداع تنهي الحرب.

كان عاميت يعرف الكثيرين منهم بصفة شخصية بل أن بعضهم كانوا ممن أرسلهم إلى حتفهم في مهام اعترف هو بأنها تجاوزت حد الخطر المقبول، لكن مما يؤسفه أن هذه أمور لا سبيل إلى تجنبها في هذا العمل. وإن موت فرد يجب أن يقاس دائماً بمقياس أمن بلادنا، والأمر دائماً كذلك.

الفصل الرابع:

(الجاسوس ذو القناع الحديدي)

في ما يلي المعبد هناك مدرج تتجمع فيه العائلات في يوم المخابرات لإحياء ذكرى الموتى ويخطب فيهم مائير عاميت أحياناً. وبعد ذلك يزورون متحف النصب التذكاري الحافل بالمقتنيات: جهاز إرسال في قاعدة، مكواة ومكيروفون في غلاية للقهوة، وحبر خفي في زجاجة عطر، وجهاز التسجيل الذي سجل سراً محادثة مهمة بين العاهل الأردني الملك حسين والرئيس المصري جمال عبد الناصر كانت نذيراً بحرب الأيام الستة.

وقد نالت قصص الرجال الذين استخدموا تلك المعدات بكفاءة منقطعة النظير حولتها إلى أسطورة فكان يشير إلى الزي التنكري الذي ارتداه يعقبوئيه عندما تسلل إلى الأردن داخلاً إليها وخارجاً منها حتى اعتقل وأعدم في عمان عام ١٩٤٩ م أو جهاز اللاسلكي البلوري الذي استخدمه ماكس ببنت وموشيه مرزوق لإدارة أنجح شبكات الموساد في مصر قبل أن يموتا ميتة بطيئة وأليمة في السجون المصرية.

وبالنسبة لمائير عاميت فقد كانوا جميعاً «جدعون الخاص بي» وجدعون هو البطل الذي ورد اسمه في العهد القديم الذي أنقذ إسرائيل من قوات أكبر حجماً منها باستخدام ذكائه أحسن استخدام.

وأخيراً حان الوقت لكي يتوجه إلى المتاهة بصحبة أمين المتحف حيث يتوقفون أمام كل اسم محفور وبانحناءة صغيرة بالرأس يلقون التحية ثم يتحركون إلى اسم آخر. وفجأة تنتهي الأسماء، فليس هناك أسماء أخرى قدم لها وافر الاحترام وإنما مساحة واسعة تنتظر إضافة أسماء جديدة على الشواهد ذات اللون الرملي.

وبرهة راح مائير عاميت في تفكير حالم وهمس بالعبرية في أذن أمين المتحف قائلاً: «مهما حدث، علينا أن نضمن استمرار هذا المكان».

وأضاف عاميت وقد بدا أنه يتحدث عن شيء لا صلة له بما حدث من قبل، أن الرئيس السوري حافظ الأسد يضع في مكتبه بدمشق صورة واحدة كبيرة للموقع الذي انتصر فيه صلاح الدين على الصليبيين في عام ١١٨٧ م وأدى إلى إعادة غزو العرب للقدس.

وبالنسبة لمائير عاميت، فإن ولع الأسد بالصورة له دلالة بالنسبة لإسرائيل فهو ينظر إلينا بالطريقة التي نظر بها صلاح الدين إلى الصليبيين. وهي أنه لا بد من قهرنا في نهاية المطاف. وهذا الطموح يشترك فيه الكثيرون ومنهم من يزعمون أنهم أصدقاء لنا. وهؤلاء بالأخص يجب أن نكون منهم على حذر.

ثم توقف وودع أمين المتحف واتجه عائداً إلى سيارته وكأنه انتهى من حديث طويل، كما لو أن ما قاله سيضعف الهمهمات التي بدأت تنتشر في أوساط المخابرات الإسرائيلية. وقد كانت هناك نذر أزمة وشيكة في التحالف القلق بين الموساد والمخابرات الأميركية بما لذلك من آثار مدمرة محتملة على إسرائيل.

وتورط في هذه القضية التي تتشكل في الأفق واحد من أكثر ضباط الاستخبارات الإسرائيلية يتميز بأنه يجمع بين أكبر درجة من

المرح والبطش معاً والذي عمل ذات مرة تحت إمرة عاميت. وهوالرجل الذي ضمن وجود اسمه في سجلات التاريخ باعتباره الرجل الذي اختطف أدولف ايخمان، ولكنه لا يزال يهوى اللعب بالنار.

الف الأثرياء المقيمون في ضاحية أفيكا الفاخرة في شمال تل أبيب رؤية رافائيل «رافي» إيتان، ذلك العجوز القصير اليدين، ذي الصدر الضخم، والنظر الحسير والمصاب بصمم يكاد يكون كاملاً في أذنه اليمنى منذ حرب استقلال إسرائيل، وهو عائد إلى بيته حاملاً قطعاً من خردة مواسير المغاسل، وجنازير الدراجات المستعملة وغير ذلك من مختلف أنواع الخردة المعدنية. وكان يحوّل، مرتدياً بنطلوناً وقميصاً من طراز واحد ومغطياً وجهه بقناع اللحام الواقي، الخردة إلى تماثيل غريبة وعجيبة الشكل باستخدام مشعل اللحام الكهربائي.

وكان بعض الجيران يتساءلون ما إذا كان ذلك وسيلة للهروب، بين الحين والآخر، مما فعله. فهم كانوا يعرفون أنه كان يقتل من أجل بلده، ليس في ساحات معارك مكشوفة ولكن في مواجهات سرية كانت جزءاً من حرب خفية شنتها إسرائيل ضد أعداء الدولة. ولم يكن أحد من الجيران يعرف كم عدد الذين قتلهم رافي إيتان بالضبط مستخدماً يديه السميكتين القويتين. وكل ما ذكره لهم أنه: «حينما كنت أقتل، ما كان عليّ إلا أن أرى عيونهم، بياض عيونهم، ثم أشعر بهدوء تام وأركز تركيزاً شديداً ولا أفكر إلا في ما يتعين عليّ فعله وقد فعلتها». وكانت تصاحب كلماته ابتسامة استمالة، يستخدمها بعض الأقوياء لاستدرار استحسان الضعفاء.

ظل رافي إيتان، طوال ربع قرن تقريباً، يعمل نائباً فعلياً لمدير العمليات في الموساد. ولم يكن يسعد بحياة خلف المكتب يقرأ التقارير

ويصدر الأوامر للآخرين لتنفيذ التعليمات، وإنما كان يذهب في كل فرصة إلى الميدان، يجوب العالم مندفعاً بكل همة ونشاط ينطلق في كل ما يفعله من فلسفة اختزلها في عبارة بليغة واحدة: «إذا لم تكن جزءاً من الحل، فانت إذن جزء من المشكلة».

ولم يكن هناك من يضارعه في القسوة المتوحشة والمكر والقدرة على التصرف بسرعة مذهلة، والمهارة الفطرية في التغلب حتى على أشد الخطط إحكاماً والتفوق عليها، ومطاردة الفريسة بلا هوادة أو كلل وقد تجمعت كل هذه الخصال في عملية واحدة جلبت له شهرة خالدة، ألا وهي عملية اختطاف أدولف أيخمان، ذلك المسؤول النازي الذي جسد كل أهوال الحل النهائي لهتلر.

وكان رافي إيتان، بالنسبة لجيرانه في شارع «شاي» شخصية تحظى بالاحترام، فهو الرجل الذي انتقم لموتاهم، رجل حرب العصابات الذي أتيحت له فرصة تذكير العالم بانه لا حياة آمنة لأي نازي على قيد الحياة. ولم يشعر جيرانه بالسأم أبداً عندما كان يدعوهم إلى منزله وينصتون إليه وهو يعاود وصف عملية لا تزال فذة في جسارتها ولا نظير لها. جلس رافي إيتان، تحيطه تحف فنية نفيسة، باسطاً ذراعيه القويتين، ويدير رأسه الضخم إلى أحد الجوانب، ثم يظل صامتاً لبرهة، متيحاً الفرصة أمام سامعيه ليتذكروا بعين عقولهم ذلك الوقت الذي ولدت فيه إسرائيل وسط كل الصعاب والأهوال، ثم يبدى وبصوت جهوري، صوت ممثل يؤدي جميع الأدوار دون أن يخطيء في شيء، في رواية لأصدقائه الثقاة كيف أنه شرع في اختطاف أدولف إيخمان وراح في البداية يهيء المسرح لقصة من أكثر قصص الاختطاف إثارة في كل العصور.

كان الناجون من المحارق النازية هم الذين بدأوا في تعقب

مجرمي الحرب النازيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «نوكامين» أي «المنتقمون». ولم يعبأوا كثيراً بالمحاكمات الشرعية، وإنما كانوا يعدمون كل ما يعثرون عليه من النازيين. ولم يكن رافي إيتان يعرف حالة واحدة أعدموا فيها أحد غير الشخص المقصود. ولم يكن في إسرائيل رسمياً اهتمام كبير بتعقب مجرمي الحرب، فالمسألة أولويات، إذ كانت إسرائيل - كأمة - لا تزال تحبو على أطراف أصابعها ومحاطة بدول عربية معادية، وتكاد أن تكون مفلسة، إذ لم تكن هناك أموال إضافية للقضاء على شرور الماضي.

وفي عام ١٩٥٧ م تلقى جهاز الموساد أنباء كان لها وقع الصاعقة تفيد بأن أيخمان قد شوهد في الأرجنتين ولما كان رافي إيتان نجماً صاعداً بالفعل في الموساد في ذلك الحين نتيجة لعملياته المتسمة بالدهاء ضد العرب، فقد اختير للقيام بمهمة اختطاف أيخمان وإحضاره إلى إسرائيل للمثول أمام القضاء.

ولقد قيل له أن هذه العملية ستسفر عن عدد من المزايا البارزة. فهي عمل من أعمال العدالة الإلهية بالنسبة لشعبه، وستذكر العالم بمعسكرات الموت والحاجة إلى ضمان عدم تكرار ذلك مرة أخرى أبداً. كما أنها ستضع الموساد في صدارة عالم المخابرات على مستوى المعمورة، إذ لم يجرؤ أي جهاز مخابرات في العالم على محاولة القيام بعملية مثل هذه. وكانت المخاطر جسيمة بنفس الدرجة. فقد كان عليه العمل بعيداً عن وطنه آلاف الأميال، والسفر بوثائق مزورة معتمداً كل الاعتماد على خبراته الخاصة والعمل في بيئة معادية. إذ كانت الأرجنتين ملاذاً للنازين، فربما ينتهي الأمر بالزج بفريق الموساد في السجن.

وظل رافي إيتان منتظراً في صبر على مدى عامين بينما تم التأكد من أول رصد مبدئي، بأن الرجل الذي يعيش في إحدى ضواحي الطبقة الوسطى في بوينس أيرس تحت اسم ريكاردو كلمنتي هو أدولف أيخمان.

وعندما صدر أمر التنفيذ في النهاية، كان رافي إيتان قد أصبح «بارداً كالثلج». إذ ركز تفكيره في احتمال الفشل. فسوف تكون الأصداء السياسية والدبلوماسية ثم المهنية بالنسبة له، هائلة وجسيمة، كما فكر أيضاً في ما عسى أن يحدث عندما تتدخل الشرطة الأرجنتينية عند اختطاف أيخمان وأسره. ويتذكر «قررت خنق أيخمان بيدي هاتين، وإذا قبض عليّ سأقول أمام المحكمة إن ما فعلته هو «العين بالعين كما جاء في التوراة».

اشترت شركة العال ـ الخطوط الجوية الوطنية ـ طائرة من طراز بريتانيا خصيصاً من الأموال السرية لجهاز الموساد، وذلك من أجل رحلة الطيران الطويلة إلى الأرجنتين.

ويتذكر إيتان الموقف بقوله:

«أرسلنا شخصاً إلى إنجلترا لشراء الطائرة. وسلم الأموال وتسلمنا الطائرة. وكان الموقف الرسمي أن الطائرة المتجهة إلى الأرجنتين تقل وفداً إسرائيلياً لحضور احتفال الأرجنتين بمرور مائة وخمسين عاماً على استقلالها. ولم يكن أحد من أعضاء الوفد يعرف لماذا نحن ذاهبون معهم أو أننا أنشأنا زنزانة في مؤخرة الطائرة لاحتجاز أيخمان».

وصل رافي إيتان وفريقه إلى بوينس أيرس أول مايو ١٩٦٠ م، ثم توجهوا إلى أحد المنازل الآمنة السبعة التي كان قد استأجرها مسبقاً

أحد رجال الموساد، وأطلق على أحدها إسماً بالعبرية هو «ماعون» أي «الحصن». وسيستخدم كقاعدة للعملية. أما المسكن الآمن الآخر، فقد أطلق عليه اسم «تيرا» أي «القصر». وسيستخدم لاحتجاز أيخمان فيه بعد اختطافه. أما المنازل الأخرى، فكانت مخصصة لنقل أيخمان إليها في حالة مواجهة ضغط من أي مطاردة محتملة من جانب الشرطة. كما تم أيضاً استئجار ١٢ سيارة لهذه العملية.

وبعد ترتيب كل شيء أصبحت سلوكيات رافي إيتان مستقرة وراسخة. وتبددت كل الشكوك في الفشل، وحل الأمل في نجاح العملية محل توتر الانتظار. وظل رافي إيتان وفريقه يراقبون، خفية، أدولف أيخمان الذي كان يتنقل، في الماضي، بسيارة مرسيدس، ولكنه الآن أصبح يستخدم الباص في تنقلاته ويذهب إلى شارع غاريبالدي في أحد الأحياء بضواحي المدينة وهو أمر دأب عليه كدأبه على أوامر الإرسال لمعسكرات الموت. وفي مساء ١٠ مايو ١٩٦٠ م. اختار رافي إيتان لعملية الاختطاف سائقاً واثنين آخرين من رجاله للسيطرة على أيخمان عند إدخاله السيارة. وكان أحد الرجلين قد تدرب على إخضاع الهدف بشل حركته في الشارع. وكان على رافي إيتان أن يجلس بجوار السائق «مستعداً للمساعدة بأية وسيلة أستطيعها» على حد قوله.

وكان الموعد المحدد لتنفيذ العملية هو مساء اليوم التالي. وفي الساعة الثامنة مساءً من يوم ١١ مايو، تحركت سيارة الفريق متجهة لشارع غاريبالدي.

لم يكن هناك أي توتر، إذ كانوا جميعاً قد تجاوزوا ذلك منذ فترة طويلة، ولم يتحدث أحد، فلم يكن هناك ما يقال، ونظر رافي إيتان إلى ساعته: كانت الثامنة والنصف، ووصلوا بالسيارة إلى الشارع الخالي.

وفي الساعة ٨:٤٠ وصلت باصات عديدة ومضت. وفي الساعة ٨:٥٠ جاء باص آخر، ورأوا أيخمان وهو ينزل منه. ويروي رافي إيتان ما حدث قائلاً «كان يبدو مرهقاً بعض الشيء. ربما كانت هذه حالته بعد يوم آخر من إرسال أبناء جلدته إلى معسكرات الموت. كان الشارع خالياً وسمعت من خلفي خبير الاختطاف التابع لنا وهو يفتح باب السيارة. وانطلقنا بالسيارة خلف أيخمان، وكان يسير بسرعة وكأنه يريد الوصول للمنزل لتناول عشائه. كان يمكنني سماع تنفس أخصائي الاختطاف بطريقة منتظمة على نحو ما كان يفعل أثناء التدريب، فقد تعلم تنفيذ الاختطاف في أقل من اثنتي عشرة ثانية: الخروج من السيارة، فالإمساك به من حول الرقبة ثم جره إلى داخل السيارة، أي انطلاق، إمساك، عودة».

ووصلت السيارة إلى جوار أيخمان. والتفت ونظر نظرة حائرة نحو الخبير القادم نحوه من السيارة، وفجأة تعثر الرجل في رباط حذائه وكاد يسقط على الأرض. وللحظة كان رافي إيتان مذهولاً بحيث لم يتمكن من الحركة. لقد أتى لهذا المكان البعيد ليمسك بالرجل الذي لعب دوراً فعالاً في إرسال ٦ ملايين يهودي إلى حتفهم، وهم يكادون يفقدوه لأن رباط حذائه لم يكن مربوطاً بإحكام. وشرع أيخمان في الإسراع بالهرب، ولكن رافي إيتان قفز من السيارة.. وهنا يقول:

«أمسكت برقبته بقوة حتى رأيت عينيه تجحظان. ولو شددت الخناق عليه قليلاً لمات مختنقاً. وقفز الخبير على قدميه ممسكاً بالباب مفتوحاً، ودفعت بأيخمان إلى المقعد الخلفي. ثم قفز الخبير إلى داخل السيارة جالساً فوق أيخمان ولم يستغرق الأمر كله أكثر من خمس ثوان».

ومن مقعده الامامي. استطاع رافي إيتان أن يشم الرائحة الكريهة لنفس أيخمان وهو يجاهد من أجل الهواء. حرك الخبير فك أيخمان إلى اعلى وأسفل، واصبح أيخمان اكثر هدوءاً، بل واستطاع أن يتساءل عن معنى كل هذا الاعتداء.

ولم يتحدث أحد إليه، ووصلوا صامتين إلى منزلهم الآمن على بعد ثلاثة أميال. ثم أشار رافي إيتان إلى أيخمان بأن يخلع كل ملابسه، وراح يفحص مقاييسه البدنية ويقارنها بتلك التي حصل عليها من أحد ملفات جهاز المخابرات الألمانية SS. ولم يدهش عندما وجد أن أيخمان أزال إلى حد ما وشم المخابرات الألمانية الخاص به. غير أن سائر المواصفات مطابقة جميعها للملف، حجم رأسه، المسافة بين مرفقه ومعصمه، وبين ركبته وكاحله، ثم ربط أيخمان بسلسلة إلى السرير، وتركوه لمدة عشر ساعات في صمت تام.

كان رافي إيتان يريد دفعه للشعور باليأس. وقبيل الفجر كان أيخمان في أدنى حالاته الذهنية. ثم سألته عن اسمه، فذكر اسماً إسبانياً، فقلت له: لا، لا، أريد إسمك الألماني، فذكر إسماً مستعاراً، وهو الاسم الذي استخدمه للهروب من المانيا، فقلت له مرة أخرى لا، لا، لا، أريد إسمك الحقيقي، إسمك في المخابرات الألمانية، ثم تمدد على السرير كما لو كان يريد الوقوف في وضع الانتباه وقال بصوت جهوري واضح أدولف أيخمان. ولم أسأله شيئاً آخر، فلم أكن في حاجة إلى ذلك.

ظل أيخمان ومختطفوه طوال الأيام السبعة التالية ملازمين المنزل. ولم يتحدث أحد منهم إلى أيخمان، وكان يأكل ويستحم ويذهب إلى دورة المياه في صمت مطبق ويقول رافي إيتان.

«كان الالتزام بالصمت أكثر من مجرد ضرورة تتطلبها العملية. فقد كنا لا نريد الكشف لأيخمان عن مدى عصبيتنا. إذ أن هذا من شأنه أن يبعث فيه الأمل، والأمل يجعل من الأنسان شخصاً خطيراً، كنت أريده بلا حول أو قوة مثلما كان بنو جلدتي عندما كان يشحنهم في القطارات إلى معسكرات الموت».

أما عن قرار كيفية نقله من المنزل الآمن إلى طائرة العال المنتظرة للعودة بالوفود إلى الوطن، فكان مشحوناً بالسخرية. ففي البداية، ألبسوا أيخمان زي موظفي شركة العال، أحضره إيتان من إسرائيل ثم أجبروه على شرب زجاجة كاملة من الويسكي إلى أن أصبح مخموراً حتى الخدر.

وارتدى رافي إيتان وفريقه زي الطيران الخاص بهم، ثم راحوا يرشون أنفسهم بالويسكي. وبعد أن كبسوا قبعة طيران على رأس أيخمان وحشروه في المقعد الخلفي للسيارة، قاد رافي إيتان السيارة إلى القاعدة الجوية العسكرية حيث كانت الطائرة بريتانيا تنتظر ومحركاتها دائرة.

وعند بوابة القاعدة أشار الجنود الأرجنتينيون إلى السيارة للوقوف. وكان أيخمان في سبات عميق في المقعد الخلفي. وهنا يتذكر رافي إيتان قائلاً:

«كانت السيارة تفوح منها رائحة الخمر وكأنها معمل لتقطير الخمور. وكانت تلك هي اللحظة التي استحققنا فيه جوائز أوسكار لجهازنا الموساد، إذ قمنا بتمثيل دور اليهود المخمورين الذين لم يستطيعوا تحمل الخمر الأرجنتينية القوية، وراح الحراس يضحكون ولم ينظروا نظرة ثانية إلى أيخمان».

وفي الدقيقة الخامسة من بعد منتصف ليل ١٢ مايو ١٩٦٠ م، أقلعت الطائرة بريتانيا وعلى متنها أيخمان الذي كان لا يزال يغط في سباته العميق.

وبعد محاكمة مطولة، رأت المحكمة أن أيخمان مذنب بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وفي ١٣ مايو ١٩٦٢ م كان رافي إيتان في غرفة الإعدام بسجن رملا: «نظر أيخمان إليّ وقال: سيحين وقتك لتلحق بي أيها اليهودي. وأجبته قائلاً: «ليس اليوم، يا أدولف، ليس اليوم». وبعد ذلك، فتحت الهوة وأطلق أيخمان صوتاً محشرجاً واهناً، وانبعثت رائحة كريهة نتيجة لتحرك أحشائه، ثم صوت الحبل المشدود، كان الصوت باعثاً على الراحة للغاية».

وكان قد أقيم فرن خاص لحرق الجثمان، وفي خلال ساعات نثر رماده في مساحة واسعة في البحر. إذ أمر بن جوريون بالا يبقى له أثر يشجع المتعاطفين على تحويل أيخمان إلى رمز لعبادة النازية. وبعد ذلك، أزيل الفرن ولن يستخدم مرة أخرى. وفي مساء ذلك اليوم، وقف رافي إيتان على الشاطىء وراح يتطلع ببصره إلى البحر، وهو يشعر براحة تامة «مدركاً أنني أنجزت مهمتي، وهذا شعور طيب دائماً».

استمر رافي إيتان باعتباره نائباً لرئيس العمليات، في التنقل بين أقطار أوروبا للبحث وإعدام الإرهابيين العرب. واعتاد تنفيذ ذلك باستخدام القنابل التي يتحكم في تفجيرها من بعد ومسدس الموساد المفضل ـ البريتا ـ بل واستخدام يديه عندما كان الصمت ضرورياً. وذلك بخنق ضحيته بسلك من الصلب أو بتسديد لكمة مهلكة على قفا العنق (لكمة الارنب)، فقد كان يقتل دائماً بلا ندم أو وخز من ضمير.

وعندما كان يعود إلى الوطن، كان يقف لساعات عديدة أمام فرنه

في الهواء الطلق. يحيط به الشرر ومستغرقاً تماماً في طرق المعادن وثنيها حسب هواه. كما كان ينطلق في رحلات تتطلب منه تغيير الطائرة عدة مرات قبل أن يصل وجهته النهائية. وكان يختار في كل رحلة جنسية وهوية مختلفتين على أساس العدد الهائل من جوازات السفر المسروقة أو المزورة بإتقان التي كان يحصل عليها الموساد في صبر ودأب.

وفي ما بين عمليات القتل، كانت له مهارة أخرى وهو تجنيد المزيد من العملاء اليهود من خارج إسرائيل (السيانيم) لصالح الموساد. وكان أسلوبه الدائم هو استغلال حب اليهود لوطنهم: «كنت أقول لهم، إن شعبنا ظل يحلم طوال ألفي عام وإننا نحن اليهود كنا نصلي طوال ألفي عام من أجل الخلاص. لقد جعلنا حلمنا حياً في الأغاني والأناشيد والقلوب ـ ودفعنا حلمنا إلى البقاء على قيد الحياة. وها قد تحقق الحلم الآن»، وعندئذٍ أضيف قائلاً: «لكي يستمر الحلم، فإننا في حاجة إلى أناس أمثالكم».

ولا يمل من ترديد الكلمات المثيرة للعواطف في مقاهي شوارع باريس وفي المطاعم على ضفاف الراين وفي مدريد وبروكسل وحي جولدرز جرين في لندن.

كانت رؤيته لما هو مقصود بأن يكون المرء يهودياً اليوم هو اكتساب عميل آخر. أما بالنسبة للمترددين، فإنه كان يمزج ببراعة ما هو شخصي بما هو سياسي يعيد رواية ذكريات أيامه في الهجاناه مع قصص مؤثرة عن بن جوريون وغيره من الزعماء الآخرين، وعندئذٍ، فإن ممانعة المترددين تذوب وتتلاشى.

وسرعان ما تمكن من تجنيد أكثر من مائة رجل وامرأة في أنحاء

أوروبا يلبون أوامره: محامون وأطباء أسنان ومدرسون وأطباء وخياطون وأصحاب متاجر وربات بيوت وسكرتيرات. كانت هناك مجموعة بعينها يهتم بها بصفة خاصة وهي: اليهود الألمان الذين عادوا من أرض محرقتهم، وقد وصفهم رافي إيتان بأنهم «جواسيسه الناجون».

كان رافي إيتان، وهو المتمرس في أتون عمليات الموساد، حريصاً على أن ينأى بنفسه عن المناورات السياسية التي كانت مستمرة لإرباك شبكة المخابرات الإسرائيلية. فقد كان يعرف ما يجري بالطبع، وهي مناورات: «أمان» «المخابرات العسكرية» و«شين بيت» للحد من نفوذ الموساد. وكان سمع عن التحالفات التي تكونت وأعيد تكوينها، أو تقارير «الاطلاع الشخصي فقط» التي كانوا يرسلونها إلى مكتب رئيس الوزراء. لكن الموساد تحت قيادة مائير عاميت، ظل صامداً كالصخرة، غير مبالٍ بمحاولات النيل من مكانته البارزة.

وذات يوم خلا مقعد القيادة من مائير عاميت واختفت خطواته النشطة عبر الممرات، وتوارت معها نظرته النافذة وابتسامته التي ما كانت تصل إلى شفتيه في ما يبدو. وفي أعقاب رحيله، قام زملاء رافي إيتان بحثّه على السماح لهم بممارسة ضغوط ليخلف عاميت موضحين له أنه يتمتع بالمؤهلات والولاء والشعبية داخل الموساد. ولكن قبل أن يستطيع رافي إيتان اتخاذ قراره، ظفر بالمنصب الشخص الذي اختاره حزب العمل وهو تسفاي زامير، وهو رجل متحذلق ومتزمت. ومن ثم استقال رافي إيتان من الموساد، ورغم أنه لم يكن على خلافات أو مشاحنات مع رئيس الموساد الجديد، فإنه أحس بأن الموساد لم يعد المكان الذي يشعر بأنه مريح». فقد كان رافي إيتان في عهد مائير عاميت يتصرف بحرية وبلا قيود، ولكنه شعر بأن زامير سيدير «الأمور

طبقاً لحرفية القانون والتعليمات، وهذا شيء لم يكن يناسبني».

عمل رافي إيتان استشارياً خاصاً، يقدم مهاراته للشركات التي كان يتعين عليها تعزيز أمنها وللأثرياء الذين يريدون تدريب معاونيهم على كيفية حمايتهم من أي هجوم إرهابي، ولكن سرعان ما جانبه التوفيق في هذا العمل، وبعد عام أبدى رافي إيتان استعداده للعودة للعمل في مجال المخابرات.

وعندما أصبح إسحاق رابين رئيساً للوزراء في عام ١٩٧٤ م، عين إسحاق حوفي العدواني والمحنك، ليقود جهاز الموساد وجعله مسؤولاً أمام المتشدد اريل شارون الذي كان يعمل مستشاراً لرابين لشؤون الأمن. وسرعان ما عين شارون رافي إيتان مساعداً شخصياً له، ووجد حوفي نفسه يعمل على نحو وثيق مع رجل يشترك معه في أسلوبه الدموي في مجال المخابرات.

وبعد ذلك بثلاث سنوات، وفي تعديل وزاري آخر عين مناحيم بيجين رئيس الوزراء الجديد رافي إيتان مستشاراً شخصياً له لشؤون الإرهاب، وكان أول عمل لإيتان هو تنظيم اغتيال الفلسطيني المسؤول عن تخطيط مذبحة أولمبياد ميونيخ عام ١٩٧٢ م التي راح ضحيتها أحد عشر رياضياً إسرائيلياً، وقد اغتيل كل القتلة بالفعل واحداً واحداً على يد الموساد.

كان أولهم واقفاً في ردهة عمارته في روما عندما أطلقت النيران عليه إحدى عشرة مرة من مسافة قريبة - رصاصة لكل رياضي قتل. وعندما جاء دور الإرهابي الثاني، اغتيل عندما كان يرد على مكالمة هاتفية حيث طار رأسه عندما انفجرت فيه قنبلة صغيرة زرعت في سماعة الهاتف وتم تفجيرها عن بعد. وحدث نفس الشيء لإرهابي آخر

عندما انفجرت فيه قنبلة وهو نائم في غرفته بأحد فنادق نيقوسيا.

ومن أجل إثارة الرعب بين بقية أعضاء جماعة أيلول الأسود الذين قتلوا الرياضيين، رتب عميل عربي للموساد نعيهم لينشر في الصحف العربية المحلية.

وبعد ذلك، شرع رافي إيتان في العثور على زعيمهم علي حسن سلامة وقتله، والمعروف في جميع أنحاء العالم العربي باسم «الأمير الأحمر». وكان علي حسن سلامة منذ مذبحه ميونيخ يتنقل باستمرار من عاصمة عربية إلى أخرى ليرشد الجماعات الإرهابية في ما يتعلق باستراتيجية العمل. وفي كل مرة يقرر فيها رافي إيتان توجيه ضربته يكون الأمير الأحمر قد انتقل إلى مكان آخر. وأخيراً، استقر به المقام وسط صناع القنابل في بيروت. وكان رافي إيتان يعرف المدينة معرفة جيدة، فتوجه إلى هناك متنكراً كرجل أعمال يوناني. وخلال بضعة أيام اكتشف أماكن وجود سلامة وتحركاته على وجه التحديد. وعاد رافي إيتان إلى تل أبيب لترتيب خطته. واستطاع ثلاثة من رجال الموساد العبور إلى لبنان ودخول المدينة، واستأجر أحدهم سيارة. ووضع الثاني مجموعة من القنابل في «شاسيه» السيارة وسقفها وأبوابها. أما العميل الثالث فقد أوقف السيارة على الطريق الذي يمر به الأمير الأحمر إلى مكتبه كل صباح. وبالاستعانة بتوقيتات دقيقة أعدها رافي إيتان، تم تفجير السيارة أثناء مرور سلامة بجانبها فمزقته إرباً.

ومرة أخرى، يبرهن رافي إيتان على أنه رجل يجيد القيام بدوره في جماعة المخابرات الإسرائيلية. ومع ذلك نجد مناحيم بيجين يستقر رأيه على أن قيمة رافي إيتان أغلى من المخاطرة مرة أخرى بالقيام بمثل هذه المغامرات، ومن ثم قال لمستشاره إيتان إنه يجب من الآن فصاعداً

بقاؤه في المكتب ويتوارى في الظل. وقد اتخذ كاتب قصص الجاسوسية جون لو كاريه مؤخراً «إيتان» نموذجاً لشخصية محورية تتعقب الإرهابيين في روايته المثيرة «قارعة الطبول الصغيرة».

غير أن إضفاء المصداقية على خيال كاتب روائي لم يفد كثيراً في تهدئة القلق الدائم لدى رافي إيتان وعدم خلوده إلى الراحة. فقد كان يريد أن يكون حيثما يوجد العمل، لا أن يضطر الجلوس إلى مكتب أو حضور جولات من اجتماعات التخطيط التي لا نهاية لها، ومن ثم، راح يلح على رئيس الوزراء بيجين أن يجد له عملاً آخر.

وبعد شيء من التردد ـ لأن رافي إيتان كان مستشاراً ممتازاً وبارعاً في مكافحة الإرهاب ـ عينة بيجين في منصب من أشد مناصب دوائر المخابرات حساسية، منصب يجهده فكرياً ويشبع ولعه بوظيفة يشترك في نشاطاتها اشتراكاً شخصياً، إلا وهو مدير لمكتب الاتصال العلمي الذي يعرف اختصاراً بالعبرية «لاكام» akam .

كان هذا المكتب قد أنشيء في عام ١٩٦٠ م وعمل كوحدة تجسس لوزارة الدفاع للحصول على المعلومات العلمية «بكل الوسائل الممكنة»، بمعنى سرقة المواد أو رشوة الأشخاص لتوفيرها. ومنذ البداية واجه مكتب الاتصال العلمي «لاكام» معارضة وعقبات من جانب جهاز الموساد المعادي له، الذي كان يعتبره وافداً جديداً على مجال نشاطهم. وقد حاول كل من «أيسار» و «هارئيل» و «مائير عاميت» إغلاق مكتب «لاكام» أو إدماجه في الموساد، إلا أن شيمون بيريز نائب وزير الدفاع الإسرائيلي أصر على بقائه، مبرراً وجهة نظره بأن وزارة الدفاع في حاجة إلى جهاز خاص بها لجمع المعلومات. وشرع مكتب «لاكام» في ممارسة عمله على مهل ومثابرة، وأنشأ مكاتب له في نيويورك وواشنطن وبوسطن ولوس أنجلوس، وجميعها مراكز رئيسية

للعلوم الحساسة والمتقدمة. وكان أعضاء «لاكام» يواظبون بدأب على شحن صناديق من الدوريات العلمية إلى إسرائيل أسبوعياً، وهم يعلمون أتم العلم أن مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI يراقب نشاطاتهم.

وازدادت هذه المراقبة حتى عام ١٩٦٨ م عندما اكتشف أن أحد مهندسي تصنيع المقاتلة الفرنسية طراز «ميراج ٣ سي» سرق ما يربو على مائتي ألف صورة من المخططات الهندسية، وعوقب بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف سنة بتهمة تقديم معلومات إلى «لاكام» مكنتها من بناء طائرة ميراج خاصة بها، ومنذ ذلك الوقت حققت «لاكام» العديد من الأعمال الناجحة.

وبالنسبة لرافي إيتان، فإن تذكّر ضربة الميراج الموفقة كان عنصراً حاسماً، فإن ما حققه من قبل يمكن تحقيقه مرة أخرى، فهو الآن على رأس «لاكام» الخامل بالفعل في ذلك الحين. وفي وسعه تحويله إلى قوة يعمل لها ألف حساب. من ثم قال لمعاونيه الجدد المبهورين بالعمل تحت إمرة مثل هذه الشخصية الأسطورية وهو يعمل من مكاتب مكتظة في مكان خلفي منعزل في تل أبيب: إن ما يعرفه عن العلوم لا يملأ أنبوبة اختبار، فلا يزال أمامه أن يتعلم الكثير، لكنه استدرك قائلاً: إنه سريع التعلم.

ثم انغمس في عالم العلوم بحثاً عن مجالات محتملة يستهدفها. وكان يغادر منزله قبل الفجر وليعود في أغلب الأحوال قرب منتصف الليل حاملاً حزماً من البحوث الفنية التي يقرأها في الساعات الأولى، دون أن يجد من الوقت ما يروح به عن نفسه في صناعة التماثيل المعدنية.

وفي ما بين هذه الكميات الهائلة من المعلومات التي استوعبها،

أقام من جديد حلقة اتصال مع جهازها القديم. وكان الموساد في ذلك الوقت أصبح له مدير جديد، هو ناحوم آدموني، وكان آدموني، مثل رافي إيتان، تخامره شكوك راسخة في نوايا الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ففي الظاهر، كانت أميركا تواصل إظهار التزامها الصريح نحو إسرائيل وعملت وكالة المخابرات المركزية الأميركية على أن تظل قناة الاتصال السرية مفتوحة، وهي القناة التي كان قد أوعز بها أيسار هارئيل والآن دالاس، غير أن آدموني كان يشتكي من أن المعلومات الواردة من ذلك المصدر قليلة الأهمية.

وكان رئيس الموساد معنياً بالتقارير الواردة من رجاله الميدانيين (الكاتسا) وعملائه المجندين (السيانيم) المتمتعين بمناصب مهمة في واشنطن حيث اكتشفوا اجتماعات سرية تعقد بين كبار المسؤولين بوزارة الخارجية الأميركية وزعماء مقربين من ياسر عرفات، وكانوا يبحثون سبل ووسائل الضغط على إسرائيل لتكون أكثر استجابة للمطالب الفلسطينية. وقال آدموني لرافي إيتان أنه لم يعد يستطيع اعتبار الولايات المتحدة «صديقاً في وقت الشدة». وتعزز هذا الموقف بوقوع حادثة زعزعت الإيمان الأميركي على نحو لم تعرفه أميركا منذ حرب فيتنام.

ففي أغسطس ١٩٨٣ م اكتشف عملاء الموساد وجود عملية يجري تدبيرها ضد القوات الأميركية في بيروت والموجودة هناك ضمن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. وقد رصد العملاء شاحنة من طراز مرسيدس يقدر ما تحمله من متفجرات بنصف طن، وكان يجب على الموساد نقل هذه المعلومات إلى المخابرات المركزية بموجب ترتيب قناة الاتصال السري، ولكن قيل للأعضاء في اجتماع عقد بمقر الموساد المطل على شارع الملك شاؤول أن عليهم أن يتأكدوا من أن

رجالنا يراقبون الشاحنة، أما بالنسبة للأميركيين فلسنا هنا لحمايتهم، يمكنهم مراقبة الأمر بأنفسهم. وإذا بدأنا في تقديم تنازلات سنجلس في النهاية نندب حظنا.

وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ م، انطلقت الشاحنة التي يراقبها عملاء الموساد، بسرعة فائقة مقتحمة مقر قيادة الكتيبة الثامنة لمشاة البحرية الاميركية الواقع بالقرب من مطار بيروت، وأسفر ذلك عن مصرع ١٤٢ شخصاً من مشاة البحرية.

وكان رد الفعل في دوائر الموساد العليا، طبقاً لما رواه ضابط سابق اسمه فيكتور أوستروفسكي، هو «لقد أرادوا أن يدسوا أنفهم في لبنان، فليدفعوا الثمن».

شجع هذا الموقف أيضاً رافي إيتان على التفكير جدياً في استهداف الولايات المتحدة، حيث تتميز بيئتها العلمية بأنها أكثر البيئات العلمية تقدماً، خاصة أن تكنولوجياتها العسكرية ليس لها مثيل. ومن ثم فإن حصول «لاكام» على بعض هذه البيانات يعتبر إنجازاً مذهلاً بالنسبة لمكتب «لاكام» وربما كانت العقبة الأولى التي يجب التغلب عليها هي أصعب العقبات وأشقها: وهي إيجاد مخبر أو مبلّغ يحتل موقعاً جيداً يمكنه من توفير المعلومات.

وبالاستعانة بقائمة العملاء المجندين اليهود في الولايات المتحدة التي اسهم رافي إيتان في جمعها أثناء فترة عمله مع الموساد، تم البحث عن شخص في الولايات المتحدة يتمتع بخبرة عملية ومشهود له بولائه لإسرائيل، ولكن ذلك لم يسفر عن شيء لعدة أشهر.

وفي إبريل ١٩٨٤ م، ذهب أفييم سيللا، وهو ضابط بالسلاح الجوي الإسرائيلي برتبة كولونيل كان في إجازة لدراسة علوم الحاسب

الآلي في جامعة نيويورك، إلى حفل أقامه أحد أطباء أمراض النساء الأثرياء اليهود في شمال شرق منهاتن. وكان سيللا يحظى بالشهرة بين الجالية اليهودية في المدينة لأنه كان الطيار الذي قاد هجوماً جوياً، قبل ثلاث سنوات، دمر فيه المفاعل النووي العراقي.

وكان يوجد في الحفل شاب آخر ذو ابتسامة خجولة وكان يبدو مضطرباً وقلقاً لوجوده بين مجموعة صغيرة من الأطباء والمحامين والمصرفيين، وقال لسيللا والمحامين والمصرفيين، أن اسمه جوناثان بولارد وإن السبب الوحيد لمجيئه هو لمقابلته. وتبادل معه سيللا، حديثاً قصيراً مهذباً واوشك بالابتعاد عنه، ولكن بولارد كشف له أنه ليس صهيونياً ملتزماً فحسب بل ويعمل أيضاً في المخابرات البحرية الأميركية. وسرعان ما عرف سيللا الداهية أن مقر عمل بولارد هو مركز الإنذار لمكافحة الإرهاب بإحدى مؤسسات البحرية الأميركية البالغة السرية المتعلقة بالنشاطات الإرهابية على مستوى العالم، وكان هذا العمل من الأهمية البالغة لدرجة أنه حصل على الموافقة الأمنية مما يمكن اعتباره أرقى أجهزة المخابرات الأميركية.

ولم يستطع سيللا تصديق ما سمعه، لا سيما أن بولارد بدأ يحكي له تفاصيل عن وقائع لم تكن المخابرات الأميركية متعاونة فيها مع نظيرتها الإسرائيلية، وبدأ سيللا يسائل نفسه ما إذا كان بولارد جزءاً من عملية يقوم بها مكتب التحقيقات الفيدرالي لتجنيد شخص إسرائيلي أم لا.

ومع ذلك كان هناك شيء ما في بولارد المتوتر يوحي بأن ما ذكره فيه مسحة من الصدق، وفي تلك الليلة، اتصل سيللا بتل أبيب وتحدث مع مسؤول في المخابرات الجوية، ثم حوّل المسؤول المكالمة

إلى رئيس أركان حرب القوات الجوية الإسرائيلية، وصدرت الأوامر لسيللا بأن يطور علاقته مع بولارد.

وبدأ الإثنان يلتقيان: في حلبة التزلج على الجليد في مركز روكفلر، وفي أحد مقاهي شارع ٤٨، وفي السنترال بارك. وكان بولارد يسلم في كل مرة وثائق سرية لتأكيد صدق ما قاله. ونقل سيللا المواد إلى تل أبيب مستمتعاً بالإثارة الناجمة عن مشاركته في عملية استخباراتية معه. ولكنه أصيب بالذهول بعد ذلك عندما قيل له إن الموساد كان يعرف كل شيء عن بولارد وأنه عرض بالفعل التجسس لحسابهم قبل ذلك بعامين وأن عرضه رفض باعتباره شخصاً «متقلباً» كما وصف أيضاً رجال الموساد الميدانيون (الكاتسا) في نيويورك بولارد بأنه شخص «انعزالي... وله آراء غير واقعية عن إسرائيل».

ولما كان سيللا غير راغب في التخلي عن دوره في عملية أكثر إثارة بالتأكيد من جلوسه أمام لوحة مفاتيح حاسب آلي في قاعة التدريب أخذ يبحث عن طريقة لاستمرار العملية. فخلال وجوده في نيويورك تعرف على يوسف ياغور الملحق العلمي في القنصلية الإسرائيلية في المدينة، وهو مسؤول عن جميع عمليات «لاكام» في الولايات المتحدة.

ووجه سيللا الدعوة إلى ياغور لتناول العشاء مع بولارد، وأثناء تناول العشاء كرر بولارد القول بأن منع المعلومات عن إسرائيل للدفاع عن نفسها ضد الإرهابيين العرب يرجع إلى أن الولايات المتحدة لا ترغب في تعكير علاقاتها مع الدول العربية المنتجة للبترول.

وفي تلك الليلة تحدث ياغور هاتفياً مع رافي إيتان مستخدماً أحد الهواتف المؤمنة في القنصلية، وكان ذلك في الساعات الأولى من

الصباح في تل أبيب. وكان رافي إيتان لا يزال يعمل في غرفة مكتبه. وقبيل الفجر تقريباً وضع إيتان سماعة الهاتف، وكان جدلاً مبتهجاً: فقد عثر على المخبر الذي يبحث عنه.

ظل ياور وسيللا على مدى الأشهر الثلاثة التالية يوطدان بدأب ومثابرة، علاقاتهما مع بولارد وزوجته المرتقبة، آن هندرسون، حيث كانا يدعوهما إلى المطاعم الفاخرة وعروض برودواي والعروض الأولى للأفلام السينمائية. وواصل بولارد تسليم الوثائق الهامة. ولم يكن أمام رافي إيتان إلا الإعجاب بهذه المادة القيمة. ورأى أن الوقت قد حان لمقابلة المصدر.

وفي نوفمبر ١٩٨٤ م وجه سيللا وياغور الدعوة إلى بولارد وآن هندرسون لمرافقتهما في رحلة إلى باريس دون أن يتحملا أي تكاليف. وقال ياغور لبولارد إن هذه الرحلة «مكافأة متواضعة نظير كل ما تفعله من أجل إسرائيل». وسافروا جميعاً على متن الطائرة بالدرجة الأولى، واستقبلتهم سيارة خاصة أقلتهم إلى فندق بريستول، حيث كان رافي إيتان في انتظارهم.

ومع نهاية السهرة، كان رافي إيتان قد انتهى من كل الترتيبات العملية لكي يواصل بولارد خيانته. ولم يعد الأمر يحتمل المضي على هذا النحو المرتجل. وعلى سيللا التواري عن الأنظار، فقد انتهى دوره. وأصبح ياغور المشرف على بولارد والمسؤول عن تشغيله.

وتم وضع نظام دقيق لتسليم الوثائق، يقوم بولارد بمقتضاه بتسليمها إلى شقة «إريت إرب» وهي سكرتيرة رمادية الشعر تعمل بالسفارة الإسرائيلية في واشنطن. وتم تركيب آلة نسخ مستندات من طراز زيروكس فائقة السرعة في مطبخها لنسخ المواد، وكانت زيارات

بولارد مرتبة بينهما في ما بين فترات زيارات لعدد من محطات غسيل السيارات المحددة. ففي الوقت الذي تغسل فيه سيارة بولارد تسلم المستندات إلى ياغور الذي تخضع سيارته لعملية غسيل مماثلة، وهذه السيارة مزودة بجهاز نسخ سرية تعمل ببطارية ومخبأة تحت لوحة أجهزة القياس بالسيارة. وكانت شقة «أريت إرب» ومحطات غسيل السيارات قريبة من مطار واشنطن الوطني مما ييسر تنقلات ياغور إلى نيويورك جيئة وذهاباً. ومن القنصلية كان ياغور يتولى إرسال الوثائق إلى تل أبيب من خلال فاكس مؤمن.

وعاد رافي إيتان إلى تل أبيب لانتظار النتائج التي تجاوزت أكثر توقعاته شططاً: تفاصيل شحنات أسلحة روسية ودول عربية أخرى بما في ذلك صواريخ «س ز س ـ ١٢» و«س. إيه ـ ٥ (S.A-5)» التي تصيب أهدافها بدقة. وخرائط وصور فوتوغرافية بالأقمار الصناعية لترسانات الأسلحة العراقية والسورية والإيرانية. بما في ذلك محطات التصنيع الكيماوي والبيولوجي.

وسرعان ما حصل رافي إيتان على صورة واضحة عن طرق جمع المعلومات، ليس في الشرق الأوسط فحسب بل وفي جنوب إفريقيا أيضاً. فقد قدم بولارد تقريراً أعده رجال وكالة المخابرات المركزية تبين مخططاً لتنظيم شبكة المخابرات الأميركية داخل الدولة. واشتملت إحدى الوثائق على تقرير مفصل عن استطاعة جنوب إفريقيا تفجير قنبلة في ١٤ سبتمبر ١٩٧٩ م في الطرف الجنوبي للمحيط الهندي. وقد نفت حكومة بريتوريا نفياً قاطعاً إنها أصبحت قوة نووية. ثم رتب رافي إيتان للموساد تسليم نسخ من جميع المواد المتعلقة بجنوب إفريقيا إلى بريتوريا، مدمراً بذلك في الواقع شبكة وكالة المخابرات المركزية. وقد اضطر إثنا عشر عميلاً إلى مغادرة البلاد على عجل.

وظل جوناثان بولارد خلال الأحد عشر شهراً التالية يستنزف المعلومات السرية الأميركية. إذ نقل ما يربو على الف وثيقة سرية، أي ٣٦٠ قدماً مكعباً من الورق، إلى إسرائيل. وهناك انكب رافي إيتان على مطالعتها قبل تسليم المعلومات إلى الموساد. ومكنت المعلومات ناحوم أدموني من تقديم تقارير إلى حكومة شيمون بيريز الائتلافية مكنتها من كيفية الرد على سياسات واشنطن في الشرق الأوسط على نحو كان مستحيلاً في الماضي. وادعى أحد مدّوني الملاحظات في اجتماعات مجلس الوزراء التي تعقد في القدس في أيام الأحد أن «الاستماع إلى ادموني كان أفضل شيء بعد الجلوس في المكتب البيضاوي. فإننا لم نقف على أحدث ما يدور في تفكير واشنطن صوب كل الأمور التي تهمنا فحسب، بل أصبح لدينا ما يكفي من الوقت للرد قبل اتخاذ القرار».

كان بولارد عنصراً حاسماً في أسرار صنع السياسة الإسرائيلية وتعقيدات اختيار البدائل في إسرائيل ومنح رافي إيتان بولارد جواز سفر إسرائيليا باسم داني كوهين، كما أعد له راتباً شهرياً سخياً. وفي مقابل ذلك طلب من بولارد تزويده بمعلومات وتفاصيل عن نشاطات التنصت الإلكتروني لوكالة الأمن القومي الأميركي في إسرائيل والطرق المستخدمة للتنصت السري ضد السفارة الإسرائيلية في واشنطن والمراكز الدبلوماسية الأخرى داخل الولايات المتحدة.

وفي ١٢ نوفمبر ١٩٨٥ م، وقبل تسليم بولارد المعلومات المطلوبة، ألقي القبض عليه خارج السفارة الإسرائيلية في واشنطن. وبعد ذلك بساعات لحق ياغور وسيللا وسكرتيرة السفارة بطائرة تابعة لشركة العال من نيويورك إلى تل أبيب قبل أن يستطيع مكتب التحقيقات

الفيدرالي منعهم من السفر. ثم اختفوا بين الأحضان الحامية لجهاز مخابرات يكن لهم الامتنان والتقدير. وقد حكم على بولارد بالسجن مدى الحياة وعلى زوجته بالسجن لمدة خمس سنوات.

وفي الوقت ذاته، كان رافي إيتان مبتهجاً وسعيداً بنجاح عملية أخرى ضد الولايات المتحدة، وهي عملية جعلت إسرائيل أول قوة نووية في الشرق الأوسط.

الفصل الخامس:

(سيف جدعون النووي)

بينما كان «رافي إيتان» يشاهد الجريدة السينمائية المصورة وهي تعرض أحداث الهجوم النووي على هيروشيما قبل الفيلم الروائي الطويل في إحدى دور السينما في تل أبيب ذات ليلة في عام ١٩٥٤ م، وزملاؤه من الجنود الشبان يصفرون ويهتفون من حوله فرحاً لما يرونه من مشاهد تدمير هيروشيما وما تؤذن به من ميلاد العصر النووي، خطرت له خاطرتان: هل يمكن لإسرائيل امتلاك مثل هذا السلاح؟ وماذا لو امتلكه جيرانها العرب قبلها؟.

وعلى مر السنين اللاحقة ظل هذان السؤالان يلحان عليه، وظلت تراوده فكرة امتلاك إسرائيل القنبلة النووية حتى تكون قوة لا يمكن قهرها، كما كان دائماً يسائل نفسه بعد ذلك قائلاً: «لو أن مصر كانت لديها قنبلة نووية لكسبت معركة السويس، ولما وقعت حرب الأيام الستة ولا حرب يوم كيبور، ولتحولت إسرائيل إلى صحراء من تأثير القنبلة النووية».

في تلك الأيام من عام ١٩٥٤ م كانت تلكم الأسئلة الاستراتيجية بالنسبة لرجل مخابرات مهمته الأولى هي قتل الأعداء مجرد اهتمام نظري. أما الإجابة عنها فكانت من اختصاص غيره. بيد أنه عندما تولى

قيادة «اللاكام» LAKAM بعد ذلك بسنوات بدأ يأخذ مسألة القنبلة النووية مأخذ الجد، حتى لم يعد لديه سوى سؤال واحد هو: هل يمكن المساعدة في توفير الحماية النووية لإسرائيل»؟

وبعد قراءات طويلة أثناء الليل كانت تساعده عليها كبسولات الفيتامين العديدة التي اعتاد إيتان ابتلاعها يومياً، تبين له كيف كان ساسة إسرائيل وعلماؤها منقسمين في أول الأمر حول موضوع «التحول إلى دولة نووية». وكانت الملفات التي يراجعها تضم تفاصيل المناقشات الغاضبة التي دارت في اجتماعات مجلس الوزراء، والآراء التي انفرد بها العلماء دون غيرهم، وكانت الغلبة دائماً لصوت رئيس الوزراء ديفيد بن جوريون الذي كان وحده الذي يحسم جلسات الجدل الطويل حول هذا الموضوع.

وبدأ هذا الشاغل يراود إيتان عام ١٩٥٦ م عندما أرسلت فرنسا مفاعلاً نووياً طاقته أربعة وعشرين ميجاوات إلى إسرائيل. وكان بن جوريون قد أعلن أن الغرض من ذلك المفاعل تشغيل محطة لتحلية المياه لتحويل الصحراء إلى «جنة فيحاء» عن طريق تحلية مليار جالون من ماء البحر سنوياً. وسرعان ما أدى ذلك الادعاء إلى استقالة ستة من أعضاء الهيئة الإسرائيلية للطاقة الذرية السبعة على سبيل الاحتجاج لأن المفاعل كان في واقع الأمر بداية «لمغامرة سياسية ستجعل العالم بأسره يقف ضدنا». وأيدهم في ذلك كبار واضعي الاستراتيجيات العسكرية في إسرائيل ومن بينهم «إيجال آلون» أحد أبطال حرب الاستقلال الذي انتقد «الخيار النووي» انتقاداً شديداً، و«إسحق رابين» الذي كان على وشك أن يصبح رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلي الذي أعرب عن احتجاجه صراحة. بل إن أريل شارون الذي كان ولا يزال أبرز صقور إسرائيل عارض فكرة الترسانة النووية

معارضة شديدة، وقال «إن لدينا أفضل قوات تقليدية في المنطقة».

تجاهل بن جوريون كافة أشكال المعارضة وأعطى أوامره بوضع المفاعل في صحراء النقب بالقرب من مستوطنة ديمونة المنعزلة التي تهب عليها العواصف الرملية، والتي كانت في ما مضى محطة على طريق القوافل بين القاهرة والقدس. ولطالما كانت ديمونة مكاناً منسياً على مر الأيام، فقد أثبتت خرائط قليلة وجودها في المنطقة الصحراوية جنوبي تل أبيب. ولكن من الآن فصاعداً سيكون في إمكان رسامي الخرائط أن يضعوا في ذلك الموقع معلماً يصور خطوات إسرائيل الحذرة لدخول العصر الذري.

ترتفع قبة ديمونة الفضية ـ التي يوجد المفاعل تحتها ـ وسط الرمضاء، ويعمل في «كيرا لو ميهيكار جاريني»، الاسم العبري لديمونة (أي قرية البحث النووي) ما يربو على ٢٥٠٠ عالم وفني، داخل واحد من أكثر المواقع تحصيناً على وجه الأرض. إذ يتم باستمرار فحص الرمال المحيطة بالسياج بحثاً عن آثار لمن يحاولون التسلل إلى المكان. وكان الطيارون يعلمون أن أي طائرة تطير على بعد خمسة أميال من منطقة الحظر الجوي معرضة لإسقاطها. وكان المهندسون قد أقاموا غرفة للمفاعل على عمق ثمانين قدماً تحت سطح الأرض لوضع المفاعل. وهذه الغرفة جزء من المجمع المقام تحت الأرض والمسمى ماخون ـ ٢ (المعهد) الذي يوجد في وسطه معمل الفصل وإعادة المعالجة، والذي وضع عليه عبارة «آلات نسيج» عند شحنه من فرنسا.

لم يكن المفاعل قادراً بذاته على توفير القنبلة الذرية لإسرائيل. فإنتاج واحدة منها كان يتطلب مواد قابلة للانشطار، مثل اليورانيوم أو البلوتونيوم. وقد اتفقت الدول النووية، قليلة العدد، في ما بينها على الا

تقدم البتة جراماً واحداً من أي من المادتين لأية دولة خارج «ناديها» الخاص. وهكذا ظل مفاعل ديمونة لمدة طويلة لا يحمل إلا قيمة رمزية إلى أن تم الحصول على المواد القابلة للانشطار.

بعد استقرار المفاعل في مكانه بثلاثة أشهر بدأت شركة صغيرة تعمل في مجال معالجة المواد النووية نشاطها في مصنع قديم للصلب يعود إلى الحرب العالمية الثانية في مدينة «أبوللو» غير اللافتة للانتباه بولاية «بنسلفانيا» الأميركية. كانت تلك الشركة تدعى شركة نيوميك للمواد والمعدات النووية. وكان مديرها العام هو الدكتور سلمان شابيرو.

يظهر شابيرو على قاعدة بيانات «اللاكام» كواحد من أبرز اليهود الامريكيين ذو الخلفية العلمية. وكذلك كواحد من أكبر جامعي التبرعات من أجل إسرائيل وكان رافي إيتان يعلم أنه عثر على الطريقة المثالية لكيفية إمداد مفاعل ديمونة بالمواد الانشطارية. فطلب دراسة كاملة عن شابيرو وكل العاملين في مصنعه، وعهد بهذه الدراسة للعميل الميداني «الكاتسا» للموساد في واشنطن.

ومع بدء الدراسة ظل رافي إيتان منغمساً في قصة انتقلت فصولها من صحراء ديمونة الحارة إلى ردهات البيت الأبيض الباردة.

كان من بين البيانات التي أرسلها العميل الميداني بواشنطن نسخة من مذكرة كتبتها الهيئة الأمريكية للطاقة النووية في ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٦٢ م إلى شابيرو تحذره من أن «عدم التزام شركته بتعليمات وإجراءات الامن يعرضه للعقاب طبقاً للقانون، بما في ذلك قانون الطاقة النووية الصادر في عام ١٩٥٤ م وكذا في قوانين التجسس».

زاد ذلك التهديد من شعور رافي إيتان بأنه ربما وجد سبيلاً للولوج إلى أسرار الصناعة النووية الأميركية، وكان من الواضح أن شركة «نيوميك» تتسم بالتراخي في إجراءات الأمن وكذلك نظم إمساك الدفاتر والإدارة، الأمر الذي جعل مسؤولي مراقبة الأنشطة النووية في أميركا يسجلون عليها الكثير من المآخذ التي رأى فيها إيتان هدفاً جديراً الاستفادة منه.

كان ذكاء سلمان شابيرو، وهو ابن أحد الحاخامات المتشددين، قد حقق له الكثير. ففي جامعة جون هوبكنز حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء في سن الثامنة والعشرين، وساعدته مقدرته على العمل الشاق الدؤوب على أن يصبح عضواً مهماً في مختبر الأبحاث والتطوير النووي بواشنطن، تلك المؤسسة التي كانت تعمل لحساب البحرية الأمريكية بهدف تطوير مفاعلات الغواصات. وكشفت دراسة حياة شابيرو أن بعض أقاربه كانوا ضمن ضحايا المحارق النازية. واستطاع شابيرو «بطريقته المتحفظة المعهودة» من تقديم عدة ملايين من الدولارات لمعهد «التخنيون» في حيفا، المتخصص في العلوم والهندسة.

في عام ١٩٥٧ م ترك شابيرو واشنطن وأنشأ شركة «نيوميك» التي كانت تضم خمسة وعشرين مساهماً يظهرون جميعاً تعاطفاً واضحاً مع إسرائيل. ووجد شابيرو نفسه رئيساً لشركة صغيرة تعمل في مجال صناعة جريئة فتاكة لا ترحم، ورغم كل هذا حصلت شركة «نيوميك» على عدد من العقود لاستخلاص اليورانيوم المخصب في عملية تؤدي عادة إلى فقدان كمية من اليورانيوم أثناء عملية الاستخلاص. ولم تكن ثمة طريقة لتحديد مقدار الخسارة أو موعدها.

كل هذه الأفكار جعلت رافي إيتان يبتلع المزيد من كبسولات الفيتامين ليتابع قراءاته الليلية وهو يشعر بقدر أكبر من السعادة.

واستمر إيتان في قراءة كيف اتسعت هوة الخلاف بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية حول رغبة الدولة اليهودية في أن تصبح قوة نووية عندما سافر بن جوريون إلى واشنطن عام ١٩٦٠ م وأخبره الأمريكيون في سلسلة من الاجتماعات صراحة أن امتلاك إسرائيل لأسلحة نووية يؤثر في ميزان القوى في الشرق الأوسط وفي شهر فبراير (شباط) ١٩٦١ م كتب الرئيس جون كيندي إلى بن جوريون يقترح عليه أن يتم تفتيش مفاعل ديمونة بشكل منتظم من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

انزعج بن جوريون للفكرة فطار إلى نيويورك ليلتقي بالرئيس كيندي في فندق «والدورف استوريا»، فقد كان الزعيم الإسرائيلي «قلقاً جداً» مما لاحظه من الضغوط الأمريكية المستمرة». لكن كيندي كان حازماً في ما يتعلق بأمر التفتيش، فأذعن بن جوريون للأمر. وعاد إلى إسرائيل بقناعة مفادها أن «وجود كاثوليكي في البيت الأبيض يعد نذير سوء لإسرائيل».

فلجأ رئيس الوزراء إلى الرجل الذي يثق به في واشنطن، ألا وهو «أبراهام فاينبرج» وهو صهيوني يؤيد التطلعات النووية لإسرائيل. فقد كان فاينبرج النيويوركي الأصل أهم جامعي التبرعات اليهود للحزب الديموقراطي. ولم يكن يخفي أنه جمع عدة ملايين، كل دولار منها يهدف إلى وصول الحزب الذي يؤيد إسرائيل الكونجرس. كما قدم سراً عدة ملايين إضافية لإنشاء مفاعل ديمونة. وجاءت تلك الأموال على شكل شيكات مصرفية إلى بنك إسرائيل في تل أبيب، متفادياً محاسبة

اجهزة الرقابة على النقد الأجنبي في إسرائيل. طلب بن جوريون من فاينبرج «معاقبة ذلك الصبي، وأن يجعل هذا المسيحي يفهم الحياة فهماً واقعياً».

كان أسلوب فاينبرج يعتمد على الضغط السياسي المباشر ـ ذلك النوع من الضغط الذي سبق أن أثار حنق الرئيس كيندي عندما كان مرشحاً للرئاسة حين أخبره فاينبرج صراحة بقوله «نحن نرغب في دفع فواتيرك شريطة أن تترك لنا السيطرة على سياستك في الشرق الأوسط». ووعد كيندي بأن «يعطي إسرائيل كل ما يستطيع من تسهيلات»، فوافق فاينبرج على تقديم مبلغ خمسمائة ألف دولار كمساهمة مبدئية في الحملة الانتخابية «مع وعد بتقديم المزيد».

وعاد فاينبرج مرة أخرى إلى استخدام نفس الأسلوب المباشر فإذا ما أصر الرئيس كيندي على تفتيش ديمونة فانه يجب «الا يعول على الدعم المالي اليهودي أثناء الحملة الانتخابية التالية»، وجاء الدعم القوي لإسرائيل هذه المرة من مصدر غير متوقع، فقد أفصح وزير الخارجية روبرت مكنمارا للرئيس كيندي بأنه «يتفهم سبب رغبة إسرائيل في تملك القنبلة النووية».

ومع كل هذا بقي كيندي على إصراره، واضطرت إسرائيل لقبول التفتيش. وقدّم الرئيس تنازلين في الدقيقة الأخيرة. فمقابل دخول ديمونة تبيع الولايات المتحدة لإسرائيل صواريخ هوك أرض ـ جو التي كانت أكثر الأسلحة الدفاعية تقدماً في ذلك الوقت. كما لا يجب أن يتولى التفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية، بل فريق أمريكي فقط يتم الإعلان عن زيارته قبل أسابيع من القيام بها.

وسُر رافي إيتان لتفاصيل الكيفية التي استطاع بها الإسرائيليون خداع المفتشين الأمريكيين.

وتم إنشاء مركز تحكم وهمي فوق المركز الحقيقي في ديمونة يحتوي على لوحات تحكم مزيفة وصمامات متصلة بالكمبيوتر تعطي انطباعاً يمكن تصديقه عن قياس ناتج مفاعل متصل بنظام للري لتحويل صحراء النقب إلى مراع خصبة. أما المنطقة التي تحتوي على الماء الثقيل الذي تم جلبه من فرنسا والنرويج، فقد وضع خارج حدود المنطقة التي يتفقدها المفتشون «لأسباب تتعلق بالسلامة». فكمية الماء الثقيل المستخدم كان يمكن أن تبرهن على أن المفاعل يجهز لغرض مختلف.

عندما وصل الأمريكيون أحس الإسرائيليون بالارتياح، إذ علموا أن أياً منهم لا يتحدث العبرية، الأمر الذي قلل من احتمال اكتشافهم للأهداف الحقيقية لمفاعل ديمونة.

كان الوضع مجهزاً لرافي إيتان.

وكان النفاذ إلى داخل شركة «نيوميك» أمراً سهلاً نسبياً حيث طلبت سفارة إسرائيل في واشنطن من الوكالة الأمريكية للطاقة النووية السماح «لفريق من علمائنا بزيارة المبنى لفهم المخاوف التي أعرب عنها مفتشوكم فيما يتعلق بإعادة معالجة النفايات النووية فهماً أفضل». وحصلت السفارة على الإذن رغم أن مكتب التحقيقات الفدرالي كان يقوم بعملية مراقبة شاملة كي يكتشف ما إذا كانت إسرائيل قد جندت شابيرو جاسوساً لها أم لا.

كان الأمر مستبعداً تماماً. فقد كان رافي إيتان مقتنعاً بان شابيرو كان وطنياً أصيلاً، وصهيونياً يؤمن بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. لم يكن شابيرو شخصاً ثرياً فحسب من أموال أسرته واستثماراته الحاذقة في الأسهم، بل إن ثروته نمت نمواً سريعاً من الارباح الهائلة

التي حققتها شركة «نيوميك»، كما أنه، على عكس جوناثان بولارد، لم يكن خائناً فقد كان حبه لأمريكا واضحاً. ورأى رافي إيتان أن مجرد محاولة تجنيده يمكن أن تأتي بنتائج عكسية، فشابيرو يجب أن يظل خارج العملية التي بدأت في التبلور في عقله.

ورغم ذلك فكان من غير الممكن تجنب بعض المخاطر. فلكي يعلم رافي إيتان المزيد عن شركة «نيوميك» أرسل اثنين من رجال «اللاكام» Lakam إلى مدينة أبوللو، وهما أفراهام هيرموني الذي كان ساتره الدبلوماسي في سفارة إسرائيل لدى واشنطن هو «مستشار علمي» وجيرهام كفكافي، وهو أحد أفراد «الكاتسا» العاملين في الولايات المتحدة تحت ساتر كاتب علمي غير متفرغ.

تجول الرجلان داخل معمل إعادة المعالجة، غير أنه لم يسمح لهما بتصويره، حيث أوضح شابيرو أن ذلك يعد خرقاً لتعليمات الوكالة الأمريكية للطاقة الذرية. وقد رحب شابيرو بهما، لكنه، على حد تعبير هيرموني كان «رجلاً مشغولاً للغاية».

رأى رافي إيتان أن الوقت قد حان ليذهب إلى أبوللو، فكوّن مجموعة من «المفتشين» ضمت اثنين من علماء ديمونة متخصصين في إعادة معالجة النفايات النووية، كما ضمت عضواً آخر ذكر أنه مدير «قسم الإلكترونيات بجامعة تل أبيب». ولم يكن ثمة منصب كهذا في الجامعة، بل كان الرجل أحد ضباط الأمن في «اللاكام» وكانت مهمته محاولة اكتشاف طريقة لسرقة النفايات القابلة للانشطار من المعمل.

وضمت المجموعة هيرموني أيضاً، وكانت مهمته تحديد الأماكن ذات الحراسة المتراخية التي اكتشفها أثناء زيارته السابقة. وكان رافي إيتان يسافر تحت مسمى «مستشار علمي بمكتب رئيس وزراء إسرائيل».

وافقت السفارة الأمريكية في تل أبيب على زيارة الوفد ومنحته تاشيرات الدخول. وكان رافي إيتان حذر الفريق من رقابة مكتب التحقيقات الفدرالي ما أن تطأ أقدامهم أرض نيويورك، لكن ما أثار دهشته أن عينيه الخبيرتين لم تلحظا أي دليل على ذلك.

تصادف وصول الإسرائيليين إلى مدينة أبوللو مع عودة شابيرو من جولة مرهقة في عدد من الجامعات الأمريكية، حيث كان يحث العلماء «أصدقاء إسرائيل» على الذهاب إلى هناك لحل مشكلاتها الفنية والعلمية، وسيتكفل بكل نفقاتهم ويعوضهم عن العجز في رواتبهم.

وما حدث بعد ذلك يمكن استقراؤه فقط من تقارير مكتب التحقيقات الفدرالي وبالرغم من ذلك فهي تترك أسئلة مثيرة معلقة مثل: مدى إمكانية شك سلمان شابيرو في السبب وراء زيارة رافي إيتان. وذكر أحد تقارير مكتب التحقيقات الفدرالي أنه بعد شهر من عودة الإسرائيليين إلى بلادهم أصبحت شركة «نيوميك» شريكاً مع الحكومة الإسرائيلية في عمل وصف بأنه «بسترة الأغذية وتعقيم العينات الطبية عن طريق تعريضها للإشعاع».

وشكا تقرير آخر لمكتب التحقيقات الفدرالي من أن «وجود لافتة تحذيرية على كل حاوية تقول إنها تحتوي على مواد مشعة جعلنا نحجم عن فتح أي منها لفحصها ولم يكن هناك من هو مستعد للسماح لنا بذلك».

كان سبب الرفض هو أن السفارة الإسرائيلية في واشنطن أوضحت لوزارة الخارجية أنه إذا حدثت أي محاولة لفحص الحاويات فأنها سوف تضعها تحت الحصانة الدبلوماسية. وقامت وزارة الخارجية بالاتصال بوزارة العدل وحذرت من العواقب الدبلوماسية

الوخيمة لأي تعد على تلك الحصانة، وكل ما استطاع رجال مكتب التحقيقات الفدرالي، المكبلون، عمله هو مراقبة الحاويات أثناء تحميلها على طائرات نقل شركة العال في مطار أيدلوورد.

ورغم الجهود المضنية التي قام بها رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في تل أبيب جون هاون فقد ذكر أنه لم يتمكن من «التيقن» من أن الحاويات كانت وجهتها ديمونة. وقد سجل مكتب التحقيقات الفدرالي تسع شاحنات على مدار الأشهر الستة التي تلت زيارة إيتان.

ولاحظ المكتب أن الحاويات كانت تصل بعد آخر ضوء وتغادر قبل أول ضوء، وكانت جميعها مغطاة بالرصاص المطلوب عند نقل اليورانيوم المخصب، وكانت كل حاوية تحمل عنواناً في حيفا كتب باللغة العبرية. وفي مناسبات عدة شاهد رجال مكتب التحقيقات الفدرالي «أنابيب أفران» - وهي عبوات لليورانيوم المخصب - توضع في خزانات من الصلب في مرفأ التحميل الخاص بشركة «نيوميك».

كانت كل عبوة تحمل رقماً يبين أنها جاءت من السراديب السرية للشركة. لكن مكتب التحقيقات الفدرالي كان قد استنفد كل الإجراءات الممكنة، وتحدثت مذكرة للمكتب عن «الضغط السياسي الذي تمارسه وزارة الخارجية كي لا يؤدي الأمر إلى مشكلة دبلوماسية».

وبعد مضي عشرة شهور توقفت الشحنات فجأة. كل ما أمكن مكتب التحقيقات الفدرالي أن يتوصل إليه هو أن كميات كافية من المواد القابلة للانشطار وصلت بالفعل إلى ديمونة. وخلال المقابلات التالية مع الوكالة أنكر شابيرو أنه أمد إسرائيل بمواد تستخدم في صناعة القنابل. وذكر مكتب التحقيقات الفدرالي أن سجلات الشركة أوضحت وجود

تضارب في كميات المواد التي تمت إعادة معالجتها. وأصر شابيرو على «أكثر التفسيرات منطقية لفقدان» أي يورانيوم وهو أنه «تسرب إلى الأرض أو تبخر في الهواء» وبالجملة فإن المواد المفقودة وصلت كمياتها إلى مائة رطل، ولم توجه إلى شابيرو أي تهمة.

جرت أحداث يمكن أن تجعلنا نلتمس لرافي إيتان العذر لظنه أن سرقة المواد القابلة للانشطار ظلت أمراً سهلاً. إذ ثبت ذلك بعد تفكك الاتحاد السوفياتي بالفعل عندما حدثت واقعة في مطار شيرميتيفو بموسكو يوم ١٠ اغسطس (آب) ١٩٩٤ م.

ففي الساعة ٢١:٥٤ بعد ظهر ذلك اليوم تعمد راكب يحمل اسم «جوستيانو توريس» الوصول متأخراً للحاق برحلة لوفتهانزا رقم ٣٣٦٩ المتجهة إلى ميونيخ، وكان يرتدي سترة رمادية داكنة اشتراها خصيصاً لتلك الرحلة.

ورغم قوة بنيته كان يجد بعض الصعوبة في حمل حقيبته الجلدية من طراز دلسي، قدم توريس تذكرته على الدرجة الأولى مبتسماً لموظف الشركة، وقد التقطت تلك الابتسامة كاميرا سرية في تلك النقطة لتسجيل كل تحركاته وسكناته.

كذلك التقطت كاميرات أخرى صوراً له على مدار الأشهر الماضية وقد سجلت الكاميرات لقاءاته مع أيجور تاشانكا أحد علماء الذرة الروس المنشقين، مثل مقابلاتهما في تلال ستالين، ونزهاتهما في نهر موسكو، وتناولهما العشاء في المطاعم الروسية التي تسيطر عليها المافيا، واللقاءات التي سلم فيها تاشانكا تلك الحقيبة وحصل على مظروف يحتوي على خمسة آلاف دولار أمريكي في المقابل. لقد اعتقد توريس تماماً أنه عقد صفقة رابحة، فقد كانت الحقيبة تحتوي على مواد قابلة للانشطار.

كان جوستيانو توريس رسولاً لإحدى الجماعات الكولومبية العاملة في مجال تهريب المخدرات التي اتسع نشاطها ليشمل الإتجار في مواد أشد فتكاً. وكانت الحقيبة تحتوي على علب مغلقة فيها مائتا جرام من البلوتونيوم ٩٣٢ الذي باعه تاشانكا له. وتبلغ قيمة هذه الكمية خارج البورصة خمسين مليوناً من الدولارات، لقد كان البلوتونيوم فتاكاً لدرجة أن التعرض لبقعة مجهرية منه يمكن أن يؤدي إلى الوفاة، وكانت محتويات الحقيبة تكفي لصنع قنبلة نووية صغيرة.

كان يوري ساجي الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية يفكر في احتمال يمكن أن يشكل كابوساً لكل إنسان مفكر ألا وهو: شرذمة من الإرهابيين يضعون أيديهم على قدر من المواد القابلة للإنشطار يكفي لتدمير تل أبيب أو أي مدينة أخرى. وفي مهام الاستخبارات اليومية كان التعامل مع التهديد النووي يأتي في المقدمة.

كان العاملون في المخابرات الإسرائيلية يعلمون علم اليقين إمكانية تصنيع الإرهابيين لقنبلة نووية بدائية. ففي السبعينات وصف أحد خريجي الفيزياء الأمريكيين كل عملية من العمليات المطلوبة لذلك الأمر. وتسبب نشر هذا الكتاب في قدر كبير من الذعر لدى الموساد.

وتصور البعض سيناريوهات مرعبة لما يمكن أن يحدث، إذ يمكن أن تصل قنبلة مفككة على ظهر سفينة، أو يتم تهريبها عبر الحدود البرية، ثم يتم تجميعها داخل إسرائيل، ويمكن تفجير القنبلة باستخدام جهاز للتحكم عن بعد ما لم تظهر ظروف تجعل ذلك الأمر مستحيلاً. فهل تقف الحكومة من ذلك الأمر موقفاً حازماً؟ قرر محللو الموساد ألا يستسلموا للأمر، فقد كان هذا التوقع ينطلق من فهم عميق لعقلية الإرهابيين في ذلك الوقت الذي أصبح مختلفاً عما كان سائداً في

السبعينات، حين كانت أكثر الجماعات تطرفاً تتردد في تفجير قنبلة نووية بسبب الثمن السياسي الفادح الذي يمكن أن تدفعه. فهذا العمل كان يمكن أن يجعلها منبوذة حتى في البلدان التي تؤيدها سراً.

لكن انهيار الشيوعية السوفيتية جدد مخاوف الموساد فقد أدى هذا الأمر إلى ظهور أشكال جديدة من الهواجس والشكوك، فلا أحد يستطيع التكهن بمسار الظروف السياسية داخل روسيا. واكتشف الموساد بالفعل أن صواريخ سكود روسية قد صدرت إلى عدة دول في الشرق الأوسط مقابل العملات الصعبة. وساعد الفنيون السوفيت الجزائر في بناء مفاعل نووي.

كما يوجد لدى روسيا مخزون كبير من الأسلحة البيولوجية، بما في ذلك جرثومة الطاعون التي يمكن أن تقتل ملايين البشر. فلنفترض أن كمية صغيرة منها سقطت في أيادي جماعة إرهابية. فقارورة صغيرة منها كفيلة بالقضاء على سكان تل أبيب، لكن أهم من هذا كله القلق من أن تبيع روسيا ترسانتها النووية. كان هذا الأمر بالنسبة ليوري ساجي «تهديداً لا يمكن تجاهله».

رسم علماء النفس في الموساد صوراً نفسية للعلماء الروس الذين يمكن أن يقدموا المواد القابلة للانشطار ودوافعهم. كان هناك من يقدم هذه المواد، من أجل الحصول على المال، وهناك آخرون يمكن أن يقدموها لأسباب أيديولوجية معقدة، وخلصوا إلى أن عدد الأماكن التي يمكن سرقة المواد الانشطارية منها كبير بشكل مخيف. وقد أرسل شابتاي شافيت مدير عام الموساد اثنتين من عميلاته من «الكاتسا» إلى موسكو بأوامر محددة هي اختراق أوساط العلماء.

كانت إحدى هاتين العميلتين تدعى ليلي، وقد ولدت لأبوين

يهوديين في بيروت. وتحمل شهادة في الفيزياء من الجامعة العبرية في القدس. وكانت تعمل في قسم الاستخبارات العلمية بالموساد. وشهدت اللقاءات التي جمعت توريس وتاشانكا، وكيف تم التوصل إلى اتفاق بينهما.

عملت ليلي وزميلها جنباً إلى جنب مع عملاء الموساد في ألمانيا وأماكن أخرى من العالم. وزارت خلال عملها كولومبيا ومنها عادت إلى الشرق الأوسط وظهرت خطوط جديدة، فكانت البوسنة طريقاً محتملاً يمكن عن طريقه تهريب البلوتونيوم ٢٣٩ إلى العراق. إلا أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يتعذر فيها معرفة وإثبات تورط نظام صدام حسين.

كان هذا هو السبب وراء السماح لتوريس بالسفر بالحمولة القاتلة على متن طائرة تجارية لا يرقى إليها الشك، وقام رجال الاستخبارات الروس والألمان بتقييم هذا القرار بدقة، وخلصوا إلى أن خطر انفجار البلوتونيوم «يكاد يكون معدوماً». وقد سمحت الحكومتان لتوريس بالسفر حتى يدلهما على المستخدم النهائي لهذه المادة. ولم تكن إسرائيل قد استشيرت في هذا الأمر. وكانت العملية قاصرة على ألمانيا وروسيا فقط. وكان جهاز الموساد في الماضي مجرد شريك صامت بينما تحصل وكالات استخبارات أخرى على شرف نجاح العملية.

أدركت ليلي من موقعها الرائع المطل على بوابات المغادرة على المطار في صباح يوم من أيام شهر أغسطس أن دورها في هذه القضية انتهى. إذ كان أحد عملاء الموساد واسمه الحركي أدلر قد اتخذ له موقعاً في ردهة فندق اكسلسيور في وسط مدينة ميونخ حيث كان من المقرر إجراء عملية التسليم والتسلم. وكان عميل آخر يدعى مورت ينتظر في مطار ميونخ وصول الرحلة رقم ٢٣٦٩.

أما العميل الثالث ويدعي اب، فقد جلس على بعد مقعدين خلف مقعد توريس في الطائرة التي أقلته غرباً في الرحلة التي تبلغ مدتها ثلاث ساعات. وعلى الكرسي الواقع على الناحية الأخرى للممر قبالة توريس جلس فيكتور سيدورنكو نائب الوزير الروسي للطاقة الذرية، ذلك الرجل الذي تشمل مسؤولياته حماية الترسانة النووية لبلاده. فروسيا لديها الآن حوالي ١٣٠ طناً من البلوتونيوم الجاهز للاستخدام، وهي كمية تكفي لصناعة ستة عشر الف قنبلة ذرية، تبلغ قوة كل منها ضعف قوة القنبلة التي دمرت هيروشيما.

كان سيدورينكو قد تلقى عدداً من التقارير المزعجة التي شرحت تفاصيل الرقابة المتراخية والروح المعنوية المنخفضة للعاملين في مئات من المعاهد ومراكز الأبحاث الروسية التي تستخدم المواد المشعة. وقبل بضعة أشهر ألقي القبض على أحد العاملين في معمل نووي في «الأورال» وبحوزته كريات من اليورانيوم المشع في كيس من البلاستيك. كما خزن العاملون في مصنع آخر قريب من «منسك» أكثر من خمسة كيلوجرامات من اليورانيوم في منازلهم. وقد افتضح أمر هذه السرقات عندما بيع كيلوجرام من اليورانيوم مقابل عشرين زجاجة فودكا. كان سيدورينكو مسافراً إلى المانيا ليؤكد لحكومة المستشار كول أن مثل تلك الحوادث لن تتكرر، فقد كان الألمان يهددون بفرض عقوبات لهذا السبب.

في الساعة ٥:٤٥ مساءً، وفي الوقت المحدد تماماً وصلت الرحلة رقم ٣٣٦٩ إلى مطار فرانز جوزيف شتراوس بميونخ، واتجهت الطائرة نحو البوابة «ج». وكان سيدورنكو أول الهابطين، حيث أقلته سيارة كانت تنتظره إلى منطقة غاية في السرية. وهناك أخبره الألمان أن تاشانكا قد تم القبض عليه في موسكو.

دخل توريس إلى صالة الوصول. ولم يندهش لرؤية رجال الشرطة الألمان المدججين بالسلاح، فلطالما استعرضت ميونخ قواتها الأمنية بعد المذبحة التي تعرض لها الرياضيون الإسرائيليون. اتصل توريس هاتفياً بفندق أكسلسيور، وتم توصيله بالغرفة رقم ٢٣ حيث كان ينتظره هناك رجل إسباني يدعى، خافيير أراتيبل وهو وفقاً لما ورد في جواز سفره «رجل أعمال». والحقيقة أنه كان سمساراً للبلوتونيوم ونادى على رجل كان يعرفه باسم «غوليو ـ أو».

كان ضباط الاستخبارات الألمان يراقبون المكالمات الهاتفية. دفع توريس عربة الأمتعة ليضع عليها حقيبة سفره، وكان فولفجانج شتوفاسيوس قائد عمليات شرطة ميونخ وضابط الاستخبارات الكبير يراقبانه من مكتب قريب.

وأخذ توريس حقيبته وسار نحو الخط الأخضر للخروج من مبنى الركاب، وتبعه كل من اب ومورت، ولم يتمكنا من عمل أكثر من ذلك، فلم تكن لديهما سلطة إلقاء القبض عليه هنا، وبرز ستوفاسيوس من مكتبه. وكان ذلك إيذاناً ببدء التحرك.

في لحظات تم تطويق توريس واقتياده بعيداً، وأخذت حقيبته إلى غرفة كان ينتظر بداخلها شخص يرتدي بدلة بيضاء خلف عداد جايجر، ومعه خبراء أبطال مفعول القنابل استخدموا جهازاً نقالاً لأشعة إكس كي يعرفوا ما إذا كانت الحقيبة متصلة بمواد متفجردة، ووجدوا أنها لم تكن متصلة. ولم يظهر عداد جايجر أي دليل على تسرب المواد القابلة للانشطار. وتم فتح الحقيبة، فوجدت بداخله عبوات مليئة بالبلوتونيوم ٢٣٩ ملفوفة في بلاستيك سميك. أخذت تلك العلب ووضعت في صناديق مقاومة للانفجار ونقلت إلى شاحنة مصفحة كانت في الانتظار، ومن هناك نقلت إلى مجمع الطاقة الذرية بالمانيا.

في فندق إكسلسيور ألقي القبض على أراتييل لكن الحلقة الثانية في السلسلة، وهو خوليو أو، كان قد تسلل عبر الحدود إلى المجر. وذكرت الشرطة المجرية أنها ستبحث عنه. ولم يفاجأ أحد بذلك في ميونخ، فقد كانت المجر معروفة بأنها إحدى بوابات المهربين الروس إلى الغرب.

أخبر رجال الموساد تل أبيب بما حدث. وفي تل أبيب اعتبر شابتاي شافيت مدير عام الموساد النتيجة انتصاراً صغيراً آخر في المعركة المتواصلة ضد الإرهاب النووي. لكنه لم يكن وحده الذي تساءل عن عدد الحقائب التي لم تكتشف، وكم بقي من الوقت حتى يحدث انفجار نووي ما لم يتم اتخاذ احتياطات مستحيلة.

على بعد عدة أميال من المكان الذي كان شافيت يطرح فيه تلك الأسئلة كان رافي إيتان، ذلك الرجل الذي دبر ما يعتقد مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية أنه سرقة لمواد نووية من معمل «نيوميك» في مدينة أبوللو، لا يزال يقضي وقت فراغه يصنع التماثيل من الخردة. وفي ظاهر الأمر كان واضحاً أنه يعيش حياة هادئة جداً، حيث تلاشت عمليات بولارد وابوللو من الذاكرة. وعندما كانت تواجهه أسئلة عن أي منهما كان يقول أنه لا يذكر الأسماء الأولى لكل من بولارد أو شابيرو، وكان «اللاكام» Lakam قد تم إغلاقه بشكل رسمي، كما كان رافي إيتان يصر في إجابته على أن عمله الآن يختلف كل الاختلاف عما كان عليه في الماضي، فقد أصبح يعمل مديراً لشركة شحن بحري صغيرة في هافانا كما كان له كذلك حصة في شركة لتصنيع مبيدات الآفات الزراعية. وزعم أن له علاقة وطيدة مع فيدل كاسترو «وهو ما قد يغضب الأمريكان». ولم تطأ قدماه أرض الولايات

المتحدة الامريكية أبداً منذ رحلته إلى أبوللو. ذلك أنه لم يكن يرغب في ذلك أبداً لأنه كان يخشى توجيه «أسئلة عديدة» عن جوناثان بولارد، وما حدث بالضبط بعد زيارته لمدينة أبوللو.

ومرة أخرى استطاع ذلك اللوبي أن يخفف من حدة الموقف عندما اكتشف مكتب التحقيقات الفدرالي ميجا لأول مرة، ففي ١٦ فبراير ١٩٩٧ م قدمت وكالة الأمن القومي لمكتب التحقيقات الفدرالي نص المكالمة الهاتفية التي تم اعتراضها في وقت متأخر من الليل من السفارة الإسرائيلية بين أحد ضباط الموساد ويدعى دوف وبين رئيسه في تل أبيب الذي لم يكشف عن اسمه أثناء المحادثة القصيرة.

طلب دوف «المشورة» في ما يتعلق بما إذا كان «عليه أن يلجأ إلى ميجا» للحصول على نسخة من الخطاب الذي كتبه وارن كريستوفر وزير الخارجية في ذلك الوقت، إلى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. كانت الرسالة تحوي مجموعة من التأكيدات التي قدمها كريستوفر لعرفات يوم ١٦ يناير (كانون الثاني حول انسحاب القوات الإسرائيلية من مدينة الخليل بالضفة الغربية. وأمر الصوت القادم من تل أبيب دوف «بأن ينسى موضوع الرسالة، فهذا ليس شيئاً يستحق استخدام ميجا من أجله».

كانت تلك المحادثة القصيرة أول خيط يمسك به مكتب التحقيقات الفدرالي عن أهمية ميجا، ولم يكن اسمه الحركي قد سمع من قبل أثناء مراقبة السفارة الإسرائيلية ودبلوماسيها على مدار الساعة. وبفضل استخدام مكتب التحقيقات الفدرالي لأجهزة كمبيوتر حديثة فقد تمكن من الاقتراب من معرفة شخصية ميجا وحدد أنه شخص كان يعمل هناك أو لديه اتصال بمسؤول كبير يعمل لدى مجلس الأمن القومي، وهو

الهيئة التي تقدم المشورة للرئيس في الأمور المتعلقة بالاستخبارات والدفاع، ويوجد مقره في البيت الأبيض، ويضم في عضويته نائب الرئيس ووزيري الخارجية والدفاع، ويؤدي فيه رئيس المخابرات المركزية، ورئيس هيئة الأركان المشتركة دوراً استشارياً، ويرأس العاملين الدائمين فيه مستشار الرئيس للأمن القومي.

وما زالت الكيفية التي عرفت بها السفارة الإسرائيلية أن القناة الآمنة للاتصالات مع تل ابيب تم اختراقها، سراً مثل شخصية ميجا. وكما هي الحال مع كافة البعثات الإسرائيلية كانت بعثة إسرائيل في واشنطن يتم إمدادها بشكل مستمر بأحد نظم تشفير البيانات والإرسال الفجائي، الأمر الذي تم في تلك الحالة. وقد جرى تعديل قدر كبير من هذه المعدات من تصميمات أمريكية مسروقة.

في يوم ٢٧ فبراير ١٩٩٧، وفي صباح يوم ربيعي لطيف من أيام تل أبيب انتقل أعضاء لجنة رؤساء أفرع المخابرات بالسيارات من مكاتبهم المختلفة في أنحاء المدينة على الطريق الرئيسي المسمى «ريهوف شاؤول هاماليكو» متجهين نحو بوابة عالية في سور عالٍ محاط بالأسلاك الشائكة لا ترى من خلفه سوى أسطح المباني، وفوقها يرتفع برج خرساني شاهق يراه الناس في كل ربوع تل أبيب. وعلى ارتفاعات مختلفة كانت هناك هوائيات الكترونية قبيحة الشكل وكان البرج يقع وسط مقر أركان قوات الدفاع الإسرائيلية، ويعرف هذا المجمع «بالكيريا» التي تعني ببساطة «مكان».

قبيل الساعة الحادية عشرة صباحاً استخدم رؤساء أفرع المخابرات بطاقاتهم المشفرة لدخول مبنى قريب من البرج، ومثل غالبية المكاتب الحكومية كانت غرفة الاجتماعات التي دخلوها قبيحة المنظر.

كان الاجتماع برئاسة داني ياتوم الذي عينه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو مؤخراً رئيساً للموساد. كان ياتوم معروفاً بتشدده مثل نتنياهو. وكانت الشائعات تتردد في تل أبيب أن رئيس الموساد الجديد «راعى» رئيس الوزراء عندما كانت حياة نتنياهو الخاصة النابضة بالحيوية تهدد حياته المهنية. وكان الرجال الجالسون حول المنضدة المصنوعة من خشب الأرز يستمعون باهتمام إلى ياتوم وهو يلخص الاستراتيجية التي ستتبع إذا ما أصبح «وضع» ميجا يشكل أزمة حقيقية.

وخلصوا إلى أن إسرائيل ستقوم بتوجيه احتجاج شديد اللهجة على التعدي على حصانة الهيئة الدبلوماسية لسفارتها في واشنطن عن طريق التنصت ـ الأمر الذي يمكن أن يسبب بالتأكيد إحراجاً لحكومة كلينتون. وبعد ذلك فإن اليهود الأنصار Sayanim المتصلين بوسائل الإعلان الأمريكية ستصدر لهم تعليمات بزرع قصص مؤداها أن عبارة ميجا كانت تفسيراً خاطئاً لكلمة «ألجا» العبرية العامية، التي تعني وكالة المخابرات الأمريكية في لغة الموساد، كذلك فإن كلمة ميجا كانت جزءاً من كلمة تعرفها المخابرات الأمريكية جيداً، فكلمة ميجاوات كانت إسماً حركياً استخدمته بالاشتراك مع الموساد للتعبير عن اقتسام المعلومات، وعلاوة على ذلك فإن أولئك الـ Sayanim سيؤكدون أن كلمة أخرى هي كيلووات، تستخدم لتعني اقتسام المعلومات المتعلقة بالإرهاب. لكن ياتوم خلص إلى أنه لا ينبغي القيام بإجراء من هذا القبيل حتى تلك اللحظة.

في مارس ١٩٩٧ م، وعقب تلقي المعلومات من عميل الموساد الميداني في واشنطن قام ياتوم بأول تحرك. فأرسل فريقاً من الـ «يهالومين» Yahalomin إلى واشنطن لمتابعة تقرير العميل الميداني حول انشغال الرئيس كلينتون بشكل متكرر بمكالمته الهاتفية الجنسية مع

مونيكا لوينسكي المتدربة السابقة في البيت الأبيض، فقد كان يجري اتصالاته الهاتفية بشقتها في مجمع ووترجيت السكني من داخل المكتب البيضاوي. ولما كان فريق الـ «يهالومين» يعلم أن البيت الأبيض محمي بكامله بتدابير ألكترونية معاكسة فقد ركزوا اهتمامهم على شقة لوينسكي. وبدأ أولاً باعتراض المكالمات الهاتفية من الرئيس للوينسكي، وأرسلت التسجيلات في الحقيبة الدبلوماسية إلى تل أبيب.

وفي يوم ٢٧ (مارس) دعا كلينتون لوينسكي إلى المكتب البيضاوي مرة أخرى وكشف لها أنه يعتقد أن سفارة أجنبية كانت تسجل مكالمتها ولم يعطها مزيداً من التفاصيل، لكن الحكاية سرعان ما انتهت بعد ذلك.

وفي تل أبيب كان استراتيجيوا الموساد يفكرون في استخدام المكالمات الهاتفية المحرجة المسجلة، فهي أشياء يمكن استخدامها للابتزاز ـ رغم أن أحداً لم يقترح ابتزاز رئيس الولايات المتحدة بيد أن بعضهم رأى في التسجيلات سلاحاً قوياً يمكن استخدامه إذا وجدت إسرائيل نفسها في وضع دفاعي حرج في الشرق الأوسط لا تستطيع الاعتماد فيه على مساندة كلينتون.

كان هناك إجماع على أن مكتب التحقيقات الفدرالي يجب أن يعرف كذلك أمر المكالمات بين كلينتون ولوينسكي، وحث بعض خبراء الاستراتيجية ياتوم على استخدام «القناة الخلفية» مع واشنطن، وأن يدع مكتب التحقيقات الفدرالي يعرف أن جهاز الموساد كان على علم بمكالمات الرئيس الهاتفية. ولم تكن تلك طريقة ذكية لإخبار مكتب التحقيقات الفدرالي بوجوب عدم ملاحقة ميجا، ورأى محللون آخرون اتباع سياسة التروي لأن تلك المعلومات ستحدث انفجاراً متى كشف النقاب عنها. واستقر الرأي على ذلك.

في سبتمبر ١٩٩٨ م نشر تقرير ستار Star، وترك ياتوم منصبه، وحوى التقرير إشارة قصيرة إلى تحذير كلينتون للوينسكي في مارس ١٩٩٧ م من أن هاتفه كان مراقباً من قبل إحدى السفارات الأجنبية. ولم يتتبع ستار الأمر عندما أدلت لوينسكي بشهادتها أمام هيئة المحلفين عن علاقتها بكلينتون. وعلى أية حال فإن مكتب التحقيقات الفدرالي رأى في تلك المعلومات دليلاً آخر على عدم قدرتهم للكشف عن ميجا. ووفقاً لرواية واحد على الأقل من مصادر المخابرات الإسرائيلية المطلعة تلقى رافي إيتان مكالمة هاتفية من ياتوم تنصحه بتحاشي زيارة الولايات المتحدة في المستقبل المنظور.

لم يكن رافي إيتان بحاجة لأن يخبره أحد إلى أي مدى يمكن أن يكون الامر مثيراً للسخرية إذا ما وقع ضحية لنفس الأسلوب الذي جعل منه أسطورة - الا وهو اختطاف أدولف أيخمان، بل أن الأمر قد يصبح أسوأ إذا ما قتل في هدوء بإحدى الطرق التي ذاعت شهرته بسببها بين الرجال الذين كانوا يرون أن الاغتيال يشكل جزءاً من وظيفتهم.

الفصل السادس:

(المغامرون)

في عصر أحد الأيام الدافئة في منتصف أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٥، كان أحد الفنيين من شعبة الأمن الداخلي للموساد ويدعى بالعبرية (بعيلوت مدينيت) يستخدم أحد أجهزة الكشف اليدوية للتأكد من عدم وجود أجهزة للتنصت في شقة تقع على مقربة من شارع بينسيكر وسط تل أبيب. وهي واحدة من عدة منازل آمنة يمتلكها الموساد في مختلف أنحاء المدينة. أما عملية التفتيش نفسها فقد كانت توحي بمدى حساسية الاجتماع الذي ستكون الشقة مسرحاً له بعد قليل. ثم انصرف الفني بعد أن اطمأن إلى خلوها من أجهزة التنصت الإليكترونية.

وكان أبسط ما توصف به محتويات الشقة أنها مشتراة من مخلفات منزل قديم. فعلى الجدران علقت صور موضوعة في إطارات شاحبة لمزارات سياحية إسرائيلية. وفي كل غرفة هاتف سري غير مدرج في دليل الهاتف. وبدلاً من تجهيز المطبخ بالمعدات المنزلية كان به جهاز كمبيوتر وماكينة لإتلاف الأوراق وجهاز فاكس، وفي مكان الموقد كانت هناك خزانة.

هذه المنازل الآمنة تستخدم في العادة كأماكن لإقامة المتدربين

في مدرسة الموساد للجاسوسية التي تقع خارج المدينة ويتعلمون فيها مهارات كالمراقبة والتعقب والإفلات من المتابعة، واختيار أماكن وضع المعلومات لتسلمها في ما بعد، وتبادل المعلومات بإخفائها من خلال الصحف. بينما عيون مدرسيهم تراقب أداءهم في شوارع تل أبيب ليل نهار. وتستمر الدراسة بعد عودة المتدربين إلى تلك المنازل الآمنة حيث يتلقون دروساً عن كيفية إعداد التقارير الموجزة لعميل الموساد الميداني المكلف بمهمة في دولة مستهدفة، أو كتابة الرسائل بالأحبار الخاصة أو استخدام الكمبيوتر في إعداد معلومات يمكن إرسالها على شكل دفعات قصيرة مركزة على ذبذبات وترددات خاصة.

وتتضمن ساعات التدريب الطويل جزءاً مهماً عن إقامة علاقات من الأبرياء الذين لا يساورهم أي شك في هذا النشاط ويعتقد يعقوب كوهين - الذي ظل لمدة خمسة وعشرين عاماً عميلاً ميدانياً للموساد تحت ساتر قوي في مختلف أنحاء العالم - أن تلك المحاضرات كانت من أسباب نجاحه في هذا العمل، ويشرح ذلك بقوله:

«كنت أجعل كل شخص وأي شخص مجرد أداة. وكنت أكذب عليهم لأن علاقتي معهم لم تتسم قط بالصدق. وكانت فلسفتي منذ البداية العمل لصالح الموساد ولصالح إسرائيل».

وكان الفصل السريع من الخدمة جزاء كل من لا يتمسك بهذه العقيدة، حتى أن ديفيد كمحي الذي يعتبر من أحسن قيادات الموساد يصف ذلك بقوله:

«إنها نفس القصة المتكررة، حيث يظن الكثيرون أننا ندعوهم إلينا، ولكن اختيارنا لا يقع إلا على عدد قليل منهم. ونحن في ذلك نشبه قليلاً الكنيسة الكاثوليكية. لأن أولئك الذين يبقون معنا يظلوا مترابطين

طوال حياتهم فنحن نطبق قاعدة: «أساعدك، وتساعدني»، ونتعلم كيف يثق كل منا في الآخر ثقة مطلقة لا تعادلها ثقته في أي شخص آخر».

وعندما يحين الوقت لينتقل كل رجل أو امرأة من الذين أقاموا في المنازل الآمنة إلى مجموعة أعلى مستوى، تكون هذه الفلسفة محفورة في الأذهان. لقد أصبحوا الآن عملاء ميدانيين للموساد يسافرون لأداء مهام معينة ويعودون لتقديم تقارير عنها. وكانوا يعرفون باسم «القفازين» لأنهم يسافرون إلى الخارج لفترات قصيرة، ولا بد أن يعودوا إلى المنازل الآمنة التي أسموها «نقاط الانطلاق» وإن كانت تلك التسمية لم تلق استحسان رؤسائهم.

وأخيراً، فإن المنازل الآمنة كانت تستخدم كأماكن للاجتماع مع أحد المرشدين أو لاستجواب شخص لديه من الإمكانيات ما يؤهله للتجنيد (للعمل في الظلام). وجاءت الإشارة الوحيدة إلى أعدادهم من أحد صغار ضباط الموساد القدامى يدعى فيكتور أوستروفيسكي، الذي زعم أن عددهم سنة ١٩٩١ م بلغ (حوالي ٣٥ ألف شخص في جميع أنحاء العالم منهم ٢٠ ألف نشيطون و ١٥ ألفاً على أهبة الاستعداد). ويطلق أسم العملاء «السود» على العرب منهم، أما العملاء «البيض» فإنهم من غير العرب. و «عملاء التحذير» لهم دور استراتيجي لأنهم يحذرون من الاستعدادات للحرب: كأن يلاحظ طبيب بمستشفى سوري وصول دفعة جديدة من العقاقير والأدوية، أو أن يكتشف أحد العاملين في الميناء زيادة في نشاط السفن الحربية.

تلقى بعض هؤلاء العملاء دروسهم الأولية في منازل آمنة مثل تلك الشقة التي فحصت بعناية عصر أحد أيام أكتوبر (تشرين الأول) للتأكد من خلوها من أجهزة التنصت، لأن حفنة من كبار أعضاء جهاز

المخابرات الإسرائيلية ستجتمع فيها في وقت لاحق حول طاولة الطعام للتصديق على عملية اغتيال تلقى موافقة تامة من إسحق رابين رئيس الوزراء.

وقد شارك رابين خلال السنوات الثلاث التي قضاها في منصبه رئيساً للوزراء في تشييع جنازات عدد متزايد من ضحايا الهجمات الإرهابية، وكان يسير كل مرة خلف حملة بساط الرحمة، يراقب كبار السن يبكون وهم يستمتعون إلى التراتيل والصلوات. وكان يردد في كل وفاة «الجنازة في قلبي أنا».

ولم تكن هذه أول مرة تراود فيها رابين فكرة الثأر، فلقد اشترك أكثر من مرة في عمليات ثأرية من أبرزها اغتيال خليل الوزير (أبو جهاد) نائب ياسر عرفات الذي عاش في تونس وكان معروفاً في العالم العربي كله ومسجلاً في كمبيوتر الموساد «هوني ويل» باسم أبو جهاد، وكان إسحق رابين سنة ١٩٨٨ م وزير دفاع إسرائيل عندما صدر القرار من نفس الشقة الكائنة على مقربة من شارع بينسيكر بضرورة قتله.

راقب عملاء الموساد على مدى شهرين متواصلين الفيلا التي كان يقيم فيها أبو جهاد في منتجع سيدي بوسعيد المتاخم لمدينة تونس، ورصدوا الطرق المؤدية إليها، ومداخلها، وارتفاعات أسوارها، ونوافذها وأبوابها والأقفال المستخدمة والدفاعات الموجودة والطرق التي يسلكها حراسه وأخضعوا كل شيء للمراقبة والفحص عدة مرات.

وراقبوا زوجة أبو جهاد وهي تلاعب أطفالها، وكانوا يسيرون على مقربة منها أثناء خروجها للتسوق أو للذهاب إلى الكوافير. وتنصتوا على مكالمات زوجها الهاتفية ودسوا أجهزة التسجيل في

غرفة نومهما واستمعوا إلى مداعباتهما الزوجية، وحسبوا المسافة بين كل غرفة وأخرى داخل الڤيلا ورصدوا ما يقوم به الجيران وسجلوا طرازات وألوان وأرقام لوحات جميع السيارات التي تأتي إلى الڤيلا أو تغادرها.

ولم تغب عن بالهم قط القاعدة التي وضعها مائير عاميت منذ سنوات طويلة للاغتيال وهي: فكر بنفس الطريقة التي يفكر بها هدفك وكأنك هو، ولا تتوقف عن ذلك إلا عندما تضغط على الزناد.

عاد فريق الموساد إلى تل أبيب بعد أن اطمأن إلى عمله. وأخذ يتدرب لمدة شهر على تنفيذ عملية القتل في أحد المنازل الآمنة بالقرب من حيفا كبير الشبه بالڤيلا المستهدفة، بحيث تستغرق عملية لاغتيال أبي جهاد اثنين وعشرين ثانية فقط من لحظة دخول البيت.

وفي ١٦ إبريل (نيسان) ١٩٨٨ م صدر الأمر بتنفيذ العملية.

في تلك الليلة أقلعت عدة طائرات تابعة للقوات الجوية الإسرائيلية من طراز بوينج ٧٠٧ من قاعدة عسكرية جنوب تل أبيب. وكانت إحداها تقل إسحق رابين وبعض كبار الضباط الإسرائيليين. وكانت طائراتهم على اتصال سري لاسلكي مستمر مع فرقة التنفيذ المتمركزة في موقعها بقيادة شخص اسمه الحركي «سيف». وكانت هناك طائرة أخرى مكتظة بأجهزة التشويش والمراقبة، بينما استخدمت طائرتان من طراز ٧٠٧ أيضاً لتموين الطائرات بالوقود في الجو. حلقت هذه الطائرات فوق الڤيلا وهي تتابع كل حركة تجري على الأرض عن طريق أجهزة التردد اللاسلكي المؤمنة، وبعد لحظات من انتصاف الليل وبزوغ يوم ١٧ إبريل عرف الضباط المحمولون جواً أن «أبو جهاد» عاد إلى بيته في السيارة المرسيدس التي أهداها له ياسر عرفات بمناسبة زواجه. وقبل

ذلك كانت فرقة التنفيذ قد زرعت أجهزة تنصت حساسة تنقل إليهم كل ما يدور داخل الڤيلا.

ومن موقع ممتاز على مقربة من الڤيلا أعلن سيف، من الميكروفون المثبت قرب فمه أن أبو جهاد يصعد الدرج، ويتوجه إلى غرفة نومه، ويتهامس مع زوجته، ويسير على أطراف أصابعه إلى غرفة النوم المجاورة ليقبل ابنه النائم قبل أن يتوجه في النهاية إلى مكتبه في الطابق الارضي. وكانت هذه التفاصيل تلتقطها طائرة مجهزة إليكترونياً (وهي النسخة الإسرائيلية من طائرات الأواكس الاميركية) وتبثها إلى طائرة القيادة التي تقل رابين الذي أصدر الأمر «اضرب» في تمام الساعة ١٢,١٧ من صباح يوم ١٧ إبريل.

كان سائق أبو جهاد نائماً خارج الڤيلا في السيارة المرسيدس. ركض أحد رجال سيف وضغط ماسورة مسدس كاتم للصوت من طراز بريتا على اذنه وسحب الزناد، وخر السائق صريعاً على مقعد السيارة الأمامي.

ثم وضع سيف، مع عضو آخرمن الفرقة تحت بوابة الڤيلا الخارجية المصنوعة من الحديد الثقيل، عبوة ناسفة من المتفجرات البلاستيكية الجديد «الصامتة» التي أصدرت عند انفجارها صوتاً منخفضاً ولكنها خلعت البوابة من مفاصلها. صدم اثنين من حراس أبو جهاد كانا يقفان عند مدخل البهو ولم يتمكنا من الحركة، وعاجلهما رصاص الأسلحة الكاتمة للصوت فلقيا حتفهما.

ركض سيف إلى غرفة المكتب فوجد أبو جهاد يشاهد لقطات ڤيديو عن منظمة التحرير الفلسطينية، وعندما وقف على قدميه أطلق سيف رصاصتين من مسدسه على صدره، وسقط أبو جهاد على مقعده فاقترب منه سيف بسرعة موجهاً رصاصتين إلى جبهته.

وعند مغادرة الغرفة قابل سيف زوجة أبو جهاد تحمل ابنها الصغير بين ذراعيها. أمرها سيف متحدثاً بالعربية: «عودي إلى غرفتك».

ثم اختفى مع بقية أفراد فرقته في جنح الليل. لم تستغرق العملية منذ دخول الڤيلا حتى مغادرتها أكثر من ثلاث عشرة ثانية، وهو رقم يقل تسع ثوان ثمينة عن أفضل رقم قياسي تم تحقيقه أثناء التدريبات.

لأول مرة تقابل عملية اغتيال إسرائيلية بالنقد العام. وقال الوزير عيزرا وايزمان محذراً أن «تصفية الأفراد لن تؤدي إلى تقدم في عملية السلام».

ورغم ذلك استمر مسلسل الاغتيالات.

بعد ذلك بشهرين، اضطرت شرطة جنوب إفريقيا إلى إماطة اللثام عن سر طالما ألحت إسرائيل على الاحتفاظ به طي الكتمان. وهو إعدام الموساد لرجل أعمال من جوهانسبيرج يدعى آلان كيدجر كان يزود إيران والعراق بمعدات تكنولوجية متقدمة يمكن استخدامها لصناعة أسلحة كيماوية، وعثر على كيدجر مبتور الذراعين والساقين. وقال رئيس محققي شرطة جوهانسبيرج الكولونيل تشارلز لاندمان إن عملية القتل كانت «رسالة واضحة من الحكومة الإسرائيلية عن طريق الموساد».

وقبل مقتل أبو جهاد بستة أسابيع، لعب جهاز الموساد دوراً مهماً في عملية اغتيال أخرى مثيرة للجدل تمت في جبل طارق بعد ظهر يوم أحد، وقتل فيها ثلاث غير مسلحين من أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي على يد قناصة من الخدمات الجوية البريطانية الخاصة.

وفي السنوات السابقة كان رافي إيتان يدعو سراً إلى تل أبيب

بعض الزملاء من المخابرات البريطانية ليشاهدوا على الطبيعة كيف يغتال الموساد الإرهابيين العرب في شوارع بيروت الخلفية وفي سهل البقاع بلبنان.

قبل أربعة أشهر من اغتيالات جبل طارق كان عملاء الموساد قد أخضعوا لمراقبتهم كلا من «ما يريد فاريل»، و«شين سافيدج»، و«دانييل ماككان»، ظناً منهم أنهم يسعون إلى «عقد صفقات بيع أسلحة عربية إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي». ويرجع اهتمام الموساد الوثيق بالجيش الجمهوري الإيرلندي إلى عهد حكومة تاتشر التي أحضرت رافي إيتان تحت ستار من السرية الشديدة إلى بلفاست لإبلاغ قوات الأمن هناك بتطورات الصلات بين مجموعات الإرهاب الإيرلندية و «حزب الله».

«وصلت إلى إيرلندا ذات يوم مطير، وكان المطر ينهمر يومياً طوال مدة إقامتي. وقد اطلعت البريطانيين على كل ما لدينا من معلومات. وقمت بجولة في المنطقة ووصلت إلى مشارف الحدود مع الجمهورية. ولك أن تتخيل ماذا كانت ستقول حكومة إيرلندا لو أنني سقطت في أيديها! وقبل المغادرة اتفقت مع فرع المهام الخاصة SAS بجهاز المخابرات البريطانية على إيفاد بعض الأعضاء إلى إسرائيل للإطلاع على أساليبنا في التعامل مع الإرهابيين».

تطورت علاقات عمل وثيقة منذ هذه البدايات المبكرة بين فرع المهام الخاصة SAS والموساد. وزار كبار ضباط الموساد مقر الفرع في هيريفورد لإبلاغ القوات الخاصة عن عمليات تتم في الشرق الأوسط وفي مناسبة واحدة على الأقل تعقبت وحدة مشتركة من الموساد و SAS عدداً من كبار ضباط الجيش الجمهوري الإيرلندي في رحلة من بلفاست إلى بيروت وصورت اجتماعاتهم مع قادة «حزب الله».

وفي أكتوبر ١٩٨٧ م تعقب عملاء الموساد سفينة الشحن إيكسوند في رحلة عبر المتوسط وهي تحمل ١٢٠ طناً من الأسلحة من بينها صواريخ أرض - جو وقاذفات صاروخية وبنادق آلية ومتفجرات وأجهزة تفجير، وتم شراؤها جميعاً عن طريق اتصالات للجيش الجمهوري الإيرلندي في بيروت. وقد اعترضت السطات الفرنسية طريق إيكسوند بعد ذلك.

وعندما وجد جهاز الموساد نفسه عاجزاً عن تحقيق تقدم مع سلطات الأمن الإيرلندية - حيث يعتقد واحد من ضباط الموساد على الأقل أن هذا العجز يعود إلى معارضة إسرائيل القوية لدور إيرلندا في حفظ السلام في لبنان - رأى الجهاز أن يستخدم فرع المهام الخاصة SAS كوسيلة لإبلاغ دبلن سراً بشحنات الأسلحة الأخرى التي تتوجه إلى إيرلندا.

وبسرعة قرر عملاء الموساد الذين يتعقبون وحدة كوماندوز تابعة للجيش الجمهوري الإيرلندي في إسبانيا أنهم ليسوا هناك لمقابلة تجار السلاح العرب أو للاتصال مع مجموعة الباسك الإرهابية الإيتا ETA، إلا أنهم رغم ذلك استمروا في متابعة تحركات وحدة مكافحة الإرهاب الدولي الإسبانية التي كانت بدورها تتعقب الثلاثي الإيرلندي.

اتجه الإسبان في البداية إلى تحديد دور الموساد، فقد كانت هذه هي عمليتهم، وهم يشتركون لأول مرة مع كل من جهاز المخابرات البريطانية MI5 وفرع المهام الخاصة SAS في التعامل مع الجيش الجمهوري الإيرلندي. ومن المفهوم أن الإسبان أرادوا أن يكون المجد لهم إذا تحقق النجاح.

فبادر الموساد إلى إبلاغ الإسبان أنهم يرغبون في مجرد تقديم المساعدة، فارتاح الإسبان إلى ذلك وسرعان ما شرعوا في العمل مع الموساد.

وعندما فقد الإسبان أثر «ما يريد فاريل»، تمكن عميل الموساد الميداني من تحديد موقعها، واكتشف أن «ما يريد» استأجرت سيارة أخرى طراز «فييستا» بيضاء اللون، وأنها أوقفتها في أحد مواقف السيارات المقامة تحت الأرض في ماربيلا وهي محملة بأربعة وستين كيلوجراماً من السيمتيكس وثلاثين كيلوجراماً من قذائف الشظايا. لم يكن منتجع ماربيلا الشهير مجرد ملاذ من شمس الصحراء المحرقة يفد إليه بعض مشاهير العرب حيث يقضون الوقت مستغرقين في أحلامهم باليوم الذي يتم فيه التغلب على إسرائيل الممقوتة. ولكن ماربيلا تقع على مقربة من مرفأ بورتو بانوس الذي يرتاده الكثير من أصحاب الملايين من دول النفط العربية حيث ترسو في حوض السفن يخوتهم الفخمة. ولطالما خشي الموساد أن تكون القوارب التي تجوب البحر المتوسط محملة بمتفجرات وأسلحة مهربة إلى إرهابيين عرب. وكان هناك شك في أن سيارة فاريل كانت واقفة لهذا الغرض في انتظار شحنها على متن قارب في طريقه إلى الأرض المقدسة.

راقبت فرقة الموساد السيارة، وتمكنت من التعرف على فاريل وهي تقود سيارة «فييستا» أخرى وهي نفس السيارة التي كانت تستخدمها في نقل «ماككان» و«سافيدج» في مختلف أنحاء إسبانيا لعدة أسابيع. واقتفى إثنان من فرقة الموساد أثر أعضاء وحدة الجيش الجمهوري الإيرلندي وهم يتجهون شرقاً إلى بورتو بانوس. وبعد مغادرة ماربيلا بعشر دقائق اجتازت فاريل المرفأ واستمرت في طريقها على طول الساحل.

وباستخدام جهاز راديو السيارة المضبوط على قناة الشرطة الإسبانية تمكن عميل الموساد الميداني الإسرائيلي من إبلاغ الشرطة

الإسبانية بأن ثلاثي الجيش الجمهوري الإيرلندي في الطريق إلى جبل طارق. وأبلغ الإسبان السلطات البريطانية بذلك، وبعد عدة ساعات قتل الثلاثي «فاريل» و«مككان» و«سافيدج»، دون تحذير ودون إعطائهم فرصة للاستسلام.

بعد ذلك بأسبوع، قام ستيفين لاندر ضابط المخابرات البريطانية الذي عهد إليه تنفيذ العملية - والذي أصبح في ما بعد مديراً لـ MI 5 - بالاتصال بأدموني هاتفياً ليشكر الموساد على المساعدة التي قدمها في عملية الاغتيال.

في تلك الامسية من شهر أكتوبر ١٩٩٥ م وفي المنزل الآمن في شارع بينسكر كان الجميع على استعداد للاجتماع لتحديد عملية الاغتيال التالية. وقع اختيار الموساد على فتحي شقاقي الزعيم الديني للجهاد الإسلامي، بعد أن تأكد الموساد أن جماعته هي التي دبرت لقتل أكثر من عشرين راكباً إسرائيلياً في حافلة دمرها في يناير السابق اثنان من حاملي القنابل الانتحاريين خارج بلدة بيت ليد.

وبذلك الحادث وصل عدد الهجمات الإرهابية إلى أكثر من عشرة آلاف حادث خلال الربع الماضي من هذا القرن. وبلغت خسائر الإسرائيليين أكثر من أربعمائة قتيل وحوالي ألف مصاب. وقد تعرض الكثير ممن تسببوا في العمليات التي أسفرت عن القتل والإصابات إلى المطاردة والقتل بالطريقة التي وصفها عميل الموساد الميداني يعقوب كوهين الذي شارك بنصيب في العمليات الانتقامية التي كانت تتم «في جميع الشوارع الخلفية التي لا تحمل أي أسماء، حيث يكون السكين في بعض الأحيان أمضى من المسدس وحيث يكون المرء إما قاتلاً أو مقتولاً».

في هذا العالم الذي خلا من الرحمة حوّل الناس شقاقي إلى بطل

كان هو الذي أحل بنفسه الشابين اللذين فجرا القنابل الانتحارية من إثم الانتحار الذي حرمه الإسلام. ولكي يفعل ذلك أخذ يبحث في القرآن ليخلص حجة فلسفية مفادها أن القهر يجعل المقهور يكتشف قوى جديدة، وفي خلال إعداده للشابين الانتحاريين استغل الخلل والقلق النفسي لدى بعض الشباب وجعلهما يتصرفان تصرف الكاميكازي من المراهقين اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد لقيا حتفهما في ذلك اليوم من يناير وهما في حالة فورة دينية. وبعد ذلك نعاهما شقاقي في صحيفة «الجهاد» وفي خطبة الجمعة وأثنى على تضحياتهما وطمأن ذويهما بأن مصيرهما إلى الجنة.

وسط التوتر الذي يسود الأحياء التي يعلم فيها، أصبحت الأسر تتشرف بتقديم أحد أبنائها إلى شقاقي لكي يضحي به. وكانت أسماء من يموت من هؤلاء الفتيان تذاع كل يوم بمكبرات الصوت بعد أن ينتهي المؤذن من الآذان، وتخلد ذكراهم في مساجد جنوب لبنان.

بعد أن يختار شقاقي المجندين الجدد ويحدد هدفه، يسلم أولئك الفتية إلى صانعي القنابل، وهم الاستراتيجيون الذين يفحصون صورة الهدف ويحددون كمية المتفجرات اللازمة لنسفه. وهم مثل قدامى المشتغلين بالكيمياء يعملون بالتجربة والغريزة، وتمتلىء لغتهم بمفردات تجلب الموت مثل «المؤكسد» و «مزيل الحساسية» و «البلاستيسينات» و «خوافض نقطة التجمد». هؤلاء هم اتباع شقاقي. وهو يستعير مقولة أحد زعماء عدوه اللدود (إسرائيل) ويقول لهم جميعاً: «نقاتل، إذن نحن موجودون».

في تلك الأمسية من أكتوبر حينما كان مصيره يتقرر في ذلك المنزل الآمن في تل أبيب، كان شقاقي في بيته بدمشق مع زوجته فتحية. وكان هناك فرق شاسع بين شقته ومعسكرات اللاجئين القذرة

التي يلقى فيها كل التبجيل، كانت الشقة مفروشة بالسجاجيد الفاخرة واللوحات التي تزين الجدران المهداة من آيات الله الإيرانيين، وكانت هناك صورة في إطار ذهبي للشقاقي ومعمر القذافي مهداة من الزعيم الليبي، وطقم قهوة مصنوع من الفضة هدية من الرئيس السوري. أما ملابس شقاقي فكانت أبعد ما تكون عن تلك الثياب البسيطة التي يرتديها وهو يتجول بين جموع الفقراء في جنوب لبنان، فهو في بيته يرتدي ثياباً من أفخر الأقمشة المتاحة في محلات «سافيل رو» بلندن وينتعل حذاء غالي الثمن اشتراه من روما عوضاً عن الصندل الذي يلبسه وهو يسير مع العامة.

أكد شقاقي لزوجته وهو يتناول وجبته المفضلة من الكسكس أن بوسعه الحصول على المزيد من الأموال من القذافي خلال رحلته المقبلة، وتمنى أن يعود ومعه مليون من الدولارات سبق أن طلبه في فاكس أرسله إلى مقر قيادة الثورة الليبية في طرابلس. وكالعادة، سيتم غسيل الأموال في بنك ليبي في فاليتا بجزيرة مالطة. وكان شقاقي يخطط لقضاء بعض اليوم في الجزيرة قبل أن يلحق بالطائرة التي سيستقلها في رحلة العودة إلى الوطن.

شجعت أنباء التوقف في مالطة ابني شقاقي المراهقين على وضع قائمة بما يريدان من المشتريات: نصف دستة من القمصان لكل منهما من متجر في مالطة سبق لأبيهما أن اشترى منه. قالت فتحية زوجة شقاقي في ما بعد: «كان شقاقي يؤكد أنه لو كان الإسرائيليون يدبرون شيئاً ضده لنفذوه قبل ذلك، لأن اليهود يردون بسرعة على كل حادث، ولكن زوجي كان متأكداً أنهم لن يفعلوا شيئاً يغضب سورية».

قبل ثلاثة أشهر كان شقاقي محقاً في حكمه على الوضع في تل

أبيب. ففي أوائل صيف ١٩٩٥ م رفض رابين خطة وضعها جهاز الموساد لنسف شقته الواقعة في الضاحية الغربية لدمشق بقنبلة حارقة. وكان يوري ساجي رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية آنذاك - والمايسترو الفعلي للاستخبارات الإسرائيلية بأكملها - قد أخبر رابين أنه اكتشف «تغيراً ملحوظاً في دمشق، فالأسد لا يزال عدواً لنا على السطح فقط، إلا أن الطريقة الوحيدة للتغلب عليه هي أن نفعل ما لا يتوقع، وهذا يعني أن نتخلى تماماً عن مرتفعات الجولان، وأن نجلي عنها جميع أبناء شعبنا، وهو ثمن غالٍ، ولكنه الطريق الوحيد لتحقيق السلام الدائم المناسب».

وقد أصغى رابين لذلك، وهو يعلم كم كلفت الجولان يوري ساجي شخصياً، فقد قضى معظم حياته العسكرية يدافع عن تضاريسها الوعرة، وقد أصيب أربع مرات في تلك العمليات، إلا أنه مستعد لأن يلقي بكل ذلك خلف ظهره ليرى إسرائيل تنعم بسلام حقيقي.

أجّل رئيس الوزراء خطط الموساد لتصفية شقاقي، وواصل ساجي عملية استجلاء حقيقة آماله، إلا أن حرارة صيف المنطقة بخرت تلك الآمال وأمر رابين - الذي حاز جائزة نوبل للسلام - بقتل شقاقي.

في آخر عملية قام بها شابتاي شافيت بصفته رئيس جهاز الموساد، أمر عميلاً أسود (عربياً) في دمشق باستئناف المراقبة الإليكترونية على شقة شقاقي. وكانت الأجهزة الأميركية التي بحوزة العميل على درجة من التعقيد تكفي لاختراق قواطع الدوائر الدفاعية في نظام الاتصالات الروسي الصنع المركب في شقة شقاقي. وارسلت تفاصيل زيارة شقاقي لكل من ليبيا ومالطة إلى تل أبيب.

في تلك الأمسية من شهر أكتوبر ١٩٩٥ م شق رؤساء أقوى ثلاثة

اجهزة مخابرات إسرائيلية طريقهم عبر الزحام تجاه شارع بينسيكر وبجعبة كل منهم ما يؤيد القضاء على عدو مبين لإسرائيل قال عنه مائير عاميت بوضوح عندما كان مديراً عاماً:

«لن تكون هناك عمليات قتل ضد الزعماء السياسيين، وإنما يجب التعامل معهم سياسياً، ولن تكون هناك عمليات قتل ضد عائلات الإرهابيين، أما إذا اعترضوا سبيلنا فلن يمثلوا لنا أي مشكلة. ولا بد من موافقة رئيس الوزراء الحالي على كل عملية قتل. ويجب أن يتم كل شيء حسب الخطة الموضوعة وتدوين محاضر بالقرار المتخذ وأن يتم كل شيء بطريقة بارعة وإتقان. ويجب ألا تبدو أعمالنا وكأنها عملية قتل تحت رعاية الدولة بل كأنها عقوبة قانونية تستطيع الدولة توقيعها. ولن نكون مختلفين عن الجلادين أو غيرهم من المعينين بتنفيذ حكم الإعدام وفقاً للقانون».

وقد روعيت هذه الشروط على نطاق واسع في جميع الاغتيالات التي حدثت بعد النجاح في اصطياد الإرهابيين التسعة الذين قتلوا الرياضيين الإسرائيليين في المسابقات الأوليمبية سنة ١٩٧٢ م. وبعد انقضاء حوالي ثلاثة وعشرين عاماً على إصدار مائير عاميت أول قواعد للقتل تحت رعاية الدولة، كان خلفاؤه يشقون طريقهم تجاه المنزل الآمن.

كان شابتاي شافيت أول من وصل منهم. ولم يتورع الزملاء عن وصفه بانه يتصرف بطريقة موظف الاستعلامات في أحد فنادق تل أبيب الرخيصة: الملابس المكوية بعناية، والمصافحة دون الإبقاء على يده طويلاً في قبضة من يصافحه. وقد ظل في منصبه لمدة ثلاث سنوات ولكنه يعطيك الانطباع أنه لم يعرف قط كم سيبقى في هذا المنصب.

بعد ذلك وصل الجنرال دوران تامير رئيس مخابرات قوات الدفاع الإسرائيلية، وهو رجل ذكي في ربيع العمر. وكل ما حوله يوحي بالسلطة المرتكزة على الخبرة الطويلة.

وأخيراً وصل يوري ساجي مسرعاً إلى المنزل الآمن وكأنه محارب صنديد يتأهب لنجومية أكثر لمعاناً تفوق منصبه كمدير للمخابرات العسكرية (أمان). وقد استمر بصوته الناعم، واستخفافه بنفسه يثير الجدل بين أقرانه ويصر على أن سورية ما زالت تخفي تحت تهديداتها المتجددة رغبة في التفاوض من أجل السلام. كانت العلاقة بين الرجال الثلاثة على حد تعبير شافيت «جيدة يشوبها شيء من الحذر».

قال يوري ساجي: «ليس هناك وجهاً للمقارنة في ما بيننا، وقد سألت الإثنين الآخرين بصفتي رئيساً لأمان، إننا نتنافس معاً، ولكن هذه المنافسة جيدة طالما كنا نسعى إلى تحقيق نفس الهدف».

ظلوا جالسين حول الطاولة في غرفة المعيشة لمدة ساعتين يراجعون خطة قتل شقاقي، التي ستكون عملية ثأرية بحتة. ويعتقد الإسرائيليون أن المبدأ الديني «العين بالعين» الذي يفضلونه يبرر مثل هذه العمليات. ولكن الموساد في بعض الحالات يقتل الشخص الذي يرفض بعناد تكريس مهاراته لتحقيق تطلعات إسرائيل وبدلاً من المجازفة بترك هذه المهارات تقع في أيدي العدو، يتم القضاء على ذلك الشخص دون رحمة.

كان العالم الكندي الدكتور «جيرالد بول» أعظم خبراء مدافع إطلاق الصواريخ البالستية في العالم. وقد باءت جميع المحاولات الإسرائيلية لشراء خبرته بالفشل. وكان بول في كل محاولة يبدي استياءه من الدولة اليهودية.

ولكنه عرض خدماته على صدام حسين لصنع مدفع عملاق قادر على إطلاق قذائق محملة برؤوس حربية نووية أو كيماوية أو بيولوجية توجه مباشرة من العراق إلى إسرائيل. وكان طول ماسورة المدفع العملاق ٤٨٧ قدماً وتتكون من اثنين وثلاثين طناً من الصلب المصدر من شركات بريطانية إلى العراق. وفي أواخر ١٩٨٩ م أجريت تجارب إطلاق النموذج الأولى للمدفع في الموصل شمال العراق. وطلب صدام حسين صنع ثلاث مدافع بتكلفة قدرها ٢٠ مليون دولار أميركي، والاحتفاظ ببول كمستشار مقابل مكافأة قدرها مليون دولار أميركي، وأطلق على المشروع إسم «بابل».

وكانت شركته «سبايس ريسرتش كوربوراشن» مسجلة في بروكس كشركة لتصميم الأسلحة، ومن هذه الشركة تم إرسال قائمة مفصلة إلى موردين أوربيين من بينهم عشرون شركة بريطانية لتوريد مكونات عالية التقنية. وفي ١٧ فبراير ١٩٩٠ حصل أحد عملاء الموساد الميدانيين على نسخ من الوثائق التي تبين أهداف «بابل» الفنية: أن المدفع العملاق سيتحول إلى قذيفة باليستية متوسطة المدى. ويعتمد نظام الإطلاق على تجميع صواريخ سكود في مجموعات تتكون كل منها من ثمانية صواريخ لكي يصل مستوى القذيفة إلى ١٥٠٠ ميل، أي أن مداها لن يتوقف عند إسرائيل فقط بل سيتعداها ليصل إلى الكثير من المدن الأوروبية. وكان بول يعتقد أنه من الممكن إنتاج مدفع عملاق قادر على توجيه ضربة مباشرة من بغداد إلى لندن. طلب ناحوم أدموني مدير عام جهاز الموساد عقد اجتماع فوري مع رئيس الوزراء إسحق شامير.

كان شامير أحد قادة حرب العصابات في المدن وقاتل

البريطانيين دون هوادة في الأسابيع الأخيرة من فترة الانتداب. كما كان الزعيم السياسي المفضل لدى الموساد لأنه كان يؤيد الحاجة إلى تدمير أعداء إسرائيل في الوقت الحرج عندما تفشل جميع السبل الأخرى. ففي الستينات عندما كان علماء الصواريخ النازيون يعملون في مصر لإنتاج أسلحة طويلة المدى قادرة على ضرب إسرائيل عبر صحراء سيناء، استدعى جهاز الموساد شامير للاستعانة بخبرته في التخطيط لعمليات الاغتيال. وكان شامير أثناء فترة الانتداب متميزاً في ابتكار أساليب للتخلص من الجنود البريطانيين. طلب شامير من أعضاء قواته السرية قتل العلماء الألمان، وأصبح بعض أولئك القتلة في ما بعد الأعضاء المؤسسين لوحدة الاغتيال التابعة للموساد. تصفح شامير بسرعة الملف الذي أعده الموساد عن بول، وكان الجهاز قد درس كعادته أوضاع بول الوظيفية منذ منحه درجة الدكتوراه في الفيزياء وهو في الثانية والعشرين من عمره، حتى التحاقه بالعمل في مؤسسة تطوير وبحوث الأسلحة التابعة للحكومة الكندية. وهناك اصطدم مع كبار المسؤولين وبدأت منذ ذلك الوقت كراهيته للبيروقراطيين طوال حياته. ثم بدأ يعمل كمستشار خاص أو كما وصفه الملف بلمسة من السخرية كـ «مدفع للإيجار».

ذاع صيت بول كمخترع في مجال التسليح سنة ١٩٧٦ م عندما صمم مدفع هويتزر عيار ٥٤، يصل مداه إلى ٢٥ ميلاً، في وقت كان أقصى مدى للأسلحة المماثلة التي يمتلكها حلف الأطلسي (الناتو) لا يتجاوز ١٧ ميلاً. واصطدم بول مرة أخرى بالمواقف الحكومية عندما امتنع الناتو عن شراء المدفع الجديد لأن معظم صانعي الأسلحة الأوروبيين مارسوا ضغوطاً سياسية بطريقة فعالة. وأخيراً باع بول مدفعه الجديد إلى جنوب إفريقيا.

وبعد ذلك سافر إلى الصين ليساعد جيش التحرير الشعبي على تطوير قدراته الصاروخية، وطور الصواريخ التي تعرف حالياً باسم سيلكوورم فاصبحت أطول مدى وأكثر قدرة على حمل كميات أثقل من المتفجرات. ثم باعت الصين شحنات من هذه الصواريخ إلى صدام حسين. وكان العراق يستخدمها بالدرجة الاولى في الحرب التي كانت تدور رحاها مع جارته إيران، إلا أن كميات كافية من صواريخ سيلكوورم ظلت في مواقع الإطلاق العراقية، مما دعا الموساد إلى الاعتقاد بأنها ستستخدم في نهاية المطاف ضد إسرائيل. وفي نفس الوقت كان مشروع «بابل» يمضي بخطى سريعة، حيث تمت تجربة إطلاق نموذج أولي أكثر تقدماً، وإبلغ المجندون ـ كمرشدين للموساد داخل العراق ـ من معارضي صدام حسين: أن الصواريخ ذات المقدمة المخروطية مصممة لحمل أسلحة كيماوية وبيولوجية.

بعد ظهر يوم ٢٠ مارس ١٩٩٠ م اتفق إسحق شامير مع ناحوم أدموني في مكتب رئيس الوزراء على قتل جيرالد بول. وبعد يومين من اتخاذ القرار وصلت إلى بروكسيل فرقة اغتيال من رجلين (كيدون) وكان في انتظارهما الكاتسا (عميل الموساد الميداني) الذي كان يراقب أنشطة بول عن كثب.

وفي الساعة ٦:٤٥ من مساء ٢٢ مارس ١٩٩٠ م كان الثلاثة يستقلون سيارة مستأجرة تنطلق بهم إلى حيث يقيم بول. وكل منهم يحمل مسدساً في جراب تحت سترته.

وعقب ذلك بعشرين دقيقة دق الجرس فتوجه بول، البالغ من العمر ٦١ عاماً إلى باب شقته الفاخرة وفتحه ليتلقى خمس طلقات في رأسه وعنقه أطلقوها عليه من مسدساتهم عيار ٧:٦٥ مم وتركوه ملقى أمام باب شقته بعد أن فارق الحياة. وصرح ميشيل ابنه في ما بعد

أن والده سبق أن تلقى تحذيراً من القتل على يد الموساد. ولكنه لم يتمكن من تحديد هوية من وجه الإنذار ولم يتمكن من تفسير أسباب استخفاف والده بالإنذار. وبمجرد عودة فرقة الاغتيال سالمة إلى إسرائيل، بدأت إدارة الرعاية السيكولوجية في جهاز الموساد تسرب قصصاً إلى وسائل الإعلام توحي بقوة إلى أن جيرالد بول قد مات لأنه كان يعتزم العدول عن اتفاقه مع صدام حسين. والآن، وبعد مرور خمس سنوات على الحادث، سوف تستخدم نفس التكتيكات التي استخدمت للقضاء على بول العالم الذي اعتبرته إسرائيل إرهابياً مثل فتحي شقاقي، وذلك بأوامر مباشرة من رئيس آخر للوزراء هو إسحق رابين.

يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ م غادر تل أبيب شابان في أواخر العشرينيات من العمر ـ أطلق على أحدهما الاسم الحركي جيل، وعلى الآخر ران ـ وركب كل منهما طائرة مختلفة، حيث توجه ران إلى أثينا، وتوجه جيل إلى روما. وبمجرد وصول كل منهما إلى المطار استلم جواز سفر بريطاني من عميل من خارج الموساد ثم وصلا إلى مالطة في رحلة جوية وصلت بعد العصر، وتوجها إلى فندق «ديبلومات» المطل على ميناء فاليتا. في ذلك المساء استلم ران دراجة بخارية، وأبلغ موظفي الفندق أنه سيستخدمها في القيام بجولة في الجزيرة. ولا يتذكر أي ممن كانوا في الفندق حدوث أي اتصال بين الرجلين، فقد قضى كل منهم معظم الوقت في غرفته، وعندما لاحظ أحد الخدم أن حقيبة جيل «السمسونايت» كانت ثقيلة، غمز جيل بعينه وقال إنها مملوءة بقضبان من الذهب.

في تلك الأمسية تلقت سلطات الموانىء المالطية رسالة لاسلكية من باخرة شحن كانت قد غادرت ميناء حيفا في اليوم السابق في

طريقها إلى إيطاليا. أشارت الرسالة إلى وجود عطل فني في محركات الباخرة، وطلب السماح لها بالبقاء على مقربة من الجزيرة إلى أن يتم إصلاح العطل. وكان على ظهر السفينة شابتاي شافيت ومجموعة صغيرة من أخصائي الاتصالات التابعين للموساد الذين أقاموا اتصالاً لاسلكياً مع جيل حيث كانت محتويات حقيبته تضم جهازاً لاسلكياً صغيراً ولكنه قوياً.

كانت أقفال الحقيبة تفتح عكس اتجاه عقارب الساعة ليتم إبطال فتائل التفجير المثبتة في عبوتين مثبتين في غطائها. وقد صممت الحقيبة هكذا لتنفجر في وجه أي شخص يفتحها بعد أن يدير المفتاح في اتجاه عقارب الساعة. كان هوائي اللاسلكي المعين الشكل عبارة عن كابل من الألياف البصرية طوله ربع ميل ملفوف بإحكام على شكل أسطوانة قطرها ست بوصات تم تثبيتها بفواصل متصلة بأربعة أقطاب ثنائية ملحومة داخل ركن «السمسونايت». وتلقى جيل أثناء الليل عدة رسائل لاسلكية من الباخرة.

كان فتحي شقاقي قد وصل في وقت مبكر من ذلك اليوم على عبارة تعمل بين طرابلس وفاليتا ومعه بعض رجال الأمن الليبيين الذين لم يغادروا السفينة لأن مهمتهم تنتهي بنزول شقاقي إلى الميناء بمفرده. وقبل ذلك كان شقاقي قد حلق لحيته وقدم نفسه إلى ضباط إدارة الجوازات المالطية باسم إبراهيم درويش وقدم لهم جواز سفره الليبي. وبعد أن سجل اسمه في فندق «دبيلومات» قضى ساعات قليلة على المقاهي المطلة على البحر يحتسي فناجين لا تنتهي من القهوة وهو يتناول بعض الحلوى العربية اللذيذة، كما أجرى عدة مكالمات هاتفية. في اليوم التالي كان شقاقي يستعد للعودة حاملاً القمصان التي وعد بها ابنيه، وبينما كان يتمشى على الساحل اقتربت منه دراجة

بخارية يركبها رجلان، وخفضت سرعتها عندما صارت بجانبه، أطلق أحد الرجلين ست طلقات مباشرة على رأس زعيم الجهاد فأرداه قتيلاً على الفور. ثم اختفى راكباً الدراجة البخارية، ولم يتم العثور على أي منهما. لكن بعد ذلك بساعة، أبحر زورق صيد من ميناء فاليتا وألقى مرساه في جانب الباخرة المحمي من الريح. وبعد قليل اتصل قبطان الباخرة بسلطات الميناء وأبلغها أنه تم إجراء إصلاح مؤقت للعطل الذي أصاب المحرك، وأن الباخرة ستعود أدراجها إلى حيفا لاستكمال الإصلاح.

في إيران - موطن شقاقي الروحي - أعلن الملالي الحداد العام في ذلك اليوم. أما في تل أبيب، وعندما طلب من رئيس الوزراء إسحق رابين التعليق على وفاة شقاقي أجاب بقوله: «لست حزيناً بكل تأكيد».

وبعد ذلك بأيام قليلة، وفي ٤ نوفمبر ١٩٩٥ م على وجه التحديد اغتيل إسحق رابين في احتفال أقيم في تل أبيب على مقربة من المنزل الآمن الذي شهد التحضير وإصدار أمره بقتل شقاقي. ومات رابين على يد متطرف يهودي يدعى إيجال أمير يتمتع بنفس القسوة التي جعلت رئيس الوزراء يبدي إعجابه بالموساد.

إسحق رابين، الصقر الذي تحول إلى حمامة، القائد السياسي القوي الذي أدرك أن الفرصة الوحيدة للسلام في الشرق الأوسط تتمثل (كما أخطأ الاقتباس من التوراة ذات مرة) في «تحويل سيوفنا إلى محاريث، وفلاحة الأرض مع جيراننا العرب»، هذا الرجل، قتل على يد أحد أبناء شعبه لم يقبل أن يتصرف أعداؤه اليهود بنفس القسوة التي سبق أن تصرف بها العرب أعداؤه القدامى - فهناك إصرار من الطرفين على تدمير رؤيته المستقبلية.

في سنة ١٩٩٨ م كانت وحدة الاغتيال التابعة للموساد (الكيدون) تضم ٨٤ عضواً، منهم ٦ نساء. وكانوا جميعاً في العقد الثالث من العمر ويتمتعون بلياقة كبيرة. ويعيشون ويعملون خارج مقر الموساد في تل أبيب ويتمركزون في منطقة ممنوع الاقتراب منها داخل إحدى القواعد العسكرية بصحراء النقب. ويمكن تعديل تصميم هذه المنطقة الخاصة لتحاكي شارعاً أو بيتاً يكون مسرحاً لعملية اغتيال، كما توجد سيارات للفرار من الموقع وطريق محفوف بالعوائق التي لا بد من اجتيازها.

وكان من بين المدربين بعض قدامى أعضاء الوحدة يشرفون على التدريبات على استخدام الأسلحة المختلفة ويدربون على كيفية إخفاء القنابل وإعطاء حقنة قاتلة وسط الزحام وجعل عملية القتل تبدو وكأنها حادث عارض. وكان المتدربون في وحدة الاغتيال يراجعون أفلاماً تصور عملية اغتيال ناجحة منها على سبيل المثال اغتيال الرئيس جو كينيدي، ويدرسون وجوه وعادات العشرات من الأهداف المحتملة المخزنة على أجهزة كومبيوتر خاصة، يحظر على الغير استعمالها، ويحفظون عن ظهر قلب مخططات شوارع المدن الكبرى التي تتعرض للتغيير المستمر ومخططات المطارات والموانيء.

وتعمل هذه الوحدة بطريقة المجموعات أو الفرق، وتتكون كل فرقة من أربعة أشخاص يسافرون بطريقة منتظمة إلى لندن وباريس وفرانكفورت وغيرها من المدن الأوروبية الأخرى، إضافة إلى بعض الزيارات العارضة إلى نيويورك ولوس أنجلوس وتورونتو. وفي جميع هذه الزيارات يرافق الفرقة مدرسون لتقييم مهارات أعضائها في الترتيب لتنفيذ عمليات دون لفت الأنظار إليهم. بينما تنتقى الأهداف من بين المتطوعين من العملاء من خارج الموساد الذين لا يقال لهم إلا أنهم

يشتركون في تدريب أمني لحماية مبنى تمتلكه إسرائيل كمعبد يهودي أو بنك. ويفاجأ المتطوع بمن يهاجمه في أحد الشوارع الهادئة ويحمله في سيارة، أو بمن يقتحم بيته في منتصف الليل ويستيقظ من نومه ليجد فوهة مسدس مصوبة إليه.

وأعضاء الكيدون يأخذون هذه التدريبات مأخذ الجد لأن كل فرقة تعي تماماً الدرس المعروف باسم «نكسة ليليهامار».

ففي يوليو ١٩٧٣ م وفي أوج مطاردة قتلة أعضاء الفريق الرياضي الإسرائيلي في أولمبياد ميونيخ، تلقى الموساد إشارة مفادها أن «الأمير الأحمر» وهو أبو علي حسن سلامة الذي خطط للعملية يعمل في أحد مطاعم مدينة ليليهامار النرويجية الصغيرة.

وقام مدير العمليات في الموساد آنذاك وكان يدعى ميشيل هاراري بتكوين فريق من خارج وحدة الكيدون كان أعضاؤه منتشرين في مختلف أنحاء العالم يطاردون بقية الإرهابيين الذين نفذوا عملية القتل في ميونيخ. ولم تكن لدى فريق هاراري خبرة ميدانية إلا أن هاراري كان يثق أن خلفيته كعميل ميداني للموساد في أوروبا كانت كافية. وضم فريقه امرأتين هما سيلفيا رفائيل وماريان غلادنيكوف وجزائرياً يدعى كمال بينامي كان مرسالاً لأيلول الأسود قبل أن يرهبه هراري ويحوله إلى عميل مزدوج.

تحولت العملية إلى كارثة منذ بدايتها. فقد كان وصول دستة من الغرباء إلى ليليهامار ـ التي لم تقع فيها جريمة قتل واحدة منذ أربعين سنة ـ أمراً مثيراً للتساؤل. وبدأت شرطة المدينة تضعهم تحت المراقبة، وكان ضباط الشرطة قريبين من هراري وفرقته عندما قتلوا برصاص أسلحتهم نادلاً مغربياً يدعى أحمد بوشيقي لم تكن له أي علاقة

بالإرهاب ولم يكن هناك وجه للشبه بينه وبين سلامة. ونجح هاراري وبعض أفراد فرقته في الهرب بينما ألقي القبض على ست من أعضاء الموساد من بينهم المرأتان.

وقد أدلوا باعترافات كاملة كشفت لأول مرة إساليب الموساد في القتل وتفاصيل خطيرة أخرى عن أنشطة الموساد السرية. وجهت تهمة الاشتراك في جريمة القتل إلى المرأتين وزملائهما الرجال فحكم على كل منهما بالسجن لمدة خمس سنوات.

عندما عاد هاراري إلى إسرائيل فصل من الخدمة، وتخلت الموساد عن شبكتها السرية في أوروبا التي تضمنت المنازل الآمنة وصناديق البريد الوهمية وأرقام الهواتف السرية.

ولم يقتل علي حسن سلامة إلا بعد ست سنوات في عملية دبرها رافي إيتان الذي قال: «إن حادثة ليليهامار كانت مثالاً لتكليف الشخص غير المناسب للقيام بالعمل غير المناسب، وهو أمر ما كان يجب أن يحدث، ويجب ألا يتكرر مرة أخرى».

ولكنه حدث.

في ٣١ يوليو ١٩٩٧ م وبعد يوم واحد من قتل اثنين من شباب العمليات الانتحارية التابعين لحماس لـ ٥١ شخصاً وإصابة ١٥٧ آخرين في سوق بالقدس شارك داني ياتوم رئيس جهاز الموساد في اجتماع برئاسة بنيامين نتنياهو رئيس الورزاء الذي كان قد عاد لتوه من مؤتمر صحافي عاطفي تعهد فيه ألا يهدأ له بال إلا بعد أن يجعل أولئك الذين خططوا لعمليات القنابل الانتحارية لا يشكلون أي مصدر للتهديد.

وقد بدا نتنياهو على الملأ هادئاً وحازماً، وكانت ردوده على

الأسئلة محسوبة وقاطعة، فحماس لن تفلت من العقاب، ولكن شكل ذلك العقاب لم يكن محل مناقشة. ذلك هو «بيبي» منذ أن ظهر في تلفزيون «سي إن إن» أثناء حرب الخليج وامتدح الناس كثيراً حسن تقديره لاستجابات صدام حسين والوقع الذي أحدثته في إسرائيل.

أما في ذلك اليوم الخانق، بعيداً عن عدسات التصوير، وحيث لا يحيط به إلا ياتوم وبعض كبار ضباط المخابرات ومستشاروه السياسيون، فقد كانت صورة نتنياهو مختلفة تماماً، فلم يكن هادئاً ولم يكن تفكيره تحليلياً. وفي غرفة الاجتماعات الملحقة بمكتبه كان يقاطع المتحدثين كثيراً ويصرخ قائلاً: «ساقضي على أبناء الحرام أعضاء حماس ولو كان ذلك آخر يوم من عمري».

وأضاف قائلاً (حسب تعبير أحد الحضور): «أنتم هنا لتقولوا لي كيف يتم ذلك، ولا أريد أن أقرأ في الصحف عن انتقام «بيبي»، ولكن عن العدل والجزاء العادل».

وتم الاتفاق على جدول الأعمال.

أما ياتوم الذي اعتاد تغيرات المزاج الزئبقية لرئيس الوزراء فقد ظل صامتاً بينما كانا نتنياهو يتوعد «أريد رؤوسهم. أريدهم قتلى. لا تهمني الطريقة، إنما المهم أن يحدث ذلك، وأن يكون التنفيذ عاجلاً وليس آجلاً».

ازدادت حدة التوتر عندما طلب نتنياهو من ياتوم تقديم قائمة بأسماء جميع زعماء حماس وأماكن وجودهم الحالية. ولم يسبق أن طلب أي رئيس للوزراء تفاصيل عملية حساسة في مثل تلك المرحلة المبكرة، ورأى بعض الحاضرين في الغرفة أن «بيبي إنما يلمح إلى أنه سيتولى هذه العملية بنفسه».

ازداد قلق بعض ضباط الموساد لأن جهاز المخابرات اضطر للاقتراب أكثر من اللازم من نتنياهو. ولو كان ياتوم قد شعر بذلك لأخبر رئيس الوزراء أنه سيحضر القائمة في وقت لاحق. ولكن رئيس الموساد اقترح أنه «قد آن الأوان للبحث في الجانب العملي من الموضوع». لأن تحديد مواقع قادة حماس سيكون مثل «البحث عن فئران بعينها في مجاري بيروت».

انفجر نتنياهو مرة أخرى قائلاً إنه لا يريد أعذاراً بل يريد أعمالاً، وأن العمل لا بد أن يبدأ «هنا وعلى الفور».

بعد أن انفض الاجتماع، كان الانطباع الذي كونه العديد من ضباط المخابرات هو أن نتنياهو اجتاز الخيط الرفيع الذي تنتهي عنده الوسائل السياسية. وتبدأ منه متطلبات العمليات. وأدرك كل من كان في الغرفة أن نتنياهو بحاجة شديدة إلى إحداث انقلاب في العلاقات العامة لكي يقنع الجمهور أن سياسة قمع الإرهابيين التي أتت به إلى سدة الحكم ليست مجرد خطب جوفاء وحسب، وأنه يخرج من فضيحة ليدخل في أخرى، ويتخلص منها في كل مرة بإلقاء اللوم على الغير. وكانت شعبيته منخفضة تماماً، فحياته الشخصية تغطي صفحات الصحف، وهو بحاجة ماسة إلى إظهار قوته، والقضاء على أحد قادة حماس وسيلة مؤكدة لتحقيق ذلك.

وكان أحد كبار ضباط المخابرات الإسرائيلية يعبر عن وجهة نظر الكثير من زملائه ـ دون شك ـ عندما قال:

«لقد اتفقنا جميعاً على أنه ليس هناك من يعترض على المبدأ القائل بأن قطع الرأس سيقضي على الثعبان، ولكن عنصر الوقت هو ما يهمنا الآن. وكل حديث بيبي عن «العمل الآن» محض هراء، لأن أي عملية

من هذا النوع تتطلب تخطيطاً شاملاً. ولكن بيبي يريد النتائج وكأننا أمام إحدى ألعاب الكومبيوتر أو أحد أفلام البطولات القديمة التي يحب مشاهدتها ولكن الأمر مختلف تماماً في عالم الواقع».

أمر ياتوم بإجراء بحث شامل في كل دولة عربية، وأرسل رجاله إلى غزة والضفة الغربية لاستكشاف المزيد عن الشخصيات الغامضة المسيطرة على حماس. وقد استدعى عدة مرات خلال شهر أغسطس إلى مكتب رئيس الوزراء لتقديم تقرير عما أحرزه من تقدم. ولم يكن هناك تقدم يذكر. وبدأت الأقاويل تنتشر في أوساط المخابرات الإسرائيلية أن رئيس الوزراء طلب من ياتوم نشر المزيد من الرجال في الميدان وأن هناك تلميحات بأنه سيضطر لاتخاذ «إجراءات أخرى» إن لم تكن هناك نتائج سريعة. وإذا كان نتنياهو يقصد من ذلك تهديد رئيس جهاز مخابراته فإن التهديد لم يأت بنتيجة، وإن ياتوم قال بكل بساطة أنه «يعمل كل ما يمكن عمله». أما التلميح غير المعلن فمؤداه أن من حق رئيس الوزراء أن يقصيه من منصبه إذا أراد ذلك، إلا أن المناقشات العامة التي من المؤكد أنها ستلي قرار الإقصاء ستتضمن أسئلة عن دور نتنياهو نفسه. ولكن رئيس الوزراء ظل يلح في قتل أحد قادة حماس وليكن ذلك بصفة عاجلة وليست آجلة.

وفي سبتمبر ١٩٩٧ م بدأ نتنياهو يسأل ياتوم بصفة متكررة كل ليلة عن الخطوات المتخذة في هذه العملية، وامتثل رئيس الموساد للضغط فسحب عملاءه من مواقع أخرى. ووصف أحدهم ذلك بقوله: «كان ياتوم يعيد ترتيب الخريطة استجابة لطلب نتنياهو. ورغم قوة ياتوم، لم يكن بوسعه الصمود أمام ضغوط بيبي الذي بدأ يتحدث عن المساعدة السريعة التي قدمها أخوه لترتيب الهجوم على عنتيبي. ولم

يكن لتلك المقارنة أي معنى، ولكن هذا هو شأن بيبي الذي يستخدم أي شيء للحصول على ما يريده».

في ٩ سبتمبر وصلت إلى تل أبيب أخبار عن هجوم آخر لحماس أسفر هذه المرة عن إصابة اثنين من حرس الملحق الثقافي في السفارة الإسرائيلية التي افتتحت حديثاً في العاصمة الأردنية عمان.

بعد ذلك بثلاثة أيام، وقبل بداية عطلة نهاية الأسبوع طلب نتنياهو من ياتوم أن يتناول الغداء معه في بيته بالقدس، وجلس الرجلان يتناولان وجبة مكونة من الحساء والسلطة والسمك والبيرة والمياه المعدنية. وأثار رئيس الوزراء على الفور موضوع الهجوم الذي وقع في عمان، وكيف تمكن مسلحون من حماس من الاقتراب جداً من المبنى وإطلاق النار؟ ولماذا لم يكن هناك إنذار مسبق؟ وماذا يفعل رجال الموساد في محطة عمان حيال ذلك؟.

قاطع ياتوم أسئلة نتنياهو المتدفقة وقال: كان في عمان أحد قادة حماس يدعى خالد مشعل يدير المكتب السياسي لحماس من مكتب في عمان. وظل مشعل يتنقل لعدة أسابيع بين مختلف الدول العربية، ولكن محطة عمان أفادت بأنه قد عاد إلى المدينة.

وهنا انفعل نتنياهو وهو يصيح: «أذهب واقتله. يجب عليك أن تفعل ذلك. اقتله. كلف رجالك في عمان بذلك».

وفي مواجهة ضغوط لا تنتهي من رئيس وزراء يبدو أنه لا يدرك أبداً مدى الحساسية السياسية لأي عملية يقوم بها جهاز المخابرات، بدأ رئيس الموساد يلقي درساً حاد النبرات. لمعت عيناه خلف نظارته الطبية وهو يحذر نتنياهو من مغبة أي هجوم يشنه في عمان، لأنه قد

يدمر العلاقة التي أقامها مع الأردن سلفه إسحق رابين. كما أن قتل مشعل داخل الأردن من شأنه أن يعرض للخطر عمليات الموساد في دولة يتدفق منها سيل من المعلومات عن سورية والعراق والمتطرفين الفلسطينيين. واقترح ياتوم أنه من الأفضل الانتظار وتأجيل الضربة إلى أن يغادر مشعل عمان مرة أخرى.

يحكى أن نتنياهو صاح قائلاً: «أعذار! هذا هو كل ما تقدمه. أعذار! أريد عملاً. وأريده الآن. الناس يريدون ذلك». ثم أضاف في إشارة إلى السنة اليهودية الجديدة: «إننا على مشارف «روش هاشاناه» (احتفال رأس السنة العبرية)، ولتكن هذه هي هديتي إليهم في هذه المناسبة».

ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، كانت كل حركة يقوم بها ياتوم تتم بموافقة من نتنياهو شخصياً. ولم يسبق لأي رئيس وزراء إسرائيلي أن أبدى مثل هذا الاهتمام الشخصي الكبير بعملية قتل تباركها الدولة.

كان خالد مشعل رجلاً ملتحياً قوياً في الحادية والأربعين من عمره. وكان يقيم بالقرب من قصر الملك حسين وكان، بكل المعايير، زوجاً مخلصاً وأباً لسبعة أطفال. وهو مثقف وخطيب مفوه، ولكنه ظل شخصية غير معروفة في أوساط الحركة الأصولية الإسلامية. غير أن المعلومات التي جمعتها محطة الموساد في عمان بسرعة أشارت إلى أن مشعل كان القوة الدافعة للهجمات بالقنابل الانتحارية التي تعرض لها مدنيون إسرائيليون.

توفرت المعلومات عن تحركات مشعل. وتم الحصول على صورة فوتوغرافية له التقطها خلسة رئيس محطة الموساد، الذي أرسل مع تقريره رجاءً خاصاً بأن يحاول ياتوم مرة أخرى إقناع نتنياهو بعدم القيام بعملية اغتيال في عمان، لأن هذا العمل الطائش يعرض للخطر

عمليات مكافحة التجسس التي يقوم بها جهاز الموساد منذ سنتين بالتعاون مع الأردن.

رفض نتنياهو ذلك الرجاء، قائلاً أنه يشبه التكهن بالفشل، وهو أمر غير مقبول.

وفي الوقت ذاته كانت فرقة الكيدون (تنفيذ القتل) المكونة من ثمانية أشخاص تكمل استعداداتها: حيث يقوم شخصان بتنفيذ الضربة في وضح النهار، بمساعدة الباقين بالإضافة إلى سيارة المساندة، وبعد العملية يستقل الجميع سيارة تعود بهم إلى إسرائيل بعد عبور جسر اللنبي بالقرب من القدس.

واختار جهاز الموساد سلاحاً غير عادي، ليس مسدساً، بل عبوة أيروسول معبأة بغاز الأعصاب، وهي طريقة تستخدمها فرقة الكيدون للقتل لأول مرة، رغم أنها استعملت بنجاح من قبل جهاز المخابرات السوفياتية (كي.جي.بي) وغيره من أجهزة المخابرات التي كانت تتبع الكتلـ السـوفيـاتيـ . وقـد وظـف المـوسـاد عـدداً مـن العلمـاء الـروس المهاجرين حديثاً إلى إسرائيل لإنتاج مجموعة من السموم المميتة بما فيهـا التـابـون والسـاريـن والسـومـان وكلهـا غـازات أعصـاب حـرمـ الاتفاقيات الدولية استعمالها. وتستخدم هذه الغازات لإحداث الوفاة الفورية أو البطيئة، ولكن الضحية في جميع الأحوال يفقد السيطرة على أعضائه الداخلية ويعاني آلاماً مبرحة يكون الموت خلاصاً ورحمة منها. وقد وقع الاختيار على هذه الوسيلة للقضاء على مشعل.

في ٢٤ سبتمبر ١٩٩٧ م سافر أعضاء الكيدون جواً إلى عمان قادمين من أثينا وروما وباريس التي استقروا فيها عدة أيام. كان البعض يسافر بوثائق فرنسية وإيطاليا، أما الرجلان اللذان نفذا الضربة فقد أعطيا جوازي سفر كنديين باسم باري بيدز وسين كيندال. وأخبرا

الموظفين وهما يسجلان اسميهما في فندق أنتركونتنتال بعمان أنهما سائحين. أما بقية العملاء فقد استقروا في السفارة الإسرائيلية على مسافة قصيرة من الفندق.

وفي اليوم التالي انضم بيدز وكيندال إليهم. عاين الرجلان أسطوانة الأيروسول مرة أخرى. ولم يكن أحد من العملاء يعرف نوعية غاز الأعصاب الذي تحتويه، إلا أنهم كانوا واثقين أن محتوياتها تكفي لإحداث أي شيء ابتداء من الهذيان وانتهاء بهبوط القلب قبل الوفاة. وأطلعهم رئيس المحطة على آخر تحركات مشعل.

لقد كان في لندن في سبتمبر ١٩٧٨ م عندما اغتيل منشق بلغاري يدعى جورجي ماركوف بغاز الأعصاب. عندما وخز أحد المارة ماركوف في فخذه بطرف مظلته فلقي حتفه بعد عذاب شديد متأثراً بالريسين وهو سم زعاف يستخلص من بذور نبات الخروع. كان القاتل عميلاً لـ «كي.جي.بي» ولم يتم إلقاء القبض عليه.

وبهذه الملحوظة المتفائلة عاد كل من بيدز وكيندال إلى فندقهما بعد منتصف الليل بقليل. وطلب كل منهما من خدمة الغرف إرسال وجبة إفطار تتكون من القهوة وعصير البرتقال وفطائر الدانيش إلى غرفته. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ظهر بيدز أولاً في بهو الفندق ووقع عقد استئجار السيارة الأولى من سيارتين معروضتين للإيجار، وكانت تويوتا زرقاء اللون. أما الثانية وهي هيونداي خضراء فقد وصلت بعد ذلك بقليل وطلبها كيندال الذي أخبر موظف الاستقبال أنه وزميله سيزوران المنطقة الجنوبية من البلاد.

في الساعة العاشرة كان مشعل متوجهاً إلى عمله في سيارته التي يقودها سائقه، وفي المقعد الخلفي جلس ثلاثة من أطفاله، ولد

وبنتان. تبعه بيدز على مسافة معقولة في سيارته المستأجرة، بينما كان بقية أعضاء الفريق في سيارات أخرى على الطريق.

وعندما دخلوا منطقة الحدائق في المدينة قال السائق لمشعل أن هناك من يتبعهما، فاستخدم مشعل هاتف السيارة وأبلغ شرطة عمان بماركة السيارة ورقم لوحتها.

مرت السيارة التويوتا المستأجرة بجانب سيارة مشعل ولوح الأطفال بأيديهم لبيدز كما كانوا يفعلون مع سائقي السيارات الأخرى، ولكن عميل الموساد تجاهلهم، ثم تقدمت السيارة الهيونداي الخضراء التي يقودها كيندال أمام السائق واختفت السيارتان في حركة المرور. بعد ذلك بلحظات اتصل ضابط من مقر شرطة عمان بمشعل وأخبره أن السيارة مؤجرة لسائح كندي، فاطمأن مشعل وأخذ يتابع حركات أطفاله وهم يلوحون بأيديهم للسيارات التي تقترب منهم وهم يضغطون بوجوههم على زجاج النوافذ. وقد اعتاد أطفال مشعل على تناوب مرافقته إلى مقر عمله كل صباح قبل أن يوصلهم السائق إلى مدارسهم.

قبل العاشرة والنصف بقليل انحرف السائق إلى شارع وصفي التل، وقد احتشد بعض الناس أمام مكتب حماس واندس بينهم كيندال وبيدز. ولم يتسبب وجودهما في أي إزعاج، فكثيراً ما يأتي السائحون من ذوي الفضول إلى مكتب حماس لزيادة معلوماتهم عن حماس وتطلعاتها.

قبل مشعل أطفاله بسرعة قبل مغادرة السيارة، وتقدم بيدرز إلى الأمام وكأنه يريد مصافحته، واقترب كيندال من كتفه وهو يعبث بيده في حقيبة من البلاستيك.

جاء سؤال بيدز بصورة يبدو فيها الود:

«هل أنت مشعل؟».

نظر إليه مشعل بارتياب وفي تلك اللحظة أخرج كيندال أسطوانة الأيروسول وحاول رش محتوياتها في أذن مشعل اليسرى.

رجع مشعل إلى الوراء مذهولاً وهو يمسح شحمة أذنه.

حاول كيندال مرة أخرى رش المادة القاتلة في أذن مشعل، وبدأ المحتشدون حوله يفيقون من هول المفاجأة وامتدت أيديهم لتمسك بالعميلين.

«اركض» صاح بيدز بالعبرية.

اندفع بيدز ثم كيندال داخل السيارة التي كانت واقفة على مسافة قريبة من الموقع، ورأى سائق مشعل ما حدث فقاد سيارته إلى الوراء في محاولة لسد الطريق أمام التويوتا.

في نفس الوقت كان مشعل يترنح ويئن من الألم، فأمسك به بعض الحاضرين لكيلا يقع على الأرض، وارتفعت أصوات الآخرين يطلبون سيارة إسعاف. نجح بيدز في الإفلات من سائق السيارة، وأسرع مبتعداً عن مكان الحادث وجلس كيندال على المقعد المجاور ممسكاً بأسطوانة الأيروسول التي أفرغ نصفها.

بدأت سيارات أخرى تطاردهما، وطلب أحد السائقين عن طريق هاتفه الجوال إغلاق الطرق الموجودة في المنطقة، فيما كان سائق مشعل يبلغ إدارة الشرطة من هاتف السيارة.

ثم وصل أعضاء فرقة الاغتيالات المكلفين بالمساندة، وتوقف أحدهم، مشيراً إلى بيدز بالانتقال إلى سيارته. وبمجرد أن قفز عميلا

الموساد من السيارة التويوتا كانت سيارة أخرى قد سدت عليهم الطريق، وخرج منها عدد من المسلحين وأجبروا بيدز وكيندال على الانبطاح على الأرض. أدرك بقية أعضاء فرقة الإعدام أنه ليس بوسعهم أن يفعلوا أي شيء فأسرعوا مبتعدين، ربما في طريق العودة خلسة إلى إسرائيل.

أما بيدز وكيندال فكانا أقل حظاً، فقد اقتادوهما إلى مقر شرطة عمان، وهناك أبرزا جوازي سفرهما الكنديين وأصروا أنهما ضحية «مخطط رهيب»، ولكن ادعاءاتهما انتهت بحضور سميح بطيحي الرئيس القوي لجهاز مكافحة التجسس الأردني الذي أخبرهما بأنه على علم بهويتهما، وأنه كان يهاتف قبل قليل رئيس محطة الموساد. وأعلن بطيحي في ما بعد أن رئيس المحطة «اعترف بكل شيء. وقال إنهما من رجاله وأن إسرائيل ستتعامل مع الملك مباشرة».

أصدر بطيحي أوامره بسجن كل منهما في زنزانة منفصلة دون أن يصيبهما أي أذى. وفي نفس الوقت أدخل مشعل وحدة العناية المركزة بمستشفى عمان الرئيسية وهو يشكو من رنين مستمر في أذنه اليسرى، أو على حد قوله «أشعر برعشة كأنها صدمة تسري بسرعة في جسمي» ويجد صعوب متزايدة في التنفس.

ووضعه الأطباء في جهاز الإنعاش.

تلقى ياتوم خبر إخفاق العملية في مكالمة هاتفية سرية أجراها رئيس المحطة من السفارة الإسرائيلية في عمان. وقيل إن الكارثة جعلت الرجلين في حالة هياج شديد.

وعندما وصل ياتوم إلى مكتب نتنياهو كان رئيس الوزراء قد تلقى مكالمة هاتفية من الملك حسين عبر الخط الساخن المقام بين

البلدين للتعامل مع الأزمات. كانت فحوى المكالمة وفقاً لما أعلنه أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية في ما بعد:

«وجه الملك حسين إلى بيبي سؤالين: من المقصود بهذه اللعبة القذرة؟ وهل لديك ترياق ضد غاز الأعصاب؟».

قال الملك إنه يشعر وكان أعز أصدقائه قد اغتصب ابنته، وإذا كان نتنياهو يفكر في الإنكار، فإنه من الأفضل أن يعرف أن عميليه قد اعترفا بكل شيء وأن اعترافاتهما مسجلة على شريط فيديو في طريقه إلى واشنطن لتشاهده مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية. ظل نتنياهو جالساً في مقعده وهو ينحني على الهاتف «شاحب الوجه وكأنه ضبط متلبساً بجريمة».

ثم عرض نتنياهو على الملك حسين أن يسافر إلى عمان على الفور «ليشرح الأمر» ولكن الملك أخبره ألا يضيع وقته. وعن ذلك يقول ضابط المخابرات:

«كأننا كنا نسمع صوت الجليد يندفع عبر خط الهاتف من الأردن، حتى أن بيبي لم يعترض عندما قال له الملك حسين أنه يتوقع أن تطلق إسرائيل سراح الشيخ أحمد ياسين (زعيم حماس الذي احتجزته إسرائيل في السجن بعض الوقت) وعدد من السجناء الفلسطينيين. لم تستغرق المكالمة إلا دقائق قليلة ولكنها ربما كانت أسوأ لحظة في حياة بيبي السياسية».

بدأت الأحداث تسير بقوتها الدافعة، وخلال ساعة واحدة تم إرسال أدوية مضادة لغاز الأعصاب على متن طائرة حربية إسرائيلية استخدمت لعلاج مشعل الذي بدأ يتماثل للشفاء، وتحسن خلال بضعة أيام وعقد مؤتمراً صحافياً سخر فيه من جهاز الموساد. كما عقد رئيس

محطة عمان وسميح بطيحي اجتماعاً قصيراً وأجريا اتصالاً هاتفياً مع ياتوم أثناء الاجتماع. وقطع مدير عام الموساد على نفسه وعداً ألا تقوم الموساد بأية محاولة اغتيال أخرى على التراب الأردني. وفي اليوم التالي أجرت مادلين أولبرايت مكالمتين قصيرتين مع نتنياهو وأوضحت له رأيها في ما حدث وكانت ألفاظها في بعض الأوقات لا تقل حدة عن الألفاظ التي استخدمها الملك حسين.

وعندما علمت الحكومة الكندية بما يجري لجوازات سفرها استدعت سفيرها في إسرائيل وهي خطوة لا تدانيها إلا قطع العلاقات الدبلوماسية.

ومع بدء ظهور تفاصيل العملية تعرض نتنياهو لحملة من النقد اللاذع في الصحافة المحلية والدولية تكفي لجعل أي شخص آخر يستقيل من منصبه. وخلال أسبوع واحد أطلق سراح الشيخ ياسين وعاد إلى غزة حيث استقبل استقبال الأبطال، ثم عاد كل من كيندال وبيدز إلى إسرائيل دون جوازي السفر الكنديين اللذين سلما للسفارة الكندية في عمان «للاحتفاظ بهما».

ولم يعد هذان العميلان أبداً إلى وحدة الاغتيالات، بل أوكلت إليهما أعمال غير محددة في مقر الموساد وصفها أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية بأنها «ربما تعني حفظ الأمن في دورات مياه المبنى».

ولكن ياتوم رئيس الجهاز أصبح كالبطة العرجاء، وأدرك كبار ضباطه أنه أخفق في التصدي لضغوط نتنياهو فسجلت الروح المعنوية داخل الجهاز انخفاضاً جديداً، وبدأ تسرب أخبار من مكتب رئيس الوزراء تفيد أن «نهاية ياتوم ليست إلا مجرد وقت».

حاول ياتوم تحطيم «موجة الرفض العاتية التي كادت تغرقنا»

على حد قول أحد كبار ضباط الموساد، وتبنى ياتوم ما سماه «الوضع البروسي» وحاول إرهاب رجاله بالعبوس والصياح مما أثار المواجهات الغاضبة والتهديد بتقديم الاستقالات. وفي فبراير ١٩٩٨ م استقال ياتوم نفسه في محاولة لتجنب ما أسماه «ما يشبه التمرد»، ولم يرسل رئيس الوزراء نتنياهو إلى رئيس جهاز مخابراته المستقيل خطاب الشكر المعتاد على ما قدمه من خدمات.

الفصل السابع:

(الجاسوس النبيل)

وقف دافيد كيمحي صباح يوم رطب من أيام ربيع ١٩٩٧ م، يدلي بتعليماته إلى البستانيين العرب بشأن ما يريده من تغييرات في حديقته بضاحية من ضواحي تل أبيب فكان يتحدث بلهجة واثقة، ينساب صوته بعذوبة تناسب أروقة الجامعة أكثر من إعطاء التعليمات للعمال، بما يوحي أنه سليل أجيال من الإداريين الذين رفعوا علم بريطانيا في أقاصي المعمورة. ولد كيمحي إنجليزياً لأسرة يهودية من الطبقة الوسطى، واكتسب أسلوباً في التصرف وكياسة يعكسان الصورة الشائعة للإنجليزي المهذب، أما ثيابه الغالية الصنع، فكانت تبرز قواماً احتفظ به ممشوقاً بفضل التدريبات والنظام الغذائي الصارم.

وكان يبدو أصغر من سنه التي شارفت على الستين بنحو عشرين سنة، بالإضافة إلى شيء ما يجعله يبدو صبياً، فكل حركاته وهو يشرح للبستانيين - حركة يزيح بها الشعر عن جبينه، ولحظات صمت طويلة ونظرة متأملة - توحي بأنه قضى حياته أما بين جدران الدير أو جدران الجامعة. والواقع أن دافيد كان، كما يسميه مائير عاميت، واحداً من مراكز توليد الأفكار وراء العديد من عمليات الموساد. فمهاراته المنطقية، وما يواكبها من جرأة مذهلة تباغت أشد المتشككين

بتصرف غير متوقع، كلها صفات اكسبته احترام الجميع بمن فيهم أكثر زملائه تشككاً.

ولكن ذكاءه المفرط هذا كثيراً ما منعهم من التقرب إليه، إذ اعتبروه محباً للعزلة والتأمل.

ورأى العديد منهم ما رآه رافي إيتان من «أنك لو قلت لدافيد صباح الخير» فإن عقله سيبدأ فوراً في التفكير عما في الصباح من خير أو في ما تبقى من الصباح». كما رأت أوساط الموساد فيه مثالاً «للجاسوس المحترم» رغم تمتعه بالدهاء.

أما عن رحلته التي انتهت به إلى أحضان الموساد، فقد بدأت بعد تخرجه بدرجة امتياز في العلوم الاجتماعية من جامعة اكسفورد عام ١٩٦٨ م. وبعد ذلك ببضعة شهور تم تجنيده للموساد، التي كانت آنذاك تحت القيادة الجديدة لمائير عاميت، الذي كان يسعى آنذاك ليضم إلى صفوف الموساد بعض خريجي الجامعات لدعم شراسة من فيها من عناصر، من أمثال رافي إيتان، الذين اكتسبوا مهاراتهم في الميدان. أما كيف وأين ومتى تم إلحاق كيمحي بالخدمة، فهو سر آل على نفسه الا يفشيه أبداً. وتعددت الروايات عن هذا الموضوع بفضل شائعات أوساط الاستخبارات الإسرائيلية؛ منها أنه انضم إلى الموساد بعد عشاء فاخر مع ناشر لندني يهودي من قدامى العملاء، ومنها أنه دخلها بناءً على اقتراح جاء من مكتب حاخام في معبد بضاحية «جولدرز جرين»، كما أن الخطوة الأولى في هذه السبيل صدرت عن شخص يمت له بصلة قرابة بعيدة.

الشيء المؤكد الوحيد هو أن ديڤيد كيمحي دخل مبنى مقر «الموساد» في تل أبيب في ربيع عام ١٩٦٩ م، عضواً جديداً في إدارة

التخطيط والاستراتيجية. وكان على جانبي بهو المبنى فرع لبنك إسرائيل ومكاتب عديدة ومقهى. فوقف كيمحي متردداً في مدخل المبنى الذي بدا مختلفاً تماماً عن المدخل المهيب لوكالة المخابرات المركزية (CIA التي قرأ عنها الكثير) فتلك الوكالة في لانجلي تعلن عن وجودها بفخر على لوحة رخامية في مدخلها، وفي النجمة ذات الأضلاع الستة عشر على درع يعلوه منظر جانبي لعقاب أصلع ومعه عبارة «وكالة المخابرات المركزية للولايات المتحدة الأمريكية» أما الجدران، فتحمل كلمات القديس يوحنا: «الحقيقة تحرر البشر» وتقع إلى جانب تلك اللوحة مجموعة من المصاعد يحرسها حراس مسلحون. أما هنا، في هذا البهو المتهالك نسبياً للمبنى الواقع في شارع الملك شاؤول، فلا يرى المرء سوى صيارفة المصرف والجالسين على مقاعد المقهى البلاستيكية، لا يبدو على أحد منهم أنه موظف في الموساد. وفي الركن القصي من البهو، انفتح باب عادي وخرج منه شخص مألوف الهيئة، موظف قنصلي بالسفارة الإسرائيلية في لندن كان قد أمد كيمحي بوثائق السفر اللازمة. وعاد الموظف مع كيميحي إلى الباب، شارحاً له أن وضعه الدبلوماسي إنما يحمي عمله الحقيقي كرجل للموساد في بريطانيا. وعند الباب، سلم الرجل لكيمحي مفتاحين سيصبحان وسيلته الوحيدة لدخول المقر. فمفتاح منهما للباب والآخر للمصاعد التي تؤدي إلى أدوار الموساد الثمانية. كان ذلك المبنى قد أصبح مقراً للموساد بعد انتهاء حرب السويس سنة ١٩٥٦ م بقليل.

ففي ذلك العام، وفي شهر أكتوبر (تشرين الأول)، شنت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية هجوماً مشتركاً على مصر لاسترداد قناة السويس التي أممها الرئيس المصري جمال عبد الناصر. فكان غزواً يحمل معالم «دبلوماسية البارجة الحربية» التي طالما سيطرت

على المنطقة. أما الولايات المتحدة، فكادت ألا تعلم مسبقاً بغزو أسفر في النهاية عن احتضار السيطرة البريطانية والفرنسية على الشرق الأوسط ومارست واشنطن ضغوطاً دبلوماسية جبارة لوقف القتال، خشية دخول الاتحاد السوفيتي إلى جانب مصر في النزاع، مما يؤدي إلى مواجهة بين القوى العظمى. فلما انتهت المعارك على ضفتي قناة السويس، اكتشفت بريطانيا وفرنسا أن الولايات المتحدة احتلت مكانهما كقوة مسيطرة على الشرق الأوسط بينما أصرت إسرائيل على الاحتفاظ بما استولت عليه من أراض في صحراء سيناء. وطار ريتشارد هلمز، الذي تولى رئاسة المخابرات المركزية الأمريكية قبلها بشهور، إلى تل أبيب حيث استقبله كبار الموظفين في مقر الموساد. وكان تعليقه أنهم بدوا له «حفنة من سماسرة العقارات يشيرون بفخر إلى منافع العقار».

عرف كيمحي من دليله أن الطابق الأول يضم مركز التنصت والاتصالات، والطابق الذي يليه يحتوي على مكاتب صغار الموظفين، أما الطوابق العليا فقد خصصت للمحللين والمخططين ومسؤولي العمليات، وخصص طابق آخر بأكمله لإدارة البحث والتطوير بينما ضم الطابق الأعلى مكتب المدير وكبار معاونيه، وخصص لكيمحي مكان بين المخططين وواضعي الاستراتيجية. فكان مكتبه شبيهاً بكل المكاتب الأخرى: مكتب خشبي رخيص، وخزانة معدنية للملفات لها مفتاح واحد، وهاتف أسود اللون إلى جانبه دليل أرقام طبعت عليه عبارة «ممنوع نقله من مكانه». وعلى الأرض بساط رقيق. وكانت جدران الحجرة مطلية باللون الأخضر الزيتوني وهي تطل على مشهد بانورامي للمدينة. ولكن مبنى المقر، بعد مرور ثلاث عشرة سنة، بدت عليه آثار القدم، فتشقق طلاء جدرانه وآن أوان استبدال السجاجيد.

وعلى الرغم من أوجه القصور هذه، إلا أن دافيد كيمحي كان

يشعر بأنه وصل إلى مرحلة حاسمة من حياته. فقد كان مائير عاميت على وشك ترك الخدمة ليحل محله. عما قريب، رافي إيتان وغيره من كبار ضباط الموساد.

سرعان ما اكتشف العادات المميزة لزملائه: أخصائي التحليل الذي كان يستهل أحكامه دائماً بعبارة «هذه مناورة أوروبية، تكاد تطابق مناورة كلاوسفيتز في كلاسيكيتها»، ورئيس القسم الذي يبدأ كل حديث بتعمير غليونه بالتنباك الأسود اللون، الذي ما أن يتصاعد منه الدخان الأبيض حتى يكون قد اتخذ قراره، وآخر من واضعي الاستراتيجية ينهي تقاريره بعبارة تفيد أن الجاسوسية عملية مستمرة تعلمنا مدى ضعف الإنسان. هؤلاء الرجال الذين أثبتوا كفاءتهم، رحبوا بكيمحي في حماس كما رحبوا بقدرته على تناول المشكلات من زواياها المختلفة، إذ أدركوا فهمه بأن كشف خدع العدو في أهمية الاحتفاظ بخدع الموساد نفسه.

وكان جزء من عمله رصد الأحداث في المغرب حيث لا يزال عدد من اليهود يعيشون فيه. وفي محاولة له للتخفيف من معاناتهم، كان مائير عاميت قد أقام «علاقة عمل» بجهاز الأمن المغربي.

أما في داخل المغرب، فما زالت هناك معارضة صغيرة الحجم وإن كانت قوية، يقودها المهدي بن بركة. وكان كيمحي على علم تام بتاريخ بن بركة منذ أن كان معلماً مخلصاً للملك، ثم رئيساً للمجلس الاستشاري بالمغرب، تقتصر مهمته على تأييد قرارات الحسن الثاني. وانتهى المطاف ببن بركه أن أصبح الصوت المعارض الأصيل الوحيد للملك الحسن. وأفلت مرة بعد أخرى من براثن رجال الأمن المغاربة، مدركاً أن مصيره إن عاجلاً أو آجلاً القبض عليه، ففر المعلم السابق المحبوب إلى أوروبا حيث واصل كفاحه.

وأوشكت حركة المقاومة الفعالة والصغيرة التابعة لبن بركة في المغرب مرتين على شن حركة تفجير بالقنابل موجهة ضد الملك. فاستشاط الحسن غضباً وأمر بمحاكمة بن بركة غيابياً والحكم عليه بالإعدام. فما كان من بركة إلا أن أمر بهجمات مجددة ضد الملك.

وفي شهر مايو (أيار) من عام ١٩٦٥ م، طُلب من الموساد التخلص من بن بركة. فكلف دافيد كيمحي بتقييم ذلك الطلب، فسافر في نهاية نفس الشهر بجواز سفره البريطاني إلى لندن بحجة قضاء العطلة، ولكنه في الواقع كان يضع اللمسات الأخيرة لخطته. فحصل على جواز سفر بريطاني آخر متقن التزوير من أحد العملاء. وعليه تاشيرة دخول للمغرب، ثم سافر إلى روما حيث قضى يوماً في زيارة معالم المدينة ليتاكد من أن أحداً لم يتتبعه، وتوجه بعدها إلى المغرب. واستقبله في مطار الرباط الجنرال محمد أوفقير وزير الداخلية المثير للفزع. وفي ذلك المساء وحول مائدة عشاء زاد من بهجتها وجود أجمل الراقصات الشرقيات في البلاد، أفصح له أوفقير عما يريده بالضبط: رأس بن بركة. وأضاف معبراً عن روح دعابة فجة وعن إعجاب بتاريخ اليهود «لا تنس أن أميرتكم سالومي اليهودية طالبت الملك هيرودس برأس شخص مثير للمتاعب».

وقال كيمحي أنه بالرغم من كون هذا الأمر سليماً، فلا يدخل ذلك في مجال اهتمامه. وعلى أوفقير العودة معه لإسرائيل.

وفي اليوم التالي طار الرجلان إلى روما من ثَم استقلا طائرة إلى تل أبيب. وهناك قابلهما مائير عاميت في بيت آمن تابع للموساد حيث استمع في أدب حذر، ثم أخبر كيمحي بأنه «غير متحمس» لفكرة القيام بمهمة قذرة لحساب أوفقير. وأصر على أن «تقتصر مشاركة

الموساد على عملية التحضير». ولم يكن مائير عاميت يعلم أن أوفقير أعد الترتيبات مع جناح من جهاز المخابرات الفرنسي، لاغتيال بن بركة إذا ما نجحوا في استدراجه خارج بيته الحصين في جنيف إلى حيث يعبر الحدود فيدخل فرنسا. وأصر مائير عاميت، بسبب عدم اطمئنانه للمهمة، على موافقة رئيس وزراء إسرائيل، لفي أشكول، على مشاركة الموساد، وقد فعل رئيس الوزراء ذلك.

وبدأ الموساد عمله، فارسل يهودياً من أصل مغربي الى جنيف، حيث تسلل إلى صف المحيطين ببن بركة. وعلى مدى شهور طويلة نشر العميل بعناية فكرة أنه يعرف فرنسياً من أصحاب الملايين متعاطفاً مع القضية، يرغب في الإطاحة بالملك الحسن حتى تحل محله ديمقراطية حقه. وفي السادس والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٦٥ م، نمى إلى علمه أن بن بركة على وشك الرحيل إلى باريس.

فبعث مركز اتصالات الموساد برسالة مشفرة إلى أوفقير في المغرب، فتوجه مع طاقم صغير من رجال الأمن المغاربة إلى باريس. وفي نفس الليلة، اطلع جناح المخابرات الفرنسي الوزير على كافة المعلومات. وشعر عميل الموساد الذي رافق بن بركة إلى العاصمة الفرنسية بالقلق من استبعاده من الاجتماع، فاتصل بكيمحي على خط هاتفي أمني، ليحصل منه على تعلميات فاستشار كيمحي رئيسه مائير عاميت واتفقا على «أن عملاً قبيحاً يدبر في الخفاء، ومن المستحسن البقاء بعيداً عنه» كما جاء في رواية عاميت لاحقاً.

وفي الليلة التالية، وقفت سيارة مراقبة تابعة للمخابرات الفرنسية Sdece خارج المطعم الذي حضر إليه بن بركة لتناول العشاء في منطقة سان جرمان، معتقداً أنه جاء ليلتقي بواحد من أصحاب الملايين. فانتظر ساعة ولما لم يصل أحد، غادر بن بركة المطعم. وما أن وطأت قدماه

الرصيف حتى سحبه اثنان من عملاء الـ Sdece وزجا به في السيارة واقتاداه إلى ڤيلا في منطقة فونتناي ـ لي ـ فيكونت، تستخدمها إداراتهم بين الحين والحين لاستجواب المشتبه فيهم. وأشرف أوفقير شخصياً طيلة الليل على عملية استجواب بن بركة وتعذيبه حتى لاح الفجر، فأعدموا الرجل المحطم. ثم التقط أوفقير مجموعة من الصور الفوتوغرافية للجثة قبل أن يتم دفنها في حديقة المنزل، وطار الوزير عائداً إلى بلاده ومعه الصور.

عند اكتشاف الجثة، ارتفعت أصوات الاحتجاج في فرنسا حتى بلغت أسماع رئيس الجمهورية في قصره، فأمر شارل ديجول بتحقيق لم يسبق له مثيل، أدى إلى عملية تطهير واسعة النطاق لإدارة المخابرات وعمد مدير تلك الإدارة إلى إبقاء اسم الموساد بعيداً، حرصاً منه على علاقات التعاون معهم. ولكن ديجول، الذي لم يكن صديقاً لإسرائيل، كان مقتنعاً بأن للموساد يداً، فقال لمعاونيه إن العملية برمتها «عليها خاتم تل أبيب» فالإسرائيليون وحدهم هم الذين يضربون بالقانون الدولي عرض الحائط.

وبذلك انتهت العلاقة الوثيقة التي ربطت بين إسرائيل وفرنسا أثناء حرب السويس في ١٩٥٦ م، فأمر ديجول بوقف مد إسرائيل بالسلاح، وكذلك وقف التعاون بين جهازي الاستخبارات. وفيما بعد، كثيراً ما تذكر مائير عاميت «الضربات التي انهالت علينا من باريس». واعتبر كيمحي أن «مائير عاميت عالج الموقف ببسالة. إذ كان بإمكانه أن يلقي اللوم عليّ وعلى غيري ممن ساهموا في هذه العملية. ولكنه أصر على تحمل المسولية كاملة. لقد كان بالفعل قائداً». واضطرت حكومة أشكول، تحت وطأة رد فعل باريس، إلى أن تنأى بنفسها عن رئيس الموساد. كما انهال على عاميت المزيد من النقد من مصدر غير

متوقع. فكلما احتج مائير عاميت مؤكداً بأن دور الموساد في العملية لم يكن إلا «دوراً هامشياً» لم يزد عن «توفير بضعة جوازات سفر واستئجار بعض السيارات»، ازداد إصرار سلفه، أيسار هارئيل، بأن عملية بن بركة لم تكن لتحدث أبداً في عهده. وحذر مائير عاميت رئيس الوزراء بأن مثل هذا الهجوم قد يغرقهما معاً، فكان رد أشكول أن شكل لجنة تحقيق ترأسها جولدا مائير وزيرة الخارجية آنذاك. وتوصلت اللجنة إلى ضرورة استقالة مائير عاميت، ولكنه رفض ذلك إلا إذا استقال أشكول. وتجمد الموقف. ثم مر عام كامل قبل أن يشعر عاميت بأن موت بن بركة لن يزعجه بعد ذلك، ولكن الموضوع كان بالفعل حساساً.

أما كيمحي، فقد انشغل بأمور أخرى. إذ درب الفلسطينيون وحدة من الفدائيين سراً على استغلال نقطة ضعف أمنية لم يتوقعها حتى الموساد: اختطاف الطائرات في الجو وفي منتصف رحلاتها. فما أن يتم اختطاف الطائرة بين نقطتي إقلاعها وهبوطها، حتى تتوجه إلى بلد عربي صديق حيث يحتفظ بالركاب رهائن ـ أما في مقابل مبلغ كبير من المال لإطلاق سراحهم، أو لمبادلتهم بمن تحتجزهم إسرائيل من سجناء عرب. هذا إلى جانب ما يترتب على ذلك من دعاية عالمية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفي يوليو (تموز) من عام ١٩٦٨ م، تم اختطاف طائرة لشركة العال بعد إقلاعها من روما وتحويل مسارها إلى الجزائر. وساد الموساد الذهول أمام بساطة وجراة العملية. فسافر فريق من رجال الموساد إلى الجزائر بينما عكف كيمحي وغيره من المخططين على العمل ليلاً ونهاراً على وضع استراتيجية لإطلاق سراح الركاب المذعورين. وكان وجود عدد من رجال الإعلام العالمي في الموقع

يحول دون الهجوم الخاطف على الطائرة. فأوصى كيمحي بالانتظار، على أمل أن تفقد أخبار الطائرة زخمها الإعلامي ويبدأ تحرك عملاء الموساد. لكن مختطفي الطائرة توقعوا ذلك. وبدأوا يوجهون التحذيرات المخيفة إن لم يتحقق مطلبهم وهو إطلاق سراح الفلسطينيين المحتجزين في سجون إسرائيل. وأيدت الحكومة الجزائرية المختطفين، فأدرك كيمحي: «بأن الموساد واقع بين حجري الرحى». وكان أحد الذين أوصوا على مضض بمبادلة الركاب بالسجناء، رغم يقينه بعواقب ذلك، إذ يشجع على المزيد من عمليات الاختطاف، ويضمن تغطية إعلامية واسعة لقضية منظمة التحرير الفلسطينية، وأصبحت إسرائيل في موقف دفاعي. كذلك لم يكن لدى الحكومات الغربية رد على هذه الاختطافات. «فماذا نفعل سوى أن ننتظر الاختطاف التالي؟».

توالت عمليات الاختطاف، كل منها أفضل إعداداً من سابقتها. وسرعان ما بلغ عدد الطائرات المختطفة اثنتي عشرة طائرة ركاب في وقت قصير. ولم يصبح المختطفون خبراء في إخفاء الأسلحة ووضع المتفجرات على متن الطائرات فقط، بل وخبراء في قيادتها وفي مهام كل عضو من أعضاء طاقم الطائرة. فلقد تدربوا في الصحراء الليبية على تبادل إطلاق النار في حيز ضيق مثل قمرة القيادة، مدركين تماماً إن شركة العال بدأت تضم الحراس المسلحين إلى ركاب طائراتها تنفيذاً لواحدة من أولى توصيات كيمحي. كما أن كيمحي تنبأ بان المختطفين على إلمام بقوانين البلاد المختلفة التي يطيرون منها أو إليها بحيث يستطيع زملاؤهم، إن قبض عليهم، أن يستندوا إلى تلك القوانين لإطلاق سراحهم إما بالتهديد أو بالمساومة.

وأدرك كيمحي أن الموساد في أمس الحاجة إلى حدث يُمكنّه من

التغلب على المختطفين بفضل مهارته التي اشتهر بها: الدهاء والقسوة.

وكان هدفه استخدام الدعاية بشكل فعال، تماماً كما يفعل المختطفون، لذا فقد كان في حاجة إلى عملية تكتسب لإسرائيل من الثناء ما اكتسبته عملية اختطاف أدولف أيخمان. كان كيمحي يحتاج إلى عملية درامية للغاية، محفوفة بالمخاطر، وإلى نتيجة تكون بمثابة الانتصار في وجه المستحيل، فكل هذه العناصر مجتمعة من شأنها أن تضع الموساد موضع المنتصر.

وفي ٢٧ يونيو (حزيران) عام ١٩٧٦ م، أقلعت طائرة تابعة للخطوط الفرنسية من باريس، في طريقها إلى تل أبيب، وعلى متنها رهط من الركاب اليهود، ثم هبطت الطائرة في مطار أثينا الشهير بضعف عوامل الأمن فيه، وكان المختطفون هذه المرة من جماعة وديع حداد المتطرفة، وتقدموا بمطلبين: الإفراج عن أربعين من الفسطينيين المحتجزين في السجون الإسرائيلية، وعن ١٢ آخرين في السجون الأوروبية، وكذلك إطلاق سراح اثنين من الإرهابيين الألمان كان قد قبض عليهما في كينيا عندما حاولا إسقاط طائرة من طائرات شركة العال بصاروخ من طراز سام ٧ وهي تقلع من مطار نيروبي.

وبعد التوقف في الدار البيضاء، ورفض الخرطوم التصريح لها بالهبوط، توجهت الطائرة إلى أوغندا. ومن هناك، أعلن المختطفون عن عزومهم على تفجير الطائرة بركابها ما لم يستجب لمطالبهم، وحددوا يوم ٣٠ يونيو كتاريخ للتنفيذ.

وفي اجتماعات مغلقة للوزارة بتل أبيب، بدأت تتلاشى الصورة المعلنة والسائدة عن إسرائيل أنه «لا استسلام» أمام الإرهاب. وحبذ بعض الوزراء فكرة الإفراج عن السجناء من أعضاء منظمة التحرير

الفلسطينية. وأبرز رئيس الوزراء، رابين، تقريراً من «شين بت» يفيد بأن ثمة سابقة للإفراج عن سجناء محكوم عليهم. أما موردخاي جور، رئيس الأركان، فاعلن أنه لا يوصي بتحرك عسكري نظراً لعدم ورود معلومات كافية من عنتيبي. وبينما هم في مداولاتهم المفعمة بالقلق، جاءت الأخبار من عنتيبي تفيد بأنه تم عزل الركاب اليهود عن غيرهم وتم الإفراج عن البقية، وهم في طريقهم إلى باريس.

وهنا جاءت الثغرة التي كان ينتظرها الموساد. فأصرّ إسحق حوفي، رئيس الموساد، بشدة وبحسم على القيام بعملية إنقاذ. واستعان بنفس الخطة التي استخدمها رافي إيتان في اختطاف أيمان، بعد أن نقحها. فقد كانت هناك أوجه شبه بين الموقفين. لأن رافي إيتان ورجاله كانوا ينفذون العملية بعيداً عن الوطن وفي بيئة معادية فكانوا يتصرفون حسب تطور الموقف، مستعينين بالحيلة، أو بما عرف «بالحظ اليهودي». وأصر إسحق جوفي في صوت أرهقه النقاش، وهو يحملق في الجالسين في قاعة المجلس: «لا يمكن أن نترك أهلنا يموتون، ففي ذلك بداية الطوفان، لن يشعر يهودي واحد بالأمان في أي مكان بعد ذلك، وكان هتلر قد أحرز انتصاراً وهو في قبره!».

واخيراً قال إسحق رابين: «ليكن! فلنحاول».

ولكن كيف الوصول إلى عنتيبي؟ فمنظمة التحرير الفلسطينية احتلت المطار باعتباره نقطة الدخول إلى أوغندا، تدبر منه عملياتها ضد نظام الاقلية العنصرية البيضاء الموالي لإسرائيل في جنوب إفريقيا، بل أن الدكتاتور عيدي أمين أعطى مسكن السفير الإسرائيلي لمنظمة التحرير الفلسطينية مقراً لها بعد قطعه للعلاقات الدبلوماسية بإسرائيل عام ١٩٧٢ م.

وكان لا بد لكيمحي من معرفة ما إذا كانت المنظمة ما زالت في البلاد، فهو يعلم بأنه سيكون من الصعب التغلب على فدائييها المخضرمين في الوقت القصير المتاح لعملية الإنقاذ، لأن القوات الإسرائيلية لن تستطيع المكوث أكثر من دقائق وإلا واجهت هجوماً مضاداً قوياً. فأرسل اثنين من العملاء ليعبروا بحيرة فيكتوريا في قارب، ولما وصلا بالقرب من عنتيبي وجدا مقر منظمة التحرير الفلسطينية مهجوراً لأنهم نقلوه مؤخراً إلى أنغولا. وجاءت ضربة الحظ اللازمة لأية عملية: تبين لواحد من ضباط الأمن الكينيين المرافقين لعملاء الموساد أن واحداً من أقارب زوجته ضمن من يتولون حراسة الرهائن. فتسلل إلى المطار ليتأكد من أن الرهائن ما زالوا على قيد الحياة، ولاحظ أنهم في حراسة ١٥ من الحراس المتوترين. وأرسلت هذه المعلومات باللاسلكي إلى تل أبيب.

وفي نفس الوقت، استأجر عميلان آخران، يجيدان قيادة الطائرات، طائرة من طراز «سسنا» وطارا بها من نيروبي بحجة تصوير بحيرة فكتوريا، بغية إعداد نشرة سياحية. ومرت بهما الطائرة فوق مطار عنتيبي مباشرة، فتمكن أحدهما من التقاط صور واضحة لمدرج الطيران والأبنية المقامة به، وبعثوا بالصور إلى تل أبيب حيث أوصى كيمحي باتباع استراتيجية أخرى، إمعاناً في بلبلة مختطفي الطائرة.

ومن خلال محادثات هاتفية عديدة مع قصر عيدي أمين، أوضح المفاوضون الإسرائيليون أن حكومتهم على استعداد لقبول شروط مختطفي الطائرة. كما استعانوا بدبلوماسي أوروبي في أوغندا لتعزيز مصداقية استسلامهم. طالبين منه «في سرية» أن يبحث إمكانية التفاوض مع الفدائيين بشكل مناسب. وأضاف كيمحي، «بشكل ليس فيه

إذلال مبالغ فيه لإسرائيل، ولكن أيضاً بشكل يمكن لمختطفي الطائرة قبوله». وهرول الدبلوماسي إلى المطار بالأخبار، وبدأ في كتابة صيغة مناسبة، كان ما زال يكتبها عندما أوشكت العملية الإسرائيلية المسماة «ثندربول» على الدخول في مراحلها النهائية.

هبطت في مطار نيروبي طائرة إسرائيلية من طراز بوينج ٧٠٧، لا تحمل علامات، لتستخدم كمستشفى طائر، يقودها إثنان من ضباط السلاح الجوي الإسرائيلي ممن يعرفون مطار عنتيبي خير معرفة. وفي نفس الوقت طوق ستة من عملاء الموساد المطار، كل منهم يحمل جهاز إرسال لاسلكي وجهازاً إلكترونياً قادراً غلى تشويش رادار برج المراقبة بالمطار. وهو جهاز لم يكن قد استخدم بعد في ميدان قتال.

وفي ظلال الليل، خرج من المستشفى الطائر خمسون من جنود المظلات وتوجهوا إلى بحيرة فكتوريا. وهناك أعدوا قواربهم المطاطية، وبدأوا يجدفون مقتربين من الساحل الأوغندي، استعداداً للانقضاض على مطار عنتيبي. أما في تل أبيب، فقد كان المشاركون في العملية قد تدربوا على عملية الإنقاذ تدريباً محكماً. فلما جاءت الساعة، عبرت طائرة نقل عسكرية من طراز C-130 Hercules البحر الأحمر، متجهة نحو الجنوب، وتزودت بالوقود في مطار نيروبي، ثم طارت على ارتفاع منخفض، فوق الأشجار الإفريقية، وانقضت على مطار عنتيبي.

ونجح جهاز تشويش الرادار نجاحاً فائقاً. وبينما كان مسؤلو المطار يضربون أخماساً في أسداس، بشأن ما حدث عقب هبوط طائرات Hercules الثلاث والطائرة المستشفى هرعت فرق الكوماندوز الإسرائيلية نحو المبنى الذي احتجز به من تبقى من الرهائن، وكلهم من اليهود، لأن عيدي أمين كان قد أفرج عن كل الآخرين، مستمتعاً بتصدره

الأنباء العالمية. ونجحت العملية دونما حاجة إلى قوات المظلات المنتظرة، فعادوا أدراجهم إلى نيوربي حيث أقلتهم طائرة نقل إسرائيلية أخرى وأعادتهم إلى بلادهم.

في خمس دقائق فقط ـ أقل بدقيقتين كاملتين من الوقت المقدر ـ تم الإفراج عن الرهائن كما تم قتل الإرهابيين جميعاً، ومعهم ١٦ من الحراس الأوغنديين. وقتل ضابط إسرائيلي واحد، هو العقيد يوناثان نتنياهو: الأخ الأكبر لبنيامين نتنياهو الذي أصبح في ما بعد رئيساً للوزارة، والذي قال بعدها أن تشدد موقفه من الإرهاب جاء نتيجة لمقتل أخيه يوناثان، وكذلك قتل ثلاث من الرهائن.

تحققت رغبه كيمحي في التوصل إلى رد مناسب وطنّان على عمليات اختطاف الطائرات، إذ أصبحت «عملية عنتيبي» بمثابة «بطاقة شخصية» للموساد، أكثر حتى من عملية اختطاف أدولف أيخمان.

ووجد كيمحي نفسه منغمساً في جهود الموساد لمحاربة منظمة التحـريـر الفلسطينيـة. ودارت هـذه المعـارك المـدمـرة خـارج حـدود إسرائيل، في شوارع المدن الأوروبية. فكان كيمحي أحد الذين مهدوا الطريق لقتلة الموساد المحترفين، ليضربوا ضربتهم في باريس وميونيخ وقبرص وأثينا. وهذه الاغتيالات بدت لكيمحي بعيدة كل البعد، فهو كقائد الطائرة لا يرى أين تسقط القنابل. كما زادت تلك الاغتيالات من شعور الموساد بأنه جهاز لا يقهر، فالمعلومات الدقيقة التي يعدها الاستراتيجيون تسمح لقتلتهم المحترفين باستباق الأعداء دائماً. وفي يوم من الأيام، وصل كيمحي إلى مكتبه ليرى زملاءه في حاله تقرب من الذهول لأن رجلاً من رجال منظمة التحرير نجح في إغتيال واحد من أكثر عملاء الموساد الميدانيين (كاتسا) خبرة في مدريد، بعد أن أوهمه بأنه سيساعده على اختراق جماعته.

لم يكن هناك وقت للنواح، فلا بد من محاربة النار بالنار، أو كما قال كيمحي «لم نتوقع رحمة ولا هوادة، كما أننا لن نرحم أو نتهاون».

واستمرت جهود الموساد للاقتراب من قيادات منظمة التحرير، واكتشاف خبايا العلم فيها، بغية اغتيال قيادتها. فكان شعار كيمحي: «لا بد من قطع الرأس لإسكات الذيل عن الحركة». فأصبح ياسر عرفات على قائمة من يستهدفهم الموساد.

بحلول عام ١٩٧٣ م، لاح خطر أكبر استحوذ على فكر كيمحي: احتمال حرب عربية موسعة ثانية ضد إسرائيل. بقيادة مصر. ولكن صوت الموساد ظل وحيداً في أوساط الاستخبارات الإسرائيلية فالاستخبارات العسكرية «أمان» رفضت الاقتناع بمخاوف الموساد التي كانت صدى لمخاوف كيمحي نفسه، إذ فسر خبراؤها طرد مصر لعشرين ألف خبير عسكري سوفيتي بأنه يعكس نية أنور السادات وراء حل سياسي في الشرق الأوسط ولكن كيمحي لم يقتنع، فكل المعلومات التي تمر بمكتبه تؤكد أن السادات سيوجه ضربة مفاجئة ـ بما أن إسرائيل لن تستجيب أبداً لمطالب العرب: فمصر تريد استرداد الأرض وإقامة وطن فلسطيني داخل إسرائيل. بل كان كيمحي مقتنعاً بأن منظمة التحرير لن توقف حملتها الضاربة ضد إسرائيل. حتى لو قبلت إسرائيل التنازلات المطلوبة. وزاد من قلقه أن السادات استبدل بوزير حربيته وزيراً آخر أكثر صرامة. بادر بتعزيز خطوط دفاع مصر على ضفة القناة، كذلك كثرت زيارات القادة المصريين للعواصم العربية بحثاً عن التأييد، كما وقع السادات صفقة جديدة لشراء الأسلحة من موسكو.

رأى كيمحي في كل ذلك نذراً، إذ «لم يعد السؤال هو هل تندلع الحرب، وإنما في أي يوم تندلع». ولكن رؤساء المخابرات العسكرية استمروا في الاستخفاف بتحذيرات الموساد. مؤكدين لقادة قوات

الدفاع الإسرائيلية بأنه، رغم ظواهر الحرب، ستكون هناك فترة إنذار لا تقل عن خمسة أيام»، وهي فترة أطول مما يحتاجه السلاح الجوي الإسرائيلي لإحراز نفس النجاح الذي حققه في حرب الأيام الست. وعبثاً حاول كيمحي التحذير من أن العرب، لا شك، تعلموا من أخطائهم السابقة. فاتهموه بأن «شبح الحرب سيطر عليه»، وهي تهمة من الصعب أن يقبلها رجل في حرص كيمحي على كل ما يقول، ولم يبق أمامه سوى الاستمرار في تقييم الاستعدادات المصرية ومحاولة استنباط تاريخ الهجوم. انحسرت موجة قيظ أغسطس ١٩٧٣ عن تل أبيب مفسحة المجال لنسمات سبتمبر الباردة. وكانت آخر تقارير عملاء الموساد في سيناء تفيد أن الاستعدادات المصرية أصبحت أسرع وتيرة فسلاح المهندسين يضع اللمسات الأخيرة لمعابر يعبر عليها الجنود والمدرعات. ولما أقنع الموساد وزير الخارجية الإسرائيلي بإثارة مسألة هذه الاستعدادات المقلقة في الأمم المتحدة. أجاب مندوب مصر بهدوء: «إنها أنشطة روتينية» فرأى كيمحي في تلك الكلمات «نفس درجة المصداقية» التي حملتها كلمات السفير الياباني في واشنطن عشية هجوم اليابان على «بيرل هاربور». أما المخابرات العسكرية «أمان» فقبلت التفسير المصري. فلما جاء شهر أكتوبر، بدت كل الأمور منذرة بالحرب من وجهة نظر كيمحي ليبيا أممت شركات النفط الغربية، ودول الخليج المنتجة للنفط تهدد بقطعه عن الغرب. وظل خبراء «أمان» على خطئهم في تفسير الأحداث، ثم وقع هجوم من طائرات الميج السورية على طائرات إسرائيلية فوق سورية، فسقطت إثنتا عشرة طائرة سورية في البحر وأحرزت قوات الدفاع الإسرائيلية النصر بفضل المعلومات التكتيكية لطياراتها التي اكتسبوها بعد سرقة طائرة من طراز ميج من العراق. فكان في ما

حدث حجة جديدة تؤكد بها المخابرات العسكرية الإسرائيلية أن العرب سيهزمون مرة أخرى إذا ما فكروا في الحرب وفي ليلة ٥ ـ ٦ من أكتوبر حصل الموساد على دليل جديد دامغ يثبت أن الحرب على الأبواب، وربما بعد ساعات قليلة فقد أخبره عملاؤه في مصر أن درجة الاستعداد القصوى أعلنت في القيادة العسكرية العليا، ولم يعد بالإمكان تجاهل تلك الشواهد وفي الساعة السادسة صباحاً، ذهب زفي زامير، رئيس الموساد، ليلحق بقادة «أمان» في وزارة الدفاع، وبدا المبنى مهجوراً بسبب أعياد «يوم كيبور» أقدس الأعياد اليهودية قاطبة، يوم لا يعمل فيه حتى يهودي واحد وتتوقف فيه كل الخدمات العامة، بما في ذلك البث الإذاعي الذي كانت تستخدمه إسرائيل في حالات الطوارىء لتعبئة قوات الاحتياط.

وأخيراً، وأمام الأدلة التي لا تقبل الشك التي قدمها الموساد، دقت أجراس الإنذار في أرجاء إسرائيل معلنة أن هجوماً مزدوجاً على وشك الوقوع من سورية في الشمال ومن مصر في الجنوب.

واندلعت الحرب في الساعة الثانية إلا خمس دقائق بالتوقيت المحلي، بينما الوزارة الإسرائيلية مجتمعة في جلسة طارئة ـ بعد أن أكدت لها المخابرات العسكرية أن العمليات لن تبدأ إلا في السادسة مساءً، وهو توقيت اتضح في ما بعد أنه مجرد تخمين، وهو فشل في التنبؤ بالأحداث لم يسبق له مثيل في أوساط المخابرات الإسرائيلية، إذ تجاهلوا تماماً كل الأدلة التي جمعها دافيد كيمحي وغيره.

فلما انتهت الحرب التي انتزعت إسرائيل فيها النصر من أنياب الهزيمة، بدأت عملية تطهير واسعة النطاق في صفوف قيادة «أمان». واسترد الموساد مكانته في أوساط المخابرات، على الرغم من استبعاد

رئيسه زامير من منصبه بحجة أنه لم يكن حاسماً في تفنيد مزاعم زملائه من قيادات المخابرات العسكرية. واحتل إسحق حوفي منصبه في إدارة الموساد.

تضاربت مشاعر كيمحي إزاء هذا التغيير. فقد كانت أوجه تشابه عديدة بين حوفي ومائير عاميت: نفس القامة المنتصبة، نفس الخبرة الميدانية، نفس الحسم عدم القدرة على تحمل المغفلين. لكن إسحق حوفي كان صريحاً إلى درجة الوقاحة، وبينه وبين كيمحي توتر يرجع إلى أيام كانا يعملان فيها معاً بمعهد التدريب التابع للموساد. إذ أن إسحق كوفي بعقليته الفظة النابعة من مستعمرات الكيبوتز، لم يكن يتحمل أسلوب المثقف الهادىء في التعامل مع المتدربين، ولا لهجته الإنجليزية المثقفة، ولكن كيمحي، بالإضافة إلى خبرته، كان أيضاً نائباً لحوفي، إذ تمت ترقيته لمنصب نائب المدير العام بعد رحيل زامير بفترة وجيزة. مع ذلك اقتنع الرجلان بضرورة طرح خلافاتهما الشخصية جانباً لضمان استمرار كفاءة وفعالية الموساد في عمله.

وكلف كيمحي بالقيام بمهمة من أصعب مهام الموساد، وهو «الملف اللبناني». وكانت الحرب الأهلية اللبنانية قد بدأت بعد حرب «يوم كيبور» بعامين. فلما تولى كيمحي «الملف اللبناني»، كان المسيحيون اللبنانيون يخوضون معركة خاسرة. وعلى غرار ما فعله سلمان منذ سنوات عندما توجه إلى السفارة الإسرائيلية في باريس ليتفاوض في سرقة طائرة «ميج» عراقية، جاء مبعوث المسيحيين في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ م إلى إسرائيل يطلب السلاح للحيلولة دون إبادة قومه. وانتهى المطاف بذلك الطلب على مكتب دافيد كيمحي الذي رأى فيه فرصة يتسلل منها الموساد كالسوس في أعماق الكيان اللبناني». فأخبر إسحق حوفي بأنه من المعقول سياسياً تقديم «دعم جزئي»

للمسيحيين في مواجهة المسلمين الذين أقسموا على تدمير إسرائيل. وحاز تفسيره القبول، فإسرائيل ستقدم للمسيحيين من الأسلحة ما يكفي لهزيمة المسلمين. ولكن أقل مما يسمح بتهديد إسرائيل نفسها. وبدأ الموساد يرسل الأسلحة إلى لبنان، ثم أدخل كيمحي ضباط الموساد في صفوف القيادة المسيحية بحجة أنهم يساعدون على الاستخدام الأمثل للأسلحة. بينما هم، في الواقع، يرسلون فيضاً من المعلومات يسمح لكيمحي بمتابعة تطورات الحرب الأهلية، مما أتاح لها النجاح في شن عدد من الهجمات على معاقل منظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب اللبناني.

ولكن علاقات الموساد بالمسيحيين توترت في يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٧٦ م عندما طلب القادة المسيحيون من الجيش السوري مساعدتهم ضد حزب الله الموالي لإيران، وهو حزب كانت دمشق ترى فيه خطراً. وفي أيام معدودة، دخل لبنان الآلاف من القوات السورية ذات الخبرة وبدأت تقترب من الحدود الإسرائيلية. وسرعان ما اكتشف المسيحيون أنهم على حد تعبير كيمحي «فعلوا ما فعلته ذات الرداء الأحمر من دعوة الذئب».

وهرول مسيحيو لبنان مرة أخرى طالبين مساعدة الموساد. وهنا أدرك كيمحي أن شبكته المحكمة للإمداد بالسلاح لم تعد كافية. فالمطلوب عملية إمداد إسرائيلية واسعة النطاق. فأرسلوا للمسيحيين عشرات الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات وغيرها من الأسحلة. وهنا أفلت زمام الحرب الأهلية بلبنان. واغتنم كيمحي الفرصة ليرسل محاربيه ضد منظمة التحرير الفلسطينية، عدو إسرائيل اللدود. وامتدت المعارك حتى شملت الهجوم على الشيعة، وتحول لبنان إلى ميدان يطور فيه الموساد أساليبه في مجال الاغتيالات والحرب النفسية، وأصبح

مهرجاناً يرتع فيه عملاء ذلك المبنى الذي لا طابع له والواقع في شارع الملك شاؤول.

وتدهورت العلاقات بين كيمحي وإسحق حوفي وكثر الهمس عن اختلافاتهما العنيفة حول العمليات، وعن خوف حوفي من أن يطمح كيمحي في وظيفته. وشعور كيمحي بأن إنجازاته لا تحظى بالتقدير اللائق بها. وإلى يومنا هذا يرفض كيمحي مناقشة تلك الأمور، ويكتفي بالقول بأنه «يأبى أن يعلق على مثل هذا الإشاعات».

وفي صباح يوم من أيام ربيع ١٩٨٠ م، استخدم كيمحي بطاقته التي تسمح له بالدخول في أي مكان بالمبنى، التي حلت محل المفتاحين القديمين، ودخل مكتبه حيث أخبروه أن إسحق حوفي يريد مقابلته على الفور، فتوجه عبر الردهة نحو مكتب المدير العام وطرق الباب ثم دخل موصداً إياه وراءه.

تحول ما دار بين الرجلين إلى أسطورة من أساطير الموساد، إلى قصة ارتفعت فيها الأصوات، وعن اتهامات مضادة ودامت المشادة عشرين دقيقة مفعمة بالتوتر، ثم خرج كميحي من المكتب متجهماً، فحياته المهنية في الموساد انتهت. إلا أن نشاطه في مجال الاستخبارات لصالح إسرائيل كان على أعتاب ميدان مألوف له ألا وهو الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكن تتعلق المسألة في هذه المرة بسرقة مواد نووية، وإنما بتفجير ما عرف فيما بعد بفضيحة «إيران جيت».

بعد تفكير عميق في مستقبله، قبل دافيد كيمحي منصب المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية، وهو منصب يتناسب وقدرته على حل المشاكل، وفرصة ليستخدم مهاراته على مسرح الأحداث الدولية الذي يتعدى مسرح الأحداثِ اللبنانية بكثير.

وكانت محنة الرئيس نيكسون و «ووترجيت» قد اقتربت من نهايتها المحتومة في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن ألقت على وكالة المخابرات الأمريكية بسحابات من الشك لم يسبق لها مثيل منذ مقتل الرئيس كيندي، إذ توالت الحقائق عن نشاط الوكالة في عهد رئاسة نيكسون.

وعكف كيمحي على دراسة كافة جوانب الدراما، «لاستيعاب كل الدروس التي تستخلص من تلك الفضيحة التي لم يكن من المفروض أن تحدث. فخلاصة القول أن نيكسون كان يجب أن لا يحتفظ بالتسجيلات، ولولا ذلك لظل رئيساً».

أما أحداث إيران التي ظلت دائماً موضع اهتمام إسرائيل الدائم، فقد شغلت كيمحي الذي صدم، بعد سيطرة الخميني وأعوانه على الأوضاع، عندما رأى مدى سوء تقدير المخابرات المركزية الأمريكية والإدارة الأمريكية للموقف. وكان رونالد ريجان قد دخل البيت الأبيض رئيساً جديداً ومعه فجر يوم جديد لوكالة المخابرات المركزية. فقد علم كيمحي من مصادره في واشنطن أن الوكالة وعلى رأسها وليم كيس، ستصبح «الورقة الخفية» في سياسة ريجان الخارجية وشعر كيمحي بأن كيسي ليس بصديق، ولكنه شخص يمكن التغلب عليه بالحيلة أن اقتضى الأمر ذلك.

وعلى مدى السنتين التاليتين تابع كيمحي عمليات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في أفغانستان وأمريكا الوسطى باعتبار ذلك جزءاً من عمله. وكان حكمه على معظم تلك العمليات بأنها «ساذجة»، تجمع بين أسلوب بال لجمع المعلومات واغتيالات بالغة الفظاظة. ثم أصبحت إيران وما حدث في بيروت محط اهتمام كيمحي من جديد.

بعد أن تولى مهام منصبه في وزارة الخارجية ببضعة شهور، بدأت إسرائيل تمد إيران بالسلاح، بتأييد صامت من أمريكا، لمساعدتها على إضعاف النظام الحاكم في بغداد ـ ففي ذلك جزء من تكتيك إسرائيل التليد الذي كان كيمحي يسميه «الإمساك بالعصى من الطرفين». وبعد مرور ثلاث سنوات، تغير الموقف بفعل حدثين: فقد أودى انفجار سيارة ملغومة في بيروت بحياة ٢٤١ من أفراد مشاة البحرية الأميركية والشك الأميركي المتزايد في أن الموساد لم تكن لديها فقط معلومات مسبقة عن الهجوم، بل أن الاستخبارات الإيرانية ساهمت في الإعداد له. وبدأ الضغط على إسرائيل لتكف عن إمداد طهران بالسلاح، وتصاعد الضغط بعد اختطاف وتعذيب وقتل وليم باكلي مسؤول مكتب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت. ثم اختطاف سبعة من الأمريكيين على التوالي على يد جماعات موالية لإيران، احتفظت بهم كرهائن.

فإدارة ريجان جاءت إلى السلطة بوعد أنها سوف تضرب الإرهاب بيد من حديد، واتسمت تصريحاتها دائماً بالحسم إزاء الإرهاب، لذا فإنها لم تكن تحتمل احتجاز رهائن أمريكيين تحت أنقاض بيروت. ولكن الانتقام غير ممكن، فقد رفض أكثر أعوان ريجان تشددا اقتراحه بشن غارات انتقامية تلقي القنابل على طهران. ورأي فرقة القوات الخاصة (دلتا فورس) أن أي عملية إنقاذ ستفشل بدورها.

وفي لقاء بين الرئيس ريجان وروبرت ماكفارلن، مستشاره لشؤون الأمن القومي والضابط السابق بالبحرية، دار بينهما الحديث الآتي، حيث رواه ماكفارلن لكيمحي فيما بعد:

ـ «ما هي أهم احتياجات إيران، يا سيدي الرئيس؟».

- «أخبرني أنت يا بوب».

- «الأسلحة اللازمة لمحاربة العراق».

- «فلنعطهم ما يريدون ولنسترد مواطنينا».

وعلى الرغم من رأي كيسي وغيره من مسؤولي المخابرات الأمريكية، ارتأى ريجان ومعه ماكفارلن بأن تسليح إيران سيدفع بزعمائها إلى الضغط على مجموعة بيروت للإفراج عن الرهائن، كما سيحسن علاقات الإدارة الأمريكية بطهران ويضعف من موقف موسكو في إيران. وهكذا ألقيت بذور ما عرف في ما بعد بـ «فضيحة إيران جيت».

عهد إلى العقيد البحري أوليفر مورث بمهمة إمداد إيران بالسلاح. وقرر نورث ومعه ماكفارلن استبعاد وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من مخططاتهما، فكلاهما يؤمن بالفعل لا بالقول، وهو تفكير أثبت فعاليته بالنسبة لهما في حرب فيتنام، وسمعا أيضاً أن الإسرائيليين يؤمنون بنفس المنطق.

لذا رأى أوليفر نورث أنه: «آن الأوان لضم إسرائيل إلى المخطط». وزاد من اقتناع نورث بالفكرة تطلعه، وهو المسيحي العميق الإيمان، لزيارة الأراضي المقدسة والسير حيث سار السيد المسيح.

ورأى رئيس الوزراء الإسرائيلي، إسحق شامير، أن شخصاً واحد هو القادر على معالجة طلب واشنطن - مع مراعاة مصالح إسرائيل. لذلك طار دافيد كيمحي في الثالث من شهر يوليو (تموز) ١٩٨٣ م إلى واشنطن - ليقابل ماكفارلن في البيت الأبيض، مؤمناً، هو الآخر، بأن «السلاح مقابل الرهائن» ستكلل بالنجاح. وسأله كيمحي عن مدى

مشاركة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «فنفى ماكفارلن مشاركتها الفعالة». وبالتالي سأله ماكفارلن عن مدى استعداد الموساد للمشاركة في التحركات المزمعة، قائلاً: «في نهاية الأمر، رجال الموساد هم الذين يقومون بكل أعمالكم الخفية في الخارج» وأخبره كيمحي أن إسحق رابين، وزير الدفاع آنذاك، وكذلك شامير، قررا استبعاد الموساد من الموضوع وترك الأمر له شخصياً. فأبدى ماكفارلن موافقته. ولم يكن كيمحي قد أخبره بأن ناحوم أدموني، رئيس الموساد، يشارك وليم كيسي مخاوفه بشأن ما يحيط بالصفقة من أخطار عملية.

وقاد ماكفارلن سيارته إلى مستشفى «بيثيسدا» البحري حيث كان يرقد ريجان للنقاهة من جراحة في القولون. وسأله الرئيس سؤالاً واحداً: هل يضمن كيمحي حفاظ إسرائيل على سرية الصفقة؟ إذ أن تسرب أخبارها قد يضر علاقات الولايات المتحدة بالدول العربية الأكثر اعتدالاً التي تشعر بالخوف من تطرف طهران. ويروي كيمحي أن ماكفارلن طمأن ريجان بأن «إسرائيل ستسد كافة منافذ التسرب». بذلك تمت الموافقة على الصفقة وطار كيمحي إلى إسرائيل ليعود بعدها بأسبوعين إلى واشنطن ويعرض خطته على ماكفارلن وهما يتناولان العشاء، ويتذكر كيمحي تفاصيل الحديث كالآتي:

«هل أخبرك أولاً بالأنباء السارة أم بالأنباء السيئة؟».

وأجاب ماكفارلن: «بالسارة أولاً».

«سوف ننقل لكم الأسلحة مستخدمين نفس الطرق التي سلكناها من قبل».

ـ «موافق».

وبذلك ضمن كيمحي عدم قيام اتصال مباشر بين الولايات

المتحدة وإيران، حفاظاً على مظهر عداء الإدارة الأمريكية للإرهاب وعلى حظرها إرسال الأسلحة إلى إيران، بحيث لا يبدو، بعد الإفراج عن الرهائن، أن أمريكا استبدلتهم بالأسلحة.

ثم استطرد ماكفارلن: «ما هي الأخبار السيئة؟».

فأخبره ضيفه أن مصادره المطلعة في إيران لا تضمن استطاعة أئمة إيران التوصل إلى إطلاق سراح الرهائن، لأن «المتطرفين أفلتوا من سيطرة طهران». ولم يفصح ماكفارلن عن شعوره بخيبة الأمل. وفي اليوم التالي، وفي مكتب الرئيس الأمريكي بالبيت الأبيض، حذر وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز الرئيس ريجان من خطورة المجازفة. فماذا لو استولى الإيرانيون على الأسلحة ثم أعلنوا عن الصفقة ليحرجوا الولايات المتحدة التي أطلقوا عليها اسم «الشيطان الرجيم»؟ ألا يدفع ذلك العراق إلى المزيد من الارتباط بالمعسكر السوفيتي؟ وماذا عن الرهائن؟ فإن وضعهم قد يزداد سوءاً. واستمرت المناقشات طوال الصباح، فلما جاء موعد تناول الغداء، بدأ ريجان مرهقاً. فلما جاء قراره، جاء فجأة. وافق الرئيس على الاقتراح بتعويض إسرائيل عن كل الأسلحة التي تبيعها لإيران. وعاد كيمحي إلى إسرائيل مرة أخرى بعد أن أعطوه الضوء الأخضر. ولكن شامير أصر على ضرورة اتخاذ كل التدابير الممكنة حتى يستطيع «إنكار أي صلة بالموضوع إذا ما نشأت أي مشكلة». لذلك جمع كيمحي مجموعة من الشخصيات المتباينة لضمان السرية: ومنها: عدنان خاشقجي، المليونير السعودي الذي اعتاد أن يأكل الكافيار بكميات كبيرة والمعروف بإعجابه بأحدث فتيات الغلاف، ومنوشهر غوربانيفر، العميل السابق بجهاز البوليس السري «السافاك» التابع لشاه إيران، الذي ما زال يتصرف كالجواسيس ويطلب اللقاءات في منتصف الليالي. وكذلك ياكوف نمرودي، الشخص الغامض

والذي كان يوجه عملاء يعملون لحساب المخابرات العسكرية الإسرائيلية. وعمل كملحق عسكري لإسرائيل في إيران، في عهد الشاه. وكان يصاحبه دائماً إلى شفيمر، مؤسس صناعة الطائرات في إسرائيل.

وتوسط خاشقجي في صفقة كانت إيذاناً بكل ما حدث بعد ذلك. فهو الذي تراس مجموعة من رجال الأعمال تكفلت بتعويض الولايات المتحدة إذا لم تحترم إيران التزاماتها. وهي أيضاً التي ستحمي إيران إذا جاءت الأسلحة مغايرة للمواصفات. وفي مقابل تلك الضمانات، تحصل المجموعة على ١٠ في المائة من سعر شراء الأسلحة بالمبالغ النقدية التي تتكفل بها الولايات المتحدة. كما تضمن المجموعة مصداقية الإيرانيين والحكومة إذا ما تعقدت الأمور. وكان مفهوماً للجميع إن هذه المجموعة سوف تعمل أولاً وأخيراً بهدف الربح، وخارج نطاق أي سيطرة سياسية.

وفي أواخر شهر أغسطس (آب) من عام ١٩٨٥ م، هبطت في طهران طائرة تحمل أول شحنة سلاح من إسرائيل. وفي يوم ١٤ سبتمبر (أيلول) تم في بيروت إطلاق سراح القس بنجامين وير، أول الرهائن. ومع تسارع الوتيرة، انضمت إلى المجموعة شخصيات أكثر غرابة، منها مايلز كوبلاند، الضابط السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذي أرسل عملاءه إلى طهران، عشية سقوط شاه إيران، يوزعون العملات من فئة المائة دولار على كل من يجرؤ على الهتاف بحياة الشاه. ومنها أيضاً ضابط سابق في خدمات الطيران الخاصة، له شركة في لندن قدمت للموساد خدمات غير معروفة. أما واضعو السياسة في إسرائيل وواشنطن، فقد أداروا ظهورهم، سعداء بأن العملية بدأت بالفعل في وضح النهار ولم يكن العالم قد عرف عنها شيئاً بعد.

هكذا حصلت إيران على ١٢٨ دبابة أمريكية، ومائتي ألف صاروخ من طراز كاتيوشا استولت عليها إسرائيل في الجنوب اللبناني، وعشرة آلاف طن ذخيرة مختلفة الأعيرة، وثلاثة آلاف صاروخ جو ـ جو، وأربعة آلاف بندقية ونحو خمسين مليون رصاصة.

ومن مطار ماراما الحربي في ولاية أريزونا، أقلعت طائرات تحمل أكثر من أربعة آلاف صاروخ من طراز تاو، متجهة إلى جواتيمالا من حيث تبدأ رحلتها الطويلة إلى تل أبيب. ومن بولندا وبلغاريا، أرسلت سبعة آلاف من صواريخ أرض ـ جو من طراز سام ٧ ومعها ألف بندقية من طراز ٤٧ ـ AK ووردت الصين المئات من الصواريخ بحر ـ بحر المعروفة بـ «دودة القز»، ومعها سيارات مصفحة وحاملات القوات الصالحة أرضاً وبحراً. كما أرسلت السويد طلقات ١٠٠ مم، وبعثت بلجيكا صواريخ جو ـ جو. وصاحبت كل هذه الأسلحة شهادات بأن إسرائيل هي التي سوف تستفيد منها. وكانت المجموعة قد أعدت الترتيبات اللازمة لتأمين نقل تلك الأسلحة على متن طائرات مستأجرة، تقلع في اتجاه إيران من القواعد العسكرية لقوات الدفاع الإسرائيلي في صحراء النقب، وتتقاضى مجموعة رجال الأعمال هذه أجرها عن كل شحنة، من الأموال التي تحتفظ بها إيران في مصارف سويسرا. ووصلت هذه المبالغ إلى ٧ ملايين دولار، بينما لم تحصل إسرائيل على أي مكافأة مالية، بل قنعت بتضاعف قدرة إيران على قتل المزيد من العراقيين في الحرب الضروس الدائرة بينهما. أما كيمحي فقد رأى في كل العملية مثالاً إضافياً لسياسة «فرق تسد» التي طالما آمن بها.

ومع ذلك، كان يشعر في قرارة نفسه أن ما بدا «كعملية سهلة»، على وشك الإفلات من السيطرة، إذ كان يعتقد أن «المجموعة يسيطر

عليها تماماً صنف غير مناسب من الرجال». وذلك على الرغم من أنه أثبت سياسة إسرائيل الواقعية: استعدادها لمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفتها أن بقاءها يتوقف على دعم واشنطن لها في مجالات أخرى. كما أن أنشاءها أثبت أن إسرائيل قادر على التحرك في الساحة العالمية. مع الاحتفاظ بالسرية.

وكلما امتدت صفقة السلاح في مقابل الرهائن، شعر كيمحي بأن فرص انكشافها تزداد. فأخبر المجموعة في ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٩٨٥ م بأنه لا يستطيع الاستمرار معهم في أنشطتهم ـ متذرعاً بكثرة أعبائه في وزارة الخارجية.

فأعربت له المجموعة عن شكرها على مساعدته، ونظمت له حفل وداع في فندق من فنادق تل أبيب، حيث أخبروه أن أميرام نير، مستشار شيمون بيريز لشؤون الإرهاب، سيحل محله. ويحكي كيمحي في ما بعد أن تلك هي اللحظة التي بدأت فيها الصفقة انحدارها نحو الهاوية، لأن نير كان أفضل من يخرج بها عن مسارها، وهو الصحافي القديم الذي كان يعتبر الاستخبارات جزءاً من عالم روايات جيمس بوند التي يحبها، وبالتالي كان يشارك بعض رجال الموساد نقطة ضعف قاتلة، ألا وهي الاعتقاد بأن الصحافيين لهم فوائدهم...

الفصل الثامن:

(أوراق الوحش)

منذ إنشاء الدولة اليهودية، وهناك حالة حرب رسمية بين إسرائيل والعراق. كانت إسرائيل تشعر بالثقة في قدرة قواتها على كسب حرب تقليدية. ولكن في ١٩٧٧ م، اكتشف الموساد أن الحكومة الفرنسية ـ التي زودت إسرائيل بقدراتها النووية ـ قدمت أيضاً للعراق مفاعلاً و «مساعدات فنية». وكان موقع المفاعل في منطقة التويثة، شمال مدينة بغداد.. وراحت القوات الجوية الإسرائيلية تخطط لكيفية ضرب الموقع بالقنابل، قبل أن يصبح «ساخناً» بوضع قضبان اليورانيوم في قلب المفاعل. ذلك أن ضربه في هذه الحالة، يمكن أن يتسبب في خسائر ضخمة في الأرواح، وينشر التلوث، ويحيل مدينة بغداد ومناطق شاسعة من العراق إلى صحراء تموج بالإشعاع، مما يجلب على إسرائيل إدانة عالمية.

ولهذه الأسباب، عارض «إسحاق حوفي»، رئيس الموساد آنذاك، الغارة الجوية على موقع المفاعل من منطلق أنها ستسفر في جميع الأحوال، عن ارتفاع عدد القتلى بين الفنيين الفرنسيين. وسيؤدي ذلك إلى عزل الدول الأوروبية لإسرائيل التي تحاول إقناعها بنياتها السلمية. كما أن قصف المفاعل سيقضي أيضاً، وبشكل فعال، على المناورات الدقيقة لإقناع مصر بتوقيع معاهدة السلام.

وجد «حوفي» نفسه يرأس جهازاً منقسماً على نفسه، إذ رأى عدد من رؤساء الإدارات لديه، أنه ليس ثمة بديل، إلا تحييد المفاعل، وأن صدام عدو غاشم، متى ما توفر لديه السلاح النووي فلن يتردد في استخدامه ضد إسرائيل. ثم منذ متى كانت إسرائيل تهتم اهتماماً كبيراً باكتساب أصدقاء لها في أوروبا؟ أن اميركا كل ما يهمها، وكان الهمس القادم من ناحية أميركا، هو أن تدمير المفاعل، لن يسفر عن أكثر من ضربة على يد إسرائيل، من جانب الإدارة الأميركية.

وقد حاول «حوفي» أن يسلك مساراً مغايراً، إذ اقترح أن تمارس الولايات المتحدة، ضغطاً دبلوماسياً، لحمل فرنسا على وقف تصدير المفاعل. لكن واشنطن تلقت رفضاً مهذباً من باريس. فلجأت إسرائيل حينئذٍ إلى أسلوب العمل المباشر، حينما أرسل «حوفي» مجموعة من الأفراد الميدانيين (الكاتسا) لتدمير المصنع الفرنسي في منطقة «لا سيين سور مير» بالقرب من مدينة طولون، حيث كان يتم بناء المفاعل العراقي. وقد تم تدمير المفاعل من قبل منظمة لم يسم عنها أحد من قبل تسمى «جماعة البيئة الفرنسية»، وكان «حوفي» قد اختار بنفسه هذا الاسم.

وبينما بدأ الفرنسيون بناء مفاعل جديد، أرسل العراقيون «يحيى المشد» عضو هيئة الطاقة الذرية العراقية، إلى باريس لترتيب إجراءات شحن الوقود النووي إلى بغداد. وقد أرسل «حوفي» فريقاً من الكيدون (أعضاء مجموعة الاغتيالات بالموساد) لاغتيال يحيى المشد. وقد تسلل شخصان من الفريق إلى غرفة المشد، بينما كان الآخرون يراقبون الشوارع المحيطة بالفندق، وذبحاه وطعناه في القلب وتمت بعثرة محتويات الغرفة ليبدو الأمر كما لو كان حادث سرقة. وقد أبلغت إحدى المومسات في غرفة مجاورة، الشرطة بأنها قدمت خدماتها إلى «العالم»

قبل موته بساعات: ولما توجهت بعد ذلك إلى زبون آخر في غرفة مجاورة، سمعت «حركة غير عادية» في غرفة المشد. وبعد ذلك بساعات قتلت في حادث سيارة. ولم يعثر للسيارة التي صدمتها على أثر. ولحق فريق الكيدون بطائرة العال المتجهة إلى تل أبيب.

وعلى الرغم من هذه الضربة الجديدة فإن العراق ـ بمساعدة فرنسا ـ واصل برنامجه لكي يصبح قوة نووية وفي تل أبيب واصلت القوات الجوية الإسرائيلية استعداداتها الخاصة، بينما كان رؤساء إدارات المخابرات لا يزالون في جدل مع «حوفي» بسبب معارضته المستمرة. ووجد رئيس الموساد تحدياً من أحد الأشخاص الذين لم يتوقع منهم ذلك، وهو نائبه «ناحوم أدموني» الذي رأى أن تدمير المفاعل ليس بالأمر المهم في ذاته، ولكنه سوف «يلقن العرب الآخرين الذين لديهم طموحات أو تساورهم أحلام كبيرة، درساً لن ينسوه».

وبحلول أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٨٠ م، كانت مناقشة موضوع ضرب المفاعل، الشغل الشاغل لكل اجتماع من اجتماعات مجلس الوزراء برئاسة مناحيم بيجن. وكان يعاد استعراض الحجج والآراء المعروفة. وشيئاً فشيئاً أصبح «حوفي» هو الصوت الوحيد المعارض للهجوم. ومع ذلك، واصل معارضته بكل ما يملك، وقدم دراسات موقف جيدة، مدركاً أنه كان يكتب نعيه مهنياً.

لم يعد أدموني يخفي احتقاره لموقف «حوفي». وأصبح الرجلان اللذان كانا صديقين حميمين، مجرد زميلين يعتري علاقتهما الفتور. ومع ذلك، فقد استغرق الأمر ستة أشهر أخرى من الصراع المرير بين رئيس الموساد المحاصر وبين كبار المسؤولين لديه في الجهاز، قبل أن توافق هيئة الأركان العامة للجيش على الهجوم في ١٥ مارس (آذار) سنة ١٩٨١ م.

كان الهجوم نموذجاً رائعاً للعمل التنفيذي، فقد أقلعت ثماني طائرات قاذفة مقاتلة، من طراز F - 16 تحرسها ست طائرات قتال ـ اعتراضية من طراز F -15 على ارتفاع منخفض عبر الصحراء الأردنية، قبل أن تشق طريقها إلى العراق، ووصلت إلى هدفها في اللحظة المخطط لها، أي في الساعة ٥,٣٤ بعد الظهر بالتوقيت المحلي، بعد دقائق من انصراف فريق التشييد الفرنسي. وكان إجمالي الخسائر بالنسبة للأجانب ٩ أفراد. وقد تم تحويل المعمل النووي إلى حطام وأنقاض، وعادت الطائرات سالمة. وأسدل الستار على عمل «حوفي» في الموساد، وحل محله «أدموني».

وفي صباح أحد الأيام من شهر أبريل سنة ١٩٨٨ م ـ كان من الممكن لسماسرة السلاح في بهو الفندق ـ الذين كانوا في مثل هذا اليوم قبل سبع سنوات يواسون مضيفيهم العراقيين المصدومين بسبب الضربة الإسرائيلية قبل أن يبيعوا للعراق أجهزة رادار حديثة ـ أن يعتريهم الذهول، لو عرفوا أن في الفندق عميلاً للموساد، يلاحظ بهدوء أسماء سماسرة السلاح، وأنواع الأسلحة التي يبيعونها.

وقبل ذلك بساعات في نفس هذا اليوم، يوم الجمعة، توقفت أعمال الصفقات لفترة قصيرة عند وصول سبعاوي التكريتي، مدير الأمن العام العراقي، ترافقه مجموعة من أفراد حرسه الخاص. وقد توجه الأخ غير الشقيق لصدام حسين إلى المصعد، في طريقه إلى أحد الأجنحة في الطابق العلوي، حيث كانت تنتظره مومس طويلة ممتلئة الصدر، نقلت إليه بالطائرة خصيصاً من باريس. وكان المبلغ المدفوع لهذه الغانية كبيراً لما ينطوي عليه عملها من مخاطر كبيرة. فقد اختفت بعد ذلك.

وقد غادر مدير الأمن الفندق عصر ذلك اليوم. وبعد ذلك بوقت قصير، خرج شاب طويل من الجناح الملاصق لجناح المومس. وكان هذا الشاب يرتدي جاكيت زرقاء من القطن، وبنطلون كاكي. وكان يتمتع

بقدر من الوسامة، الاقرب للأنوثة. وكان من عاداته العصبية أن يفتل شاربه بين الفينة والأخرى، أو يحك وجهه بيده، وهو الأمر الذي أدى إلى زيادة حساسيته للنقد.

كان اسمه «فرزاد بازوفت». وفي البيانات التفصيلية المدونة في استمارة التسجيل بالفندق التي توسل نسخة منها بشكل روتيني إلى مكتب «سبعاوي»، وصف «بازوفت» نفسه بـ «كبير المراسلين للشؤون الخارجية» لصحيفة الأوبزيرفر، الإنجليزية الاسبوعية. بيد أن هذا الوصف غير دقيق، فقد كان يسمح للمراسلين الصحافيين من هيئة تحرير الصحيفة فقط الذين يكلفون مهام في الخارج، بأن يطلقوا على أنفسهم «مراسل شؤون خارجية». أما «بازوفت» فقد كان صحافياً بالقطعة أمدّ «الاوبزيرفر» طيلة السنة الماضية بعدة موضوعات عن الشرق الأوسط. وكان «بازوفت» قد اعترف لبعض المراسلين من مؤسسات صحافية أخرى، كانوا معه في نفس الرحلة إلى بغداد، بأنه ينتحل دائماً صفة كبير مراسلي الشؤون الخارجية للأوبزيرفر، في رحلاته إلى بعض البلاد مثل بغداد، لأن ذلك يضمن له الحصول على أفضل الغرف المتاحة في الفندق. وهذا الإختلاق غير الضار، إنما هو دليل آخر على حبه للحركات الصبيانية.

غير أن الأمر الذي لم يكن يعرفه زملاؤه في الجريدة، والجانب الخفي في شخصية بازوفت، والأمر الذي يمكن أن يعرضهم للخطر إذا تم الشك في تورطهم في السبب الحقيقي لوجوده في بغداد كان بازوفت جاسوساً للموساد.

وكان قد تم تجنيده بعد وصوله، إلى لندن من طهران، قبل ثلاث سنوات، لأن حياته كانت معرضة للخطر، بسبب آرائه الصريحة أكثر من

اللازم، عن نظام الخميني. ولقد وجد بازوفت ـ شأنه شأن كثيرين قبله ـ أن لندن مدينة غريبة والشعب الإنجليزي شعب متحفظ لذا حاول أن يجد لنفسه دوراً بين الجالية الإيرانية في المنفى، وكان موضع ترحيب على موائد العشاء لدى الجالية، لفترة ما، بسبب درايته الواسعة بالتركيبة السياسية الموجودة في طهران. ولكن رؤية نفس الوجوه المألوفة سرعان ما سببت نوعاً من الملل والكآبة، لهذا الشاب الطموح النشط.

وراح بازوفت يتلفت حوله بحثاً عن موضوع أكثر إثارة من مجرد تحصيل خبر من طهران. فبدأ يجري اتصالات مع عدو إيران: العراق. وفي منتصف الثمانينيات كانت هناك أعداد كبيرة من العراقيين في لندن. وكانوا موضع ترحيب كزائرين، لأن نظرة بريطانيا للعراق، لم تكن فحسب نظرة إلى بلد مستورد كبير للسلع البريطانية، ولكن كذلك إلى بلد، سيحطم ـ تحت قيادة صدام حسين ـ الأصولية الإسلامية الخطيرة لنظام الخميني.

ووجد بازوفت نفسه في الحفلات العراقية «كمن يغني من أجل عشائه». وكان مضيفوه الجدد أكثر هدوءاً، وكانوا أكثر تحرراً من الإيرانيين. ومن ناحيتهم فقد أسرتهم خصاله السمحة ونكاته التي لا تنتهي عن آيات الله في طهران.

وكان هناك رجل أعمال عراقي في إحدى هذه الحفلات، يدعى أبو العبيد، الذي كان ينصت إلى بازوفت ـ المرة تلو الأخرى وهو شبه ثملاً في نهاية السهرة ـ وهو يعلن بإصرار عن طموحه الغلاب، في أن يصبح صحافياً، وكيف أن مثله الأعلى كان يجده في صحافيين هما «بوب وودورد» و «كارل برنشتاين» اللذين أسقطا الرئيس نيكسون. ولقد ذكر بازوفت لأبي العبيد، أنه سيموت سعيداً، لو استطاع أن يسقط آية الله

الخميني. وكان بازوفت حتى الآن يساهم ببعض المقالات في جريدة إيرانية محدودة الانتشار. توزع على الإيرانيين في المنفى، بريطانيا.

وكان أبو العبيد هو الاسم المستعار، لأحد عملاء الموساد من الكاتسا من المولودين في العراق. وقد ضمن تقريره التالي إلى تل أبيب، إشارة عن «بازوفت»، وعمله الحالي، وطموحاته. ولم يكن ثمة شيء غريب في هذا الأمر، حيث تقدم مئات الأسماء كل أسبوع، بحيث يجد كل اسم مكانه في بنك معلومات الموساد.

إلا أن ناحوم أدموني كان يتولى إدارة جهاز الموساد، ويهتم بتطوير اتصالاته في العراق. ولقد صدرت تعليمات لرجل الموساد في لندن، باستقطاب بازوفت. وفي جلسات العشاء، كان بازوفت يشكو لأبو العبيد، من أن رئيس التحرير لا يستفيد استفاد كاملة من إمكانياته. فاقترح عليه مضيفه بأن يحاول الدخول في خضم الصحافة الإنجليزية. وأبلغه أن ثمة وظيفة لمخبر صحافي ذي مهارات لغوية عالية، ومعرفة بأحوال إيران. واقترح العبيد أن تكون الإذاعة البريطانية هي نقطة الانطلاق.

كان هناك العديد من السيانيم (عملاء أجانب غير متفرغين) في هيئة الإذاعة البريطانية. كان هناك عدد من العملاء، تتضمن مهامهم رصد ومتابعة البرامج التي ستذاع عن إسرائيل. ومراقبة الأشخاص الذين يتم الاستعانة بهم للعمل في قسم الإذاعة العربية. أما إذا كان أي سيان قد ساهم مساهمة مباشرة في تعيين بازوفت في الإذاعة البريطانية فدوره لن يعرفه أحد على الإطلاق. ولكن بعد لقاء بازوفت بالعبيد مباشرة، تم تكليفه مهمة باحث في الـ BBC. وقام بذلك خير قيام، وتلت ذلك أعمال أخرى. ووجد الصحافيون أنه يمكنهم الوثوق بتحليلات وتفسيرات «بازوفت» بشأن الأحداث الغامضة في طهران.

وفي تل أبيب، قرر «أدموني» أنه قد حان الوقت لاتخاذ الخطوة التالية. ومع سرعة إيقاع وقائع الكشف عن فضحية «إيران جيت» في الولايات المتحدة، قرر رئيس الموساد ـ عن عمد ـ كشف الأدوار في فضيحة «يعقـوب نمـرودي» التي أخذت رائحتها تفوح بسرعة شديدة. وهو عميل سابق كان يعمل في عمان، وكان نمرودي عضواً في مجموعة أنشأهـا ديفيد كيمحي. وباستخدام خبرته السابقة في المخابرات، حرص على إبعاد الموساد عما كان يجري. وحينما بدأت صفقة الأسلحة مقابل الرهائن، كان نمرودي ـ وهو رجل ماكر سريع البديهة ـ قد دفع وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز إلى القول: «إن جدول أعمال إسرائيل، ليس هو جدول أعمالنا، وأن إقامة علاقات تخابرية مع إسرائيل بشأن إيران، قد لا تكون هي العلاقات التي نستطيع أن نعتمد عليها تماماً».

وحينما سحب كيمحي المجموعة، ظل نمرودي موجوداً لفترة أطول. ولكن عندما علت الأصداء القادمة من واشنطن، وأصبحت أكثر إحراجاً لإسرائيل، اختفى العميل السابق. أما أدموني ـ وهو يستشعر الألم من الطريقة التي عامل بها نمرودي الموساد ـ فقد كانت لديه خطط أخرى: إحراج نمرودي علناً، وفي الوقت ذاته يوطد أقدام بازوفت في عمله ويعطيه دفعة إلى الأمام، بحيث يتمكن من خدمة الموساد بشكل أفضل.

وقد قدم أبو العبيد معلومات تفصيلية كافية إلى بازوفت، بحيث أدرك بأن هذه يمكن أن تكون ضربته الكبرى صحافياً. فأخذ الموضوع إلى جريدة الأوبزيرفر. وتم نشره مع الإشارة إلى «إسرائيلي غامض ـ نمرودي ـ متورط في فضيحة إيران جيت». وبعد ذلك مباشرة أصبح بازوفت يساهم في الكتابة بانتظام في الأوبزيرفر.

وفي النهاية تم تقديم مكافأة قيمة لا تقدم عادة لأحد من خارج هيئة تحرير الجريدة، حيث خصص له مكتب شخصي، الأمر الذي يعني أنه لم يعد يضطر إلى دفع قيمة مكالماته التليفونية، لمتابعة وقائع موضوع صحافي معين من بيته. وأن من حقه المطالبة بنفقات الضيافة. ولكن ما كان يتقاضاه بازوفت حتى الآن، لا يتعدى قيمة الموضوعات التي تنشر في الصحيفة. ومن ثم كان أحد الحوافز لديه هو البحث عن موضوعات أكثر، لكي يشق طريقه بقوة في أية رحلة إلى الشرق الأوسط ففي حالة السفر، سوف يعيش على ما يتقاضاه من نفقات كاملة، شأنه شأن جميع المراسلين، ويصبح باستطاعته ـ عن طريق التلاعب والتحايل ـ الحصول على بعض الأموال الإضافية فوق ما أنفقه بالفعل، ويمكن أن تتحسن أحواله فعلاً. إن عدم وجود أموال كافية لدى بازوفت، كان مشكلته الدائمة، وهو الشيء الذي كان حريصاً على إخفائه عن زملائه في الأوبزيرفر. ولم يكن أحد يشك على الإطلاق، في أن المراسل الذي يقضي ساعات يتحدث في التليفون باللغة الفارسية مع آخرين، كان لصاً مداناً، فقد أمضى بازوفت ثمانية عشر شهراً في السجن بعد سطوه على إحدى جمعيات الإسكان. وكان القاضي قد أمر ـ بعد تنفيذ الحكم ـ بترحيل بازوفت خارج البلاد، بعد إطلاق سراحه. ولكن بازوفت قدم التماساً بالتجاوز عن الترحيل، لأسباب منطقية تتعلق بإعدامه في حالة إعادته إلى إيران. وعلى الرغم من رفض الالتماس فإنه منح «تصريحاً استثنائياً» بالبقاء في بريطانيا. وظلت الأسس التي صدر بناء عليها هذا الاستثناء الغريب، حبيسة في خزائن وزارة الداخلية.

وليس من المعروف على وجه القطع، ما إذا كان الموساد ـ والذي رصد إمكانيات بازوفت وقدراته ـ قد استخدم أحد «السايان»

المزروعين جيداً في وايت هول (مقر الحكومة البريطانية)، لتسهيل الأمور. وعلى أية حال، فإنه لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال.

وبعد إطلاق سراح بازوفت من السجن، بدأ يعاني نوبات من الإحباط، كان يستخدم في علاجها العلاج المثلي. وكشف هذه المعلومات أحد رجال الموساد من الكاتسا. وذكر كاتب إنجليزي وهو روبرت اليسون وكان عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين وخبيراً معترفاً به في أساليب تجنيد العملاء في المخابرات: «أن شخصية مثل شخصية بازوفت تجعله هدفاً رائعاً للموساد».

وقام أبو العبيد بتجنيد بازوفت، بعد سنة من لقائهما الأول. ولكن كيف وأين تم ذلك؟.

لقد ظل الأمر مجهولاً. ومن المؤكد أن الحصول على أموال إضافية، كان أحد الاعتبارات لدى بازوفت الذي كان لا يزال يعاني من شحة المال. وبالنسبة لشخص كان كثيراً ما ينظر إلى الحياة من منظور الإثارة، وكان من بين أحلامه التطلع للحياة في الخارج، وأن يكون جاسوساً على خطى مراسل أجنبي آخر، كان محط إعجابه هو كيم فيلبي، الذي عمل أيضاً مراسلاً لصحيفة الأوبزيرفر كغطاء لعمله كجاسوس لحساب السوفيت. كل هذه الأمور تدخل في حساب العوامل التي ساعدت على تجنيده.

إلا أن الأمر المؤكد، أن بازوفت بدأ يحقق سمعة محدودة لنفسه. فما كان يفتقر إليه في أسلوب كتابته، عوضه بأبحاثه الرصينة. وكان كل ما يكتشفه عن إيران، ينقله إلى رجل الكاتسا الموجود في لندن. وبالإضافة إلى الموضوعات التي كان يكتبها للأوبزيرفر، كان يعهد إليه أيضاً ببعض المهام من شبكة أخبار «التليفزيون المستقل» وجرائد

«مجموعة الميرور». وفي ذلك الوقت كان محرر الشؤون الخارجية للديلي ميرور هو «نيكولاس ديفيز»، وكان يبدو في حلته السفاري وكأنه قد خرج من صفحات قصة «سكووب» للروائي إيفيلين ووه. وكانت لديه موهبة المراسل الصحافي في الكلام المشوق والكشف عن الأسرار المثيرة، والقدرة على ألا يلعب الشراب برأسه. ولم تفارقه لكنة شمال إنجلترا. ويذكر زملاؤه أنه كان يمضي الساعات لإتقان اللهجة العذبة التي يستخدمها الآن. وقد وجدت النساء فيه شيئاً مثيراً بسبب دماثة طباعه، والطريقة المتمكنة التي يطلب بها العشاء ويختار بها زجاجة من النبيذ الجيد. وكن يعجبن بقدرته على التكيف مع جميع الأوضاع. والطريقة التي يتحدث بها عن الأماكن البعيدة، وكأنها جزء من ممتلكاته الخاصة. وفي الساعات الأخيرة من الليل، وعلى كأس آخر من الشراب، كان يلمح إلى مغامرات، يفسرها بعض سيئي النية بأنها شطحات خيال واسع.

ولم يعرف أحد البتة، بل لم يدر بخلده ولو للحظة واحدة، أن «ناحوم أدموني» قد أصدر تعليمات بوجوب تجنيد «ديفيز»، وظل الأمر مجهولاً سواء بالنسبة لزملائه في جريدة الميرور، أو في دائرة أصدقائه الواسعة خارج عالم الصحافة، حتى زوجته جانيت الممثلة الأسترالية المولد، التي لمعت في مسلسل «دكتور هو» الذي حقق نجاحاً باهراً في التليفزيون البريطاني لم تعلم شيئاً عن هذا الموضوع كذلك.

كان ديفيز يصر دائماً على أنه لو «تم الاتصال به» فلم يكن ليعمل لحساب الموساد وأن وجوده في بهو الفندق بعد ظهر يوم الجمعة في شهر إبريل كانت بصفته الصحافية لمشاهدة سماسرة السلاح وهم يمارسون أعمالهم. بل أنه لم يذكر بعد ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين بازوفت في بهو الفندق، وإن كان قد قال: «أتصور أن حديثنا كان

يتعلق بما كان يجري حولنا»، ورفض أن يستطرد حتى لا يوضح الأمر، وهذا هو موقفه الذي يتمسك به بثبات.

سافر بازوفت وديفيز إلى العراق مع مجموعة صغيرة من الصحافيين الآخرين (ومن بينهم مؤلف هذا الكتاب في مهمة أنيطت به من جانب Press Association الخدمة الوطنية الإخبارية البريطانية). وفي الرحلة من لندن - أمتع ديفيز المجموعة التي كانت معه، بقصص عن المغامرات الرخيصة لـ «روبرت ماكسويل» الذي كان قد اشترى مؤخراً مجموعة صحف الميرور. وقد أطلق عليه صفة «الوحش ذا النزوات البهيمية، والرغبة العارمة في إغواء السكرتيرات العاملات لديه». ثم أوضح بما لا يدع مجالاً للبس أنه مقرب من ماكسويل، رغم أن «من يقترب من كابتن بوب، كأنما يقترب من جهنم بعينها، وأنه يعلم أنني أعرف عنه من المعلومات الكثير، حتى أنه لا يستطيع طردي». غير أن المستمعين اعتبروا مزاعم ديفيز بأنه شخصياً، محصن، لأنه يعرف الكثير عن الرأسمالي الكبير، صاحب العمل، نوعاً من المبالغة الزائدة.

كان «فرزاد، بازوفت» يتسم بالهدوء خلال الرحلة، ولم يتحدث مع الآخرين إلا قليلاً. واقتصر على الحديث مع مضيفي الرحلة بالفارسية. وفي مطار بغداد، ساعدته مهاراته اللغوية على تذليل صعوبات الترجمة مع «المراقبين» العراقيين المكلفين بفريق الصحافيين. وفي همسة مسرحية، قال ديفيز: «أنهم حقاً رجال أمن». ثم أردف وكأنه يتنبأ بالمستقبل: «هؤلاء البلداء الكسالى لا يمكن أن يكشفوا جاسوساً، ولو ظهر أمامهم».

وفي فندق ميريديان فلسطين، أبلغ مراسل الميرور، زملاءه المسافرين، أنه إنما جاء إلى بغداد، لا لشيء إلا لأنه «يشعر بالضيق من

لندن». إلا أنه أكد أنه لا ينوي اتباع البرنامج الرسمي الذي يتضمن زيارة لميدان المعركة في البصرة حيث كان الجيش العراقي مهتماً بعرض غنائم الحرب بعد انتصاره على القوات الإيرانية. وذكر «بازوفت» أنه لا يعتقد أن رحلة الجنوب إلى الخليج تهم صحيفته.

وفي مساء يوم الجمعة ذاك، من شهر إبريل سنة ١٩٨٨ م، قضى «بازوفت» ساعات وساعات في بهو الفندق، يراقب سماسرة السلاح، وهم يجيئون ويذهبون، ويتبادل بعض العبارات مع «ديفيز». وبعد ذلك تناول طعامه منفرداً في مطعم الفندق. وقد رفض دعوة بالانضمام إلى المراسلين الآخرين من لندن، متعللاً بأنه يتعين عليه «مراجعة برنامج عمله». وأثناء تناوله طعامه نودي عليه لتلقي مكالمة تليفونية في بهو الفندق. وعاد بعد دقائق معدودة وهو في حالة من التفكير العميق. وكان قد طلب الحلوى، إلا أنه غادر المائدة فجأة، غير ملق بالاً إلى النكات الخارجة من بعض المراسلين، بأن هناك فتاة تختبىء في مكان ما في انتظاره.

ولم يعد «بازوفت» حتى اليوم التالي، وظهر أكثر توتراً قائلاً لكيم فليتشر، ضمن آخرين (مراسل صحافي حر كان يعمل حينئذٍ لحساب صحيفة الديلي ميل): «الأمر سواء بالنسبة لكم جميعاً، أنتم بريطانيو المولد والتنشئة، أما أنا فإيراني، وهذا يجعلني مختلفاً». ولم يكن فليتشر وحده من بين الصحافيين الإنجليز الذين أحس بالدهشة، وتساءل عما إذا كان هذا هو «بازوفت» الذي يثير مرة أخرى مدى الإحساس بالظلم الذي يستشعره بسبب أرومته الإيرانية وتجربته في إيران.

وقضى «بازوفت» معظم يومه يتحرك قلقاً في بهو الفندق، أو في الجناح الذي يقيم فيه، وغادر الفندق مرتين لفترات قصيرة. وجرى

حوار قصير في بهو الفندق بينه وبني نيكولاس ديفين، الذي ذكر في ما بعد أن بازوفت كان مثل «أي شخص يعكف على موضوع، متسائلاً عما إذا كان سيحصل على ما يريد منه أم لا». ومن ناحيته أعلن محرر الشؤون الخارجية في الميرور، أنه لن يكتب أي شيء «لأنه لا يوجد شيء هنا يثير اهتمام كابتن بوب».

وفي أصيل ذلك اليوم غادر بازوفت الفندق مرة أخرى. وقد تعقبه كالمعتاد أحد المراقبين العراقيين. ولكن حينما ظهر بازوفت من جديد، ظهر وحده. وسمع بعض المراسلين بازوفت وهو يقول لديفيز أنه «لن يسمح بتعقبه مثل كلبة في دورتها النزوية».

وضحك ديفين، إلا أن ضحكه لم يخفف كثيراً من الحالة النفسية لبازوفت، الذي توجه مرة أخرى إلى الجناح الذي يقيم فيه. وحينما ظهر بعد ذلك في بهو الفندق، أبلغ عدداً من المراسلين بأنه لن يعود معهم إلى لندن، قائلاً: «لقد جد جديد»، قالها بالطريقة الغامضة التي اعتاد أن يستخدمها أحياناً.

وقال فليتشر: «يجب أن تكون قصة جيدة، لأبقى هنا».

وبعد ذلك بعدة ساعات، غادر بازوفت الفندق، وكانت هذه آخر مرة يراه فيها زملاؤه، حتى ظهر في فيلم فيديو جرى توزيعه عالمياً من جانب النظام العراقي، بعد سبعة أسابيع من القبض عليه، معترفاً بأنه عميل للموساد.

في ذلك الوقت كان بازوفت في مهمة لحساب الموساد، وهي مهمة من شأنها أن تنوء بمهارات العميل المحنك «كاتسا» ذلك أنه كانت قد صدرت إليه تعليمات بأن يحاول استكشاف مدى التقدم الذي وصلت إليه خطط «جيرالد بول»، لتزويد العراق بمدفع عملاق. أما وقد كلف هذا

الصحافي بتلك المهمة، فإن ذلك مؤشر واضح على مدى استعداد من كلفوه بالمهمة، على استغلاله. واتخذ الموساد كذلك خطوات من جانبه، لإظهار أن بازوفت ـ في حالة القبض عليه ـ إنما كان يعمل لحساب إحدى الشركات الموجودة في لندن، والمعروفة باسم: شركة نظم الدفاع المحدودة. وحينما ألقي القبض على بازوفت بالقرب من أحد مواقع اختبار المدفع العملاق، وجد رجال المخابرات العراقية، أن بحوزته بعض المستندات التي تشير إلى إجراء عدة اتصالات تليفونية من الفندق، بمكاتب شركة نظم الدفاع المحدودة، وقد أنكرت الشركة أي معرفة لها ببازوفت، أو أي صلة لها بالموساد.

وفي شريط الفيديو، كانت عينا بازوفت تحملقان أحياناً في الفضاء، قبل أن تتحرك جفونه فجأة وبسرعة، وتتحول نظراته تحولات فجائية في اتجاهات مختلفة بالغرفة، مع وجود ستارة خلفية رائعة تأخذ شكل النباتات المتسلقة. وكان بازوفت يبدو في صورة شخص لا حول له ولا قوة، لإنقاذ نفسه.

ولقد درس المحللون النفسيون التابعون للموساد في تل أبيب كل لقطة وفي رأيهم أن مراحل انهيار بازوفت، كانت على نفس المنوال الذي يلاحظه المحققون الإسرائيليون، حينما يستخلصون الاعترافات من أحد الإرهابيين المقبوض عليهم. وربما مر بازوفت في البداية بمرحلة عدم التصديق، وهو إنكار غريزي لحالة أن ما حدث قد حدث له فعلاً. ثم يغمره فجأة شعور غلاب يتمثل في إدراكه للحقيقة المدمرة، وهذا ما كان يحدث له. وفي هذه المرحلة، ربما كان الصحافي البائس يعاني نوعين من ردود الأفعال: الخوف الذي يصيبه بالشلل، والإجبار على الكلام. والمتصور أن هذه هي اللحظة التي أدلى فيها باعترافاته على الفيديو بأنه عميل للموساد.

وكانت نبراته الرتيبة، تشير إلى أنه قد عانى من نوبات من الإحباط الخارجي وهو في الأسر. وهذا نتيجة لنقله من محيط مألوف، ونمط حياة معتاد، إلى وضع آخر انتهى فيه كل هذا تماماً. كما كانت حالته تشير بإحساسه بالتعب المستمر، وأن فترات النوم التي سمح له بها كان من شأنها أن تجعله في حالة من الإرهاق والخمول. وهذه الحالة تحدث عندما يكون الاعتراف بالإكراه، قد تم بأكثر الوسائل تدميراً، وأن إحساسه باليأس والقنوط كان في ذروته، وقد تملكه الشعور باتهام الذات. وربما أنه أحس بالغباء، بسبب الطريقة التي اتبعها، وعرض بها الآخرين للخطر، مثل السجين في رواية «كافكا» المعروفة باسم «المحاكمة». ومن شريط الفيديو، اتضح أن عيني بازوفت تدلان على أنه قد أعطي بعض العقاقير.

ولكن خبراء العقاقير في الموساد، رأوا أنه من المستحيل، تحديد نوعية العقاقير التي استخدمت معه.

أدرك «ناحوم أدموني»، أن مثل هذا الاعتراف الصريح الذي تضمنه شريط الفيديو، كان إيذاناً بإعدام بازوفت. وعلى الفور أمر رئيس الموساد خبراء الحرب النفسية لديه، بشن حملة لتفادي الأسئلة المحرجة، حول تورط المخابرات الإسرائيلية مع بازوفت.

وسرعان ما انتقد أعضاء البرلمان البريطاني علناً، صحيفة الأوبزيرفر، بسبب إرسالها بازوفت إلى العراق. وفي نفس الوقت، تم تزويد الصحافيين الموثوق فيهم بأخبار تقول: إن صدام حسين كان يشاهد شرائط الفيديو المسجلة لكل مرحلة من مراحل استجواب بازوفت. وقد يكون هذا صحيحاً تماماً. والامر الأكثر ثبوتاً، هو أن هذا كان مجرد ذريعة لتذكير العالم بأن التعذيب والقتل، كانا من ادوات

سياسة الدولة في العراق. وقد تم إعدام بازوفت شنقاً في بغداد، في شهر مارس ١٩٩٠ م. وكانت آخر الكلمات التي رويت عنه، وهو على منصة المشنقة: «لست جاسوساً لإسرائيل».

في لندن قرأ «نيكولاس ديفيز»، تقرير الإعدام، في رسالة لوكالة رويتر إلى قسم الشؤون الخارجية بصحيفة الديلي ميرور. وحسب التعليمات الصادرة إليه بشأن جميع الأخبار الواردة من الشرق الأوسط التي تعتبر في تقديره أخباراً مهمة، أخذ ديفيز التقرير إلى مكتب «روبرت ماكسويل».

كان هذا الناشر، منذ سنة ١٩٧٤ م، أقوى العملاء المتعاونين مع المخابرات الإسرائيلية في بريطانيا. وتذكر ديفيز: «أن بوب قرأ التقرير دون تعقيب» ولكنه لا يتذكر «بكل أمانة» كيف كان إحساسه إزاء إعدام بازوفت.

وفي تل أبيب، كان من بين من قرأوا خبر الإعدام أحد الأشخاص المفعمين بالحيوية من الذين خدموا جهاز الجاسوسية الإسرائيلي، هو آري بن مناشة. ولم يكن يعرف شيئاً، حتى ذلك الوقت، عن وجود بازوفت. ولكن هذا الأمر بشكل خاص، لم يمنع بن مناشة المراوغ، من الشعور العميق بالحزن إزاء «وضع إنسان جيد، في المكان الخطأ، وفي الوقت الخطأ». لقد كانت مثل هذه الآراء العاطفية هي التي حالت دون احتمال ترشيح بن مناشة البارع الذكاء والأسمر الأنيق، لمنصب قيادي في مجتمع المخابرات الإسرائيلي. إلا أنه - ولمدة عشر سنوات - في الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ م شغل مركزاً حساساً في إدارة العلاقات الخارجية في قوات الدفاع الإسرائيلية، وهي واحدة من أقوى المنظمات السرية في مجتمع المخابرات.

كانت إدارة العلاقات الخارجية، قد أنشئت سنة ١٩٧٤ م في عهد رئيس الوزراء إسحق رابين. وبسبب ما كان يشعر به من ألم، إزاء الطريقة التي فوجئت بها إسرائيل تماماً، بالهجوم المصري ـ السوري في حرب يوم كيبور (يوم الغفران)، فقد ارتأى أن الطريقة الوحيدة لتلافي أي قصور يحدث من جانب المخابرات مرة أخرى، هو وجود جهاز مراقبة لمتابعة أجهزة المخابرات الأخرى. وأن يتولى هذا الجهاز ـ في نفس الوقت ـ تجميع المعلومات الاستخبارية الخاصة به.

وقد أنشئت أربعة فروع للعمل تحت مظلة إدارة العلاقات الخارجية، وكان أهم هذه الأفرع على الإطلاق هو سيم SIM، حيث يقدم هذا الفرع «مساعدات خاصة» إلى العدد المتزايد من «حركات التحرير» في المنطقة. والفرع الثاني هو ريش Resh، ويتولى العلاقات مع شبكات المخابرات الصديقة، ويأتي على قمة هذه الأجهزة مكتب أمن الدولة في جنوب إفريقيا. وتوجد في الموساد وحدة مماثلة تسمى «تيفيل» Tevel. ولها أيضاً اتصالات وثيقة مع أجهزة المخابرات في جمهورية جنوب إفريقيا. وكانت العلاقات بين Resh و Tevel دائماً متوترة، بسبب التداخل الحتمي في الاختصاصات.

والفرع الثالث لإدارة العلاقات الخارجية، هو مكتب التنسيق الخارجي، ويتعامل مع الملحقين العسكريين الإسرائيليين وكذلك أفراد قوات الدفاع الإسرائيلية العاملين في الخارج. وتقوم إدارة العلاقات الخارجية أيضاً برصد وتعقب أنشطة الملحقين العسكريين الأجانب في إسرائيل، الأمر الذي جلب مزيداً من الصراع، مع «الشين بيت» هذه المرة، الذي كان حتى ذلك الحين هو المسؤول الوحيد عن متابعة مثل هذه الأنشطة. أما الفرع الرابع لإدارة العلاقات الخارجية، فكان يسمى

«المخابرات ١٢». وقد أنشيء هذا الفرع لكي يكون همزة الوصل مع جهاز الموساد، غير أن هذه الوحدة سممت العلاقات مع الرجال الموجودين في الطابق الأعلى للمبنى الموجود في طريق الملك شاؤول، حيث استشعر هؤلاء الرجال أن إدارة العلاقات الخارجية، سوف تقلص من سلطاتهم.

تم إلحاق بن مناشة بفرع Resh مسؤولاً عن «الملف» الإيراني. وبدأ عمله في وقت، كانت فيه إسرائيل على وشك أن تفقد أقوى حلفائها في المنطقة. فلمدة تزيد على ربع قرن، سعى شاه إيران سعياً حثيثاً، من وراء الكواليس، لإقناع جيران إسرائيل العرب، بإنهاء حالة العداء بينهم وبين الدولة اليهودية. وكان لا يزال يحقق نوعاً من النجاح المحدود، وخصوصاً مع الملك حسين ملك الأردن، حينما قضت الثورة الأصولية الإسلامية التي قادها الخميني في فبراير ١٩٧٩ م، على عرش الطاووس. وسرعان ما سلم الخميني مبنى السفارة الإسرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وعلى نفس المستوى من السرعة، بادرت إسرائيل إلى مساعدة الأكراد لشن حرب عصابات ضد النظام الجديد. وفي نفس الوقت، واصلت إسرائيل تزويد طهران بالأسلحة لاستخدامها ضد العراق. وهكذا فإن سياسة «قتل كلا الطرفين» التي دافع عنها ديفيد كيمحي وآخرون في الموساد، كانت تطبق تطبيقاً فعلياً وجيداً.

وسرعان ما وجد «بن مناشة» نفسه متورطاً في الخطة الكبرى لديفيد كيمحي، لمبادلة الرهائن بالأسلحة مع إيران. وسافر كلا الرجلين معاً إلى واشنطن، حيث ادعى بن منشه أنه طاف في جميع أرجاء البيت الأبيض، وقابل الرئيس ريجان، واستطاع أن ينال الحظوة لدى كبار مساعديه.

لقد كان بن مناشة ـ وهو رجل شديد الجاذبية والدهاء ـ شخصية

معروفة في حفلات مجتمع المخابرات الإسرائيلي، حيث يمكن لكبار السياسة، تبادل الحكايات والأخبار مع كبار رجال الجاسوسية، للمنفعة المتبادلة. ولم يكن هنالك أحد يستطيع أن يباري بن مناشة في سرد الحكايات والأخبار، إلا القليلون. وقبيل أن يبدأ كيمحي صفقة مبادلة الرهائن بالسلاح، كان قد تم تعيين بن مناشة «مستشاراً شخصياً» لرئيس الوزراء إسحاق شامير، لشؤون المخابرات، بعد أن أبلغ شامير بأنه يعرف جميع الأسرار، مما جعل كيمحي يقرر بأن بن مناشة هو الاختيار الأمثل للعمل مع ضابط المخابرات الوحيد الذي يحوز إعجابه أكثر من الآخرين، وهو «رافي إيتان»: وبموافقة كاملة من رئيس الوزراء، أعفي بن منشه من جميع واجباته الأخرى، لكي يعمل مع «إيتان». وسافر الرجلان إلى نيويورك سنة ١٩٨١ م، وكان هدفهما ـ كما يذكر بن مناشة ـ واضحاً وصريحاً: «يحتاج أصدقاؤنا في طهران، بشكل ملح، إلى معدات إلكترونية حديثة لسلاحهم الجوي ودفاعاتهم الأرضية. وأن إسرائيل ـ بطبيعة الحال ـ تريد مساعدتهم بقدر ما يمكن، في حربهم ضد العراق».

وكان الرجلان قد سافرا باستخدام جوزات السفر البريطانية ـ وهو الأمر المفضل دائماً لدى الموساد ـ وأسسا شركة في حي المال والأعمال في قلب نيويورك. وسرعان ما جندا فريقاً من خمسين سمساراً، بحثوا في قطاع الصناعات الإلكترونية الأميركية، عن المعدات المناسبة. وكانت كل الشحنات ترفق بهاـشهادة مستخدم نهائي، تنص على أن هذه المعدات لا تستخدم إلا في إسرائيل فقط. وربما يذكر بن مناشة أنه: «كانت لدينا رزم من الشهادات، نقوم بملئها وإرسالها إلى تل أبيب، لحفظها في الملفات، في ما لو اهتمت أي جهة بالتقصي».

كانت المعدات تنقل بالطائرات إلى إسرائيل، وهناك ـ ودون

المرور على الجمارك ـ كان يتم نقلها إلى طائرة مستأجرة من شركة «جينيس بيت» الإيرلندية، لتطير بها إلى طهران. وكانت شركة «جينيس بيت» ـ وهي شركة طيران لها اعتبارها ـ اختياراً ذكياً. كما كانت فكرة استخدام طيارين إيرلنديين من بنات أفكار «رافي إيتان»، وكان أتيان قد حافظ على ما يسميه «صلاته الإيرلندية»، وحينما يتعلق الأمر بالصفقات، فإن الإيرلنديين يفهمون قواعد اللعبة. فكل ما يهمهم هو الدفع في نفس اليوم.

ومع ازدياد حجم علميات نيويورك، أصبح لازماً وجود شركة قابضة مركزية، للتعامل ببلايين الدولارات التي تنطوي عليها عمليات شراء الأسلحة وبيعها على الفور. وكان الاسم الذي تم اختياره لهذه الشركة هو ORA أي الضوء باللغة العبرية.

وفي شهر مارس ١٩٨٣ م طلب «رافي إيتان» من «بن مناشة» تجنيد «نيكولاس ديفيز» في عملية الضوء. ولكن كيف سمع أستاذ الجاسوسية العجوز عن ديفيز؟ يكاد يكون من المؤكد أنه سمع عنه عن طريق الموساد، ولا بد أن الموساد بدوره قد سمع عن ديفيز من خلال «بازوفت» الذي قام ببعض الأعمال الصحافية لحساب قسم الشؤون الخارجية في جريدة الميرور. وفي وقت لاحق خلال ذلك الشهر، التقى «بن مناشة» و «ديفيز» في بهو فندق تشرشل بلندن.

وقبل أن يغادرا الفندق، كان «بن منشه» قد عرف أن «ديفيز» هو «رجلنا». وفي اليوم التالي تناولا الغداء معاً في بيت «ديفيز». وكانت زوجة ديفيز «جانيت» حاضرة على الغداء. وسرعان ما تكون انطباع لدى «بن مناشة» بأن «ديفيز» البارع الحلو الحديث، كان يخشى أن يفقد جانيت، و «كانت هذه نقطة جيدة، إذ كان يسهل التأثير عليه».

ولقد تم الاتفاق في النهاية على دور «ديفيز» كاستشاري لشركة

ORA، خلال اجتماع في فندق «دان أكاديا» على شاطىء البحر شمال تل أبيب. ويذكر «بن مناشة» قائلاً: «اتفقنا على أن يكون ديفيز همزة الوصل لنا في لندن بالنسبة لموضوع الأسلحة، وأن يكون رجل الاتصالات بالنسبة لمختلف الصفقات مع إيران وغيرها. وأن يستخدم عنوان منزله على الأدوات الكتابية والمطبوعات الخاصة بشركة ORA، وأن يتم استخدام الرقم المباشر لتليفون مكتبه أثناء النهار، في الاتصالات مع إيران».

وفي المقابل، يتقاضى «ديفيز» أتعاباً توازي دوره الجديد كأحد الأطراف الرئيسية في عمليات الأسلحة لإيران. وعلى الإجمال، سوف يتلقى مبلغ ١,٥ مليون دولار تودع في حساب مصرفي باسمه في بنك «جراند كايمان» في بلجيكا ولوكسمبورج. ولقد تم استخدام جزء من هذه الأموال في تسوية موضوع طلاقه من جانيت، حيث حصلت جانيت على مبلغ ٥٠ ألف دولار دفعة واحدة. وقام «ديفيز» بتصفية جميع ديونه المصرفية، واشترى منزلاً من أربعة طوابق، أصبح المقر الأوروبي لشركة ORA، وهو أداة اتصال أخرى لسماسرة السلاح الذين كانوا قد أصبحوا جزءاً من الحياة الصحافية. ومن خلال عمله كمحرر للشؤون الخارجية بدء «ديفيز» يقوم بزيارات للولايات المتحدة، وأوربا، وإيران، والعراق.

وقد لاحظ «بن مناشة» دون اعتراض من جانبه أن «ديفيز» في سفرياته يقدم نفسه على أنه ممثل مجموعة شركات ORA ويمكن أن يرتب لاجتماع في عطلة نهاية الأسبوع ويمكن أن يطير إلى جهة معينة لإجراء الترتيبات بالنسبة لأعداد الأسلحة التي يتم توريدها وبحث كيفية السداد.

وفي سنة ١٩٨٧ م، تلقى الرئيس الإيراني آية الله علي أكبر هاشمي رافسنجاني، برقية من شركة ORA بخصوص بيع أربعة آلاف صاروخ تاو TOW لإيران، بسعر ١٣,٨٠٠ دولار للصاروخ. واختتمت

البرقية بالتأكيد على أن «نيكولاس ديفيز» هو ممثل شركة ORA المحدودة، وهو مفوض توقيع العقود. لقد كان وقتاً رائعاً بالنسبة لآري بن مناشة. ونيكولاس ديفيز، والشخصية الكبيرة، التي تلوح صورتها بشكل أكبر في ظلال الأحداث البادية للعيان، وهي شخصية روبرت ماكسويل.

بيد أنه لم يشك أحد، ولو للحظة، في الحقيقة الكالحة المتمثلة في المثل الشائع في هوليوود، والذي كان ديفيز يحب أن يردده دائماً «لا يوجد شيء بلا مقابل».

الفصل التاسع:

(الرشوة الجنسية والأكاذيب)

حين هبطت طائرة الخطوط الجوية البريطانية في لندن وجد آري بن منشه سيارة ليموزين بسائقها الخاص أرسلها روبرت ماكسويل خصيصاً لتقله لمقابلته. وقد شعر بن منشه أن في ذلك إشارة أخرى إلى مدى الأهمية التي يوليها ماكسويل له. ورافقه في السيارة نفسها ناحوم أدموني مدير الموساد الذي وصل على متن رحلة شركة العال التي أقلعت بعد ساعة من موعد رحلة الخطوط البريطانية. وقضى بن منشه الوقت في انتظار وصول أدموني وهو يفكر في الحالة التي هو بصددها وهي تحول أحد ملاك الصحف الأقوياء إلى واحد من أبرز من جنّدهم الموساد من العملاء.

عرض ماكسويل تقديم خدماته إثر مقابلة له مع شيمون بيريز في القدس بعد وقت قصير من قيام الأخير بتشكيل حكومة ائتلافية عام ١٩٨٤ م. وقد وصف أحد مساعدي بيريز هذه المناسبة بـ «اللقاء بين الذات وجنون العظمة». فقد تصرف بيريز بغطرسة بينما كان ماكسويل يواصل حديثه بالوعد بأن تنهمر الملايين على إسرائيل أو أن يعيد إنعاش الاقتصاد الإسرائيلي. لقد بدا ماكسويل كمن يسعى للحصول على منصب. فقد كان منمقاً في حديثه يتوقف لحظة ثم يخرج عن نطاق

الموضوع ليلقي بنكات بذيئة، بينما بيريز جالس يرسم على شفتيه ابتسامته الباردة المعهودة.

قام بيريز بترتيب مقابلة بين ماكسويل وأدموني لمعرفته بأن ماكسويل تمكن، على مدار السنين، من توطيد اتصالاته في بلدان أوروبا الشرقية. وتمت المقابلة في الجناح الرئاسي بفندق الملك داود بالقدس حيث كان يقيم ماكسويل. ووجد الإثنان ماكسويل وأدموني مجالاً مشتركاً للحديث، فكلاهما له خبرة ومعرفة بشرق أوروبا. لقد وُلد ماكسويل في تشيكوسلوفاكيا مما دفع بيريز لإطلاق واحدة من نكاته القليلة قائلاً: «إنه التشيكي المحتال الغني الوحيد الذي أعرف» (استخدم بيريز حسب الأصل الإنجليزي Bouncing Czech أي التشيكي الضخم كي يجمع على سبيل التورية بين كلمة Cheque و Bouncin أي الشيك المردود وتشيكي: Czech المترجم).

أبدى أدموني اهتماماً برأي ماكسويل القائل بأن كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لهما نفس الرغبة في تحقيق السيطرة على العالم، وإن كان ذلك من خلال نهجين مختلفين إلى أبعد الحدود. فروسيا جعلت من إشاعة الفوضى في العلاقات الدولية جزءاً من استراتيجيتها بينما ترى واشنطن العالم في صورة «أصدقاء وأعداء» أكثر منه حكومات ذات اهتمامات إيديولوجية تتضارب معها. وطرح ماكسويل آراءً تنم عن بصيرته كرأيه بأن الاتصال السري بين المخابرات المركزية الأمريكية ونظيرتها الصينية يقض مضجع وزارة الخارجية الأمريكية التي ترى أنه سيتعارض مع الإجراءات الدبلوماسية والسياسات المستقبلية بين البلدين.

رسم ماكسويل في حديثه صورتين لرجلين على درجة كبيرة من

الأهمية بالنسبة لأدموني، حيث وصف ريجان بأنه شخص متفائل إلى أقصى الحدود يستخدم سحره ليخفي به حقيقته كسياسي صارم، وأن عيبه الخطير أنه على الدوام يبسط الأمور، وظهر هذا بكل جلاء في معالجته لقضية الشرق الأوسط وأن آراءه المتأنية لا تختلف كثيراً عن أحكامه المتسرعة.

أما الرجل الثاني الذي وصفه ماكسويل فكان وليم كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حيث نعته بأنه رجل ضيق الأفق وغير صديق لإسرائيل، يدير شؤون وكالة «تزهو بنفسها» بأفكار بالية عن دور الاستخبارات على الساحة السياسية العالمية. ورأى ماكسويل أن أقوى البراهين على ذلك يتجلى بكل وضوح في الأسلوب الذي أساء به كيسي تفسير نوايا العرب في الشرق الأوسط وقد تطابقت وجهة نظره هذه تماماً مع آراء ناحوم أدموني.

في نهاية اللقاء استقل كلاهما سيارة أدموني التي لا تحمل أية علامات وذهبا في طريقهما إلى مقر الموساد في زيارة حظي فيها ملك المال والنفوذ بجولة شخصية لبعض منشآت المقر صحبه فيها المدير العام للموساد.

واليوم، بعد عام من اللقاء الأول، أي في الخامس عشر من مارس (آذار) ١٩٨٥ م يلتقي الإثنان من جديد، وحتى لحظة دخول أدموني وبن منشه الجناح المخصص لمكتب ماكسويل بمقر جرائد الميرور بحي هاي هولبورن بلندن، لم يكن مضيفهم قد أفصح بعد عن وجود طرف آخر يشترك معهم في تناول سندويشات البيجل (نوع من الخبز اليهودي) وسمك السلمون المدخن والقهوة التي كان لا بد من توفرها طالما كان ماكسويل موجوداً بالمبنى.

وقدم ماكسويل، كالحاوي الذي يخرج الأرنب من قبعته، فيكتور تشبريكوف نائب رئيس المخابرات الروسية «كي.جي.بي» واحد أقوى قادة التجسس بالعالم، إليهما. وعلق بن منشه فيما بعد على ذلك على نحو يقلل من قيمة المناسبة في صيغة خبيثة قائلاً: «ربما يبدو وجود أحد قادة الكي.جي.بي في مكتب ناشر جريدة بريطانية ضرباً من الخيال، إلا أن وجود تشبريكوف في بريطانيا يعد مقبولاً نظراً للعلاقة الحميمة بين كل من الرئيس جورباتشوف ورئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر».

لكن ما كان سيثير الجدل بالفعل أن يبلغ مسامع حكومة تاتشر، بما عرف عنها من إيمان بمبادىء الاقتصاد الحر، ما كان مطروحاً على مائدة البحث في هذا الاجتماع. فقد تولى أدموني وبن منشه، وقد شعرا بالاسترخاء بجلوسهما على المقاعد الجلدية الوثيرة في مكتب ماكسويل، بتوجيه دفة الحديث، كان هدفهما معرفة إمكانية تحويل مبالغ ضخمة للغاية» من العملة إلى بعض مصارف في الاتحاد السوفيتي، وما إذا كان تشبريكوف يضمن سلامة هذه الودائع. لقد كانت هذه الأموال من أرباح شركة أورا نتيجة عقدها صفقة بيع أسلحة أمريكية لإيران.

تساءل تشبريكوف عن مقدار هذه المبالغ، فأجابه بن منشه «٤٥٠ مليون دولار أمريكي تتبعها مبالغ أخرى مماثلة قد تصل إلى ما يربو على بليون دولار». نظر تشبريكوف إلى ماكسويل كأنما ليتأكد من حقيقة ما سمع فأومأ إليه الأخير برأسه بكل حماس قائلاً «هذه هي البيروسترويكا».

كانت السهولة الواضحة في إبرام الصفقة سبباً لإحساس بن منشه بسعادة خاصة، فلن يكون هناك حشد من الوسطاء يتقاسمون حصتهم من العمولة بل سيكون هناك فقط ماكسويل والمتصلون به

وتشبريكوف بسبب السلطة التي يتمتع بها، فضلوعه في هذه الصفقة كان الضمان لعدم سرقة السوفييت لهذه الأموال. وتم الاتفاق على تحويل المبلغ الأول وهو ٤٥٠ مليون دولار أمريكي من بنك كريدي سويس Credit Swiss إلى بنك بودابست بالمجر الذي بدوره سيقوم بتحويل هذه الأموال إلى مصارف أخرى في الكتلة السوفيتية.

أما ماكسويل فكان نصيبه ثمانية ملايين دولار عن دوره كوسيط في هذه العملية. وتم التصديق على الاتفاق بمصافحة الأيدي واقترح ماكسويل شرب الشمبانيا نخب الرسمالية القادمة إلى روسيا. وبعدها اتخذ الضيوف أماكنهم في الطائرة المروحية الخاصة بملك المال والنفوذ في طريقهم إلى مطار هيثرو للعودة إلى بلادهم.

لم يدرك أحد من الصحفيين الذين يعملون بمبنى جريدة الميرور، فيما عدا ديفيز، شيئاً عن الحدث الهائل الذي فاتهم معرفته. ولن يكون هذا آخر حدث هام يمر من وراء ظهورهم يغرر فيه ماكسويل بمهاراتهم الصحفية في محاولة منه لحماية إسرائيل.

في ١٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٨ م اتصل روبرت ماكسويل بناحوم أدموني على هاتفه المباشر لينهي إليه أخباراً تنذر بالخطر الشديد: توجه صحفي متجول من كولومبيا يدعى أوسكار جريرو إلى إحدى الصحف الشعبية الأسبوعية التي يمتلكها ماكسويل وهي ساندي ميرور بقصة مثيرة قادرة على تحطيم الساتر الذي تم بناؤه بكل حرص لإخفاء الهدف الحقيقي لمفاعل ديمونة. فقد ادعى جريرو أنه يعمل لحساب عامل فني سابق اشتغل بهذا المفاعل النووي، وتمكن سراً أثناء عمله هناك من جمع صور وبراهين أخرى تثبت أن إسرائيل أصبحت قوة نووية كبرى لديها ما لا يقل عن مائة قنبلة نووية بدرجات تدمير متفاوتة.

وعلى غرار كافة المكالمات الهاتفية في مكتب رئيس الموساد تم تسجيل هذه المكالمة بشكل تلقائي. وفيما بعد يذكر مصدر من جهاز المخابرات الإسرائيلي أن ذلك الحديث جاء تسجيله على الشريط كما يلي:

أدموني: ما اسم هذا الفني؟

ماكسويل: ڤانونو. اسمه موردخاي ڤانونو.

أدموني: أين هو الآن؟

ماكسويل: اعتقد أنه في سيدني بأستراليا.

أدموني: ساعاود الاتصال بك.

ومن مكتب أدموني اتجهت أول مكالمة هاتفية إلى مكتب شيمون بيريز رئيس الوزراء الذي أمر باتخاذ كافة الإجراءات الممكنة «لتأمين الموقف». وبهذه الكلمات أعطى بيريز التصريح بعملية برهنت كغيرها على فعالية الموساد الذي لا يرحم.

على الفور أكد طاقم مكتب أدموني أن ڤانونو قد اشتغل في ديمونة في الفترة ما بين فبراير (شباط) ١٩٧٧ م وحتى نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦ م. وقد تم تعيينه في وحدة «ماخون - ٢» وهي أكثر الوحدات سرية بين وحدات الإنتاج العشر في المفاعل. فالمبنى الخرساني الخالي من النوافذ الذي تقع فيه الوحدة يشبه المخزن من الخارج. وقد بطنت جدرانه لتمنع أقوى عدسات كاميرات الأقمار الصناعية من النفوذ إلى داخله. وفي داخل الهيكل الذي يشبه الغرف المحصنة تحت الأرض تم وضع أبواب مموهة تؤدي إلى المصاعد التي كانت تهبط إلى الطابق السادس تحت الأرض حيث مكان تصنيع الأسلحة النووية.

كان تصريح الأمن الذي يحمله ڤانونو يخوله حق الدخول دون رقابة إلى كل ركن من الوحدة. فبطاقة المرور الأمنية التي كان يحملها ورقمها ٥٢٠ بالإضافة إلى توقيعه على وثيقة قوانين حماية الأسرار الإسرائيلية الرسمية كانت تكفل له عدم اعتراض أحد طريقه أثناء قيامه بعمله كمناحيل (مراقب) في النوبة الليلية.

وشعر أدموني بالصدمة عندما تم إبلاغه أنه من شبه المؤكد أن ڤانونو صور سراً على مدار عدة شهور، أجهزة الوحدة بما فيها من لوحات الضبط والتحكم وصناديق القفازات و معدات بناء القنبلة النووية وأشارت الدلائل إلى أنه كان يخبيء الأفلام في خزانة ملابسه داخل المبنى ثم يهربها فيما بعد إلى خارج الموقع الذي يفترض أنه أشد الأماكن آمناً في إسرائيل.

وطلب أدموني معرفة كيف تمكن ڤانونو من القيام بكل ذلك وربما ما هو أكثر، وماذا لو كان قد عرض ما في حوزته بالفعل على المخابرات المركزية الأمريكية أو على المخابرات الروسية أو البريطانية أو الصينية؟ عندئذٍ تكون الخسائر فادحة وستظهر إسرائيل أمام العالم كالكذاب القادر في نفس الوقت على تدمير جزء كبير من هذا العالم. ومن هو ڤانونو؟ ولحساب من يعمل؟ ولم تتأخر الإجابات كثيراً، فقد تبين أن ڤانونو هو يهودي مغربي ولد في الثالث عشر من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٤ م في مراكش حيث كان والداه يمتلكان متجراً بسيطاً. في عام ١٩٣٦ م حين تفجرت الحركة المعادية للسامية، التي لم تكن بعيدة عن السطح في المغرب، واندلعت موجة جديدة من العنف، هاجرت عائلة ڤانونو إلى إسرائيل واستقرت في مدينة بير سبع بصحراء النقب.

عاش الفتى موردخاي فترة مراهقة هادئة حتى جند في الجيش الإسرائيلي عندما بلغ السن القانونية شأنه في ذلك شأن جميع الشباب من عمره. وكان قد بدأ يفقد شعر رأسه مما جعله يبدو أكثر تقدماً في العمر وهو لا يزال في سن التاسعة عشرة. وقد وصل إلى رتبة رقيب أول في وحدة لإزالة الألغام تتخذ من مرتفعات الجولان مقراً لها. وبعد انتهاء الخدمة العسكرية التحق ڤانونو بجامعة رامات أبيب بتل أبيب التي سرعان ما غادرها إثر فشله في اجتياز امتحانين في نهاية العام الأول للحصول على شهادة في الفيزياء.

وفي صيف عام ١٩٧٦ م تقدم ڤانونو بطلب للعمل في ديمونة استجابة لإعلان نشر عن حاجة المفاعل لفنيين متدربين. وبعد مقابلة مستفيضة مع رئيس الأمن في المصنع تم قبول ڤانونو للتدريب. وبدأ برنامجاً مكثفاً لدراسة الفيزياء والكيمياء والرياضيات واللغة الإنجليزية حقق فيها نتيجة طيبة حتى تمكن من الالتحاق بمفاعل ديمونة في وظيفة فني في فبراير (شباط) عام ١٩٧٧ م.

إلا أنه في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦ م أنهيت خدمة ڤانونو من ديمونة. وأشير في ملفه الأمين إلى أنه ظهرت عليه «بوادر يسارية ومعتقدات مناصرة للعرب». فغادر ڤانونو إسرائيل إلى أستراليا حيث وصل إلى سيدني في مايو (أيار) من العام التالي. وخلال رحلته في الشرق الأقصى التي اتبعت الطريق الذي يتبعه الكثير من الشباب اليهودي في رحلتهم في المنطقة، اعتنق ڤانونو المسيحية. وكانت الصورة التي وصلت أدموني من مصادر متعددة أن ڤانونو غير ملفت للنظر وتظهر عليه السمات التقليدية لمؤثري العزلة، وليس له أصدقاء مقربون في ديمونة. وليس له علاقات نسائية. كما أنه اعتاد قضاء وقته

في منزله في قراءة كتب الفلسفة والسياسة. وقد أبلغ أخصائيو التحليل النفسي في الموساد أدموني أن شخصاً بهذه السمات قد يكون متهوراً ذا مفهوم معوج للقيم وعادة ما يكون يائساً، وهذا النوع من الناس يمكن أن يشكل خطراً يصعب التنبؤ به.

وفي أستراليا تقابل ڤانونو مع أسوكار جريرو، الصحفي الكولومبي الذي يعمل في سيدني بينما كان يقوم بأعمال الطلاء في إحدى الكنائس. وسرعان ما تمكن الصحفي الثرثار من تلفيق قصة غريبة ليمتع بها أصدقاءه في حي كينجز كروس الذي تنتشر فيه الملاهي بسيدني. وادعى جريرو في روايته أنه ساعد عالماً نووياً إسرائيلياً بارزاً على الهروب حاملاً معه تفاصيل عن خطط إسرائيلية تستهدف تهديد جيرانها العرب بالقنبلة النووية. وأن هذا العالم الذي تمكن من تضليل الموساد يختبىء حالياً في مكان آمن في ضواحي المدينة إلى أن يتمكن جريرو من إعداد ما أسماه «بصفقة السبق الصحفي المثيرة في هذا القرن».

شعر ڤانونو بالغضب لدى سماعه هذه الادعاءات الحمقاء. لكنه كان ملتزماً بالمبادىء السلمية واللاعنف راغباً في أن تظهر قصته في مطبوعات جادة ليحذر العالم من التهديد الذي تشكله إسرائيل بواسطة قدراتها النووية. لكن جريرو كان بالفعل قد أجرى اتصالاً بمكتب جريدة «الصنداي تايمز» في مدريد، أرسلت على أثره الصحيفة الأسبوعية التي تشتهر بالجسارة، مندوباً صحافياً إلى سيدني لإجراء مقابلة مع ڤانونو.

بدأت الأوهام والخيالات في رأس جريرو تنهار فجأة في مواجهة الأسئلة التي طرحها المندوب الصحافي. وبدأ يشعر أن زمام قصة ڤانونو على وشك الإفلات من قبضته، وازدادت مخاوفه حين أبلغه

مراسل الصنداي تايمز أنه سوف يرسل ڤانونو إلى لندن حيث سيجري استجوابه بواسطة واحد من أكبر علماء الطاقة النووية في بريطانيا.

أخذت شكوك جريرو تتزايد مع مرور الوقت وهو يشاهد ڤانونو ومندوب الصحيفة وهما يصعدان على متن الطائرة المتجهة إلى لندن. كان يحتاج إلى المشورة حول كيفية التعامل مع الموقف. ولم يجد أمامه سوى عضو سابق في جهاز الأمن والمخابرات الأسترالي. وأخبره جريرو أنه تعرض لخدعة وخسر موضوعاً يمكن أن يهز العالم ووصف له بكل دقة ما هربه ڤانونو خارج ديمونة، وهو ستون صورة فوتوغرافية تم التقاطها داخل وحدة «ماخون ـ ٢» بالإضافة إلى بعض الخرائط والرسومات، كلها تكشف دون أدنى شك أن إسرائيل أصبحت سادس قوة في العالم تمتلك السلاح النووي.

مرة أخرى تنكر الحظ لجريرو فقد اختار الرجل غير المناسب. حيث اتصل رجل جهاز الأمن والاستخبارات الأسترالي السابق برئيسه السابق وأعاد على مسامعه كل ما أبلغه به جريرو. ولما كانت هناك علاقات عمل وطيدة بين الموساد والجهاز الأسترالي، إذ كان الموساد يزود الجهاز الأسترالي بالمعلومات عن حركات الإرهاب العربية عند تحركها من الشرق الأوسط في طريقها إلى المحيط الهادي، قام ذلك الجهاز بإخطار رجل الموساد الميداني «الكاتسا» Katsa الملحق بسفارة إسرائيل في كانبرا بالمكالمة التي وصلت من موظفه السابق وتم إرسال المعلومات بالفاكس على الفور إلى أدموني. في ذلك الوقت كانت هناك أخبار أخرى أكثر إزعاجاً نمت إلى علمه: فقد توقف ڤانونو وهو في طريقه إلى أستراليا في نيبال لفترة قصيرة زار فيها سفارة روسيا في عاصمة نيبال كاتماندو. فهل ذهب إلى هناك ليعرض ما في جعبته على موسكو؟

تطلب الأمر ثلاثة أيام حتى تمكن أحد اليهود من أنصار الموساد من الخارج «السايان» يعمل في بلاط ملك نيبال من التوصل إلى حقيقة هدف ڤانونو من زيارته للسفارة في نيبال وهو السؤال عن وثائق السفر التي يحتاج إليها لقضاء إجازة في الاتحاد السوفيتي في وقت لاحق لم يتحدد بعد. وقد غادر السفارة عائداً أدراجه بعد تزويده بمجموعة من المطبوعات المصورة.

في الساعات التي تلت سفر ڤانونو مع مراسل «الصنداي تايمز» على متن الطائرة إلى لندن حاول جريرو تحقيق ربح مفاجيء وسريع بتقديم الوثائق إلى جريدتين أستراليتين لكنهما صرفتا النظر عن الموضوع على اعتبار أن الوثائق مزيفة.

تحت وطأة الشعور باليأس والإحباط سافر جريرو إلى لندن يقتفي أثر ڤانونو، ولما فشل في العثور عليه توجه بالوثائق إلى صحيفة «الصنداي ميرور» مضافاً إليها صورة التقطها لڤانونو في أستراليا. وفي غضون ساعات علم نيكولاس دافيز بوصول تلك الوثائق وعلى الفور أخبر ماكسويل الذي بدوره اتصل بأدموني رئيس الموساد. وحين عاود أدموني الاتصال بماكسويل تلقى صدمة أخرى، إذ علم أن جريدة «الصنداي تايمز» تولي قصة ڤانونو اهتماماً كبيراً لذا كان من الحتمي معرفة ما قام الفني بتصويره على وجه التحديد حتى يكون هناك أمل في إمكانية إعداد رد كفيل بالحد من الضرر الناجم عن نشر هذه القصة.

وكانت التقارير الواردة من كانبرا تشير بكل جلاء إلى أن الباعث الحقيقي لجريرو هو المال، فإذا نجح الموساد في إلصاق هذه التهمة بڤانونو أصبح من الممكن تصميم حملة تعتيم إعلامي ناجحة تركز على أنه تم الاحتيال على «الصنداي تايمز» من قبل اثنين من النصابين.

ومرة أخرى تم اللجوء إلى خدمات آرى بن منشه الذي لا يكل ولا يعيا حيث وجه إليه أدموني أمراً بالسفر إلى لندن بغية الحصول على النسخ التي عرضها جريرو على الصنداي ميرور. وفي هذا الشأن يذكر بن منشه في وقت لاحق لسيمور هيرش صحفي التحقيقات الأمريكي المحنك: قوله «كان نيكولاس دافيز قد رتب لجريرو لقاء مع الصحفي الأمريكي الذي هو أنا. وعند اجتماعي به كان جريرو متلهفاً لإبرام صفقة أخرى فعرض عليه عدداً من الصور الفوتوغرافية الملونة، ولم تكن لدي أية فكرة عما إذا كانت على أي قدر من الأهمية. كان من الضروري عرضها على خبراء مختصين في إسرائيل لذا أخبرت جريرو أني أحتاج إلى نسخ منها، الأمر الذي عارضه هو فقلت له إنه يلزمني التأكد من صحة هذه الصور إذا كان يريد الحصول على المال لقاء ذلك، وأن نيكولاس شاهد على صحة ما أقول». وعلى أثر ذلك سلّم جريرو عدداً من الصور إلى بن منشه الذي أرسلها للتو إلى تل أبيب.

أحدث وصول هذه الصور إلى تل أبيب ذعراً جديداً إذ تعرف المسؤولون في ديمونة على صور الوحدة «ماخون - ٢» وظهرت في إحدى الصور المنطقة التي يتم فيها تصنيع الألغام الأرضية النووية قبل زرعها على طول حدود مرتفعات الجولان بين إسرائيل وسورية. ولم يعد هناك أي أمل في القضاء على مصداقية قصة فانونو. فبإمكان أي عالم طبيعة نووي التعرف على هذه المعدات والهدف منها.

شكل بيريز رئيس الحكومة فرقة طوارىء لمراقبة الموقوف، ودعا بعض رؤساء الأقسام في الموساد إلى إرسال فرقة خاصة إلى لندن لمطاردة فانونو وقتله. لكن الفكرة لم ترق لأدموني الذي كان يرى أن الصنداي تايمز لن تتمكن من توفير مساحة كافية لنشر كل ما أفصح به

فانونو لها، الأمر الذي يتطلب كتاباً مفصلاً يحتوي على كل المعلومات التي كانت بحوزة هذا الفني. وعند انتهاء الجريدة من فانونو فإن السيناريو المحتمل هو أن يتم استجوابه من قبل المخابرات البريطانية والأمريكية مما سيعرض إسرائيل لمشاكل أكثر خطورة. لذلك بات من الحتمي معرفة كيفية قيام فانونو بتنفيذ نشاطه في التجسس في ديمونة وما إذا كان يعمل بمفرده أو مع آخرين، وعندها يصبح السؤال هو: لحساب من يعملون؟ كان السبيل الوحيد لاكتشاف كل هذه الأمور هو استعادة فانونو إلى إسرائيل والتحقيق معه.

كان أدموني في حاجة إلى وسيلة لإخراج فانونو من المخبأ الذي أعدته له الصنداي تايمز. فبخروجه سيسهل التعامل معه. وإذا ما اضطر الموساد إلى قتله في نهاية الأمر فلن تكون تلك هي المرة الأولى له في اقتراف جرائم القتل في شوارع لندن. فقد قام الموساد من قبل بقتل أحد أعضاء فريق أيلول الأسود في حادث سير أعد بصورة مسرحية محكمة أثناء سيره على الأقدام عائداً إلى الفندق وذلك كجزء من ملاحقة مقترفي مذبحة الرياضيين الإسرائيليين في أثناء انعقاد الألعاب الأولمبية في ميونيخ.

وإدراكاً من الصنداي تايمز أن إسرائيل ستبذل كل ما في وسعها للتشكيك في مصداقية فانونو وروايته، رتبت الصحيفة للدكتور فرانك بارنابي عالم الفيزياء النووية الذي لا غبار عليه في مجاله بأي حال من الأحوال والذي عمل في منشآت الأسلحة النووية البريطانية في الدرماستون استجواب فانونو. وقد خلص هذا العالم إلى أن الصور والمستندات جديرة بالثقة والتصديق، وأن رواية فانونو بتفاصيلها تتسم بالدقة الكاملة.

عندئذٍ اتخذت الصحيفة خطوة حاسمة فقدم مراسلها ملخصاً بكل ما أفصح عنه ڤانونو مع مجموعة نسخ مصورة تحوي جواز سفره والصور الفوتوغرافية والتقييم الذي أجراه الدكتور بارنابي إلى سفارة إسرائيل بلندن. وكان الهدف من جراء ذلك الحصول على اعتراف بذلك من حكومة إسرائيل، إلا أن السفارة وصفت تلك المعلومات بأنها «ليس لها أي أساس من الصحة».

أما في تل أبيب فقد سببت الصور التي وصلت سفارتها في لندن رعباً جديداً كما وصف بن منشه ذلك قائلاً: «كان قد تم إفشاء السر وكنت لا أزال في لندن حين طلب دافيز وماكسويل رؤيتي. وتمت المقابلة في نفس المكتب الذي وافقت فيه على دفع مبلغ ثمانية ملايين دولار عمولة في صفقة إخفاء الأموال وراء الستار الحديدي. وأوضح ماكسويل أنه يتفهم الإجراء اللازم للتصدي لقصة ڤانونو وقال أنه قد تحدث في ذلك الشأن مع المدير في تل أبيب». كانت نتيجة هذا الاتصال الهاتفي أن توصل أدموني أخيراً إلى وسيلة لإخراج ڤانونو من مخبئه.

ظهر العدد التالي للصنداي ميرور به صورة كبيرة لموردخاي ڤانونو تصحبها قصة تسخر من ڤانونو وجريرو متهمة الصحافي الكولومبي بالإفك والاحتيال وتصف الادعاءات حول قدرة إسرائيل النووية بأنها محض خيال وقد قام ماكسويل بإملاء الخبر كما أشرف بنفسه على تحديد المكان البارز لوضع صورة ڤانونو. وهكذا تم توجيه الطلقة الأولى في حملة التضليل الإعلامي الكبرى التي دبرها قسم الحرب النفسية التابع لجهاز الموساد.

اهتاج ڤانونو لدى قراءته هذا الخبر لدرجة أنه أخبر «مضيفيه» من المراسلين الذين أشرفوا على إيوائه منذ وصوله إلى لندن أنه يرغب

في الاختفاء وألا يعرف أحد مكانه، وقد كان يقيم وقتها في فندق ماونتباتن الذي اختاره له حارسوه ويقع بالقرب من شارع شافتسبري في وسط لندن.

وبعد ظهور الخبر في الصنداي ميرور تمت تعبئة جهود جميع عملاء الموساد من الخارج للعثور على ڤانونو في لندن. وأعطيت قوائم بأسماء الفنادق إلى عشرات من المتطوعين اليهود للبحث عنه فيها. وفي كل مكالمة هاتفية كانوا يقدمون وصفاً لڤانونو من خلال الصورة التي نشرتها له الصحيفة وكان كل منهم يدعي أنه قريب لڤانونو يبغي معرفة إذا ما كان نزيلاً لديهم.

وجاء يوم الأربعاء الخامس والعشرون من سبتمبر (أيلول) حين تناهى إلى علم أدموني أنه تم تحديد مكان ڤانونو. حينها كان الوقت قد حان لإعداد المرحلة الثانية من الخطة الموضوعة.

ولأن العلاقة بين العمل الاستخباري والإيقاع في الشرك النسائي قديمة قدم التجسس ذاته. ففي السفر الرابع من أسفار موسى نجد رحاب امرأة زانية تنقذ حياة إثنين من جواسيس يشوع من يد القائمين على خدمات الاستخبارات المضادة التابعة لملك أريحا. ويعد هذا اللقاء هو الأول من نوعه بين أقدم مهنتين في العالم. ومن بين أسلاف رحاب في العمل في البغاء والتجسس معاً نجد ماتا هاري وهي فاتنة هولندية عملت لحساب الألمان في الحرب العالمية الأولى وأعدمت على يد الفرنسيين. أما الموساد فقد أمن منذ نشأته بأهمية مصيدة الجنس. ويوضح مائير عاميت: «يعد هذا سلاحاً آخر، فللمرأة مهارات لا يمتلكها الرجل، فهي تعرف كيف تنصت، وحديث الوسائد في الليل لا يمثل مشكلة لها. ويمتلىء تاريخ الاستخبارات في العصر الحديث بروايات

من نساء استخدمن الجنس لمصلحة بلادهن. ومن الحماقة نفي أن إسرائيل قد اشتركت في ذلك. فالنساء لدينا يتطوعن لهذا الغرض وهن ذوات مبادىء سامية ونبيلة ويدركن المخاطر على أكمل وجه. لذا يتطلب الأمر شجاعة من نوع خاص. والمسألة لا تكمن في مجرد مضاجعة شخص آخر بل حمله على الاعتقاد بانه لن يحصل على ذلك إلا في مقابل ما يفصح عنه من معلومات. ولكن ما سبق في حد ذاته لا يكفي لوصف المهارات الكبرى المطلوبة لتحقيق هذا الأمر».

كان ناحوم أدموني قد انتقى المرأة التي تتحلى بهذه المواهب لإغواء مردخاي ڤانونو والإيقاع به في يد الموساد.

كانت شيريل بن توف «بات ليفيحا» وهي أقل من الكاتسا بدرجة واحد. وُلدت شيريل في أورلاندو بفلوريدا لعائلة ثرية وشهدت زواج والديها ينتهي بطلاق مرير. فوجدت شيريل سلواها في الدراسات الدينية التي قادتها لقضاء ثلاثة شهور في كيبوتز في إسرائيل. هناك انغمست في دراسة التاريخ اليهودي واللغة العبرية، ثم قررت البقاء في إسرائيل. والتقت وهي في الثامنة عشرة مع يهودي من الصابرا، أي يهودي من مواليد إسرائيل اسمه عوفر بن توف ووقعت في غرامه. كان بن توف يعمل محللاً في أمان Aman جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلية، وتزوجا بعد عام من لقائهما الأول.

ضم ضيوف حفل العرس عدداً من أعضاء جهاز الموساد البارزين من بينهم أحد أعضاء قسم تجنيد العاملين بالموساد (ملوتخا)، الذي طرح خلال عقد القران على شيريل عدة أسئلة يمكن أن تتوقعها أي عروس: هل تنوي مواصلة العمل بعد الزواج؟ أم تكوين أسرة؟ الخ. وفي غمرة انشغالها بالحفل ردت شيريل قائلة إن هدفها الوحيد الذي تصبوا إليه هو العمل على إيجاد سبيل لرد الجميل إلى بلدها الذي منحها الكثير

جداً وأشارت إلى إسرائيل بلفظ «العائلة» وبعد شهر من تاريخ عودتها من رحلة شهر العسل تلقت شيريل مكالمة من ضيف العرس قائلاً لها: «إنه لا يزال يفكر فيما دار بينهما من حديث وإمكانية وجود وسيلة تخدم بها بلدها».

واتفق الإثنان على اللقاء في مقهى بوسط تل أبيب حيث فاجأ الضيف شيريل بسرد دقيق للدرجات التي حصلت عليها في المدرسة وتاريخ عائلتها وكيف التقت بزوجها. ولما استشعر الغضب من ناحيتها لاختراقه خصوصيات حياتها سارع بتوضيح أن كل هذه المعلومات متوفرة في ملف زوجها في جهاز «أمان». شعر مسؤول التجنيد أن علاقته بمجندة محتملة كشيريل تتطلب حذراً. كان الأمر يشبه إلى حد كبير الشخص المشعوذ الذي يلقن مبتدئاً جديداً على عتبة الدخول في طائفته السرية رموز هذه الطائفة وتعاويذها والشعائر الخاصة بها: كرفقة أورفيوس بلا موسيقى هكذا قدم الرجل صورة جاهزة عن الوضع بعد أن أطلع شيريل على الهيئة التي يعمل لحسابها. فالموساد يبحث عن أشخاص يرغبون في خدمة وطنهم، وفي الحفل قلت أن إسرائيل هي عائلتك. حسناً فالموساد عائلة بمجرد أن يتم قبولك فيها تصبحين جزءاً منها وهي تحميك وترعاك. وفي مقابل ذلك تقومين بخدمة العائلة بأي وسيلة تُطلب منك، فهل يهمك هذا؟

وفي الغرفة التي تمت فيها المقابلة مال مسؤول التجنيد عبر المائدة وقال لها إنه لا يزال بإمكانها التراجع عن الأمر ولا يجب أن تخشى أية اتهامات، أو أن تشعر بالفشل لكن شيريل أبلغته بأنها على تمام الاستعداد لخوض مرحلة التدريب.

وتم تعيين شيريل بن توف لتعمل في أحد أقسام الموساد يدعى

قيسروت وهو قسم يتعامل مع سفارات إسرائيل المختلفة. وتمثل دورها في توفير الغطاء اللازم كصديقة أو زوجة للكاتسا أثناء أداء مهامهم. وعملت في عدد من المدن الأوروبية التي كانت تجتازها على اعتبار أنها مواطنة أمريكية لكنها لم تضاجع أياً من عشاقها أو أزواجها المزعومين.

اطلع أدموني شخصياً شيريل على أهمية مهمتها الجديدة: عليها أن تستغل مهاراتها بعد تحديد مكان ڤانونو لتغويه ليغادر بريطانيا. وفي هذه المرة ستلعب دور سائحة أمريكية تسافر بمفردها في أوروبا بعد طلاقها المؤلم من زوجها، وستستخدم تفاصيل مستوحاة من واقعة طلاق والديها لإضفاء المصداقية على قصتها. أما القسم الثاني من الرواية فهو أن لها أختاً تعيش في روما، وتتلخص مهمتها في إحضار ڤانونو إلى هناك.

انضمت شيريل يوم الثلاثاء الموافق الثالث والعشرين من سبتمبر (أيلول) إلى فريق مؤلف من تسعة من الكاتسا من الموساد يعملون في لندن، وكان جميعهم تحت قيادة بيني زيڤي مدير عمليات الموساد، وهو رجل صارم ذو أسنان ملطخة بالسواد تكشف عن شرهه في التدخين.

أقام رجال الكاتسا في فندق ما بين شارع أوكسفورد وستراند. وقد أقام إثنان منهم في فندق ريجيت بالاس. أما شيريل بن توف فقد أقامت في فندق ستراند بالاس بالحجرة ١٠٥ بالقرب من الحجرة التي يشغلها ڤانونو.

ربما كان زيڤي أول من لاحظ التغيرات المزاجية لڤانونو حيث كانت تظهر عليه بوضوح إمارات التوتر الشديد. فبالنسبة له تعد لندن مكاناً غريباً على شخص نشأ في مدينة صغيرة كـ «بير سبع»، وعلى

الرغم من جهود المرافقين له فقد كان يشعر بالوحدة والاحتياج الشديد إلى امرأة ترافقه وتضاجعه. وقد سبق علماء التحليل النفسي في الموساد بالتنبؤ بذلك.

وفي يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر (أيلول) أصر ڤانونو على ترك حرسه والخروج بمفرده الأمر الذي قبلوه على مضض. ورغم ذلك راقبه أحد المراسلين الصحفيين بحذر وهو في ميدان ليستر الشهير.

هناك شوهد ڤانونو يخاطب امرأة وصفها الصحفي لاحقاً بأنها «في منتصف العشرينات من العمر، طولها حوالي خمسة أقدام وثماني بوصات، ممتلئة الجسم نسبياً، ذات شعر مصبوغ باللون الأصفر وشفتين كبيرتين، ترتدي قبعة بنية وبدلة من ذات اللون وأيضاً حذاء ذا كعب عال، ويرجح أن تكون يهودية».

بعد افتراقهما وعودة ڤانونو إلى الفندق أخبر حارسيه أنه تقابل مع فتاة أمريكية تدعى سيندي. وقال أنه اتفق معها على اللقاء مرة أخرى.

وبدأ القلق يساور مرافقي ڤانونو وقال أحدهم إن ظهور سيندي في يدان ليستر ربما لا يكون مصادفة إلا أن ڤانونو تجاهل مخاوفهم، فما قالته له سيندي كان كافياً ليجعله يرغب في أن يقضي معها وقتاً في شقة «أختها» بروما وليس في لندن.

الفصل العاشر

(العلاقة الخطرة)

في عام ١٩٧٦ عاد خبير الاتصالات ويليام هاميلتون إلى الولايات المتحدة من فيتنام حيث ابتكر شبكة من مواقع التنصت الأليكترونية لمراقبة الفيت كونج وقواتها تتنقل عبر الأدغال والغابات وعرضت على هاميلتون وظيفة في وكالة الأمن القومي. وكانت أولى واجباته وضع قاموس للغة الفيتنامية والإنجليزية على الكومبيوتر. وساهم ذلك مساهمة قوية في ترجمة رسائل الفيت كونج واستجواب الأسرى.

وشهد ذلك العصر ثورة في الاتصالات الأليكترونية فقد أتاحت الشرائح الدقيقة سماع الهمسات على بعد مائة ياردة، كما أن عدسات الأشعة فوق الحمراء ساعدت الإنسان على الرؤية في ظلمة الليل الحالكة.

عثر هاميلتون - وهو لا يزال يعمل في وكالة الأمن القومي على هوة في هذه السوق التي تتسع بصورة مستمرة، فسيصمم برنامج كومبيوتر للاتصال مع بنوك المعلومات في شبكات الكومبيوتر الأخرى. ومعنى تطبيق ذلك في عمل المخابرات إن الذي يملك البرنامج يستطيع تدمير معظم الشبكات الأخرى دون أن يكتشف مستخدموها ذلك.

ويعتزم هاميلتون ـ كشخص وطني ـ أن تكون حكومة الولايات المتحدة الأميركية أول عميل لهذا النظام. وبعد ثلاث سنوات من العمل أوشك هاميلتون على صنع برنامج المراقبة الأساسية وهو عبارة عن برنامج يستطيع متابعة حركات أعداد لا حصر لها من الناس في أي مكان من العالم.

واستقال هاميلتون من وكالة الأمن القومي واشترى شركة صغيرة تدعى أنسلو INSLAW. وكان هدف الشركة المعلن هو إعادة فحص إجراءات المحاكم والكشف عما إذا كان هناك أساس مشترك بين أطراف الدعوى والشهود وعائلاتهم، حتى محاميهم وكل من كان أو يمكن أن يصبح طرفاً في أي إجراء. وأطلق هاميلتون على هذا النظام اسم بروميس وبحلول عام ١٩٨١ تمكن من تطويره إلى حد أنه استطاع تسجيل حقوق الملكية الأدبية وتحويل أنسلو إلى شركة صغيرة تحقق الربح وابتسم له المستقبل وتفتحت له الأبواب. واحتجت وكالة الأمن القومي بأن هاميلتون استخدم مرافق البحوث لدى الوكالة لإنتاج برنامجه. ورفض هاميلتون هذا الزعم بشدة ولكنه عرض تأجير بروميس لوزارة العدل مباشرة على أن تحصل شركة أنسلو على رسم في كل مرحلة يستخدم فيها البرنامج. ولم تكن الصفقة المقترحة عادية، فوزارة العدل شأنها شأن أي وزارة أخرى، لديها مئات من المقاولين يقدمون خدمات. وأرسلت وزارة العدل، دون أن يعلم هاميلتون نسخة من برنامجه إلى وكالة الأمن القومي لوضع «تقييم» له.

وظلت الأسباب الكامنة وراء ذلك غير واضحة فقد أوضح هاميلتون لوزارة العدل أنه من الممكن أن يقوم البرنامج المعدل وجهاز التحقيقات لديها ومكتب التحقيقات الفيدرالي، عرضت بروميس أداة قوية لمكافحة غسيل النقود الذي تقوم به المافيا والأنشطة الجنائية

الأخرى. ومن الممكن أن يؤدي البرنامج بين عشية وضحاها إلى ثورة في عمل هيئة مكافحة المخدرات ضد زعماء المخدرات في كولومبيا. وبالنسبة لوكالة المخابرات المركزية، فمن الممكن أن تصبح بروميس سلاحاً لا يقل فعالية عن قمر التجسس. ويبدو أن الاحتمالات لا نهاية لها.

وصل برايان إلى تل أبيب عام ١٩٩٠. وكان أكثر من مرهق لطول رحلته، ويعود شحوب وجهه إلى غضبه لأن وزارة العدل كانت تستخدم نسخة من برنامج بروميس لمتابعة غسيل أموال المخدارات والأنشطة الجنائية الأخرى. وعلم رايي إيتان بغريزته أن صديقه القديم ما كان ليصل في وقت أنسب من ذلك. ومرة أخرى دب الصراع بين الموساد والأعضاء الآخرين في جهاز المخابرات الإسرائيلية، وذلك بسبب انتفاضة عربية جديدة، والممكن أن يكون بروميس سلاحاً فعالاً لمواجهة أنشطة الانتفاضة.

انتشرت الانتفاضة بسرعة أذهلت الإسرائيليين وشملت الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكلما زاد عدد الذين اعتقلهم الجيش الإسرائيلي وأطلق النار عليهم وأمعن الضرب فيهم واستأصلهم من بيوتهم، زادت سرعة انتشار الانتفاضة. وخارج إسرائيل، حدث نوع من الارتباك عندما استخدم شاب عربي طائرة انزلاقية شراعية ليتجنب دفاعات الحدود المتطورة الإسرائيلية مع لبنان، وهبط بالقرب من بلدة كريات شمونا شمال البلاد. وفي خلال دقائق تمكن الشاب من قتل ستة من الجنود الإسرائيليين المسلحين وأصاب سبعة آخرين بجراح قبل أن يلقي حتفه. وأصبح الحادث رمزاً بالنسبة للفلسطينيين. أما في إسرائيل فوقعت عملية تبادل اتهامات في جهاز المخابرات الإسرائيلي. فقد ألقت شين بيت اللوم على إيتان، ووجه الاثنان اللوم إلى الموساد

بسبب فشله في تقديم إنذار مبكر من لبنان. ثم حدث ما هو أسوأ هرب ستة من الإرهابيين الخطرين من سجن في غزة عليه حراسة مشددة. ووجه الموساد اللوم إلى شين بيت فقالت الشين بيت أن مؤامرة الهرب نظمت من خارج البلاد وهذا وضع الموساد موضع الاتهام.

وكان الجنود والمدنيون الإسرائيليون يتعرضون يومياً تقريباً للقتل في شوارع القدس وتل أبيب وحيفا. وفي محاولة يائسة لاستعادة النفوذ، أعلن إسحق رابين وزير الدفاع أنه ينفذ سياسة تقوم على «القوة والمقدرة والضرب»، بيد أن تأثير هذه السياسة كان واهياً وضعيفاً، نظراً للصراع العميق بين مختلف الأجهزة عجزت المخابرات الإسرائيلية عن الاتفاق على سياسة منسقة لمواجهة المقاومة الفلسطينية الجماعية على نطاق لم يعرف له مثيل منذ ١٩٤٨ وكانت هناك مشكلة أخرى تمثلت في النقد الذي وجهته الولايات المتحدة الأميركية بسبب تزايد الأدلة على شاشات التلفزيون للأساليب الوحشية التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون. فقد بدأت الشبكات الأميركية وهي عادة صديقة لإسرائيل، تعرض لأول مرة أفلاماً طويلة عن الوحشية التي فاقت ما حدث في الميدان السماوي في بكين. فقد ظهر في أحد الأفلام جنديان إسرائيليان وهما يحطمان بوحشية صخرة على ذراع شاب فلسطيني، وظهرت دورية لجيش الدفاع الإسرائيلي على الهواء وهي تضرب سيده فلسطينية حامل، كما ظهر أطفال في الخليل وكعوب بنادق جيش الدفاع تسحق أجسادهم لأنهم قاموا بإلقاء حجارة.

وأدت الانتفاضة إلى تشكيل القيادة الوطنية المتحدة للثورة.

وأرسلت إلى كل جماعة عربية تعليمات باللغة العربية حول كيفية

الإضراب وإغلاق المحلات ومقاطعة البضائع الإسرائيلية ورفض الاعتراف بالإدارة المدنية. وهذا يذكرنا بالمقاومة في الأيام الأخيرة للاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

واتخذ ناحوم أدموني إجراء في محاولة يائسة لاستعادة الدور البارز للموساد في جهاز الاستخبارات ففي ١٤ فبراير (شباط) ١٩٨٨ أرسل فريق صغير من العملاء DON إلى ميناء ليماسول القبرصي، وزرع الفريق قنبلة شديدة الانفجار في شاسيه سيارة جولف فولكس واجن يملكها محمد التميمي أحد قادة الانتفاضة. وكان معه اثنان من كبار ضباط منظمة التحرير الفلسطينية. وكان الثلاثة قد التقوا مع مسؤولين ليبيين سلموهم مليون دولار لمواصلة تمويل الانتفاضة. وقتل الثلاثة في الانفجار الذي هز الميناء كله. وقامت الموساد بضربة أخرى في اليوم التالي إذ زرعت لغماً بحرياً في سفينة ركاب تدعى سوى فاين، وهي سفينة ركاب اشترتها منظمة التحرير الفلسطينية لعملية علاقات عامة. حيث من المقرر دعوة مجموعة من الصحافيين العالميين، ثم تبحر إلى حيفا لتذكير الفلسطينيين «بحق العودة إلى أرض الوطن» وكتذكير قوي للقوارب اليهودية، التي خلدتها عملية الخروج، والتي تحدت قبل أربعين عاماً الأسطول البريطاني لنقل من بقي على قيد الحياة من مذبحة اليهود في أوروبا إلى إسرائيل، وكذلك بموجب «حقهم في العودة». وغرقت السفينة.

لقد استخدم ياسر عرفات الانتفاضة كفرصة لاستعادة السيطرة على زمام شعبه المشرد. وكان صوته يتردد ثائراً عبر الراديو والتلفزيون في أنحاء العالم يعلن بأن ما يحدث هو نتيجة مباشرة لسياسة إسرائيل القائمة على استلاب الأرض العربية. ودعا كل عربي

إلى التأييد والمساندة. وذات يوم كان عرفات في الكويت يحث حماس، وهي الحركة التي تدعمها إيران، على تقديم ما لديها من مهارات فتاكة. ثم زار لبنان حيث التقى بزعماء الجهاد الإسلامي. لقد حقق عرفات ما بدا منذ وقت قصير أنه ضرب من المستحيل إذ وحد العرب من كل اتجاه وراء قضية مشتركة وكان عرفات بالنسبة لهم «السيد لفلسطين» أو الرئيس.

كان الموساد حائراً بسبب استراتيجيات عرفات وهو يتنقل بين العواصم العربية. فلم يكن لديه سوى إنذار بسيط، أو لا إنذار على الإطلاق بالمكان الذي سيصل إليه، أو من الطرف التالي الذي سوف يسانده.

وشرح رافي إيتان إلى ضيفه بريان (مصمم برامج الكومبيوتر) هذه الأشياء بل وما هو أكثر منها. ووصف بريان بدوره كيف يعمل بروميس. وكان الأمر يحتاج لمزيد من العمل لكي يعمل البرنامج بسرعة. وأدرك رافي إيتان أنه من الممكن أن يكون للبرنامج أثر على الانتفاضة ونقطة البداية هي أنه من الممكن ربط النظام بأجهزة الحاسب الآلي في مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية السبعة عشر المنتشرة في أنحاء العالم لمعرفة المكان الذي سيتوجه إليه عرفات وما التخطيط الذي يمكن أن يقوم به. ونحى رافي إيتان البحث عن الخردة وركز على كيفية استغلال العالم الجديد الذي يقدمه برنامج بروميس.

على سبيل المثال، لم يعد ضرورياً الاعتماد فقط على المعلومات البشرية لفهم عقلية إرهابي. إذ من الممكن بواسطة بروميس أن نعرف بالضبط متى وأين سيوجه ذلك الشخص ضربته. ومن الممكن للبرنامج متابعة كل خطوة يخطوها الإرهابي.

ولا شك أن تحقيق مثل هذا الأجراء سيجعله مرة أخرى شخصية قوية في جهاز المخابرات الإسرائيلية.

عندما عاد إيرل برايان إلى الولايات المتحدة الأميركية، شكل رافي إيتان فريقاً صغيراً من المبرمجين السابقين في لاكام. فقد قاموا بفك قرص برنامج بروميس وأعادوا ترتيب أجزائه المختلفة، وأضافوا عدة عناصر من عندهم. ولم يكن هناك مجال لأي شخص أن يدعي ملكيته لما أصبح عليه البرنامج. وقرر رافي إيتان الاحتفاظ بالاسم الأصلي باعتباره «أداة تسويق جيدة لشرح ماهية النظام».

ذكر بن مناشة أنه قبل أن يصبح من الممكن بيع البرنامج، كان لا بد لرافي إيتان أن يضيف عنصراً آخر. ويزعم بن مينشه أنه استدعى أحد الخبراء في إدخال شريحة اليكترونية «نقطة تصيد» بحيث تسمح دون علم أي مشتر، لرافي إيتان بأن يعرف نوع المعلومات التي جرى البحث عنها.

وكان بن مناشة يعرف شخصاً يستطيع ابتكار نقطة تصيد لا تستطيع أكثر أجهزة الكشف تعقيداً أن تكتشفها. وكان ذلك الشخص يدير شركة صغيرة لبحوث وتطوير الكومبيوتر في شمال كاليفورنيا. وكان هو وبن مناشة أصدقاء دراسة. ووافق مقابل خمسة آلاف دولار على صنع الرقيقة الصغيرة. ويعترف بن مناشة أنها كانت رخيصة الثمن، وكانت الرحلة التالية تجربة النظام.

وقع الاختيار على المملكة الأردنية كموقع لذلك ليس لأنها مجاورة لإسرائيل فقط، وإنما لأنها أصبحت وكراً لزعماء الانتفاضة. وكان هؤلاء يوجهون من المملكة الصحراوية جماهير الشارع العربي

في الضفة الغربية وقطاع غزة لشن مزيد من الهجمات داخل إسرائيل. وبعد وقوع كل حادث فظيع وحشي، كان فريق من منظمة التحرير الفلسطينية يتسللون عبر الحدود إلى الأردن وغالباً ما يفعلون ذلك بتواطؤ وتستر من الجيش الأردني.

ومن ثم وقبل الانتفاضة أصبحت الأردن أرض اختبار وتجارب للموساد لتطوير مهاراته الألكترونية. ففي السبعينات، أدخل فنيو الموساد الكومبيوتر الذي باعته IBM إلى جهاز المخابرات الحربية هناك. وكانت المعلومات التي تم الحصول عليها مكملة لمعلومات العميل الذي زرعه رافي إيتان في قصر الملك حسين. وكان برنامج بروميس يتضمن أكثر من ذلك.

كان من المستحيل بيع الجهاز إلى الأردن مباشرة لأن علاقات العمل الطبيعية بين البلدين كانت لا تزال تحتاج إلى بضع سنوات. وبدلاً من ذلك قامت شركة إيرال براين، هادرون، بعقد الصفقة. وحينما قام خبراء الكومبيوتر في الشركة بتركيب البرنامج في القيادة الحربية في عمان، اكتشفوا أن لدى الأردنيين نظاماً فرنسي الصنع لمراقبة تحركات زعماء منظمة التحرير الفلسطينية. وتم سراً ربط بروميس بالنظام الفرنسي، وسرعان ما رأى رافي إيتان في تل أبيب النتائج إذ كشفت نقطة التصيد زعماء المنظمة الذين يراقبهم الأردن.

وكانت المرحلة التالية إعداد درجة المبيعات لبروميس. ووقع الاختيار على ياسر عرفات كمثال نموذجي. فقد كان المعروف عنه أنه ذو وعي أمني، فقد كان يغير خططه بصفة مستمرة، ولم ينم أبداً في نفس السرير ليلتين متتاليتين، ويغير مواعيد وجباته في اللحظة الأخيرة.

وكلما تحرك عرفات، كان يتم إدخال التفاصيل في كومبيوتر آمن

لدى المنظمة، ولكن برنامج بروميس كان يستطيع اقتحام دفاعات الكومبيوتر لاكتشاف الأسماء المستعارة وجوازات السفر المزورة التي كان يستخدمها. واستطاع برنامج بروميس الحصول على فواتير الهاتف ومراقبة الأرقام التي يطلبها ثم يقوم بعملية فحص لتلك المكالمات ومقارنتها بمكالمات أخرى جرت من تلك الأرقام وبذلك استطاع بروميس الحصول على «صورة» عن اتصالات عرفات.

وفي أثناء رحلته كان عرفات يخطر سلطات الأمن المحلية بوجوده وتتخذ الخطوات لتوفير الحماية. وكان في وسع البرنامج الحصول على التفاصيل بدخول كومبيوتر البوليس ولم يكن في وسع ياسر عرفات أن يختبيء من بروميس حيثما ذهب.

تحقق نجاح مثير للبرنامج عندما اتصل أحد قادة الانتفاضة. انتقل إلى روما - برقم هاتف في بيروت رصدته أجهزة كومبيوتر الموساد بأنه منزل أحد صانعي القنابل المعروفين. وطلب المتحدث من روما لقاء صانع المتفجرات في أثينا. واستخدم الموساد بروميس لمراقبة جميع مكاتب السفر في روما وبيروت لمتابعة ترتيبات سفر الرجلين. وكشفت المراقبة في بيروت أن صانع المتفجرات طلب من شركات الخدمات المحلية عدم إرسال أية مؤن إلى منزله. وكشفت عمليات الفحص الأخرى التي قام بها برنامج الحاسبات الآلية المحلية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن صانع المتفجرات قام بتغيير خط الرحلة في اللحظة الأخيرة. ولكن هذا لم ينفعه. فقد قتل بواسطة قنبلة في سيارة وهو في الطريق إلى مطار بيروت، بعد ذلك بقليل، قتل قائد الانتفاضة في روما في حادث إطلاق نار.

في واشنطن استخدم إخصائيو الموساد في السفارة الإسرائيلية

بروميس لاختراق اتصالات البعثات الدبلوماسية الأخرى ووزارات الحكومة الأميركية. وقد حدث الشيء نفسه في لندن وغيرها من العواصم الأوروبية. واستمر النظام في توفير معلومات قيمة للموساد. وبحلول عام ١٩٨٩ تم بيع ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من برامج بروميس إلى بريطانيا وأستراليا وكوريا الجنوبية وكندا.

بعد ذلك بفترة قصيرة طار روبرت ماكسويل إلى موسكو للقاء ميخائيل جورباتشوف رسمياً. أما في الحقيقة فقد حضر لبيع بروميس إلى المخابرات السوفييتية KGB وعن طريق الرقيقة الدقيقة ـ نقطة التصيد ـ حصلت إسرائيل بصورة فريدة على المعلومات العسكرية السوفييانية، وبذلك أصبح الموساد واحداً من أجهزة المخابرات الأفضل اطلاعاً على النوايا الروسية.

ولكن السيتي (حي المال والأعمال في لندن) الذي كان يستجيب دائماً لاحتياجات ماكسويل بدأ يحجم عن مواصلة توفير التمويل له. وشعر الممولون المتشددون الذين قابلهم ماكسويل أنه يوجد وراء أساليب التهديد والوعيد رجل أخذ يفقد الفطنة المالية التي كانت تسمح لهم في الماضي أن يتجاوزوا عن الكثير. ففي تلك الأيام كان يهدد ويغضب عند أبسط التحديات. وكان المصرفيون يحدون من غضبه ويمتثلون لطلباته. إلا أنهم لا يريدون الاستمرار في ذلك. ففي بنك إنجلترا وغيره من المؤسسات المالية في لندن انتشر القول بأن ماكسويل لم يعد الرهان المضمون والمأمون.

وكانت معلوماتهم تستند إلى حد ما على تقارير سرية من إسرائيل تقول إن ماكسويل يتعرض للضغط من مستثمريه الإسرائيليين الأصليين كي يسدد لهم الأموال التي ساعدته على شراء

مجموعة ميرور وقد فات الزمن المحدد للسداد وأصبحت مطالب الإسرائيليين أكثر إلحاحاً. وحاول ماكسويل أن يتجنبهم فوعدهم بعائد أكبر على أموالهم إذا وافقوا على الانتظار ولم يقتنع الإسرائيليون فقد طلبوا استرداد أموالهم الآن من أجل ذلك حضر ماكسويل إلى تل أبيب على أمل أن يمنحوه مدة أخرى لسداد الدين ولم تكن الدلائل تبشر بخير إذ أثناء رحلته تلقى عدة مكالمات هاتفية غاضبة من المستثمرين يهددونه برفع القضية أمام هيئة الرقابة بالسيتي.

وكانت هناك مسألة أخرى يتعين على ماكسويل الاهتمام بها فقد سلب جانب من الأرباح الكبيرة من شركة ORA التي كلف بإخفائها في بنوك الكتلة السوفياتية واستغل هذه الأموال في محاولة دعم مجموعة ميرور. وكان ماكسويل قد سرق كل ما في وسعه من صندوق تقاعد الموظفين ولكن أموال ORA لن تغطي الكثير من المطلوب.

كان هناك احتمال واحد ـ وهو مؤسسة سايتكس التي يمتلكها في تل أبيب، والتي تنتج معدات طباعة عالية التقنية فإذا أمكن بيع هذه الشركة بسرعة، فمن الممكن أن تسهم هذه الأموال في تسوية المسائل إلى حد ما.

استدعى ماكسويل مدير الشركة ـ وهو نجل رئيس الوزراء إسحق شامير ـ إلى جناحه. وجاءه المدير بأخبار غير سارة: وهي أن البيع غير ممكن إذ بالرغم من أن سايتكس كانت محافظة على مركزها إلا أنها كانت تواجه منافسة متزايدة، وليس هذا هو الوقت المناسب لعرضها في السوق. وسوف يؤدي بيعها إلى توقف أشخاص مهرة عن العمل في وقت كانت فيه البطالة تمثل مشكلة خطيرة في إسرائيل.

وكان رد فعل ماكسويل ثورة غضب عنيفة فقد تلاشى آخر أمل له

في الإنقاذ والنجاة. وارتكب خطأ تكتيكياً في توبيخه لنجل رئيس الوزراء الذي أبلغ أباه أن ماكسويل يعاني من أزمة مالية خطيرة. وأبلغ رئيس الوزراء ناجو أدموني لأنه كان يعلم باتصالات ماكسويل بالموساد. فعقد أدموني اجتماعاً لكبار الموظفين لمعالجة ما أصبح يمثل مشكلة. وظهر في ما بعد أنه تمت مناقشة عدة خيارات.

إذ تستطيع الموساد أن تطالب من رئيس الوزراء استخدام نفوذه الكبير لدى المستثمرين الإسرائيليين ليس من أجل الانتظار لمدة أطول لسداد أموالهم فحسب، بل وتعبئة مواردهم واتصالاتهم لتدبير الأموال اللازمة لإنقاذ ماكسويل. ورفض هذا الخيار على أساس أن ماكسويل أثار غضب شامير بموقفه المتعجرف إذ يعلم الجميع أن لدى شامير شعوراً قوياً بحفظ الذات ويرغب الآن في الابتعاد عن ماكسويل.

والخيار الثاني هو أن تتصل الموساد بأنصارها من كبار الشخصيات في السيتي ودعوتهم لدعم عملية إنقاذ. ومن الممكن في الوقت نفسه تشجيع الصحافيين من أصدقاء الموساد في بريطانيا بكتابة قصص مؤيدة لرجل الأعمال الذي يواجه متاعب.

ومرة أخرى، استبعدت هذه المقترحات. فقد تلقى أدموني تقارير من لندن تفيد أن كثيرين من المؤيدين يرحبون بنهاية ماكسويل وأن عدداً قليلاً من الصحافيين خارج صحف ميرور يحلمون بكتابة قصص مناسبة عن ملك المال الذي قضى سنوات يهدد فيها أجهزة الإعلام.

وكان الخيار الأخير للموساد هو قطع جميع الصلات مع ماكسويل وهنا توجد مخاطرة: إذ من الممكن أن يستغل ماكسويل، بناء على حالته الذهنية الحالية التي لا يمكن التنبؤ بها، الصحف التي يمتلكها

لمهاجمة الموساد. وفي ضوء ما سمح له به من اطلاع واتصالات، فقد تنطوي هذه القطيعة على أخطر العواقب.

وبناءً على هذه الملاحظة القاتمة انتهى الاجتماع إلى أن يقوم أدموني بلقاء ماكسويل وتذكيره بمسؤوليته نحو الموساد وإسرائيل. والتقى الرجلان في تلك الليلة حول مأدبة عشاء في جناح ماكسويل بالفندق وظل ما حدث به سراً من الأسرار. ولكن بعد ساعات غادر ماكسويل تل أبيب في طائرته الخاصة وكانت تلك آخر مرة. يراه أحد في إسرائيل على قيدة الحياة.

في الثلاثين من سبتمبر ١٩٩١ ظهر دليل آخر على سلوك ماكسويل الغريب عندما اتصل هاتفياً مع أدموني. ولم تكن هناك محاولة في لهجته هذه المرة لإخفاء التهديد. فقد زادت أحواله المالية سوءاً، وتعرض للاستجواب في البرلمان وأجهزة الأعلام مُنعت من انتقاده لمدة طويلة بسبب ضغوط فريق محاميه ذوي الأتعاب العالية ومجموعة الأوامر القضائية التي كانوا يحصلون عليها. وقال ماكسويل أنه ما لم يرتب الموساد على الفور إعادة كافة أموال صندوق معاشات الميرور المسروقة، فلا يعرف إذا كان في وسعه الاحتفاظ بسرية اجتماع أدموني مع فلاديمير كريوشخوف مدير المخابرات السوفياتية السابق. وكان كريوشخوف نزيلاً في أحد سجون موسكو في انتظار محاكمته لدوره في انقلاب فاشل للإطاحة بميخائيل جورباتشوف. وكان أحد العناصر الرئيسية في المؤامرة ذلك الاجتماع الذي عقده كريوشخوف، على ظهر يخت ماكسويل في البحر الأدرياتيكي قبيل الانقلاب بوقت قصير.

وكانت الموساد قد تعهدت بأن تستخدم إسرائيل نفوذها لدى

الولايات المتحدة والدول الأوروبية المهمة لإعلان الاعتراف الدبلوماسي بالنظام الجديد في موسكو. ومقابل ذلك سيرتب كريوشخوف هجرة جميع اليهود السوفيات إلى إسرائيل. ولم تسفر المناقشات عن شيء، غير أنها كشفت عن إمكانية الإساءة لمصداقية إسرائيل بصورة خطيرة لدى النظام الروسي الحالي والولايات المتحدة.

كتب فيكتور أوستروفسكي يقول إنه في تلك اللحظة «عقد اجتماع صغير لليمينيين في قيادة الموساد اتفقت فيه الآراء على تصفية ماكسويل». فإذا كان ادعاء أوستروفسكي صحيحاً ـ لم تنكره إسرائيل رسمياً ـ عندئذٍ ليس من المعقول إجراء ذلك دون موافقة السلطة العليا بل ربما بمعرفة ضمنية من جانب إسحاق شامير ـ رئيس الوزراء الإسرائيلي الرجل الذي شارك، في يوم من الأيام، في قتل أعداء إسرائيل وأصبحت المسألة أكثر أهمية للموساد بعد نشر كتاب للمحقق الصحافي الأميركي المخضرم سيمورم. هيرش: خيار شمشون: إسرائيل، أميركا والقنبلة، الذي تناول ظهور إسرائيل كقوة نووية. وقد فوجئت الموساد بأخبار الكتاب وأرسلت نسخاً منه إلى تل أبيب على وجه السرعة.

وبالرغم من أن الكتاب كتاب جيد البحث، فقد كان من الممكن التعامل مع الموضوع بصورة فعالة بالتزام الصمت. وقد تم استيعاب الدرس المؤلم للخطأ الذي ارتكب عند التعامل مع ناشر كتاب أوستروفسكي (وهو ناشر الكتاب الحالي). وكانت هناك مشكلة واحدة: قد حدد هيرش اتصالات ماكسويل مع الموساد. وشملت تلك العلاقات معالجة مجموعة ميرور لقضية ڤانونو والعلاقة بين نيك ديفيز و ORA واريه بن مناشة. وكما هو متوقع، احتمى ماكسويل وراء مجموعة من المحامين حصلوا على أوامر قضائية ضد هيرش وناشريه في لندن ولكنه

واجه نداً له لأول مرة. فقد رفض هيرش الحائز جائزة بوليتزر، الخضوع والخوف. وفي البرلمان تردد المزيد من الأسئلة حول صلات ماكسويل مع الموساد. وظهرت الشكوك القدسية على السطح. وطلب النواب معرفة، تحت حماية الامتيازات البرلمانية، مدى علم ماكسويل بعمليات الموساد في بريطانيا.

في ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩١ تلقى ماكسويل مكالمة هاتفية من عميل في السفارة الإسرائيلية في مدريد يطلب منه الحضور إلى إسبانيا في اليوم التالي. ويقول أوستروفسكي: «أن المتحدث وعد بتسوية الأمور وأنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف والفزع» وطلب من ماكسويل السفر إلى جبل طارق جواً ثم ركوب يخته «ليدي جيسلين» ومطالبة طاقم اليخت بالتوجه إلى جزر كناري وانتظار رسالة. ووافق روبرت ماكسويل على الامتثال لهذه التعليمات وفي ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) وصل ٤ إسرائيليون إلى الرباط بالمغرب. وقالوا إنهم سياح في إجازة صيد في أعماق البحر واستأجروا يختاً عابراً للمحيط ويمموا شطر جزر كناري. وفي يوم ٣١ أكتوبر، وبعد وصول ماكسويل إلى مرفأ سانتا كروز في جزر تنيريف، تناول العشاء وحده في فندق مينسي. وبعد العشاء انضم إليه شخص آخر لمدة قصيرة، فمن كان هذا الرجل وماذا دار بينهما ... هذا جزء من لغز الأيام الأخيرة لروبرت ماكسويل. وعاد ماكسويل إلى يخته وطلب عودته إلى البحر.

وتحت عنوان «سبق عالمي خاص: كيف قتل روبرت ماكسويل ولماذا؟» زعمت مجلة Business Age أن فريقاً من رجلين عبرو في زورق صغير أثناء الليل من مركب بحري كان يراقب ليدي جيسلين. وصعد الرجلان إلى اليخت فوجدا ماكسويل في المؤخرة وتغلب عليه الرجلان قبل

أن يستغيث طالباً النجدة. ثم حقنه أحد القاتلين بفقاعة هواء في رقبته عبر الوريد الوداجي، وقضى ماكسويل نحبه في لحظات.

وقالت المجلة في موضوعها أن الجثة ألقيت في البحر وعاد القتلة إلى يختهم. ومضت ١٦ ساعة قبل اكتشاف الحادثة ـ وهذه مدة كافية لاختفاء إبرة بحيث يصعب اكتشافها نتيجة اختفاء الجثة تحت الماء.

والمؤكد تماماً أنه في ليلة ٤ ـ ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) انتهت مشاكل الموساد مع روبرت ماكسويل في خضم أمواج الإطلنطي الباردة وظلت هناك أسئلة لا جواب لها بعد تحقيقات البوليس وتشريح إسبانيا للجثة. لماذا كان هناك اثنان مستيقظين فقط من طاقم اليخت وعددهم أحد عشر بحاراً؟ وعادة يشترك خمسة في نوبة الحراسة الليلية. لمن أرسل ماكسويل عدداً من رسائل الفاكس أثناء تلك الساعات؟ ماذا حدث لنسخ هذه الرسائل؟ لماذ استغرق بحارة اليخت هذه المدة الطويلة للتأكد من أن ماكسويل ليس على ظهر اليخت؟ ولماذا لم يدقوا جرس الإنذار لمدة سبعين دقيقة أخرى؟ وحتى اليوم لم تظهر إجابات مقنعة تشفى الغليل لهذه الأسئلة. وتم تكليف ثلاثة من الأطباء الشرعيين للقيام بعملية التشريح، وطلبوا إرسال الأعضاء والأنسجة الحيوية إلى مدريد لإجراء المزيد من الفحص عليه. وقبل القيام بذلك، تدخلت أسرة ماكسويل وتم تغليف الجثة وأرسلت جواً إلى إسرائيل لدفنها هناك. وعلى غير العادة، لم تعترض السلطات الإسبانية. فمن، أو ما الذي أقنع الأسرة بأن تتصرف على هذا النحو فجأة؟.

في العاشر من نوفمبر ١٩٩١ تمت مراسم جنازة ماكسويل على جبل الزيتون في القدس، حيث مدافن أبطال الأمة الأجلاء. وأجريت له جميع المراسيم الرسمية، فقد شارك فيها قادة الحكومة والمعارضة،

واستمع ما لا يقل عن ستة من الرؤساء الحاليين والسابقين للمخابرات الإسرائيلية إلى رئيس الوزراء شامير وهو يرثي الراحل بقوله: لقد فعل لإسرائيل أكثر مما يمكن قوله اليوم. وكان من بين المعزين رجل ارتدى حلة سوداء وقميصاً غامقاً تعلوه ياقة أشبه بتلك التي يرتديها رجال الدين، وهو من عائلة مسيحية لبنانية نحيل الجسم، طوله خمسة أقدام ولا يزيد وزنه عن ١٠٠ رطل. ولم يكن الأب إبراهيم كاهناً عادياً، فهو يعمل في سكرتارية الدولة بالفاتيكان. ولم يكن حضوره المهيب في الجنازة لمجرد الإعلان عن رحيل روبرت ماكسويل عن هذه الدنيا، وإنما للإقرار بالعلاقات القائمة بين الفاتكيان وإسرائيل التي لا تزال سراً غامضاً. فقد كان ذلك مثالاً كاملاً للقول الفصل الذي جاء على لسان مائير عاميت أن التعاون بين أجهزة المخابرات لا يعرف الحدود.

الفصل الحادي عشر:

(التحالفات الشريرة)

ظلت المعلومات التي كان البابا يتلقاها عن إسرائيل متأثرة باتصالات قساوسته الدبلوماسيين بالعرب والذين كانت تعقب زياراتهم لروما عودة الأساقفة إلى الدور الثالث من القصر الرسولي حيث يوجد مقر الخدمة البابوية الدبلوماسي المزدحم ذو الإضاءة الصناعية والضعيف التهوية والمعروف باسم قسم الأمور غير العادية. ويحتل مكتب الشرق الأوسط مكاناً ضيقاً يطل على ساحة سان داماسو.

وتتضمن أحد التقارير التي قدمت إلى الباب البولندي الجديد دراسة متعمقة عن القدس وأهمية تدويلها وحراستها بدوريات الأمم المتحدة وأن يتولى الفاتيكان مسؤولية كافة أماكن العبادة المسيحية. وعلمت تل أبيب بالاقتراح في أوائل ١٩٧٩ حينما تم تصوير وثيقة سلمها أحد الأساقفة إلى لبناني مسيحي ثري يقيم في روما، وكان أحد عملاء الموساد يعمل لديه. وأدى احتمال تدويل القدس إلى غضب رئيس الوزراء مناحم بيجن فأصدر أوامره إلى رئيس الموساد «إسحق حوفي» لمضاعفة جهوده لإقامة اتصالات مع الفاتيكان. وكلاهما كان يعلم ما الذي آلت إليه آخر محاولة للموساد لتحقيق ذلك تحت غطاء زيارة رسمية قامت بها جولدا مائير رئيسة الوزراء السابقة ذات الشأن. فقرب

نهاية ١٩٧٢ تلقت جولدا مائير إجابة من البابا «بولس الثاني» عن استعداده لاستقبالها في لقاء شخصي قصير. وفي ديسمبر (كانون الأول) من نفس السنة أوضحت - جولدا - لأعضاء مجلس الوزراء في اجتماعهم الأسبوعي - وكان أغلبهم يشك في ما إذا كان اللقاء سيسفر عن شيء ذي قيمة - أوضحت لهم إعجابها بالبناء شبه الماركسي للبابوية وما تتمتع به من إمكانية مالية لا سابق لها وكيف أنها تعمل من دون أحزاب سياسية أو نقابات عمال، مما يجعل الجهاز بأكمله مهيأ للسيطرة. إذ يسيطر المجمع الكنسي في روما على الأساقفة وهؤلاء يسيطرون على رجال الدين الذين يسيطرون بدورهم على شعب الكنيسة. وبما لديها من السكرتاريات واللجان والهياكل التنظيمية المتعددة فإنها - البابوية - تمثل نظاماً فضّل خصيصاً للتجسس والحصول على المعلومات!.

وتحدد موعد اللقاء مع البابا صباح ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣. وأخطرت جولدا مائير بأن اللقاء سيستغرق ٣٥ دقيقة بالضبط وفي نهايته سيتم تبادل الهدايا. ولم يكن يحدوها الأمل بأن تقنع البابا بزيارة إسرائيل، معتمدة على حجة قيام البابا برئاسته لأكثر من مائة ألف مسيحي عربي ممن يقيمون في إسرائيل سيرفع من مكانتها على المسرح العالمي. ولدواعي الأمن تقرر الا يصدر أي إعلان مسبق عن الزيارة وأنه لدى نهاية حضورها اجتماع مؤتمر المنظمة الدولية الاشتراكية في باريس تطير مباشرة إلى روما على طائرة «العال» المخصصة لها وأن الصحافيين المرافقين لها لن يحاطوا علماًبأنها ستزور الفاتيكان إلا أثناء الرحلة الجوية من باريس إلى روما. وطار «تسفي تسامير» رئيس الموساد إلى روما لمراجعة إجراءات الأمن. وكانت المدينة مرتعاً لعصابات الإرهاب من كل من الشرق الأوسط

وأوروبا. كذلك كانت روما قد أصبحت مركزاً مهماً للاستماع لمشاغل الموساد الجارية في ذلك الوقت ألا وهي العثور على وقتل الذين ارتكبوا مذبحة ميونيخ الأولمبية.

وكان «تسامير» قد عين أحد أقدر معاونيه «مارك هيسبر» للإقامة في روما لمتابعة الجالية العربية الكبيرة المقيمة بها. كما عين للإقامة في ميلانو ـ وكانت مركزاً آخر للنشاط الإرهابي ـ «شاي كولي» أحد معاونيه ذوي الخبرة. وبعد أن شرح «تسامير» لمعاونيه ما يتعلق بالزيارة المرتقبة ـ زيارة جولدا مائير ـ توجه ثلاثتهم إلى الفاتيكان.

وفي ١٠ يناير ١٩٧٣ وصلوا إلى الفاتيكان وكان رئيس أمن الفاتيكان في انتظارهم خارج القصر الرسولي وهو طويل القامة نحيف الوجه يرتدي بذلة زرقاء داكنة تمثل الزي الرسمي «للفبيبي» خدمة أمن الفاتيكان. وخلال عدة ساعات اصطحبهم في جولة داخل المدينة ـ الدولة الصغيرة ـ مختبراً الأماكن المحتملة التي يمكن أن يختبىء فيها قناص عربي قبل أن يحاول قتل جولدا مائير. ومن دون أن يحس ـ أو يعلم ـ رئيس أمن الفاتيكان، كان «تسفي تسامير» يبحث عن الأماكن التي يمكن للموساد أن يزرع فيها أجهزة تنصت بعد أن تقيم علاقة عمل مع الفاتيكان. وإثر ذلك عاد تسامير إلى تل أبيب راضياً عن إجراءات أمن الفاتيكان. والأكثر أهمية فقد بات معتقداً أنه لمس ميلاً إلى النعومة في موقف الفاتيكان حيال إسرائيل.

وحتى قبل أن تهبط طائرة «تسامير» في إسرائيل، كانت تفصيلات زيارة جولدا مائير بين أيدي أيلول الأسود، مما بدا مؤكداً في الغالب أنه تسريب تم بواسطة قسيس مؤيد للعرب في وزارة خارجية الفاتيكان.

وبالنسبة لعلي حسن سلامة رئيس مجموعة أيلول الأسود، وبالرغم من اهتمامه بالهرب من الموساد بعد أن أشرف على تخطيط حادث ميونيخ، فإن زيارة جولدا مائير تعتبر فرصة لا يمكنه تجاهلها. ومن ثم فقد بدأ في تخطيط هجوم بالصواريخ على طائراتها أثناء هبوطها في مطار ليوناردو دافنشي في روما. وكان سلامة يأمل في أن يقتل بجانب جولدا مائير أهم الوزراء الذين بصحبتها وكبار رجال الموساد الذين معها على الطائرة. وإلى أن تفيق إسرائيل من هذه الضربات فإن سلامة كان يتصور أنه ورجاله في مأمن بالمخبأ الذي كانوا يفاوضون الروس لتقديمه لهم.

ومنذ عام ١٩٦٨ حينما بدأ جيل ولد بعد الحرب العالمية الثانية في إعلان حربه ضد المجتمع تحت أسماء يائسة مثل الألوية الحمراء الإيطالية ومجموعة جيش ألمانيا الأحمر وجيش تحرير الشعب التركي ومنظمة إيتا الإسبانية، اكتشف الكرملين قيمة هذه التنظيمات للمعاونة في تدمير الإمبريالية وإسرائيل. ونجح الفدائيون العرب في كسب وتر حساس لدى المخابرات الروسية، فقد كانوا أكثر جسارة ونجاحاً من غيرهم من المجموعات الأخرى. وكانوا يواجهون عدواً بالغ القوة: الموساد، وهو جهاز تكرهه المخابرات السوفياتية منذ زمن ولكنها تقدره بسبب خطورته. ورتبت المخابرات السوفياتية لمجموعة مختارة من الناشطين العرب الحصول على تدريب في جامعة باتريس لومومبا في موسكو. وكان سلامة قد وضع اللمسات الأخيرة لعملية ميونيخ في جامعة باتريس لومومبا. وبعد الهجوم الدموي طلب الناجون من المجموعة من روسيا إيوائهم لديها. ولكن السوفيات قد عزفوا عن ذلك، إذ أن موجة الغضب التي فجرتها عملية ميونيخ جعلت الكرملين نفسه يخشى أن يكتشف العالم أنه يؤوي القتلة. ومع ذلك، فإن الروس لم

يفعلوا شيئاً للمعاونة في تعقب جماعة أيلول الأسود. ويقيناً لم يكتشفوا أن المجموعة تحتفظ بصواريخ سوفياتية مخبأة في يوغوسلافيا. وهذه الصواريخ هي التي سوف تستخدم في إسقاط طائرة جولدا مائير. والخطة، مثل كل الخطط التي صممها سلامة، كانت جريئة وسهلة. فكان المفروض أن تحمل الصواريخ على قارب في «دوبرفنيك» في يوغوسلافيا، ثم تنقل عبر بحر الأدرياتيك إلى «باري» على الشاطىء الشرقي لإيطاليا. ومن هناك تنقل بالطريق البري إلى روما قبيل وصول طائرة جولدا مائير بقليل. ولم ينس سلامة دروس الاستراتيجية التي تلقاها من أستاذه في المخابرات السوفياتية في جامعة باتريس لومومبا: دائماً ادفع العدو إلى النظر إلى الاتجاه الآخر. ومن ثم احتاج سلامة إلى جذب انتباه الموساد بعيداً عن روما أثناء الإعداد للهجوم.

وفي ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٧٢ هاجمت وحدة من أيلول الأسود السفارة الإسرائيلية في بانكوك ـ ورفع علم منظمة التحرير فوق المبنى واعتقل ستة من الإسرائيليين كرهائن. وسرعان ما حاصر ٥٠٠ من رجال بوليس تايلاند المبنى. وطالب الفدائيون بأن تفرج إسرائيل عن ستة وثلاثين من سجناء منظمة التحرير الفلسطينية وإلا قاموا بقتل الرهائن. وفي تل أبيب رفع الستار عن سيناريو مألوف. فقد عقد مجلس الوزراء جلسة طارئة. وكان هناك الحديث العادي عن الوقوف بقوة أو الاستسلام، وعادت ذكرى «عنتيبي» (أوغندا) إلى المخيلة. وفجأة، وبعد مفاوضات قصيرة، وافق الفدائيون ـ على غير المتوقع ـ على عرض من حكومة تايلاند بالسماح لهم بمغادرة البلاد في أمان مقابل الإفراج عن الرهائن. وبعد ساعات كانت وحدة أيلول الأسود على رحلة جوية أقلتها إلى القاهرة حيث اختفت بعد وصولها.

وفي الساعات الأولى من صباح ١٤ يناير ١٩٧٣ تلقى أحد عملاء

الموساد - يعمل في شبكة اتصالات تليفون روما، مكالمتين تليفونيتين من تليفون نقدي ملحق بعمارة يقيم بها جماعة من منظمة تحرير فلسطين أحياناً. وكانت المكالمات باللغة العربية التي يتكلمها العميل. وذكر المتحدث أن الوقت قد حان لتسليم شموع عيد الميلاد ليقيم الاحتفال. وقد أقنعت الكلمات «تسامير» بأنها تمثل «أمراً كودياً» مرتبطاًبعملية إرهابية وشيكة الوقوع. فشموع عيد الميلاد يمكن أن تشير إلى أسلحة وأقربها احتمالاً الصواريخ. والصاروخ هو السبيل المثالي لتحطيم طائرة جولدا مائير. ورأى تسامير الا معنى لتحذير «جولدا مائير» لأنها امرأة لا تعرف الخوف. ومن جهة أخرى فإن إخطار الفاتيكان سيؤدي بما يشبه المؤكد إلى إلغاء الزيارة. إذ آخر شيء يريده الفاتيكان أن يزج به في حادث إرهابي خاصة إذا كان ذلك سيؤدي إلى شجب أصدقائه العرب.

وفي روما أوضح «تسامير» مخاوفه لرئيس فرقة مقاومة الإرهاب الإيطالية. فقام ضباط الفرقة بمداهمة المبني الذي أجريت منه المكالمات الهاتفية إلى كل من بلدتي «باري»، و «أوستيا». وأسفر تفتيش إحدى الشقق بالمبنى عن اكتشاف كتيب تعليمات روسي عن كيفية إطلاق الصواريخ. ومع اقتراب الفجر ووصول طائرة جولدا مائير بعد ساعات قليلة قرر «تسامير» أن يركز بحثه في المطار وحوله. وبعد شروق الشمس بقليل عثر «هستر» على سيارة فيات نقل صغيرة تقف في حقل قريب من خط مرور الطائرات. وأمر «هستر» سائق السيارة بالخروج من مقصورة القيادة. وبدلاً من ذلك انفتح الباب الخلفي للسيارة وانطلقت منه عدة طلقات نارية. ولم يصب هستر الذي سارع بالرد بالمثل فأصاب شخصين في مؤخرة السيارة بجروح جسيمة. وشرع هستر في مطاردة السائق جرياً على قدميه ولحق به وهو يحاول خطف

سيارة تبين أن قائدها «كولي» عضو الموساد. واقتاد عنصر الموساد الشخص بعد أن أوثقاه في السيارة واندفعا بسرعة إلى مقر قيادة «تسامير» المتنقل والمتمثل في شاحنة. وكان رئيس الموساد (تسامير) قد تلى رسالة بالراديو بوجود ستة صواريخ بالسيارة ولكن كان عليه أن يعرف ما إذا كان هناك مزيد من الصواريخ في مكان آخر. وتلقى قائد السيارة «الڤان» ضرباً مبرحاً قبل أن يكشف عن مكان المجموعة الثانية من الصواريخ. وشك «تسامير» في ما إذا كان السائق ضمن المجموعة التي غطت فرار الجناة في حادث ميونيخ. واندفع تسامير بالشاحنة بأقصى سرعة ومعه «هستر» و «كولي» وبينهما الفدائي الذي أشبعوه ضرباً.

ولمحوا سيارة «ڤان» تقف إلى جانب الطريق وتخرج من سقفها رؤوس لثلاثة صواريخ. وعلى مقربة بدت طائرة جولدا مائير البوينغ ٧٤٧ التي لا يمكن الخطأ في معرفتها وهي تهبط بالتدريج وقد انعكست الشمس على علامتها المميزة. ومن دون أن يهدىء من سرعته استخدم تسامير الشاحنة كوسيلة للصدام ضد الشاحنة الواقفة جانباً، مما ألقى بها على الجانب الآخر فادى ذلك إلى شبه سحق أجسام الفدائيين اللذين كانا بداخلها حينما وقعت الصواريخ بثقلها عليهما. وبعد أن توقف لحظة ليلقي بالسائق الفاقد الوعي في الطريق بجوار «الڤان» سارع «تسامير» إلى مغادرة المكان بشاحنته بعد أن أخطر مجموعة مقاومة الإرهاب الإيطالية بأن هناك حادثة جديرة بالاهتمام وعليهم أن يفحصوها. وراودت «تسامير» لفترة قصيرة فكرة قتلهم ولكنه شعر أن وفاتهم قد تنعكس بالحرج الشديد على لقاء جولدا مائير مع البابا.

شعرت مائير وكأن وزن العالم أجمع قد ألقى بنفسه على كتفي

البابا الضيقين، مهدداً بتحطيم جسده الرقيق المتشح باللون الأبيض. وفي نهاية المقابلة ورداً على سؤالها قال «البابا»: أنه سيزور الأراضي المقدسة وتكلم عن مهمته باعتبارها نوعاً من الحج. وحينما سألته عن إمكان إقامة إسرائيل علاقات رسمية مع الفاتيكان تنهد وقال: «الوقت المناسب لم يحن بعد».

وبدا أن السياسة التوراتية للعقاب: العين بالعين والتي أقرتها جولدا مائير قوبلت بالاستياء من جانب البابا بولس الذي كرس كل رسالته في جذور وقوة الغفران والتسامح. كذلك أدت سياسة جولدا مائير هذه إلى تقوية روابط الفاتيكان مع منظمة التحرير الفلسطينية التي استمر عليها يوحنا بولس الثاني بعد انتخابه عام ١٩٧٨ ومنذ ذلك الوقت استقبل البابا ياسر عرفات وكبار معاونيه في لقاءات خاصة مطولة كرر خلالها يوحنا بولس الثاني في كل مرة تمسكه بالمتابعة النشطة للبحث عن وطن قومي فلسطيني. وأصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية ضابط اتصال دائم ملحق بوزارة الخارجية للفاتيكان. كذلك أصبح للفاتيكان مبعوثه، الأب عيدي عياد، والمعتمد لدى المنظمة.

بعد أكثر من سنتين من محاولة اغتيال البابا يوحنا بولس في الفاتيكان عام ١٩٨١، التي قام بها محمد علي آغا، حصل البابا على وعد بالإجابة عن السؤال الذي ظل يحيره طوال تلك الفترة: من الذي أمر باغتياله، وسيأتي به قسيس يثق فيه يوحنا بولس أكثر من جميع الآخرين وكان لقب وظيفته «القاصد الرسولي للمسائل الخاصة». بيد أن كلمات اللقب لا توضح أن كبير الأساقفة «لويجي بوجي» هو الوارث الطبيعي لعالم السياسات البابوية السرية، وأنه موكل إليه مسؤولية خاصة عن جمع معلومات المخابرات من أوروبا الشيوعية. وأطلق الناس في الفاتيكان عليه ببساطة لقب «جاسوس البابا». ولشهور عديدة أجرى

«بوجي» اتصالات سرية جداً مع الموساد. بيد أنه لم يخطر البابا بذلك إلا من وقت قريب حينما وصلت الاتصالات إلى مرحلة متقدمة مرضية. وأمره يوحنا بولس الثاني بالاستمرار. ومنذ ذلك الوقت كانت هناك لقاءات مع ضابط من الموساد في فيينا، وباريس، ووارسو، وصوفيا. وكان كل من القسيس وضابط المخابرات يريد أن يتأكد من مضمون العرض وما هو متوقع من كل طرف. وبعد كل لقاء كان كل منهما يعود إلى مكانه للتفكير في الخطوة التالية. وقبل عدة أيام كان هناك لقاء آخراً، في فيينا أيضاً، وهي مدينة فضّلها «بوجي» وضابط المخابرات كخلفية للقاءاتهما السرية.

ومن هذا اللقاء كان «بوجي» في طريق عودته إلى الفاتيكان في تلك الأمسية الشديدة البرودة من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣. وكان يحمل معه الرد على سؤال البابا: من الذي أمر آغا بمحاولة اغتياله؟

الفصل الثاني عشر:

(الجواسيس المقدسون)

كانت واحدة من البوابات الضخمة في «قوس النواقيس» قد أغلقت بالفعل ـ مقدمة للطقس الليلي الذي يقضي بإغلاق كل المسالك المؤدية إلى الفاتيكان مع دقة منتصف الليل ـ عندما اجتازت سيارة ليموزين كحلية اللون من طراز «فيات» أحجار الطريق الصغيرة، وأضواؤها تكشف اثنين من الحرس السويسري يقفان في الجو البارد، وخلفهما وقف أحد الجنود الإيطاليين، الـ Vigili. وتقدم أحد الحارسين خطوة إلى الأمام، رافعاً يده بطريقة نصفها تحية ونصفها أمر بالوقوف. كان الحرس يتوقعون وصول السيارة، وكان الشخص الجالس وراء المقود شخصية مألوفة من سائقي سيارات الفاتيكان. ولكن بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها البابا كان لا بد من الحذر في جميع الأحوال. كان السائق قد انتظر لمدة ساعة في مطار روما تصل الطائرة القادمة من فيينا وقد تأخرت بسبب سوء الأحوال الجوية. وتراجع الحارس إلى الوراء بعد أن رفع يده بتحية كاملة للراكب الجالس في الظلام العميق في المقعد الخلفي. ولم يتلق الحارس تحية مماثلة. عبرت السيارة بجانب كاتدرائية القديس بطرس واجتازت الأحجار الصغيرة التي تغطي ساحة سان دماسو قبل أن تقف خارج المدخل الرئيسي للقصر البابوي. وقفز السائق من مقعده وفتح الباب للراكب معه. وخرج منها كبير الأساقفة لويجي بوجي، مرتدياً ملابس

سوداء قاتمة، وثمة وشاح يغطي ياقته الناصعة البياض. وكان الرجل من الناحية الجسدية شبيهاً برافي إيتان: نفس الكتفين القويين، ونفس الخطوة الواثقة، وعينان يمكن أن تكونا باردتين كبرودة هذه الليلة. وكالعادة كان بوجي مسافراً وبصحبته حقيبة صغيرة تحوي مستلزماته الشخصية وحقيبة يد لأوراقه ذات قفل مزدوج. وكان في بعض الأحيان يمزح قائلاً إنه يقضي أوقاتاً يغفو فيها في مقاعد الطائرات أطول من الأوقات التي يقضيها نائماً في فراشه في الجناح الفسيح الذي يشغله في الجزء الخلفي من القصر البابوي. ولم تكن أي من سفرياته الأخيرة قد بلغت في أهميتها أهمية ما اطلع عليه أخيراً خلال الاجتماع الذي عقد في الحي اليهودي القديم في فيينا. فهناك، في مبنى ضيق ذي سقف مرتفع، على بعد بنايات قليلة من مكتب «سيمون ويزنستال» صائد النازي، كان كبير الأساقفة قد استمتع باهتمام إلى رجل اتفق على ألا يسمياه إلا باسمه الأول وهو «إيلي». وكان «بوجي» قد أصبح الآن معتاداً على مثل هذه الاحتياطات في معاملاته مع «الموساد» ولم يكن هناك من يتخذ إجراءات أمن مشددة إلى هذا الحد كما يفعل المشتغلون بهذا الجهاز. وكانت المعلومة الشخصية الوحيدة التي عرفها عن «إيلي» هي أنه يتكلم لغات متعددة، وأنه أجاب أخيراً عن السؤال المتعلق بالشخص الذي أشرف على تنظيم محاولة اغتيال البابا يوحنا بولس. أدخل رئيس الخدم «بوجي» إلى غرفة مكتبة يوحنا بولس. وكانت رفوف الكتب تدل على اهتمام البابا الآخذة في الاتساع. فإلى جانب الطبعات البولندية ذات الأغلفة الجلدية للكتب الكلاسيكية، ومؤلفات اللاهوتيين والفلاسفة، كانت هناك نسخ من المجلة العسكرية الدولية International Defense Review وكتب لها عناوين مثيرة مثل «مشاكل الاستعداد العسكري والتوازن العسكري والهجوم المفاجىء». وكان ذلك انعكاساً لاعتقاد الباب الجازم بأن العدو الرئيسي الذي كان العالم لا يزال يواجهه في

سنة ١٩٨٣ هو الشيوعية السوفياتية. وكان يوحنا بولس لا يدع مناسبة تفوت دون أن يذكر لمعاونيه الشخصيين إنه لن تشرق شمس الألفية الجديدة إلا وسيحدث شيء «حاسم» يجتاح العالم. ولكن لم يشأ أن يضيف إلى ذلك شيئاً في الإجابة عن أسئلتهم بشأن طبيعة ذلك الحدث. وكان يهز رأسه الكبير قائلاً: إن عليهم جميعاً أن يصلوا لئلا تفقد الكنيسة مزيداً من الأرض أمام الشيوعية والعلمانية التي تجتاح دولاً مثل الولايات المتحدة والمانية وهولندا». وكان يؤكد أن حياته قد نجت في ميدان سان بطرس حتى يقود الهجوم المضاد. وكان «بوجي» يعرف أن هذا الموضوع، قبل أي موضوع آخر، هو الذي أثر في يوحنا بولس عقلياً وبدنياً على السواء. وبعد أداء التحية المعتادة لم يفت «بوجي» أن يلاحظ أن يوحنا بولس أصبح، إذا ابتعد عن أعين الجمهور، أكثر انطواء وانكفاء إلى الداخل. فالرصاصات التي أطلقها آغا لم تمزق فقط العظم واللحم بل أوجدت أيضاً ندوباً عاطفية دفعت الباب إلى التأمل الذاتي والانفصال عما حوله في بعض الأحيان. عندما وصلت أنباء ما حدث في ميدان القديس بطرس عصر يوم ١٣ مايو (أيار) ١٩٨١ إلى تل أبيب، كان رد الفعل المباشر من جانب المدير العام للموساد «إسحق حوفي»، هو أن إطلاق الرصاص من صنع شخص مختل العقل. وبالرغم من أن الحادث وقع في روما فليس له تأثير مباشر على الموضوعات التي يهتم بها الموساد. وكان عرب إسرائيل يزدادون تطرفاً، بينما كان المتطرفون اليهود ـ بقيادة أعضاء حزب كهانا كاخ ـ يزدادون اتجاهاً نحو العنف. وكانت هناك مؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها بوقت قصير ترمي إلى نسف أكثر المزارات الإسلامية مكانة في مدينة القدس، وهو قبة الصخرة. ولو نجحت تلك المؤامرة لكانت لها نتائج يصعب تصورها. وكانت الحرب في لبنان متصلة على الرغم من جهود الدبلوماسية المكوكية الاميركية بين دمشق وبيروت والقدس. وفي مجلس الوزراء الإسرائيلي

كان رئيس الوزراء بيجن يقود حزباً شديد الرغبة في الوصول إلى مواجهة «نهائية» وشاملة مع منظمة التحرير الفلسطينية. وكان قتل ياسر عرفات ما زال وارداً على جدول أعمال الموساد، وفي نفس الشهر الذي أطلق فيه النار على البابا كانت هناك محاولتان فاشلتان لاغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. ولما كانت أجهزة المخابرات الغربية جميعاً قد شرعت في التحقيق في إطلاق النار على الباب كان ذلك داعياً لحوفي لاتخاذ القرار بأن يبقى الموساد بعيداً عن الموضوع.

وعلى أي حال، كان يتوقع في نهاية المطاف أن يعرف خلفية الحادث من أحد تلك الأجهزة. وبينما كان «حوفي» لا يزال منتظراً تلقي المعلومات تمت الاستعاضة عنه بناحوم أدموني في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٢. ونظراً لأن أدموني متحدر من أسرة بولندية - كان والداه مهاجرين من الطبقة الوسطى في منطقة قريبة من غدانسك - فقد كان اهتمامه أكثر من حب استطلاع عابر بشأن الكنيسة الكاثوليكية. وفي الأيام السابقة عندما كان يعمل في الخارج متستراً، في الولايات المتحدة وفرنسا، كان قد عرف ما يمكن أن يصل إليه نفوذ الكنيسة، فقد ساعدت كنيسة روما على انتخاب جون كنيدي، الكاثوليكي، ليشغل البيت الأبيض. وفي فرنسا ظلت الكنيسة تؤدي دوراً مهماً في السياسة. وبمجرد استقرار أدموني في مقعده بعث يطلب ملف الموساد بشأن محاولة اغتيال البابا. وكان معظم ما في الملف قصاصات صحف وتقريراً من «الكاتسا» المتمركز - في روما لم يتضمن شيئاً كثيراً أبعد من ذلك. وعلى غير العادة فإن أجهزة الأمن الستة التي أجرى كل منها تحقيقاته - بما في ذلك استجواب آغا في زنزانته المحكمة الرقابة في سجن ريبيبيا بروما - لم تنجح في توحيد معلوماتها. وعلى ذلك قرر أدموني أن يجري تحقيقه الخاص.

كان الرأي السائد في مجتمع المخابرات الأميركية بأن آغا هو اليد

المنفذة لمؤامرة دبرتها المخابرات الروسية KGB لقتل البابا. وفي وثيقة عليها عبارة «سري جداً» وتحمل عنوان «محاولة آغا قتل البابا: احتمالات وجود دور سوفياتي» جاء أن موسكو شعرت بالخوف من أن يتحكم البابا في إشعال المشاعر القومية البولندية.

بالنسبة لناحوم أدموني كان هناك أمراً واحداً واضح، وهو أن الروابط الوثيقة ذات الطابع الشخصي بين الـ CIA والبابا لها أثر حاسم في قبول البابا للرأي الأميركي القائل بأن محاولة اغتياله تمت بتدبير من جانب الكرملين.

ولكن فلنفترض انه يمكن إثبات خطأ هذا الرأي، فماذا سيكون رد الفعل لدى البابا؟ هل يؤدي ذلك إلى تبديد ثقته بالـ CIA وهل يجعله متشككاً في كل أجهزة المخابرات؟ وهل يمكن أن يسمح ذلك للموساد ـ إذا استطاع أن يثبت أنه كانت هناك يد أخرى وراء المحاولة ـ بأن يجد في نهاية الأمر وسيلة يمر منها عبر الأبواب البرونزية للفاتيكان، وإذا لم يحصل على القبول الكامل كمستشار علماني سري للبابا فيمكن على الأقل الاستماع إلى ما لديه من معلومات، ويأمل في مقابل ذلك أن يراجع الكرسي الرسولي موقفه من إسرائيل؟ بعد ستة أشهر جاءت الإجابات عن السؤال الأول لأدموني ـ هل هناك جهة أخرى خططت لمحاولة الاغتيال ـ بما يرضيه. فقد تم إعداد المؤامرة في طهران، بموافقه كاملة من جانب آية الله الخميني، الذي كان من المفروض أن يكون مثل البابا هو الخطوة الافتتاحية في «جهاد» ضد الغرب وهو ما يراه الخميني قيماً فاسدة تلقى تأييداً من جانب أكبر كنيسة مسيحية. وقد جاء في تقرير أعد لأدموني: أن الخميني ما زال هو النموذج الكلاسيكي للتعصب الديني. وقد أضفى على نفسه صفة المعلم الأكبر لشعبه وأن المحافظة على هذا الدور تتطلب منه أن يتصرف بطريقة تزداد خطراً على إسرائيل وعلى الغرب وعلى العالم بأسره.

وتحسباً لاحتمال الفشل وضع الرؤساء الإيرانيون خطة تكفل النظر إليه على أنه مهووس قام بعمل منفرد، وذلك بتسريب تفاصيل عن حياته السابقة، فقد ولد محمد علي آغا في قرية نائية تسمى يسلتيبي في شرق تركيا وتربى في موقع مشهور بالأصولية الإسلامية. وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره انضم إلى الذئاب الرمادية وهي جماعة إرهابية موالية لإيران قامت بكثير من أعمال العنف في تركيا المتمسكة بالديمقراطية. وفي فبراير (شباط) ١٩٧٩ قام آغا باغتيال رئيس تحرير جريدة تصدر في إسطنبول معروفة بسياساتها الموالية للغرب. وبعد القبض عليه تمكن من الهرب من السجن بمساعدة «الذئاب الرمادية».

وفي اليوم التالي تلقت الجريدة رسالة مفزعة بشأن زيارة البابا لتركيا، والتي كان موعدها محدداً بعد ذلك بثلاثة أيام. جاء في الرسالة: «أن الأمبرياليين الغربيين، إذ يخشون من أن تصبح تركيا وشقيقاتها الإسلامية قوة سياسية وعسكرية واقتصادية في الشرق الأوسط يرسلون إلى تركيا في هذه اللحظة الدقيقة قائد الحروب الصليبية، يوحنا بولس، الذي جعلوا منه زعيماً دينياً، وإذا لم تلغ هذه الزيارة فسوف يترصد لقتل البابا القائد». واقتنع أدموني بأن صيغة الخطاب قد أعدت في طهران وأنها من حيث الأسلوب والمحتوى أعلى بكثير من قدرة آغا على الكتابة، فهو يوشك أن يكون أمياً. وتبين من فحص كمبيوتر الموساد لخطب الخميني أنه أشار من قبل إلى «قائد الحروب الصليبية» و «البابا القائد» في وصفه يوحنا بولس. وفي النهاية تمت زيارة الحبر الأعظم لتركيا ومرت دون حادث. وأرسل اسم آغا وصورته إلى أجهزة الكمبيوتر في عدد من أجهزة المخابرات، وإن لم يكن من بينها جهاز الموساد. وقد رأى «أونوكورميك» وهو ضابط في أجهزة الأمن النمساوية وكان مكلفاً بحث مسألة إطلاق الرصاص على البابا

أنه «ليس من الضروري إخطار الموساد، لأن إسرائيل ستكون هي آخر مكان يفكر آغا في الذهاب إليه، وكانت تحريات الموساد قد بينت أنه بعد هرب آغا من السجن انتقل سراً إلى إيران حيث قضى شهوراً في معسكرات تدريب مختلفة.

الفصل الثالث عشر:

(الإتصالات الأفريقية)

في يوم رأس السنة الجديدة عام ١٩٨٤، قرأ ناحوم أدموني، في الملخص اليومي للمخابرات، أنباء عن وقوع انقلاب في نيجيريا، حيث قامت مجموعة عسكرية بقيادة اللواء محمد بوهاري بالاستيلاء على السلطة. وكان السؤال الأول لرئيس الوزراء شامير عن أثر هذا الانقلاب على واردات إسرائيل البترولية. ولم يكن أحد يعرف الإجابة، ولقد بذلت، طوال اليوم دون نجاح جهود مستميتة، لإقامة اتصالات بالنظام الجديد.

وفي اليوم الثاني للجنرال بوهاري في السلطة، أصدر قائمة بالاعضاء السابقين في الحكومة والاتهامات الموجهة إليهم في جرائم مختلفة، وكان على رأس هذه القائمة، «عمر ديكو» وزير النقل المطرود، والاتهام الموجه إليه هو اختلاس عدة ملايين من الدولارات من أرباح البترول من خزانة الحكومة. وكان ديكو قد هرب من البلاد. وعلى الرغم من الجهود الدائبة للعثور عليه، فإنه اختفى.

وعثر أدموني منفذاً له. فسافر بالطائرة إلى العاصمة النيجيرية لاجوس، مستخدماً جواز سفر كندياً، وهو وثيقة أخرى من الوثائق المفضلة لدى الموساد بالنسبة للمهام السرية. واستقبله بوهاري في ساعة متاخرة من الليل، واستمع الجنرال إلى أدموني وهو يقدم إليه

عرضاً كان قد وافق عليه رابين تماماً، وهو قيام الموساد بالبحث عن ديكو وإعادته إلى نيجيريا، مقابل ضمان عدم قطع الإمدادات البترولية عن إسرائيل.

جند رافي إيتان «كل جاسوس له على قيد الحياة» في جميع أنحاء أوروبا. وتم إرسال عدد من الكاتسا للبحث من إسبانيا حتى السويد، وجرى تنبيه اليهود من خارج إسرائيل من الأيانيم (أي المتعاونين مع الموساد) في اثنتي عشرة دولة للبحث عنه، إلا أنه لم يعثروا له على أثر.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن أدموني كان يعتقد أن ديكو يختبىء في مكان ما في لندن ـ تلك المدينة التي أصبحت ملاذاً للنيجيريين من خصوم النظام الجديد ـ ومن ثم فقد حرك أكفأ عناصر المخابرات إلى المدينة. ومعهم جاء عملاء من الأمن النيجيري بقيادة الكولونيل محمد يوسوفو، وقاموا باستئجار شقة في شارع كرومويل. بينما اختار أفراد الكاتسا الفنادق التي تتعامل مع السياح من إفريقيا.

عمل الفريقان منفصلين، فقد تحركا بين أفراد الجالية النيجيرية الضخمة في لندن. وظهر رجال يوسوفو بمظهر اللاجئين الهاربين من النظام الجديد. أما رجال الموساد من الكاتسا فظهروا بمظهر المتعاطفين مع آمال وطموحات الأفارقة السود، في الإطاحة بنظام جنوب إفريقيا.

وفجأة ظهر ديكو بعد سبعة أشهر من هروبه من لاجوس. ففي يوم ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٤ كان أحد الكاتسا يقود سيارته في «كوينزواي» وهو شارع مزدحم متفرع من طريق «بيزووتر» في وسط لندن فوقع بصره على رجل تتفق أوصافه مع أوصاف «عمر ديكو» وإن

كان يبدو أكبر سناً، وأكثر نحافة، ولكن كانت أوصاف الوجه العريض، والعينين السوداوين كالفحم، هي نفس الأوصاف. ولم يلق الرجل بالاً إلى سيارة الكاتسا التابعة للموساد. وبعد أن عثر العميل على مكان لانتظار السيارات، ترجل حتى يستطيع أن يتعقب ديكو إلى منزله. وقد تم إبلاغ أدموني على الفور، فأصدر تعليماته بأن الخطوة الوحيدة التي يتعين اتخاذها الآن، فرض رقابة على البيت طول الوقت. وفي الأيام الثلاثة الأولى من شهر يوليو (تموز) ١٩٨٤، فرض اثنان من العملاء رقابة مستمرة على ديكو. وفي نفس الوقت كان النيجيريون يستخدمون سفارتهم كقاعدة للإعداد لعملية خطف على غرار العملية التي قام بها رافي إيتان لخطف أدولف إيخمان.

وفي ساعة متأخرة من مساء الثالث من يوليو هبطت طائرة شحن من طراز ٧٠٧ تابعة للخطوط الجوية النيجيرية في مطار ستانستيد، على بعد ثلاثين ميلاً شمال شرق لندن، وكانت قد طارت من مطار لاجوس خالية. وأبلغ الطيار سلطات المطار بأنه جاء لشحن منقولات الدبلوماسيين من سفارة نيجيريا بلندن. وكان على متن الطائرة مع الطاقم عدد من رجال الأمن النيجيريين، الذين قاموا بالكشف عن هويتهم صراحة، وصرحوا بأنهم جاءوا لحماية المنقولات. وقد تم إبلاغ الشعبة الخاصة باسكوتلانديارد عن وجودهم، وكانت ثمة دعاوى عديدة في الشهر الماضي، تفيد بأن النظام العسكري في لاجوس يهدد المنفيين في لندن. فصدرت تعليمات لرجال الأمن النيجيريين بعدم مغادرة الطائرة، وهكذا ظلوا على متنها، باستثناء بعض الزيارات لكافتيريا المطار.

وفي ضحى اليوم التالي، خرجت السيارة «الڤان» الصفراء بلون الكناري، من أحد مرآئب السيارات في منطقة نوتنج هيل جيت، وهي

السيارة التي كان قد استأجرها أحد النيجيريين. وكان يوسوفو يجلس وراء عجلة القيادة، وفي الخلف كان يقبع د. شابيرو إلى جانب صندوق كبير، ومعه باراك وأبيتول. وعند الظهر في مطار ستانستيد، قام قبطان ٧٠٧، بإبلاغ موعد المغادرة إلى لاجوس في الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم. وكان «مانيفستو» الطيران، يشير إلى شحنة عبارة عن صندوقين من «الوثائق» لحساب وزارة الخارجية في لاجوس. وتشير الأوراق إلى حصانة الحاويتين الدبلوماسية.

وقبيل الظهـيرة، شـقت السيارة «الفان» طريقها وسط الزحام، إلى أن توقفت بالقرب من المنزل الموجود في «دورتشستر تيراس»، وبعد ذلك بوقت قصير، خرج عمر ديكو إلى لقاء صديق له على الغداء، في مطعم قريـب. وكانت ترقبه من النافذة، سكرتيرته الخاصة، «إليزابيت هايز»، وبمجرد أن استدارت فتح الباب الخلفي للسيارة «الفان» فجأة وقام رجلان أسمران باجتذاب ديكو وإدخاله بالقوة في الجزء الخلفي من السيارة، ولم يتمكن إلا من إطلاق صرخة، قبل أن يقفز خلفه الرجلان في السيارة، التي انطلقت بعيداً وبأقصى سرعة.

وبعد أن استعادت السكرتيرة توازنها، قامت بإبلاغ الشرطة على الرقم ٩٩٩. وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت الشرطة في مسرح الأحداث، ويتبعها عن كثب قائد الدورية «وليام هوكلزبي» من فرقة مكافحة الإرهاب التابعة لأسكوتلانديارد. واشتبه في بعض الأمور، إزاء ما حدث، وأبلغ كل ميناء وكل مطار بأن يأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر. وكان لهذا الموقف صعوبات خاصة تكتنفه من وجهة نظر «هوكلزبي». فلو كان النظام النيجيري وراء اختطفا ديكو، لأثار ذلك عدداً من المسائل السياسية الدقيقة والحساسة. ومن ثم جرى إخطار وزارة

الخارجية ورئاسة الوزراء، وصدرت التعليمات لـ «هوكلزبي» باتخاذ ما يراه ملائماً من إجراءات.

وقبيل الساعة الثالثة عصراً، وصلت السيارة «الڤان»، إلى مطار شحنات البضائع في «ستانستد». ولوح «يوسوفو» بجواز سفر ديبلوماسي لضابط الجمارك في المطار، وعند القيام بعملية شحن الصندوقين على متن الطائرة كان رجال الجمارك يراقبون الموقف. ولكن أحد ضباط الجمارك ويدعى «تشارلز مورو» ارتاب في الأمر، ويتذكر ذلك قائلاً: «كان هناك شيء ما يبعث على الريبة بشأن أحد الصندوقين. ثم سمعت جلبة تصدر من أحد الصندوقين ففكرت قليلاً وقلت: افتحوا الصناديق، حصانة أو لا حصانة، افتحوا الصناديق، أريد أن أرى ما بداخلها».

ونقلت الصناديق من الطائرة إلى أحد المخازن، على الرغم من الاحتجاج الغاضب ليوسوفو بأن هذه الشحنات تتمتع بالامتيازات الديبلوماسية. وفي الصندوق الأول وجدوا، عمر ديكو مقيداً وغائباً عن الوعي، بسبب المخدر، ويقبع إلى جواره د. شابيرو، ومعه حقنة في يده استعداداً لزيادة جرعة المخدر لديكو. وكانت هناك إنبوبة في حلق ديكو حتى لا يختنق عندما يتقيأ. وفي الصندوق الثاني، كان يجثم باراك وإبيتول.

وفي المحكمة، تمسك كلاً العميلين بمقولة إنهما من المرتزقة الذين يعملون لحساب مجموعة من رجال الأعمال النيجيريين الذين أرادوا استرجاع ديكو لكي يمثل للمحاكمة. وقد تم تكليف واحد من أبرز المحامين البريطانيين، وأعلاهم أجراً للدفاع عن المتهمين. وفي كلمته الختامية، قال أمام المحكمة: «ربما كان أكثر التفسيرات قبولاً، هو أن

جهاز المخابرات الإسرائيلي، ليس ببعيد على الإطلاق، عن العملية برمتها».

ولكن الادعاء لم يعثر على أي دليل لتوريط الموساد. وأحيلت المسألة إلى القاضي لكي يقول ما يراه في تلخيصه للقضية. وقد قال أمام المحلفين: «تشير أصابع الاتهام إلى الموساد بشكل يكاد يكون مؤكداً».

وصدر الحكم على باراك بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً، وعلى د. شابيرو وأبيتول بعشر سنوات لكل منهما. وصدر الحكم على يوسوفو بالسجن لمدة اثني عشر عاماً. وتم الإفراج عنهم جميعاً في وقت لاحق بعد العفو عنهم لحسن السير والسلوك. وتم بهدوء ترحيلهم إلى إسرائيل. وجرت معاملتهم بنفس الطريقة التي حدثت مع آخرين من قبلهم، ممن خدموا الموساد بكل تفان، وهي أن يظلوا حسب تعليمات الجهاز، بعيداً عن دائرة الضوء، وألا يجيبوا عن بعض الأسئلة المحرجة مثل ما إذا كان د. شابيرو لا يزال يمارس مهنة الطب، ومع من؟ بعد أن حنث بشكل صارخ بقسم «أبو قراط».

وقامت شعبة MI5 بإبلاغ ناحوم أدموني بأنه إذا حـ .ثت غلطة أخرى، إذ أن الموساد لن يعامل بعد ذلك كجهاز صديق. وكان رئيس الموساد يخطط، قبل هذا، لعملية أخرى قصد من ورائها تذكير بريطانيا بمن هم الأعداء الحقيقيون، ويحقق في نفس الوقت تعاطفاً مع إسرائيل.

الفصل الرابع عشر:

(قنبلة خادمة الفندق)

أوضح إيهود باراك رئيس المخابرات العسكرية (أمان) لناحوم ادموني رئيس الموساد أن عملية إجبار طائرة ليبية مدنية على الهبوط في مطار إسرائيلي في فبراير عام ١٩٨٦ كانت عملية فاشلة.

ولم يكن بوسع رئيس الموساد أن يقبل هذا الأمر بسهولة، ولم يكن بوسعه أن يتحمل الخطأ أو اللوم حتى وإن كان هيناً. ومن ثم فقد شرع على الفور في التخطيط لعملية لا تضع حداً فقط للسخرية من الموساد في الإذاعات العربية لإجباره طائرة مدنية غير مسلحة على الهبوط وإنما تضع حداً كذلك للمبارزة الدائرة داخل أوساط المخابرات الإسرائيلية. ومن ثم فقد أوصى بأن يتخذ الموساد كل الاحتياطات اللازمة في العملية القادمة بحيث يتسنى له أن يسخر من سائر أجهزة المخابرات الإسرائيلية.

هكذا بدأت عملية أسفرت عن تدمير حياة فتاة إيرلندية حامل كانت تعمل خادمة في أحد الفنادق بلندن، والحكم على عاشقها العربي بالسجن لمدة تعد من أطول الأحكام التي أصدرتها محكمة بريطانية. كما سببت هذه العملية حرجاً بالغاً للمستشار الألماني هيلموت كول ورئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك، وأظهرت روبرت ماكسويل مرة

أخرى غاضباً ثائراً عن قصد وتعمد. وأرغمت الإذاعات العربية التي كانت تسخر من الموساد وتتشفى فيه على تغيير لهجتها ونبرتها.

استعان الموساد بمهارات رجلين في هذه العملية. وهي مهارات مختلفة تماماً. أولهما ضابط مسؤول عن العملاء الميدانيين عمل في بريطانيا باسم مستعار هو توف ليڤي. أما الشخص الآخر فهو فلسطيني اسمه الحركي «أبو» يستعين به الموساد في الحصول على معلومات. وقد أمكن تجنيد هذا الفلسطيني بعد أن أمسك به الموساد وهو يسرق من صندوق كان يديره لمنظمة التحرير الفلسطينية في قرية على الحدود الإسرائيلية ـ الأردنية. واستغل الموساد خوفه من إبلاغ عمدة القرية بهذه الجريمة، وأرغمه على السفر إلى لندن حيث زود بوثائق مزورة تفيد بأنه رجل أعمال ووضعت تحت تصرفه الوسائل المعيشية التي تتناسب مع دوره كرجل ينفق ببذخ ويعيش في بحبوحة. وكان المشرف عليه هو توف ليڤي.

قام «أبو» يدوره إلى حد الكمال. وأصبح شخصية مألوفة حول موائد القمار في حي ماي فير. ونظراً لما حققه من نجاح أمكن التغاضي عن ولعه بالجنس والشراب. وأخذ يتحرك في دوائر تجارة السلاح وأنصار منظمة التحرير الفلسطينية الأثرياء، مما ساعده في الحصول على معلومات مكنت الموساد من توجيه الضربات لأعدائه. فقد أفلح الموساد في اغتيال خمسة عشر عضواً من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية في غضون أسابيع قليلة بفضل المعلومات التي قدمها «أبو».

وكانت بعض لقاءاته مع توف ليڤي تتم في بارات ومطاعم فندق هيلتون في حي بارك لين. وكانت تعمل هناك امرأة إيرلندية من دبلن تدعى آن ـ ماري ميرفي.

ومثل كثيرات غيرها كانت تتطلع إلى عبور البحر الأيرلندي بحثاً عن المال في لندن. وكان هذا الأمل يراودها ويغريها، إلا أن كل ما حصلت عليه هو وظيفة خادمة في فندق هيلتون. وكان الأجر ضئيلاً وساعات العمل طويلة. وكانت تمضي وقت فراغها في بارات حي شيبردز بوش الذي يعتبر ملاذاً للمغتربين الإيرلنديين.

وقبل الاحتفال بأعياد الكريسماس عام ١٩٨٥ طفرت من عينيها الدموع عندما جال بخاطرها أنها ستكون وحيدة في مدينة مائجة تختلف اختلافاً بيناً عن دبلن الوديعة الهادئة التي كانت تحن إليها حنيناً شديداً. وعندئذٍ قابلت شاباً عربياً أسمر اللون وسيماً في نظرها. كانت تبدو عليه إمارات الثراء بحلته الحريرية ورباط عنقه ذي الألوان الزاهية. وعندما ابتسم لها ابتسمت له وانفرجت أساريرها. كان اسمه نزار هنداوي. يمت بصلة قرابة بعيدة لـ «أبو». كان هنداوي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، رغم أنه كذب على آن ماري عندما قال إن عمره ٢٣ عاماً لكي يكون تماماً مثل عمرها.

تقابلا في حانة في شيبردز بوش جرين. لم تذهب إلى هذه الحانة من قبل ودهشت عندما وجدت هنداوي وسط مجموعة من عمال البناء يتحدثون بلهجات من مختلف أنحاء إيرلندا. ولكن كان يبدو أنه يعرف كثيرين من الشاربين.

كان هنداوي يتردد على هذه الحانة منذ أسابيع، آملاً في إقامة اتصالات مع الجيش الجمهوري الإيرلندي. كان «أبو» قد طلب منه أن يفعل ذلك دون أن يفسر له الأسباب كما كان دأبه. وبذل هنداوي محاولات قليلة لمناقشة الوضع السياسي، إلا أن محاولاته باءت بالفشل، إذ كان الشغل الشاغل للحاضرين هو الشرب والاستمتاع أكثر من أي شيء آخر.

فتن هنداوي بسلوكه الحسن وجاذبيته آن ماري، وسرعان ما وجدت نفسها تضحك وهي تستمع إلى ما يرويه من حكايات عن حياته في الشرق الأوسط. وحيث أنها لم تسافر إلى أماكن أبعد من لندن فقد بدت حكاياته من قبيل أحلام الف ليلة وليلة. واصطحبت هنداوي آن ماري في سيارته إلى منزلها وقبلها على وجنتيها وانصرف. وتساءلت آن ماري عما إذا كان ما شعرت به من دوار هو المرحلة الأولى من قصة حب. وفي اليوم التالي دعاها هنداوي إلى تناول الغداء في مطعم سوري لكي تتذوق مباهج الطبخ العربي. وشربت نبيذاً لبنانياً ممتازاً وأحست بنشوة الخمر ولذا فإنها لم تقاوم كثيراً عندما دعاها إلى شقته.

في اليوم التالي التقى «أبو» وتوف ليفي. وأثناء تناول العشاء أبلغه ليفي أنه يريد القيام بعمل يؤدي إلى إقدام الحكومة البريطانية على إغلاق السفارة السورية وطرد موظفيها، نظراً لما هناك من شبهات عن تورطها في الأنشطة الإرهابية. وقال إنه بحاجة إلى «شرك» لتحقيق ذلك. وسأل «أبو» عما إذا كانت لديه معلومات عن أي شخص أو أي شيء يمكن أن يساعد على بلوغ هذا الهدف. أبلغه «أبو» أن له ابن عم صديقته إيرلندية، وأنها تعمل في لندن.

بدأت تتحدد أبعاد المؤامرة في أعقاب الصدمات التي هزت أوساط المخابرات الإسرائيلية بسبب تسرب معلومات من واشنطن عن صفقة الأسلحة مقابل الرهائن مع إيران. وكانت هذه المعلومات بمثابة ضربة شديدة لصورة إسرائيل المتشددة في تعاملها مع الإرهاب. وشعرت دوائر الموساد بالغضب إزاء حكومة ريجان التي سمحت بتفاقم الأمور إلى حد كبير بحيث ظهر دور إسرائيل في فضيحة «إيران جيت».

ونتيجة لإفشاء أسرار تلك العملية كان من الصعب على إسرائيل الإبقاء على الحد الأدنى من تأييد دول مجاورة صديقة وحذرة مثل مصر والأردن في وقت بدأت فيه هاتان الدولتان تشعران بالضيق من منظمة التحرير الفلسطينية والاعيب ياسر عرفات. فقد أصبح عرفات بشكل متزايد أسيراً سياسياً للمتطرفين في منظمته. لم يكن عرفات ماركسياً، ومع ذلك فقد وجد نفسه يكرر شعارات الماركسيين البليغة داعياً إلى «تصفية الكيان الصهيوني سياسياً وثقافياً وعسكرياً».

وظل عرفات في نظر الموساد العقبة الرئيسية على طريق السلام. وظل قتله هدفاً جديراً بالأولوية.

وبدأ عرفات يقتنع تدريجياً بأن الحركة التي تستند إلى الإرهاب فحسب، مآلها الفشل. إن الحركة بحاجة إلى برنامج سياسي وحس دبلوماسي. وحاول عرفات أن يظهر ذلك في بياناته العامة الأخيرة، وشجعته واشنطن على أن يواصل انتهاج هذا الطريق الجديد. أما في إسرائيل فقد كان ينظر إلى كلمات عرفات على أنها من قبيل النفاق.

على الرغم من أن بريطانيا شاركت في الإدانة الكاملة للهجمات الإرهابية، فإنها أبقت على علاقتها الدبلوماسية الكاملة مع سوريا، على الرغم من أن الموساد زود MI5 (المخابرات البريطانية) بأدلة كافية عن دور دمشق في الإرهاب الذي ترعاه الدولة. إلا أن هذا لم يكن كافياً لكي تندد مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا بالإرهاب صراحة أمام البرلمان، كانت لا تزال هناك حاجة لعمل مباشر ملموس. وكانت المخابرات البريطانية قد ذكرت الموساد في الماضي بأن إسرائيل ذاتها تصرفت لحماية مصالحها الخاصة وقبلت التعامل مع ألد أعدائها. ومن ذلك مثلاً أنها قررت الإفراج عن أكثر من ألف معتقل فلسطيني، من بينهم إرهابيون ثبتت

إدانتهم مقابل إطلاق سراح ثلاثة من الجنود الإسرائيليين المحتجزين في لبنان.

إلا أن الموساد أصبح مصمماً الآن على أن يوجه ضربة شديدة قاسية لإرغام بريطانيا على قطع علاقتها الدبلوماسية بدمشق وإغلاق سفارتها في لندن التي كان الموساد يعتبرها من أهم البعثات الدبلوماسية التي تتآمر ضد إسرائيل في أوروبا. ومما لا شك فيه أن «أبو» ابن عم نزار هنداوي سيكون له دور ئيسي في هذه المؤامرة.

بعدما تناول «أبو» طعام العشاء مع توف ليفي، اتصل بهنداوي معتذراً له عن عدم اكتراثه من قبل بموضوع آن ماري، وأبدى «أبو» استعداده للمساعدة، إلا أنه في حاجة لبعض المعلومات: هل ستحتفظ آن ماري بالطفل؟ هل تضغط عليه من أجل الزواج بها؟ هل يحب نزار هذه الفتاة فعلاً؟ فمن المعروف أنهما ينتميان إلى ثقافات مختلفة والزواج المختلط نادراً ما ينجح.

وأجاب هنداوي بأنه إذا كان قد أحب آن ماري ذات يوم فمن المؤكد أنه لم يعد يحبها الآن. فقد أصبحت سليطة اللسان كثيرة البكاء دائمة التساؤل عما سيحدث. ومن المؤكد أنه لم يكن يرغب في الزواج من خادمة.

قدم «أبو» عشرة آلاف دولار لابن عمه قائلاً: «إن هذا المبلغ يكفي لكي يتخلص هنداوي من آن ماري ويستمر في معيشته كرجل أعزب في لندن». وفي مقابل ذلك كان على هنداوي أن يفعل شيئاً من أجل القضية التي يؤمن به كلاهما الا وهي الإطاحة بإسرائيل.

في مساء اليوم الثاني عشر من شهر إبريل (نيسان) ١٩٨٦ زار هنداوي آن ماري في المنزل المخصص للإيجار بالحجرة في منطقة

كيلبورن في شمال لندن، وأحضر معه باقة ورد وزجاجة شمبانيا اشتراها ببعض النقود التي أعطاها إياه «أبو». وقال لآن ماري إنه يحبها ويرغب في الاحتفاظ بالطفل. بكت آن ماري تأثراً وفرحاً. وفجأة أصبح عالمها أكثر بهجة وإشراقاً.

وأوضح هنداوي أن هناك عقبة أخيرة لا بد من تذليلها، إذ يتعين على آن ماري أن تحظى بمباركة والديه قبل الزواج. فهذا تقليد عربي لا يمكن لابن بار أن يتجاهله. وترددت آن ماري فليس بوسعها أن تترك عملها. ومن أين ستحصل على مصاريف السفر؟ كما انها بحاجة إلى ملابس جديدة لهذا اللقاء المهم. سارع هنداوي إلى تهدئة مخاوفها بأن أخرج من جيبه حزمة من أوراق البنكنوت قائلاً: «إنها أكثر مما تحتاجه لشراء ملابس جديدة». ثم أخرج من جيبه أيضاً تذكرة سفر على شركة «العال» لرحلة ١٦ إبريل/نسيان ـ بعد خمسة أيام ـ كان قد اشتراها بعد ظهر ذلك اليوم.

في يوم الرحيل ابلغها هنداوي أن «صديقاً» له يعمل بالنظافة في الجزء الداخلي من المطار سيسلمها «هدية» إلى والديه. وقال «آري بن مناشة» الذي ادعى في ما بعد أنه كان ملماً بتفاصيل المؤامرة «إن هنداوي لم يكن يريد أن يوقفها رجال المطار بسبب حملها حقائب كثيرة في يدها، لم يكن يود المخاطرة بذلك. ومن ثم فقد اتفق مع صديقه على تسليمها الحقيبة عند دخولها قاعة السفر تمهيداً لركوب طائرة شركة العال.

وتوقفت آن ماري لبرهة عند الباب المؤدي إلى منطقة السفر، لا تريد أن تبتعد عن حبيبها ووعدته بأن تتصل به تليفونياً من تل أبيب، مؤكدة له انها ستحب والديه كما تحب والديها. وقبلها قبلة أخيرة ثم دفعها برقة ولطف إلى الطابور المؤدي إلى مكتب إجراءات السفر.

ظل يراقبها حتى اختفت عن الأنظار، ثم واصل تنفيذ التعليمات التي أعطاه له «أبو».

فركب حافلة تابعة لشركة الخطوط السورية متجهة إلى لندن، في حين تحركت آن ماري التي لم يخامرها أي شك عبر منطقة الجوازات والأمن، ثم انتقلت إلى منطقة شركة العال التي تحيط بها إجراءات أمنية دقيقة وصارمة ووجه إليها رجال المخابرات العسكرية الإسرائيلية أسئلة كثيرة وفتشوا حقائبها. وتم تحديد مقعد لها على الطائرة ثم انتقلت إلى صالة السفر حيث انضمت إلى باقي المسافرين البالغ عددهم ٣٥٥ مسافراً.

ويقول «آري بن مناشة» إن آن ماري تلقت الهدية المرسلة إلى والدي هنداوي من رجل يرتدي الزي الأزرق الذي يرتديه عمال النظافة بالمطار. واختفى الرجل فجأة وبطريقة غامضة مثلما ظهر تماماً. ويضيف بن مينشة أنه بعد ثوان من اختفاء الرجل طلب منها الخضوع للتفتيش. واكتشف رجال الأمن التابعين لشركة العال وجود متفجرات بلاستيكية في القاع المزدوج لحقيبتها.

وكانت المتفجرات عبارة عن ثلاثة أرطال من مادة السيمتكس. وروت آن ماري قصتها وهي تنتحب أمام ضباط الفرع الخاص البريطاني و MI5. كانت قصة امرأة سيئة الطالع لم تبتل في حبها فقط بل خانها حبيبها. وركز ضباط الأمن اهتمامها على تحديد علاقة هنداوي مع سوريا بعدما أدركوا أن ماري كانت ضحية بريئة ساذجة.

عندما وصلت حافلة الخطوط الجوية السورية إلى لندن «طلب هنداوي من السائق أن يتجه إلى السفارة السورية. وعندما اعترض السائق» أبلغه هنداوي بأن لديه السلطة التي تسمح له بإعطاء هذا الأمر.

وفي السفارة طلب من المسؤولين بالقنصلية إعطاءه حق اللجوء السياسي قائلاً: «إنه يخشى أن تلقي الشرطة البريطانية القبض عليه لأنه حاول نسف طائرة العال من أجل القضية». دهش المسؤولون وسلموا هنداوي إلى اثنين من رجال الأمن بالسفارة اللذين طلبا منه بعد استجوابه أن يبقى في شقة موظفي السفارة. وربما تشككا في أن الأمر قد يكون بمثابة فخ لإحراج سوريا. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه المخاوف لا بد أن ازدادت بعد أن غادر هنداوي شقة الموظفين بعد فترة وجيزة.

أخذ هنداوي يبحث عن «أبو». وعندما لم يعثر عليه توجه إلى فندق «لندن فيزيتورز» في منطقة نوتينج هيل حيث ألقي القبض عليه بعد وصوله إلى هناك بفترة وجيزة.

وأذاعت هيئة الإذاعة البريطانية أنباء مفادها أن الشرطة أحبطت مؤامرة وكانت التفاصيل دقيقة بشكل غير مألوف «وضعت مادة السيمتكس التشيكية الصنع في القاع المزدوج لحقيبة آن ماري وكانت مجهزة للانفجار على ارتفاع ٣٩ ألف قدم».

ويقول بن ميشنة إن العملية انتهت بعد ذلك نهاية مرضية فقد «أغلقت مارجريت تاتشرالسفارة السورية. وحكم على هنداوي بالسجن ٤٥ عاماً وعادت آن ماري إلى إيرلندا حيث وضعت بنتاً». وعاد «أبو» إلى إسرائيل بعد أن انتهى دوره.

هل سُلمت فعلاً قنبلة حقيقية إلى آن ماري، أم إن ذلك كان جزءاً من عملية خداع محكمة؟ هل كان الرجل الذي يرتدي الزي الأزرق - صديق هنداوي المزعوم - ضابط أمن؟ ما هي المعلومات المسبقة التي توافرت لدى المخابرات البريطانية عن المؤامرة؟ أليس من

المستبعد أن يسمح الموساد وأجهزة الأمن البريطانية لانفجار القنبلة على الأرض؟ إن مثل هذا الانفجار كان سيحطم بلا شك مساحة كبيرة في أشد مطارات العالم ازدحاماً وحركة وفي وقت كان يعج فيه بآلاف المسافرين. وهل تكمن براعة الخطة في أن الموساد أفلح في توجيه ضربة قاصمة لسوريا دون أي خطر على شركة العال ومطار هيثرو وذلك باستخدام مادة غير ضارة تشبه السيمتكس؟ ورداً على هذه الأسئلة جميعاً اكتفى شيمعون بيريس بالقول: «إن ما حدث عادة ما يكون معروفاً للذين ينبغي أن يعرفوا. أما الذين لا يعرفون فينبغي أن يظلوا كذلك».

بعد أسبوعين من الحكم على هنداوي بالسجن، وضع أرنود دو بورتشچراف رئيس تحرير صحيفة «واشنطن تايمز» الأميركية المحترمة جهاز التسجيل الخاص به على مكتب رئيس وزراء فرنسا آنذاك جاك شيراك في باريس. كان بورتشچراف في أوروبا لتغطية اجتماعات وزراء خارجية السوق الأوروبية التي عقدت في لندن. وكان الحديث مع شيراك يهدف إلى معرفة الموقف الفرنسي. وانتقل الحديث إلى نقطة أخرى حيث كان الصحافي الاميركي يريد معرفة المرحلة التي وصلت إليها مفاوضات شيراك مع سورية لإنهاء حملة التفجيرات الإرهابية في باريس، وجهود فرنسا للإفراج عن ثمانية من الاجانب يحتفظ بهم «حزب الله» في لبنان. وتوقف الرئيس للحظة ونظر عبر المكتب غير مهتم بجهاز التسجيل، ثم قال: «إن المستشار الألماني هيلموت كول ووزير خارجيته هانز ديتريش چينشر، أبلغاه، أن الحكومة السورية ليست لها علاقة بخطة هنداوي لنسف طائرة شركة العال، وأن المؤامرة خطط لها الموساد».

أثارت هذه التصريحات غضباً ديبلوماسياً شديداً أوشك أن يطيح

بمستقبل شيراك السياسي. فقد وجد نفسه موضع هجوم من جانب رئيسه فرنسوا ميتران، وتلقى مكالمات تليفونية غاضبة من هيلموت كول طالباً منه التراجع عما قال. وفعل شيراك ما يفعله رجال السياسة عادة في مثل هذه الأحوال وقال إن كلامه قد حرف. وفي لندن أعلن إسكوتلنديارد أن المحاكم فصلت في هذا الأمر وليست هناك حاجة إلى مزيد من التعليق. وفي باريس أعلن مكتب جاك شيراك ـ الذي تولى رئاسة فرنسا عام ١٩٩٧ ـ أن جاك شيراك لا يتذكر المقابلة المشار إليها مع «واشنطن تايمز».

ولم تمض فترة طويلة حتى قام الموساد بعملية خطيرة أخرى، لا بد أن تسفر عن وصمة جديدة.

الفصل الخامس عشر:

(رسام الكاريكاتور... المستهلك)

كان الموساد يستعين سراً بعميل في إنجلترا على أمل أن يساعده ذلك على إحراز نصر مزدوج: قتل قائدة القوة ١٧ وهي وحدة القوات الخاصة لمنظمة التحرير الفلسطينية ووضع نهاية للنجاح المتزايد الذي أحرزه ياسر عرفات في إقامة علاقة مع حكومة تاتشر.

إن اسم عرفات لم يعد مقترناً بالإرهاب في لندن. لكن الزعماء اليهود كانوا في شك من ذلك أو كانت حجتهم أن الإرهاب هو الأداة التي جاءت بمنظمة التحرير الفلسطينية إلى ما هي عليه الآن، وأنها ستواصل استخدام التهديد بأعمال إرهابية أخرى ما لم تلب كافة مطالبها. غير أن لندن كانت قد اعتادت ألا تتأثر باحتجاجات تل أبيب. ومن ثم فإن الموساد اعتاد بدوره أن يعتبر بريطانيا دولة تبدي استعداداً زائداً لتأييد القضية الفلسطينية.

قرر ناحوم أدموني إنه سينجح حيث فشل سابقوه: يقضي على العلاقة بين منظمة التحرير وبريطانيا، ويقتل في الوقت نفسه قائد القوة ١٧. وثبت في النهاية إن نجاح هذه العملية يعتمد على شاب عربي كان يدعوالله في صلواته، وهو لم يزال بعد صبياً، أن يهبه القوة لقتل أكبر عدد من اليهود.

في عام ١٩٧٧ عندما كان إسماعيل صوان فتى مراهقاً يعيش في قرية بالضفة الغربية قام باستجوابه أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية في عملية تحديث منتظمة لمعلومات قوات الدفاع الإسرائيلية عن المنطقة.

كانت أسرة صوان قد استقرت بالمنطقة في الثلاثينات، تلك الفترة التي ألهبت فيها، الثورة ضد الانتداب البريطاني واليهود، الدماء في عروق العرب. وكان العنف يسود كل الأنحاء والعنف يولد العنف. وانضم والد إسماعيل إلى الحزب العربي الفلسطيني، وأخذ ينظم الاحتجاجات ويثير المشاعر الوطنية في قريته. وفي بادىء الأمر كانت ثورته ضد البريطانيين، لكنها تحولت إلى الدولة اليهودية عندما انسحب البريطانيون من فلسطين في عام ١٩٤٨. وكانت شعارات الكراهية لليهود هي أول ما حفظته ذاكرة إسماعيل من كلمات.

في أعقاب عيد ميلاده الخامس عشر، شهد واقعة هجوم وحشي على حافلة ركاب مكتظة بالحجاج اليهود وهم في طريقهم إلى القدس. وفي تلك الليلة سأل إسماعيل نفسه سؤالاً غيّر في ما بعد تفكيره نهائياً: ماذا لو افترضنا أن اليهود لهم الحق في الدفاع عما لديهم؟ إن كل ما حدث بعد ذلك كان مبعثه ذلك السؤال: اغترابه ونبذه العنف الذي يقوم به رفاقه، واعتقاده أن اليهود والعرب يمكنهم العيش معاً، بل يجب عليهم العيش معاً.

وبعد عامين وهو لم يكد يبلغ السابعة عشرة أبلغ ضابط مخابرات الجيش الإسرائيلي بحقيقة مشاعره. أصغى الضابط إليه باهتمام في أول الأمر ثم بدأ يمطره بالأسئلة. كيف يمكن أن ينقلب على معتقدات شعبه التي كانت بمثابة نذير يردد عبارة واحدة: إن العرب هم المعتدى

عليهم وإنهم يجب أن يقاتلوا حتى الموت دفاعاً عما يعتقدون إنه حق؟ تعددت أسئلة الضابط واستقامت إجابات إسماعيل.

لاحظ الضابط أن صوان ليست لديه اعتراضات كثيرة على إجراءات الأمن الصارمة التي فرضها الجيش وذلك على خلاف غيره من الشباب الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي. وكان مما أبهجه أن الشاب النحيل صاحب الابتسامة الآسرة بدأ متفهماً لدوافع الإسرائيليين في هذا الصدد. كان كل ما يهمه في الأمر هو أن الإجراءات الأمنية الصارمة تعني أنه لن يتمكن من الذهاب إلى المدرسة في القدس الشرقية لدراسة العلوم موضوعه الأثير إلى نفسه.

وسرعان ما تم تداول ملف صوان في المخابرات الحربية مع التوصية بإجراء تحريات أخرى بشأنه انتهى به المطاف إلى ضابط بالموساد سلمه بدوره إلى قسم التجنيد. ودعي إسماعيل صوان للسفر إلى تل أبيب بدعوى مناقشة مستقبله التعليمي. وكان قد تقدم بطلب للذهاب إلى القدس للدراسة، وجرى استجوابه من الظهر إلى المساء. وفي البداية تحرى المستجوب معرفته بالعلوم واطمأن للإجابات. ثم طرح تاريخ عائلة صوان بالكامل وقورنت إجابات إسماعيل بتلك التي سجلها من قبل ضابط المخابرات الحربية. وفي النهاية تلقى إسماعيل عرضاً بأن يتكفل الموساد بنفقات تعليمه بشرط أن يجتاز برنامجه التدريبي.

وأجريت مع صوان كل أشكال المقابلات والاستجوابات في منازل آمنة تابعة للموساد قبل إرساله إلى مدرسة التدريب في ضواحي تل أبيب. وهنا تفوق في عدد من مواد الدراسة وأبدى مقدرة طبيعية لإتقان مهارات الكومبيوتر. وإثر اكتمال تدريبه أصبح صوان رسولاً بين قيادة

الموساد والسفارات الإسرائيلية التي يعمل بها العملاء تحت ستار دبلوماسي. وبدأ يقوم بجولات مكوكية في منطقة البحر المتوسط حيث كان يزور بانتظام أثينا ومدريد وروما حاملاً وثائق في حقائب دبلوماسية.

وبعد أسابيع من قضاء وقت عطلته في الخارج صدرت إليه الأوامر بالذهاب إلى بيروت والانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

كان الانضمام سهلاً. فقد دخل في مكتب للتجنيد تابع للمنظمة في بيروت الغربية. وكان المسؤول عن التجنيد ذكياً وعلى دراية فائقة بالشؤون السياسية. وأمضى وقتاً يستكشف فيه موقف إسماعيل من ضرورة العنف وما إذا كان على استعداد لهجر كل انتماءاته السابقة ـ بما في ذلك الأسرة والأصدقاء ـ كي تكون المنظمة هي سنده المعنوي الوحيد. ثم أرسلته المنظمة إلى معسكر تدريب في ليبيا حيث استمرت عملية التلقين الأيديولوجي. وعندما غادر معسكر التدريب اختير له موقع في صفوف منظمة التحرير. وتدريجياً أخذ يرتقي السلم القيادي.

وفي عام ١٩٨٤ عندما طرد عرفات من لبنان وأعاد لم شمل المنظمة في تونس، أوفدت المنظمة صوان إلى باريس لتعلم الفرنسية. واعتبر ناحوم أدموني ـ الذي كان قد حل محل حوفي في ذلك الوقت ـ نقل صوان فرصة ذهبية لوجود عميل في قلب الأنشطة المتنامية لمنظمة التحرير في أوروبا، ولا سيما في فرنسا حيث أصبحت التجمعات العربية في كل من الحي الثامن عشر والحي العشرين في باريس ملجأ للإرهابيين.

وعلى ذلك فإن إمكانية وجود عميل للموساد داخل قيادة عمليات منظمة التحرير الفلسطينية في باريس جعلت أدموني مفعماً بالحماس.

وفي غضون أيام من وصول صوان إلى باريس اتصل بالضابط المسؤول عنه الذي يعمل بالسفارة الإسرائيلية في شارع رابيليه رقم ٣٠ ولم يكن ليعرف عنه سوى أن اسمه آدم. وحدد الرجلان نقاط اجتماعات منتظمة بينهما في المقاهي وفي مترو الأنفاق.

كان إسهام صوان عظيماً في الحرب التي شنها الموساد في فرنسا مما أعطى الفرصة لعملائه لتحقيق نجاحات باهرة منها: إلقاء قنابل حارقة في مصنع تزوير تابع لمنظمة التحرير الفلسطينية لإعداد الوثائق المزورة وتدمير مخابىء للسلاح واعتراض الجواسيس وقتلهم ونسف ذخائر تم تهريبها من أوروبا الشرقية، ولقد قاوم الموساد النار بالنار بمختلف الوسائل نتيجة للمعلومات التي أمده بها صوان.

في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤ تلقى صوان تعليمات من آدم المراقب المختص به في الموساد بأنه سيوفد إلى إنجلترا تحت ستار إنه طالب يدرس هناك للحصول على درجة في العلوم. وتتمثل مهمته الجديدة في اختراق منظمة التحرير الفلسطينية في لندن واكتشاف كل شيء في استطاعته عن وحدتها العسكرية النشطة ـ القوة ١٧. وكان يقودها في ذلك الحين عبد الرشيد مصطفى الذي يتخذ من بريطانيا مقراً. وكان مصطفى على قائمة الاغتيالات بالموساد.

أبلغ إسماعيل صوان مدير مكتب منظمة التحرير في باريس بأنه أنهى دراساته في اللغة الفرنسية وأنه يرغب في الذهاب إلى إنجلترا لاستئناف طلب العلم للحصول على درجة في العلوم الهندسية، وكان رجل فرنسي قد أعطاه شهادة دبلوم مزورة لتأكيد زعمه لو طلب منه ذلك وهو ما لم يحدث. ولمح إلى أن الدرجة ستجعله «أكثر نفعاً عندما يتعلق الأمر بصناعة القنابل». وكانت إمكانية إضافة عضو جديد إلى

فريق خبراء صنع القنابل بمنظمة التحرير أمراً مرحباً به على الدوام.

وصل إسماعيل إلى لندن في يوم عاصف في فبراير (شباط) ١٩٨٤ بوثيقة سفر أردنية زوده بها الموساد. ووجد وثيقة سفر كندية أخرى في القاع السري لحقيبته. وكانت التعليمات الصادرة له تقضي بعدم استخدام الوثيقة الكندية إلافي حالة اضطراره لترك بريطانيا على عجل. وإلى جانب وثيقة السفر وجد إسماعيل مذكرة عن عبد الرشيد مصطفى والقوة ١٧ التي يقودها.

وكانت مهمة إسماعيل صوان هي محاولة دفع مصطفى إلى شرك خارج بريطانيا، وفضل أن يكون ذلك في الشرق الأوسط حيث يمكن لعملاء الموساد المترقبين هناك أن يقتلوه. وتلقى صوان تعليمات من آدم في باريس بأنه سيعمل وفقاً لتوجيهات رؤسائه من الموساد في السفارة الإسرائيلية في لندن وهم آري رجيف وجاكوب باراد المسؤول عن المصالح التجارية الإسرائيلية والثالث بشار سمارا وهو عميل مقيم في لندن لا يعمل تحت غطاء دبلوماسي وهو حلقة الاتصال الأساسية مع صوان. وقد طلب سمارا من رجل يعمل في وكالة لتأجير المنازل في لندن أن يؤجر شقة لصوان في حي ميدا فال بالمدينة.

وعقب وصول صوان إلى لندن بأيام قليلة أجرى أول اتصال بسمارا. التقى الاثنان تحت تمثال إيروس في ميدان بيكاديللي. وكان كلاهما يحمل نسخة من صحيفة «الديلي ميرور» التي اشتراها روبرت ماكسويل من وقت قريب. وعن طريق أسلوب تبادل الصحف الذي ثبت نجاحه في باريس حصل صوان على راتبه الشهري الأول وهو ٦٠٠ جنيه إسترليني إلى جانب تعليمات بشأن كيفية العثور على وظيفة مكتبية في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن.

وكان الكثيرون من العاملين هناك يرغبون في عمل مثير مثل نقل الرسائل إلى مختلف خلايا منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا والذهاب جواً إلى مقر قيادة المنظمة في تونس حاملين معهم معلومات فائقة الأهمية والانتظار ساعات كي يحظوا بمجرد رؤية عرفات. ولم يكن لهؤلاء الشبان الثوريين المخلصين أي اهتمام بالعمل المكتبي المعتاد من كتابة وإعداد ملفات وقراءة للصحف وإجراء الاتصالات الهاتفية. ولذا عندما تطوع صوان لأداء هذا العمل فإن طلبه أجيب على الفور وحصل على وظيفة في مكتب لندن.

وفي خلال إيام التقي بمصطفى ونمت بينهما صلة تقارب في جلسات كانا يحتسيان فيها الشاي بالنعناع.

أمضى صوان ومصطفى يوماً بطوله وهما يعيشان في الماضي. وساله مصطفى عن عمله في لندن فأجابه أنه جاء إلى هنا لمواصلة تعليمه من أجل أن يخدم المنظمة أفضل ما يكون. وبدوره استفسر من مصطفى عما جاء به إلى إنجلترا. وكان هذا السؤال الذي أطلق العنان لفيض من البوح. فقد وصف مصطفى بطولات القوة ١٧: كيف كان رجال الصاعقة فيها على وشك اختطاف طائرة إسرائيلية محملة بسياح ألمان عندما ألغى عرفات المهمة خشية إثارة الرأي العام الألماني. لكن مصطفى نقل الحرب ضد إسرائيل إلى قبرص وإسبانيا. وكان إسماعيل يعلم أن كل ما يفاخر به رفيقه إنما يضاعف من إصرار الموساد على قتله.

واتفق الرجلان على اللقاء بعد أيام قلائل عند منصة الخطباء في هايد بارك وهو المكان التقليدي في لندن الذي تطرح فيه الآراء من كل صنف ولون بكامل الحرية. واتصل إسماعيل صوان بالرقم الخاص

الذي طلب منه استخدامه إذا كانت لديه أنباء عاجلة. وكان بشار سمارا وهو الذي رد على اتصاله. واتفقا على اللقاء في ريجنت ستريت حيث أبلغ بشار وهما يمشيان بما أخبره به مصطفى، وقال بشار إنه سيذهب إلى منصة الخطباء لالتقاط صورة لمصطفى ثم يتعقبه أينما ذهب.

غير أن مصطفى لم يأت في الموعد. ولم تسنح لصوان الفرصة لرؤيته ثانية إلا بعد أسابيع. وفي تلك الفترة كان صوان قد حظي بموافقة كلية في باث ـ المنتجع البحري ـ على قبوله طالباً. وكان يذهب مرتين في الأسبوع إلى لندن لزيارة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية لأداء عمله المكتبي. وفي إحدى المرات كان مصطفى في المكتب.

ومرة أخرى تجاذب الرجلان أطراف الحديث مع أكواب الشاي بالنعناع. وأخرج مصطفى من حقيبته كتاباً مصوراً يسجل تاريخ القوة ١٧. وقال متفاخراً أنه سيوزع مائة ألف نسخة من هذا الكتاب على الفلسطينيين وعندما تصفحه صوان وقعت عيناه على صورة لمصطفى التقطت له في لبنان. وبحركة مسرحية وضع مصطفى توقيعه على الكتاب وقدمه هدية لصوان. واتفقا على اللقاء لكن مصطفى كعادته أخلف في موعده.

وفي تلك الأثناء سلم صوان الكتاب لسمارا في المكان الذي أصبحا يلتقيان فيه بانتظام ـ محطة قطار باث. وكان سمارا يستقل قطاراً إلى باث ويعود بآخر إلى لندن حاملاً معه كل ما قد يكون عمله صوان في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية ويسمله راتبه الشهري.

ولنحو عام استمرت العلاقة على هذا النحو. وكان صوان قد التقى وقتها بفتاة إنجليزية تدعى كارميل جرين سميث ووافقت على الزواج منه. ولكن صوان لم يكن قد استقر حتى عشية الاحتفال بزواجه على من يكون شاهد العريس.

والتقى صوان بمصطفى مرة أخرى عندما قام برحلة لمكتب المنظمة ولم يخبره مصطفى كالمعتاد أين كان. وكان مصطفى يحمل معه لفافة من أوراق متنوعة من صحيفة «القبس» الكويتية التي تنشر في لندن، وفي كل صفحة رسم كاريكاتيري لاذع يسخر من عرفات. وكانت الصحيفة تتلقى دعماً مالياً من الأسرة الحاكمة في الكويت التي تعادي عرفات لفترة طويلة.

وكانت هذه الرسوم لناجي العلي أكثر الرسامين الكاريكاتيريين شهرة في العالم العربي. كان العلي يقيم في لندن، وكان يشن حرباً على عرفات يصوره فيها على إنه فاسد يمكن شراؤه بالمال ولا هم له إلا مصلحته كما أنه عديم الكفاءة. وجعلت هذه الرسوم من «القبس» صوتاً لمعارضة عرفات. ألقى مصطفى بأوراق الصحيفة على المنضدة وقال: «إن العلي يستحق الموت وأنه لا بد من تلقين أولياء نعمته الكويتيين درساً». وابتسم صوان ابتسامة باهتة، فإن الموساد يرحب بكل ما من شأنه إضعاف مركز عرفات. وطرح صوان موضوعه الشخصي ليجد الشاهد العربي في حفل زفافه. فقد قبل مصطفى على الفور عرض صوان بأن يكون شاهده، واحتضن كلاهما الآخر جرياً على العادات العربية. وقد تكون تلك هي اللحظة التي رغب إسماعيل صوان فيها أن يستطيع بطريقة أو بأخرى تخليص نفسه من براثن الموساد.

مساء يوم ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٨٧، أدار إسماعيل صوان جهاز التلفزيون لمشاهدة نشرة أخبار الإذاعة البريطانية (بي.بي.سي) بشقته في «هل». ولم يكن أحد من الموساد قد اتصل به منذ إبريل (نيسان) عندما جاء إليه بشار سمارا في «هل» والتقى به في محطة السكة الحديد وأبلغه بأن ينزوي قليلاً حتى إشعار آخر ما لم يتصل به مصطفى.

وعلى الشاشة جاء وجه الرجل الذي قال مصطفى إنه يستحق القتل: ناجي العلي رسام الكاريكاتير الذي اغتيل إثر مغادرته مكاتب صحيفة «القبس» في لندن. وقد أطلق رجل مسلح النار عليه مرة واحدة واختفى. واخترقت الرصاصة وجنته واستقر في دماغه. وكان أول ما طرأ على ذهن إسماعيل صوان أن الجاني ليس من الموساد أو القوة ١٧، فكلا المنظمتين تستخدم أسلوب المحترفين في القتل: إطلاق عدة رصاصات في الرأس والجزء الأعلى من الجسم. لكن هذا بدأ من أعمال الهواة. وقال النبأ الذي بثه التلفزيون أن الشرطة تقوم بحملة مكثفة لتعقب الجاني، بينما لمح زملاء رسام الكاريكاتير إلى أن الاغتيال يرجح إلى «الأعداء الأقوياء» الذين استعداهم ناجي العلي ولم يحددهم.

ثم تذكر صوان محادثة سابقة له مع مصطفى وتزايد يقينه بأن ياسر عرفات أمر بقتل ناجي العلي. وفجأة بدأ يتساءل عما إذا كان هو الشخص الوحيد الذي أفضى إليه مصطفى بضرورة التخلص من العلي. وقرر صوان أن من الأفضل له ولزوجته أن يطيرا إلى تل أبيب. وبينما كانا يحزمان حقائبهما سمعا دقاً على الباب. ويتذكر صوان أنه كان بالباب رجل يحمل حقيبتين، وقال: إن مصطفى يحتاج إلى إخفائها بإلحاح. وعندما قلت إنني أريد معرفة ما بداخل الحقيبتين اكتفى الرجل بالابتسام وطلب مني ألا أقلق. ولم يقل أكثر من «إن من لا يطرح أسئلة لا يكذب». وعندما انصرف تحريت ما بداخلهما وكانتا مملوءتين بأسلحة ومتفجرات منها مادة سيمتكس تكفي لنسف برج لندن وبنادق «إيه. كي» ومسدسات وأجهزة تفجير.

اتصل إسماعيل برقم الاتصال الخاص بالموساد في لندن لكن الرقم لم يكن يرد. ثم اتصل بالسفارة الإسرائيلية وقيل له إن آريه

رجيف وجاكوب باراد غير موجودين. فطلب الحديث مع بشار سمارا وطلب منه أن ينتظر، ثم جاءه صوت جديد على الخط وعندما ذكر إسماعيل اسمه، قال له: «إن هذا فرصة طيبة لقضاء عطلة والاستمتاع بالشمس». وكانت الكلمات إشارة لصوان للسفر إلى تل أبيب. وهناك التقى بجاكوب باراد وبشار سمارا في فندق «شيراتون». وشرح لهما ما فعل عقب اكتشاف محتويات الحقيبتين. وطلبا منه الانتظار حتى يبلغا الأمر لرؤسائهما. وفي وقت لاحق في المساء عاد إليه سمارا وأمره بأن يطير إلى لندن على أول طائرة وعندما يصل إلى هناك سيجد أنهم اهتموا بكل شيء.

توجه صوان إلى لندن في ٤ اغسطس (آب) ١٩٨٧ خالي البال مما ينتظره هناك. فقد اعتقله ضباط الشعبة الخاصة المسلحون في مطار هيثرو واتهم باغتيال ناجي العلي، وعندما قال إنه عميل للموساد سخر الضباط منه. لقد تمت التضحية بصوان كما تمت التضحية برسام الكاريكاتير الذي توفي بعد اسبوعين من اطلاق النار عليه في مستشفى ظل متعلقاً فيها بأهداب الحياة حتى النهاية. وكانت التضحية بصوان محاولة لاستعادة الحظوة لدى حكومة تاتشر. وكان وجود الأسلحة المخبوءة في شقة صوان مانعاً من تصديق أي ادعاء بأنه يعمل لدى الموساد. وكان الذي سلمه الأسلحة في شقته من عملاء الموساد.

وكان قرار تسليم صوان دليلاً مقيتاً على ميثاق الانتهازية غير المكتوب في الموساد. فقد استثمر الجهاز الكثير من الوقت والمال في تدريب صوان ومساندته في ميدان العمل. ولكن عندما حان وقت الجد لم يكن لهذا كله أدنى اعتبار إزاء حاجة الموساد الضخمة لإخفاء آثاره في بريطانيا.

وقد كانت الخسارة محققة بطبيعة الحال، فصوان أدى عملاً طيباً حتى لو أنه فشل في تلبية بعض المطلوب منه. لكن خبيئة الأسلحة كانت فرصة عظيمة لا يمكن تركها تضيع، فسوف تحطم علاقات منظمة التحرير الفلسطينية مع حكومة تاتشر وتسمح لإسرائيل بأن تصور عرفات باعتباره الإرهابي ذي الوجهين في تعاملاته.

إلا أن صوان أبلغ المحققين معه من الشعبة الخاصة بأوصاف دقيقة للمسؤولين عنه في الموساد علاوة على كل ما تعلمه من الموساد. وبدأت الشرطة تدرك تدريجياً أن من المحتمل أن إسماعيل يقول الحقيقة. وجرى استدعاء ضابط اتصال الاستخبارات البريطانية في تل أبيب حيث قام باستجواب صوان. وكان كل ما قاله عن المقر الرئيسي للموساد وأساليبه يطابق ما يعرفه الضابط ومن ثم بدأ يتكشف المدى الحقيقي لدور الموساد. وطرد رجيف وباراد وسامارا من بريطانيا.

ولم ينقذ إسماعيل صوان قول الحقيقة، ففي يونيو (حزيران) ١٩٨٨ حكم عليه بالسجن أحد عشر عاماً لحيازة أسلحة لمصلحة منظمة إرهابية.

وبعد خمس سنوات من طرد العملاء الثلاثة الذي أدى في حقيقة الأمر إلى إغلاق مركز الموساد في لندن عاد الموساد مرة أخرى. ففي عام ١٩٩٨ أصبح هناك خمسة من رجال الموساد يمارسون نشاطهم من السفارة الإسرائيلية. وقبل ذلك بثلاث سنوات أي في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٤ أفرج عن إسماعيل صوان من سجن فول موتون وأعيد إليه جواز سفره الأردني وتم ترحيله على متن طائرة إلى عمان. وكان آخر العهد به وهو يغادر المطار حاملاً معه الحقيبة التي أعطاها له

الموساد في تلك السنوات التي كان يسافر فيها إلى لندن.

ومن المملكة الصحراوية اتخذ موقعاً يرقب منه العاصفة التي كانت تتهيأ للهبوب في الخليج العربي والتي سبقها تغيير لرئيس الموساد. فقد انتهت فترة قيادة ناحوم أدموني للموساد التي استمرت ثماني سنوات عشية السنة اليهودية الجديدة، روش هاشاناه. وجاء في موقعة شابتاي شافيت الذي ورث تركة مثقلة بالإخفاق: مسألة «بولارد» و«إيران جيت» ووثائق السفر البريطانية المزورة التي عثر عليها في كابينة التليفون بأحد شوارع فرانكفورت، وهذه الأخيرة كانت نذيراً بانتهاء عهد أدموني. ولكن في عهد القائد الجديد هبت أكثر من عاصفة من عواصف الصحراء. فقد قرر صدام حسين أخيراً أن الوقت قد حان لإحداث مفاجأة أخرى للعالم.

الفصل السادس عشر:

(جواسيس في الرمال)

في يوم بارد من أيام كانون الأول من العام ١٩٩٠، وإلى الجنوب من مدينة بغداد تماماً، يرقد شخص ذو ملابس رثة وبلا حراك أسفل لسان الوادي المطل على صحراء مترامية الأطراف. كان الوقت فجراً والرمال باردة كالثلج، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى ما دون الصفر الليلة السابقة. يعلو رأس ذلك الرجل غطاء صوفياً، لفافة رأس كلفافة رجال القبائل من «السارامي»، من أقدم المذاهب الصوفية الإسلامية. وبعد ارتفاع الشمس، جاب الصحراء العراقية المترامية الأطراف المشبع هوائها بالتعصب الديني المتنامي ذات المبادئ السامية الذي تتسم به قبائل الصحراء. ولكن ولاء الرجل يتجه صوب بلدة إسرائيل، الواقعة على بعد ستمائة ميل إلى الغرب، إنه من رجال الكاتسا.

حصل على ملابسه البدوية هذه من مخازن جهاز الموساد العاجة بمختلف أنواع الأزياء قديمها وحديثها ومن شتى بقاع العالم حيث تستبدل بانتظام كي تواكب الزي السائد في هذه الدولة أو تلك. يُحصل على معظم تلك الملابس عن طريق عملاء جهاز الموساد والمتعاونين معه حيث يتم تسليمها إلى السفارات الإسرائيلية الكائنة في تلك البلدان،

تبعث بعدها، إلى تل أبيب في حقائبٍ دبلوماسية. أما ملابس الشعوب العربية المعادية بلدانها إسرائيل فيحصل عليها بواسطة بعض الزوار المؤيدين لإسرائيل. ويُخاط بعضها بأيدي المديرة المسؤولة والمشرفة على مخازن الملابس ومساعداتها. وبمرور الوقت، فقد اكتسبت وفريقها الصغير من الخياطات تدريجياً شهرةً وذلك لدقة تفصيلها، وفي طريقة استخدام الخيوط القطنية للموافقة بين الثوب وخياطته

مروراً على الأسماء المحفوظة بملفات في قسم العلميات، تم انبثاق كلمة التشفير - شالوم - منها، فقد تقدم بفكرة القائمة تلك، رافي إتيان بعد عملية إيشمان. فقد أصبح شالوم ويس واحداًمن أفضل القائمين بعمليات التزوير في جهاز الموساد قبل انضمامه للفريق المكلف بالقبض على أدولف إيشمان. توفي شالوم ويس في العام ١٩٦٣، متأثراً بمرض السرطان. لكن لا يزال اسمه حياً ولا يُمحى من ذاكرة الموساد وقد استخدم اسمه في العديد من العمليات التي نفذها رجال «الكاتس». شابتاي شافيت، رئيس شعبة شالوم، وضباطاً على عدد أصابع اليد يعرفوا سبب وجود ذلك الرجل في تلك الصحراء النائية.

في آب ١٩٩٠، غزا صدام حسين الكويت، العمل الذي أنذر باندلاع حرب الخليج. يعتبر تحرك القوات العراقية ضد الكويت فشلاً ذريعاً لجميع مؤسسات المخابرات الغربية، حيث لم تتوقع أي مؤسسة وقوع مثل هكذا غزو وفي مثل هكذا منطقة - الشرق الأوسط - حاولت الموساد بما أوتيت من التأكد من صحة التقارير التي تفيد بأن لدى صدام مخزوناً احتياطياً من الأسلحة الكيمياوية وفي مواقع سرية تقع إلى الجنوب من بغداد، حيث لا تطال الصواريخ الموجودة في تلك المواقع مدينة الكويت فقط بل وحتى المدن الإسرائيلية.

لا تزال الشكوك داخل جهاز الموساد تحوم حول امتلاك العراق الحقيقي لصواريخ حاملة رؤوس حربية. فقد أزيل جيرالد بول وسلاحه الفتاك من الصورة، بعد تجربته الأولية وتحوله إلى أشلاء صغيرة متناثرة، حسب تقارير الأقمار الصناعية الأمريكية المراقبة. فقد تداول محللوا شافيت الاقتراح القائل بأنه حتى في حالة امتلاك صدام للرؤوس الحربية، فليس من المؤكد إنها مزودة بمواد كيمياوية.

استعرض شابتاي شافيت التحذير المقدم من المسؤول الجديد، قائلاً بأن لديه معلومات تفيد بحدوث هجوماً صاروخياً مباغتاً قد يثير الرعب في صفوف المواطنين. لذلك أنيطت مهمة اكتشاف الحقيقة إلى شالوم، كونه سبق ونفذ بضعة عمليات في العراق، حيث تظاهر في إحداها - وأثناء زيارته إلى بغداد - بأنه رجل أعمال أردنـي. وقد كان في بغداد أحد العملاء منتظراً كي يمد له يد المساعدة والعون. أما هنا، في هذه الصحراء الفسيحة، الفارغة، فعليه أن يعتمد على مصادره الخاصة ومهاراته وخبراته التي اقتناها واخْتِبرَ بها أحد المرات من قبل معلميه.

تلقى شالوم تدريبات خاصة عنيفة وقاسية في صحراء نجد، لتحمل مشاق وصعوبات الحياة في الصحراء والكفاح والصمود في وجه الظروف الصعبة التي قد تواجهه للبقاء على قيد الحياة. حيث خضع أول الأمر إلى «تدريب تقوية الذاكرة» الخاص بكيفية تمييز الهدف حتى في حالة هبوب عاصفة رملية أو كيفية الانسجام مع المحيط الجديد. فتراه مرتدياً ملابسه العربية ليلاً ونهاراً للتأقلم والتعود عليها، وكذلك يمضي النهار أكمله متدرباً في مضمار الرمي، كي يعزز مهاراته في الرمي بصورة غريزية وسريعة في حالة حدوث التحام قريب مع

إمضـاء سـاعـة درس مـع صيـدلانـي متعلمـاً كيفيـة استخـدام الأدويـة والإستطبابات الطبية الضرورية ذاتياً في الصحراء، مع تكريس فترة الصباح لاستذكار الخرائط التي ستقوده عبر رمال الصحراء الفسيحة.

بقيت شخصيته بطي الكتمان والسرية حتى على معلميه، وإن كان من الضروري كشفها لعدد محدودٍ فقط كما تستوجبها ضروريات التدريب، عموماً لم يُحبط معلموه من عزيمته، وفي نفس الوقت لم يمدحوه كثيراً. فلم يزودوا شالوم بأية معلومات إضافية عن كيفية عمل هذا الشيء أو ذاك، بل كانوا يتصرفون كالرجال الآليون، فقط ينفذون ما يؤمروا بإعطائه إلى شالوم. وقد خصصوا له جزءاً من النهار لاختبار قوة تحمله الجسدية المطلقة بالسير القسري وفي ساعات الظهيرة الشديدة الحرارة حاملاً على ظهره حقيبة ظهر يضاهي وزنها وزن الصخور. كان دائماً ما يؤدي عمله بكل دقة، ولم يكن لينتظر مديحاً من أحد. وبعيداً عن تدريبات تطوير التحمل الجسدي، فقد خضع لاختبارات قياس مدى استجابته وسرعة رد فعله لبعض المواقف العصيبة، حيث عُرّض لأسئلة مثل: «اكتُشِف أمرك من قبل طفلة بدوية: هل تقتلها للحفاظ على سرية مهمتك؟» «أنت على وشك الوقوع في الأسر، هل تستسلم أم تقتل نفسك؟» «اجتزت بطريقك على جندي إسرائيلي جريح، والذي كان مكلفاً بمهمة أخرى، هل تتوقف لأبداء المساعدة أو تتركه، متيقناً موته في حال تركه؟». ليس المطلوب من شالوم الإجابة بدقة: «فالأسئلة صممت لتكون طريقة أخرى لاختبار مدى قابليته على اتخاذ القرارات المناسبة تحت تأثير مختلف الضغوط». وكذلك يجب معرفة بعض الأمور مثل: كم من الوقت استغرق للإجابة؟ هل كان مرتبكاً أم واثقاً من نفسه؟.

أما مسألة طعامه، فقد رُكّزَ على تناوله طعاماً قليلاً لإبقاءه على

قيده الحياة مع الأخذ بنظر الاعتبار مسألة مياه الشرب حيث رُكّزَ على أن يكون مالحاً ليشابه المياه التي يُتوقع إيجادها في بقع المياه المتأثرة في الصحراء. وكذلك حضر دروساً على انفراد مع المعالج النفسي في جهاز الموساد لتعليمه كيفية التعامل مع الإجهاد وكيفية الاسترخاء. وأراد المعالج المشرف أيضاً، التأكد من أن شالوم لا يزال يعتمد في التفكير باتخاذ المواقف اللازمة على نفسه. وذلك مجال عمله. وقد حددت اختبارات مدى أهليته وجدارته من تعزيز ثقته بنفسه وعلى تنمية روح الكفاح المميزة لرجال «الكاتسا» بتحقيقهم النجاحات المهنية المرجوة.

ولساعات طوال، جلس شالوم مع معلم اللهجات، مصغياً إليه بكل جوارحه مردداً تارةً ومستفهماً تارةً أخرى لغرض اتقان اللهجة الخاصة المميزة لمذهب الصوفية، وكونه طليقاً باللغتين العربية والفارسية، فقد التقط شالوم وبسرعة لهجة رجال القبائل. وكذلك كان يُقاد إلى صحراء نجد كل ليلة للنوم مختبئاً في الأرض، كي يأخذ قسطاً من الراحة لفترة قصيرة لا تتجاوز إغفاءة، لينتقل إلى مكانٍ آخر ليتجنب مطاردة معلميه، فمسألة اكتشافه من قبل معلميه تعني بصورة لا تقبل الشك أن مهمته إما سيكون مصيرها التأجيل أو الخضوع لوحدات تدريبية أخرى، أو يُناط بها إلى رجل «كاتسا» آخر.

اكتُشفت محاولة هرب واختفاء شالوم عن أعين معلميه، وأخيراً وفي مساء الخامس العشرين من تشرين الثاني عام ١٩٩٠، أركب متن طائرة مروحية نوع (سيكورسلي CH-536) التابعة لقيادة المنطقة الوسطى لقوات الدفاع الإسرائيلية.

خضع طاقم الطائرة المروحية وبصورة منفردة لهذه المهمة في

قاعدة نجد للتدريب على شق طريقهم بنحوٍ متعرج وبمستوى منخفض من خلال سلسلة مطبات هوائية في الظلام. حيث خصصت محركات توربينية بإحداث هبات هوائية معبئة بالرمال تجاه المروحية لغرض تمكين طاقمها من تطوير تقنياتهم في الطيران في ظروف مماثلة للصحراء العراقية المتميزة بتيارات الهواء الغير مستقرة. وكذلك على قائد الطائرة التحليق بالطائرة بمسافة قريبة من الأرض ما أمكن دون الاصطدام بالأرض. وفي تمرين آخر نشر المعلمون ومن دون اتساق عوارضاً على أرضية الهبوط، مطلقي النار من الطائرة على هدفٍ مظلل، بينما يحافظ قائد الطائرة ما أمكن على ثبات طائرته. وفي خضم هذه التمارين، دُرِّسَ طاقم الطائرة الممر الذي عليهم اتباعه في عملية طيرانهم.

ولا يعرف الطريق الذي على طاقم الطائرة المروحية سلوكه وصولاً إلى الحدود العراقية، سوى قائدهم الضابط داني ياتوم، الذي كان يوماً ما عضواً في وحدة قيادة الصفوة - سايرت ماتكال - وحدة القبعات الخضر الإسرائيلية، الذين اقتحموا وبنجاح طائرة الخطوط الجوية البلجيكية المخطوفة في مطار تل أبيب في العام ١٩٧٢. أما القادة الآخرون في هذه العملية فتشمل بنيامين نتنياهو، حيث إن علاقة الصداقة التي ربطت ياتوم برئيس الوزراء الإسرائيلي المستقبلي قادته مؤخراً توليه قيادة الموساد، المنصب الذي أنهى علاقته بنتنياهو، لكن كل ذلك كان ليحصل في المستقبل.

في صباح ذلك اليوم البارد من شهر كانون الأول، وبينما استمر شالوم بالتحديق فوق حافة ذلك الوادي متأملاً في مصيره الذي قُررَ في غرفة الاجتماعات في «قريات» المقر الرئيسي لقوات الدفاع الإسرائيلية في تل أبيب.

إضافة إلى ياتوم، حضر أمنون شاهاق، رئيس جهاز (أمان)، الاستخبارات العسكرية، وشابتاي سافيت الاجتماع لمناقشة آخر المعلومات التي حصل عليها الجهاز من مصدر معلومات متغلغل بعمق داخل شبكة الإرهاب الإيرانية في أوربا. فقد كان الشخص ـ يعرف شافيت فقط إن كان المخبر رجلاً أو امرأة ـ معروفاً بواسطة الحرف «ي». كل ما تمكن(شاهاق وياتوم) من استنتاجه والتوصل لحل بشأنه هو وجوب تمتع المخبر بحرية الوصول والاقتراب من حواجز المجمع الكائن في الطابق الثالث من السفارة الإيرانية في مدينة بون، ألمانيا. يحتوي المجمع على ستة مكاتب وغرفة اتصالات. عززت المنطقة المحيطة بالسفارة بتشييد حواجز وجدران مقاومة للانفجار، وبحراسة مشددة متألفة من عشرون حارساً من أعضاء حرس الثورة، حيث كانت مهمتهم دعم النشاطات الإرهابية في أوربا الغربية. فقد حاولوا مؤخراً شحن طناً من مادة السميتكس وأدوات تفجير اليكترونية من لبنان إلى إسبانيا. حيث استبدلت شحنة السفينة الأصلية بمواد متفجرة لغرض إيصالها إلى عدد من المجموعات الإرهابية المؤيدة لإيران في البلدان الأوربية. وبواسطة معلومات سرية زودتها الموساد إلى الحكومة الإسبانية، قامت الشرطة الإسبانية بالنزول على متن السفينة حال وصولها المياه الأقليمية الإسبانية.

اكتشف صيف عام ١٩٩٠، أن إيران، ومن خلال السفارة الإيرانية في بون، تنفق أموالاً ضخمة لزيادة التأثير الإسلامي ذو الطابع المتشدد والإرهابي في أوربا. فقد كانت المبالغ الممنوحة من الضخامة بحيث أصابت المحللين السياسيين بالذهول كون الاقتصاد الإيراني مصاباً بالشلل بعد حرب الثماني سنوات مع العراق، والتي انتهت بعد قرار وقف إطلاق النار في عام ١٩٩٨.

وفي أحد أيام تشرين الأول وفي غرفة الاجتماعات في (قريات) عقد اجتماعاً متسماً بالحذر، ليس لمناقشة التهديد الإيراني الجديد المكتشف حالياً، بل لمناقشة تهديد أخطر وأشد من سابقه صادر من العراق هذه المرة. فقد حصل العميل «ي» على نسخةٍ من خطة حربية عراقية مفصلة سُرقت بواسطة مؤسسة الاستخبارات السرية الإيرانية من المقر الرئيسي للاستخبارات العسكرية في بغداد، يُصور مخططاً تمهيدياً عن كيفية استخدام صواريخ سكود تشن هجمات كيمياوية وبيولوجية ضد إيران، الكويت، وإسرائيل.

وكان يعلو تفكير كل مسؤول في غرفة الاجتماعات سؤالاً واحداً: هل يمكن الوثوق بهذه المعلومات؟ أثبت العميل «ي» بأن جميع البيانات السابقة التي زودها صحيحة. لكن، وبالرغم من أهميتها، فقد ذوت أمام ما بعث به «ي» الآن. فلا تزال الخطة الحربية المذكورة آنفاً هي جزءاً من مؤامرة تحركها المخابرات الإيرانية لجر إسرائيل نحو شن هجوماً وقائياً ضد العراق؟ هل اكتُشِف أمر «ي» من قبل الإيرانيين وجُنِّد للعمل لصالح المخابرات الإيرانية؟.

تتسم محاولة الإجابة على تلك التساؤلات بالمخاطرة. حيث يستغرق إرسال «كاست» للاتصال بالعميل «ي» وقتاً، قد يستغرق عدة أسابيع، تتسم عملية كشف خبايا مخبرٍ ما، بالولاء أو العدوانية، بالبطء والدقة، فحتى وإن أثبت «ي» ولائه فستكون حياته معرضة للخطر بعد كشفه لتلك الأسرار. فلا تزال نتائج العمل في التحقق من صحة الوثيقة العراقية، مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم إفضاء نتائج التحقيق إلى التسبب بإلحاق كارثة بإسرائيل. فعملية شن هجوم إسرائيلي وقائي سيؤدي بالتأكيد إلى رد عراقي بالمثل ـ وبالتالي سيؤدي إلى تشتيت شمل

الائتلاف العالمي الذي تم جمعه بالكاد من قبل حكومة واشنطن لإرغام صدام على الخروج من الكويت. ومن المحتمل أن العديد من أعضاء الائتلاف، سيما العرب سيؤازروا العراق ضد إسرائيل.

إذن، فالطريقة الوحيدة لاكتشاف حقيقة الخطط الحربية المسروقة هي إرسال شالوم إلى داخل الحدود العراقية. حلقت الطائرة المروحية وعلى متنها شالوم عبر مساحة طويلة وضيقة داخل الحدود الإردنية تحت غطاء سواد الليل الكالح. مطلية بطلاء إخفاء خاص، وبصوت محرك مكتوم، تسللت الطائرة المروحية «سيكورسكي» عبر الحدود الأردنية بشكلٍ صامت دون إصدار ريش مروحتها الدائرة أي صوت، حيث أصبح أمر اكتشافها من قبل أكثر الرادارات الأردنية تطوراً مستحيلاً، وصلت نقطة هبوطها على الحدود العراقية.

استغل شالوم إسدال الليل ظلامه الحالك مختفياً في الصحراء المترامية الأطراف. والآن، وبعد كل التدريبات الخاصة التي تلقاها، عليه الاعتماد على نفسه، فلا يمكن تزويده بشيء مذ لحظة مغادرته الطائرة، فعليه، وبمفرده في هذه الصحراء ولكي يبقى على قيد الحياة أن يألف محيطه الجديد، بعكس مناطق الأرض الأخرى، لا تخبىء الصحراء في ثناياها إلا مفاجآت غير متوقعة. لكن قد تحدث عاصفة رملية في لحظات، مغيرةً معالم الصحراء، هايلة عليه التراب، مدفوناً حياً. فعلامةً في السماء قد تعني أمراً ما، وأخرى قد تعني أمراً مختلفاً كلياً، إذن عليه أن يتنبأ بالجو بطريقته الخاصة، عليه عمل كل شيءٍ ذاتياً وأول شيءٍ يجب عمله هو تكييف أذنيه لهدوء الصحراء، فهدوء الصحراء لا يعادله أي هدوء على وجه الأرض. وعليه أن يضع نصب عينيه أن خطأه الأول يعني الأخير بالنسبة اليه.

بعد مرور ثلاثة أيام من مغادرته المروحية، وعند فجر ذلك اليوم القارس ببرودة من كانون الأول استلقى شالوم منبطحاً في الوادي العراقي. وتحت غطاء الرأس الصوفي «هوبتا» ارتدى نظار للوقاية من الغبار وأشعة الشمس اللاهبة، حيث زودت عدستاها القاتمتين منظر الصحراء المظلم صور غير واضحة المعالم البتة. إن السلاح الوحيد الذي يحمله شالوم هو ما يُتوقع أن يوجد عند «السرامي». سكينة صيد فقط. حيث تلقى تدريبات لاستخدامها والقتل بها بعدة طرق. فإن كان متيقناً أنه لا يمكن استخدامها ضد قو تفوقه، فعليه أن يديرها تجاه جسده، ببساطة قد ينتحر بالشيء الذي يحمله، الكريه على نفسه المميت بذاته. فمنذ حادثة وقوع إيلي كوهين بالأسر وتعذيبه وموته، وهو أحد رجال الكاتسا العاملين في إيران، العراق، اليمن، وسوريا، فقد أعطى شالوم لنفسه الحق بالانتحار من أن يقع بأيدي مستجوبيه البرابرة. وفي هذه الأثناء استمر شالوم بالملاحظة الدقيقة والانتظار.

ها قد بدأ البدو في مخيمهم الكائن على بعد نصف ميل خلف الوادي. بأداء أول صلواتهم اليومية. فقد حملت الرياح والهدوء المخيم صوت نباح كلابهم الواهن ليلاً، لكنها سوف لا تغامر بالابتعاد عن المخيم قبل بزوغ شمس نهار يوم جديد. فكان من بين أوائل الدروس التي تلقاها كي يبقى حياً في الصحراء هو أساليب التصرف.

فطبقاً للمعلومات التي زُوِّدَ بها في ملخصه الذي يحمله معه، يجب أن تظهر القافلة العسكرية ما بين مخيم البدو والتلال القريبة الواقعة على يساره. فبالنسبة لعين الشخص العادي، فالدرب الذي سيسلكونه غير مرئي. أما بالنسبة لشالوم فيُعتبر الدرب واضحاً وضوح الطريق المليء بالعلامات الإرشادية.

كانت الشمس مرتفعة عند ظهور القافلة العسكريه: منصة صواريخ سكود محمولة: على عربة، وقد توقفت على بعد نصف ميل، حينها بدأ شالوم بتصوير وتدوين ما يجري.

استغرق مكوث منصة إطلاق الصواريخ خمسة عشر دقيقة، حيث انبثقت بشكل قوسي وبعدها تحركت القافلة بسرعةٍ نحو التلال متوارية في الأفق البعيد. ففي غضون دقائق يمكن لذلك الصاروخ من إصابة تل أبيب أو أي مدينة إسرائيلية أخرى في حالة الضغط عن طريق الخطأ على زر إطلاقه. بعدها بدأ شالوم رحلته الطويلة مقفلاً إلى تل أبيب.

في الثاني عشر من كانون الثاني، ١٩٩١، أي بعد مضي ستة أسابيع، كان شالوم من بين فريق عمل مشترك من جهاز الموساد وضباط الاستخبارات في أمان ملتفين حول طاولة الاجتماعات في قيادة العمليات الخاصة المشتركة في الولايات المتحدة (JSOC) (يدعى كادرها بـ «جايسوك»)، في قاعدة بوب الجوية، في ولاية جيورجيا. فقد صدرت الأوامر إلى «الجايسوك»، أصحاب القبعات الخضراء وأعضاء «السيال» (SEAL) في المحافظة على علاقة وثيقة الصلة مع الموساد.

بعد عودة شالوم من العراق وتزويده جهاز الموساد بتقريره، أحاط شافيت، الجنرال إيرل ستينر قائد عمليات «جايسون»، علماً بأن صدام اتخذ أكثر من وضعية هجومية. فالجنرال صعب الإقناع يتمتع بأسلوب تحادث سوقي ولغة لاذعة يحبها الإسرائيليون كثيراً. أما في غرفة العمليات الحربية، عبدت لغته المتشدقة وقراراته المفاجئة والمتسرعة في نفس الوقت الطريق لاتخاذ قرارات قاسية. كونه على قمة القيادة العسكرية للدولة، فهو يدرك أهمية الاستخبارات النشيطة، وخبرته في الشرق الأوسط أقنعته بأن جهاز الموساد يقدم الخدمة الاستخباراتية الأفضل.

منذ غزو صدام للكويت، بقي ستينر على اتصال منتظم بالمسؤولين الإسرائيليين، فقد رجع بعضهم في تفكيره إلى الوراء قليلاً، إلى العام ١٩٨٣، فقد أرسل ستينر عندما كان مرشحاً حديثاً برتبة عميد، بصورة سرية من قبل وزارة الدفاع الأميركية إلى بيروت لإرسال تقارير مباشرة إلى كوادر القيادة المشتركة عن مدى تورط الولايات المتحدة في الحرب اللبنانية.

وعمل في الآونة الأخيرة بصورة مشتركة مع جهاز الموساد خلال عملية اختطاف «إشيل لاورو»، فقد انقض بمعاونة قوات مغاوير قوة دلتا عل قاعدة جوية إيطالية في جزيرة صقلية حيث توقف الخاطفون بطائرة الخطوط الجوية التي تقلهم في طريقهم للانطلاق إلى مصر. فقد منعته القوات الإيطالية من إلقاء القبض على المختطفين وهم على بعد إطلاقة مسدس. حلق ستينر يملؤه الإحباط والخذلان، مغادراً طائرة الخطوط الجوية التي تقل الخاطفين، بطائرة النقل العسكرية، وقد حُرِم من إكمال المطاردة فقط عند دخول الطائرتين المجال الجوي لمدينة روما وتهديد المراقبين الجويين بإسقاط طائرة قوة دلتا بتهمة «القرصنة الجوية». وفي العام ١٩٨٩، كان ستينر قائد القوات البرية في عملية غزو بنما، وكان مسؤولاً عن سرعة إلقاء القبض على الرئيس البنمي مانويل أورتيغا.

لا أحد يعلم بعلاقة ستينر بجهاز الموساد، إلاّ رئيس القيادة المشتركة الجنرال آوكلين باول ونورمان شوارزكوف المسؤول عن القيادة المشتركة. فبينما يكافح شوارزكوف من أجل إنشاء خط دفاعي على طول الحدود السعودية لصد أي هجوم محتمل للقوات العراقية انطلاقاً من الكويت، ترى ضباط استخبارات ستينر يعملون بالاشتراك

مع جهاز الموساد على تشكيل حركات مقاومة داخل العراق في محاولة منهم للإطاحة بصدام.

عندما دعا الجنرال واين داوننغ، قائد «الجايسك»، إلى عقد اجتماع فقد علم كل من حضر الاجتماع بأن الساعة تقترب من المهلة النهائية التي حددتها الأمم المتحدة لشن الحرب ضد العراق. الموافق يوم ١٥ كانون الثاني، ١٩٩١. فسبق أن تبنى المجتمع الدولي طريقة الحوار المباشر مع حكومة بغداد الطرشاء، وبعد فشل كل الجهود المبذولة ودنو المهلة المحددة اندلعت الحرب، حيث ترى صدام متبجحاً بالترحيب بما تنبأ أنه سيكون «أم المعارك».

بدأ داوننغ الاجتماع بتذكير مستمعيه من حضر الاجتماع بأن حكومة واشنطن لا تزال تطلب من إسرائيل البقاء خارج نطاق الحرب الدائرة، وسنجني بالمقابل فوائداً سياسية واقتصادية بعيدة الأمد .

كانت استجابة الوفد الإسرائيلي سريعة حيث عرضوا صوراً مكبر لقواعد إطلاق صواريخ سكود العراقية، الملتقطة من قبل شالوم. بعدها انهمر سيلاً من الأسئلة، فعلى افتراض تزويد صدام هذه الصواريخ برؤوس نووية حربية؟ حيث إن الموساد مقتنعة بأن العراق قد بنى مؤخراً المنشآت الضرورية لتصنيع المواد الأولية. وكذلك لديه القابلية على وضع رؤوس حربية كيمياوية أو بيولوجية على صواريخ سكود. هل على إسرائيل الانتظار لحين حصول هذا الأمر؟ ما هي خطط قوات التحالف الخاصة بالتعامل مع منصات إطلاق صواريخ سكود قبل انطلاقها؟ هل للمسؤولين الأمريكيين أدنى فكرة عن عدد صواريخ سكود التي يملكها صدام؟

أجاب أحد ضباط داوننغ بأنه على «أقل تقدير» تبلغ الخمسين

صاروخاً. فرد عليه شابتاي شافيت بالقول: «نعتقد بأنه لدى صدام خمسة أضعاف هذا العدد، إن لم يكن العدد يبلغ الخمسمائة صاروخ».

خرق سؤال داوننغ الصمت المطبق الذي خيم على غرفة الاجتماعات، هل بالإمكان تحديد مواقعها؟ لم يكن شافيت متقيناً عن مكان وجود الصواريخ بالضبط، لكنه رد بالقول إنها تقع في صحراء العراق الغربية وإلى الشرق من البلاد. حينها اتفقت وجهة نظر الأمريكيين وداوننغ على أن «الصحراء واسعة بما فيه الكفاية لإخفاء هذه الصواريخ فيها». وبنبرة يملؤها الإحباط وعدم الإكتراث قال شافيت: «عندها كلما أسرعنا بالتخلص منها، كلما كان ذلك أفضل».

تعهد داوننغ بمتابعة الموضوع، وأغلق الاجتماع بإعادة التذكير بوجوب بقاء إسرائيل خارج نطاق الصراع المقبل بين العراق وقوات التحالف الدولي ـ لكن كل ما تمكن من حصده ضباط استخبارات الموساد وأمان هو الترحيب بهذا القرار والالتزام به. وفي نفس الوقت، أعيد التأكيد على أن الولايات المتحدة وحلفائها سيتعاملوا مع صواريخ سكود بأسرع وقت ممكن، بعدها أقفل الإسرائيليون عائدون إلى بلدهم وكلهم شعور بأنهم قد حصلوا على أسوأ نهاية يمكن تصورها لصفقةٍ كانوا على وشك عقدهامع الأمريكيين.

وبعد مرور فترة وجيزة على ذلك الاجتماع وعند الساعة الثالثة فجر يوم السابع عشر من كانون الثاني ١٩٩١، وبعد سويعات من بدء تنفيذ حملة عاصفة الصحراء ـ أصابت سبعة صواريخ سكود عراقية مدينتي تل أبيب وحيفا، مدمرةً ١٥٨٧ بناية وجرح سبعاً وأربعون مدنياً.

وعند نهاية ذلك الصباح، وباتصال هاتفي ساخن، سأل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير وببرود، حكومة واشنطن، بأنه كم

مواطن إسرائيلي عليه الموت قبل أن يعمل الرئيس بوش شيئاً. انتهى الاتصال القصير بالتماس الرئيس بوش منه الالتزام بضبط النفس وعدم التهور، عندها رد شامير قائلاً: بأن إسرائيل سوف لن تبقى على الحياد أطول من هذا الوقت.

أخيراً، أمر شامير الطائرات المقاتلة الإسرائيلية بالقيام بدوريات مراقبة على المجال الجوي الشمالي للعراق. عندها وفي الحال، تعهد بوش بأنه في حالة إعادة الطائرات الحربية الإسرائيلية إلى مواقعها، فسيرسل «وبأسرع وقتٍ ممكن» بطاريتي صواريخ نوع باتريوت مضادة للصواريخ «لحماية مدن إسرائيل» وإن قوات التحالف «ستجهز على ما تبقى من صواريخ سكود في غضون أيامٍ قلائل».

دارت في أوساط الـ «لاب» ـ شعبة الحرب النفسية ـ حقائقاً مألوفة تتعلق بجهاز الموساد ومفادها: لا يمكن رؤية بلداً صغير المساحة وقليل النفوس، محللاً وبكل براعة للبيانات والمعلومات الاستخباراتية كما تفعل إسرائيل، لذلك لا توجد مؤسسة استخبارية يمكن أن تضاهي جهاز الموساد في طريقة تفكيره وفهمه لأغراض ونوايا الدول المعادية، أو توازي سجلها المليء بعمليات إجهاض مخططات أولئك الذين أزعجوا وأقلقوا أمن إسرائيل لما يقارب الخمسين عاماً، فيتمتع هذا الجهاز بمقدرة خاصة ومذهلة على حسن التصرف وسرعة رد الفعل تجاه تسارع الأحداث المحيطة به وأوجد لنفسه حيزاً على الدوام في وسائل الإعلام، التي تشعر بامتنان تجاه تزويد الموساد لها بمعلومات من «داخل مضمار الحدث».

برزت مقالات صاخبة ومدوية على أمتن الجرائد اليومية مذكرة

القراء بأنه، وعلى الرغم من الأساليب الدفاعية، والاحترازية المتخذة من قبل بعض الدول العربية قبيل اندلاع حرب الخليج بفترة وجيزة، فلا زال جهاز الموساد يقاتل بضراوة وشجاعة متميزتين في لبنان والأردن، وسوريا، والعراق. أصبح القراء قادرون على قراءة العبارات الكائنة ما بين الأسطر: فقد عرقلت جهود جهاز الموساد، وذلك لإساءة استعمال المسؤولين السياسيين لميزانية الدفاع. حيث يدلون بأن قلة الإنفاق على الجهاز يعود إلى الإنفاق على توفير سبل الحماية لشعب مرعوب وخائف من هجمات الصواريخ العراقية، من شراء أقنعة ضد الغازات السامة وتشييد المزيد من الملاجيء المحصنة للاحتماء بها حال وقوع الهجمات، حولت هذه الادعاءات مجرى النقد بعيداً عن مرمى جهاز الموساد وإعادته مجدداً إلى ساحة السياسيين. وبتوفير الأموال وضعت إسرائيل برنامجها التجسسي الخاص عن طريق الأقمار الصناعية على المدى البعيد، بعد أن كانت معتمدة في السابق على البيانات والمعلومات التي تزودها بها الأقمار الصناعية الأميركية. وأول بادرة هي إطلاقها قمراً صناعياً عسكرياً ليراقب تحركات العراق خصيصاً. وبدأ العمل بإنتاج صاروخ جديد مضاد للصواريخ نوع، هيتز، على نطاق واسع، وحتى ذلك الحين، طلبت الحكومة الإسرائيلية من الولايات المتحدة تزويدها ببضعة بطريات صواريخ مضادة للصواريخ نوع باتريوت.

ذوت لجنة الاستخبارات الفرعية في وجه وابل التأييد الإعلامي والشعبي لجهاز الموساد، وانبثق شامير منتصراً ـ شارعاً بتعزيز موقع جهاز الموساد ـ بعد اختراق رجال الكاتسا العمق العراقي في محاولة منهم لاكتشاف مجموع ما دُمِّر من ترسانة أسلحة صدام الكيمياوية والبيولوجية وما بقي منها بعد قصفها بوابل من قنابل قوات التحالف.

فقد اكتشفوا بأن العراق لا يزال يملك كميات كبيرة من مادة الجمـرة الخبيثـة، الجـدري، فيـروس إيبـولا، عـامـل الإعصـاب، ومـواد كيمياوية قادرة ليس فقط على قتل كل رجل، وامرأة، وطفل في إسرائيل، بل ونسبه هائلة من السكان على وجه الأرض.

السـؤال الـذي واجـه شـابتـاي، الـرقيـب الآخـر للمـؤسسـات الاستخبارية الإسرائيلية، والسياسيون الإسرائيليون هو التقرير فيما إذا كان بالإمكان نشر ما حصلوا عليه من معلومات على الملأ؟ وهذا ما سينشر بالتأكيد الخوف والذعر في صفوف المواطنين الإسرائيليين، وكذلك إمكانية، إثارة بعض الآثار السلبية الأخرى. فقد طُمِسَتْ صناعة السيـاحـة الإسـرائيليـة تمـامـاً نتيجـة لحـرب الخليـج، وبـات الاقتصـاد الإسرائيلي قريباً من منطقة الانكسار وكان ورود الاستثمارات الأجنبية إلى البلد ضئيلاً، وسيزيد ـ الكشف بأن إسرائيل لا تزال في مدى الأسلحة العراقية المميتة ـ الطين بلة في ندرة وفود السواح أو المال إلى البلد.

والأدهى من ذلك، هو تفكك ائتلاف حرب الخليج، حيث إن الكثير من العرب لم يكونوا بمثل هذا الجمود مطلقاً في تنفيذ العمليات الحربية ضد أشقاءهم العراقيين، والتي أنتجت بدورها نمواً متزايداً بالتعاطف مع معاناة العراقيين. وكذلك فإن آثار الدمار الهائل، الذي خلفته قنابل وصواريخ قوات التحالف والمعاناة المستمرة للمواطنين الأبرياء قد اذكى النار في العواطف المنجرفة في كل مكان من منطقة الشرق الأوسط، وأججت عداء العرب لإسرائيل. وعلاوة على ذلك، ففي حالة نشر تل أبيب تفاصيلاً على أن الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية العراقية لم تُصب بأذى. سيُفسر من قبل الدول الغربية المناصرة للعرب

كمحاولة إسرائيلية لإقناع الولايات المتحدة وبريطانيا بشن هجمات أخرى على العراق.

كذلك فإن نشر معلومات متعلقة بترسانة صدام الحربية علانيةً، كان سيؤثر بلا أدنى شك على محادثات التفاهم السرية بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل لإنهاء حالة العداء بينهما، فبحلول العام ١٩٩٢، تُقلت المحادثات الثنائية إلى النروج، وكانت قد أحرزت نجاحاً ملموساً، على الرغم من مرور سنة كاملة قبل التوصل، إلى اتفاقية ثنائية والتي أقرت علناً في شهر تشرين الأول عام ١٩٩٣، عندما صافح ياسر عرفات رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين في حديقة البيت الأبيض، تحت أنظار الرئيس كلنتون، واعتبر التوقيع على هذه الاتفاقية نصراً ديبلوماسياً لكل المسؤولين.

على أي حال، لم يساور الأمل أغلب العاملين في جهاز الموساد بأن صيغة «الأرض مقابل السلام» ـ الأرض الفلسطينية مقابل إيقاف العمليات الإرهابية ـ ستؤدي غرضها المنشود. فلا يزال التشدد الإسلامي على الحدود، وجيران إسرائيل، الأردن ومصر، وسوريا قد تأثروا بالقوى الإسلامية المتطرفة في إيران. فبالنسبة لملالي طهران، بقيت إسرائيل دولة منبوذة. ففي داخل المؤسسات الاستخبارية، وفي واقع الأمر، وللعديد من الإسرائيليين، يعتبر مفهوم السلام الدائم مع الفلسطينيين صلحاً لا ينتمي إلى أرض الواقع بشيء. فلدى الصهاينة الإسرائيليون القليل من الرغبة للتعايش السلمي مع العرب: فيرى الصهاينة الديانة والثقافة العربية شيئاً منحطاً قياساً لمعتقداتهم وتاريخهم، فلا يمكن التصديق بأن معاهدة أوسلو ستضمن لهم تحقيق حلمهم المنشود بالأرض الموعودة وأن كلا الشعبين سيعيشا سويةً، إن لم يكن بسعادة على الدوام، فعلى الأقل باحترام أحدهم للآخر.

جميع هذه الأمور قد فكر بها شابتاي شافيت ملياً عند أخذه بنظر الاعتبار الإجابة علانية على السؤال المتعلق بإمكانية نشر المعلومات الخاصة بترسانة العراق. وفي نهاية الأمر، قرر الاحتفاظ بسرية المعلومات حتى لا يؤثر سلباً على الموجة التفاؤلية الطاغية خارج إسرائيل والتي تلت تفاهم واشنطن. بالإضافة إلى ذلك، ففي حالة سير الأمور بالاتجاه الخاطىء، فإن إمكانية نشر المعلومات المتعلقة بخزين العراق من الغازات المميتة علانية لا تزال قائمة. فيمكن استغلال الفكرة المتمثلة بشخصية صدام المتسمة بالعنف والإجرام في تكليف أحد عملاء الموساد بوضع علبة صغيرة من مادة الجمرة الخبيثة في أحد أنفاق نيويورك المكتظة بالمشاة، أو وضع أحد الإرهابيين لفيروس إيبولا في نظام التكييف الخاص بطائرة بوينغ ٧٤٧، محملة بالركاب، حتى يصبح كل مسافر قنبلة بيولوجية موقوتة والذي بإمكان نشر الفيروس في أوساط آلاف البشر قبل اكتشاف الحقيقة، قدتكون هذه سيناريوهات ملائمة تماماً كي يستغلها خبراء الحرب النفسية العاملون في جهاز الموساد متى ما حان الوقت لتحشيد الرأي العام العالمي ضد العراق.

كذلك هنالك حادثتان أخريتان، قد أخفيت حقائقهما من قبل جهاز الموساد، يمكن أن يؤديا إلى أحداث دمار هائل وإحراج موقف الولايات المتحدة.

ففي إحدى أمسيات كانون الأول الهادئة، انفجرت طائرة ركاب تابعة للخطوط الجوية الاميركية «بان أمريكان ١٠٣» والمتوجهة من لندن إلى نيويورك في الهواء فوق مدينة لوكربي الإسكتلندية. وفي غضون سويعات قلائل، ترى كادر العمل في اللاب «LAP» منهمكاً في العمل على أجهزة الهاتف متصلاً بمختلف وسائل الإعلام العالمية مساعداً

على نشر الخبر بشتى أنحاء العالم، مؤكدين على وجود «دليل لا لبس فيه» على تورط ليبيا في هذا الحادث، عن طريق مؤسستها الاستخبارية، (ومؤلف هذا الكتاب أيضاً تلقى مكالمة هاتفية بضرورة نشر هكذا خبر من مصدر عامل في اللاب «LAP»، بعد سويعات من حصول الكارثة). وفي غضون أيام، فرضت عقوبات اقتصادية من قبل الغرب على نظام القذافي. وأصدرت الولايات المتحدة وبريطانيا مذكرتي اتهام بحق مواطنين ليبيين، متهمين بأنهم وراء حادث تفجير طائرة الخطوط الجوية «بان أمريكان ١٠٣» وقد رفض القذافي تسليم المواطنين المذكورين للمحاكمة.

اتهمت اللاب «LAP» بعد ذلك سوريا وإيران باشتراكهم في كارثة لوكربي. فإثارة القضية ضد نظام دمشق لم تكن أكثر من دعم المفهوم السائد بكون سوريا تعتبر إحدى الدول الداعمة للإرهاب. أما بالنسبة لإيران، فكان الاتهام أكثر دقة، حيث يفضي الاتهام بالقول: إن إيران هي وراء حادث تفجير طائرة (بان أمريكان ١٠٣) كعمل انتقامي لحادث إسقاط البحرية الأميركية في الثالث من تموز ١٩٨٨، لطائرة تقل مسافرين إيرانيين في الخليج العربي، مودية بحياة جميع ركابها البالغ ٢٩٠ راكباً. وقد كان خطأً مأساوياً قدمت على أثره الولايات المتحدة اعتذارها بشأنه.

وجهت اللاب «LAP» اتهامها بعد ذلك إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالتآمر لتفجير الطائرة. فلم يتوقف أياً من أولئك الصحافيين الذين نشروا الوقائع المتعلقة بحادث التفجير عن التفكير بسبب مقنع يدعوا ليبيا - المتهم الرئيسي بحادث التفجير - إلى استلام المساعدة من سوريا أو إيران، بغض النظر عن المجموعة الفلسطينية المذكورة.

طبقاً لمصادر المخابرات البريطانية، فإن اللاب «LAP» كانت في الحدث. كانت حادثة لوكربي الفرصة المناسبة التي استغلتها اللاب «LAP» وشجعتها، للفت أنظار العالم بشبكات الإرهاب العالمية. ولم تحتاج حادثة

لوكربي لبذل المزيد من العناء لإنجاز هكذا مسألة. في الواقع، وضع العديد من الأسماء في قدرٍ واحد قد أنتج عكس ما كان متوقعاً من نتائج. «نحن نعلم بأن الليبيين هم المسؤولون». على أي حال، هناك حقائق وخفايا لم تجعل من «بان أمريكان ١٠٣» مجرد مسألة فتح وغلق ملف قضية.

وقع حادث تفجير الطائرة الأمريكية في الوقت الذي كان فيه جورج بوش وحكومته الانتقالية في واشنطن تراجع حساباتها في حشر نفسها في خضم أحداث الموقف الحالي المتأزم لمنطقة الشرق الأوسط لتمكين بوش «من الوقوف على قدميه» عند دخوله المكتب البيضاوي.

شغل بوش في الفترة الواقعة بين ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ منصب مدير وكالة المخابرات المركزية، وهي ذات الفترة التي كرس بها سكرتير الدولة آنذاك هنري كسينجر مبدأ إتباع سياسة دعم وتأييد إسرائيل. فبينما حافظ بوش على مبدأ الايادي المفتوحة ترحيباً بإسرائيل، متبعاً آثار كسينجر، فقد أقنعته السنوات التي قضاها في إدارة وكالة المخابرات المركزية، بأن ريغان كان «سريع التصديق وبسذاجة واضحة فيما يخص القضايا المتعلقة بإسرائيل». وبانتظار أن يصبح رئيساً، لم يكن بوش بحاجة إلى التذكير بالكيفية التي أُرغمت الولايات المتحدة في العام ١٩٨٦، على إلغاء صفقة بيع أسلحة إلى الأردن بقيمة ١,٩ بليون دولار، عندما تدخل اللوبي الصهيوني في مجلس الشيوخ. ونتيجة لذلك الإجراء، أخبر بوش حكومته الانتقالية بأنه وبوصفه رئيساً للجمهورية فسوف لا يجيز أي تدخل في حق «رغبة الأمريكيين في عمل صفقة عمل مع من أو أين، خشية من الله». حيث سيلعب هذا الموقف دوره في حادثة تفجير لوكربي.

كان على متن الطائرة حال مغادرتها لندن في تلك الليلة الباردة من شتاء كانون الاول ١٩٨٨، ثمانية مسؤولين من مؤسسة الاستخبارات

الأمريكية عائدين من واجب كانوا قد كلفوا به في منطقة الشرق الأوسط، أربعةٌ منهم برتبة ضباط ميدانيون في وكالة المخابرات المركزية بقيادة ماتيو غانوت. وكذلك كان على متن الطائرة الميجور شارلس ميكي وفريق خبرائه الصغير المشتركون في عملية إنقاذ رهائن. فقد كانوا في منطقة الشرق الأوسط على أمل العثور على أدنى أمل باحتمال تحرير الرهائن الغربيين الذين لا يزالون محتجزين في بيروت. فعلى الرغم من أن التحقيق في حادثة لوكربي كان من صلاحيات الحكومة الإسكتلندية وضمن نطاق عملها، إلا إن ذلك لم يمنع مسؤولوا وكالة المخابرات المركزية من التواجد في موقع سقوط الطائرة، حيث تم العثور على حقيبة ميكي اليدوية سليمة ودون أن تصاب بأذى ولا تزال مغلقة، بصورة تدعو للعجب. فقد أخذت من الموقع لفترة وجيزة بواسطة رجل يُعتقد أنه ضابطاً في وكالة المخابرات المركزية، على الرغم من عدم التأكد من هويته. أخيراً، أُعيدت الحقيبة إلى فريق التحقيق الإسكتلندي، الذي دون بدوره في تفاصيل الرحلة، محتويات الحقيبة تحت العمود «فارغة».

لم يتبادر إلى ذهن أحد التساؤل عن ماذا حدث لأمتعة ميكي؟ بغض النظر عن سبب كونه مسافراً حاملاً حقيبة يدوية فارغة. ولكن بمرور الوقت، لم يساور أحد الشك بأن ضابط وكالة المخابرات المركزية المذكور، يمكن أن يكون قد أنزل من الحقيبة بيانات توضح سبب تفجير الطائرة. عموماً يمكن أن يُفسر عدم العثور على أمتعة غانوت ـ آثار الاعتقاد السائد بأن القنبلة الحقيقية قد وُضعت في حقيبته. فلم يصدر أي تفسير مقنع عن كيفية أو سبب حمل ضابط وكالة المخابرات المركزية للقنبلة في حقيبته.

ادعى برنامج التحقيق «PBS» «فورنتلاين» فيما بعد بانه قد توصل إلى كشف سبب الكارثة. فقد بدأت طائرة «بان أمريكان ١٠٣» رحلتها في فرانكفورت، حيث كان المسافرون المتجهين إلى الولايات المتحدة جلهم من منطقة الشرق الأوسط قد نقلوا إلى الطائرة ١٠٣، كان من بينهم غانون وفريق عمله من وكالة المخابرات المركزية، الذين كانوا مسافرين على متن طائرة خطوط جوية مالطية ليدركوا الطائرة. فكانت أمتعتهم مشابهة للآلاف من الحقائب الأخرى المتناقلة بين أيدي ناقلوا الأمتعة «الحمالون» في المطار كل يوم. وأحد هؤلاء العاملين كان مأجوراً لدى الإرهابيين. وفي مكانٍ ما من حجيرات الأمتعة في المطار أخفى العامل الحقيبة الحاوية على القنبلة. كانت التعليمات الموجهة إليه هي اقتناص حقيبة مشابهة قادمة من الطائرة ذاتها، ويستبدل حقيبته بتلك، ثم يدعها تأخذ طريقها إلى مخزن الطائرة، (بان أمريكان ١٠٣). كانت تلك نظرية معقولة ـ ولكن نظرية واحدة من عدة نظريات لا بد وأن تكون قد أصابت الحقيقة.

إن فكرة إلحاق حادث تفجير طائرة «بان أمريكان ١٠٣» بحادث إرهابي فكرةٌ غير جديرة باللوم. أناط مؤمنوا الطائرة مسألة التحقيق في حادث التفجير إلى شركة تحقيقات خاصة تدعى «انترفور» الكائنة في نيويورك. أسست الشركة بواسطة رجل إسرائيلي يُدعى. يوفا أفيف، في العام ١٩٧٩، والذي هاجر إلى الولايات المتحدة في السنة الماضية. وحسبما يدعي أفيف بانه كان رئيس شعبة بجهاز الموساد ـ وهو ما يرفضه الموساد. فعلى الرغم من ذلك، فقد أكد أفيف لمؤمني الطائرة بأن لديه الأسباب المنطقية الكافية والتي ستجلوا الحقيقة.

صُعِق المسؤولون بتلقي تقريره. فقد أستنتج أفيف بأن الهجوم قد خُطِطَ له ونُفذَ «بواسطة مجموعة أوغاد ـ حسب ادعائه ـ من وكالة

المخابرات المركزية، والتي مركزها المانيا، حيث كانوا يوفرون الحماية لعمليات تهريب المخدرات المنقولة من منطقة الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة عبر فرانكفورت. لم يُحرك مسؤولوا وُكالة المخابرات المركزية ساكناً لوضع حد لتلك العمليات لأنه سبق وأن ساعدهم المهربون في عملية جلب الأسلحة إلى إيران كجزء من مفاوضات الأسلحة مقابل الرهائن. كانت الطريقة المتبعة في تهريب المخدرات بسيطة جداً، مفادها، وضع أحد الأشخاص علامة على قطعة من الأمتعة الموجودة في مخزن الطائرة، ويقوم أحد شركائهم في الجريمة والعاملين في منطقة تجميع الأمتعة باستبدالها بالحقيبة المماثلة المحتوية على المخدرات. وفي الليلة الحاسمة، يقوم أحد الإرهابيين السوريين، والذي يكون لديه علم مسبق بصيغة عملية التهريب هذه، باستبدال الحقيبة بأخرى محتوية على قنبلة. أما الهدف من هذه العملية هو قتل مسؤولوا الاستخبارات الأمريكيين المتواجدين على متن الطائرة بعد اكتشاف السوريون أمر ركوبهم هذه الطائرة».

ادعى أفيف في تقريره أيضاً، بأن ميكي علم بأمر «فريق أوغاد وكالة المخابرات المركزية»، الذين يعملون تحت الاسم المشفر «كوريا»، وأن لأعضائها علاقات وارتباطات وثيقة بأشخاص سريون اكتشفوا موضع، ميكي، المناسب عن طريق جماعات متفرقة من إحدى المخابرات العالمية. منذر القصار، والذي بنى شهرته كتاجر سلاح في أوروبا، ومن ضمنها تزويد الكولونيل أوليفر نورث بالأسلحة لنقلها إلى أعضاء منظمة الكونترا النيكاراغوية في العام ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦. كذلك للقصار علاقات مع منظمة أبي نضال، ولأسرته علاقات مريبة أيضاً، حيث كان علي عيسى دوبا، رئيس المخابرات السورية، صهره، وزوجته القصار لها علاقة قرابة بالرئيس السوري. ويدعي أفيف في تقريره

أيضاً، أنه قد وجد في «كوريا» شريكاً جاهزاً لعملية تهريب المخدرات. وكانت هذه العملية مستمرة لبضعة أشهر قبل حادث تفجير لوكربي. ويذهب أفيف في تقريره إلى أبعد من هذا، حيث يدعي بأن ميكي اكتشف عملية الاحتيال هذه أثناء اتصالاته المستمرة في منطقة الشرق الأوسط بعالم الجريمة في محاولةٍ منه لإيجاد منفذٍ لإنقاذ رهائن بيروت. وأوضح أفيف في تقريره بأن «ميكي قد خطط بتقديم الدليل إلى الولايات المتحدة الذي يثبت اتصالات أوغاد وكالة المخابرات المركزية بالقصار».

في العام ١٩٩٤، كتب جويل بانيرمان المحلل لتقارير وكالة الاستخبارات الإسرائيلية والتي ظهرت تحليلاته في جريدة «وول ستريت» و «كريستيان سانيس مونيتور» و «فاينشال تايمز» البريطانية، قائلاً: «قبل أربعة وعشرين ساعة من حادث تفجير الطائرة، زود جهاز الموساد جهاز «بي.كي.اي» الألماني، بمعلومات سرية، تتلخص بوجود خطة لزرع قنبلة على ظهر طائرة الرحلة ١٠٣. وأرسلت الـ «بي.كي.اي» بدورها هذه المعلومات السرية إلى فريق «كوريا» من وكالة المخابرات المركزية، العاملين في فرانكفورت، والذي أجابوا «بأنهم سيهتمون بكل شيء».

استدعى وكيل «بان أمريكان١٠٣»، غريفوري بولر، مسؤولين من («اف.بي.آي»، «إسي.آي.أيه»، «اف.اي.بي»، «دي.اي.أي»، «أن.اس.سي» و «أن.اس.أي») للكشف عن معلوماتهم فيما يخص حادث الانفجار، لكن، وكما ادعى مؤخراً «سحقت الحكومة كل استدعاءاتي على أسس الأمن القومي».

لم يستطع عاملوا برنامج«فرونتلاين»، يوفال أفيف، وجويل

بانيرمان، إعطاء أجوبة شافية للأسئلة المعلقة، فإذا كان هناك غطاء على نشاطات (كوريا) فما هو مدى توسعها داخل وكالة المخابرات المركزية؟ من أمدها بالسلطة؟ هل هو ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص الذين أمروا بإزالة البيانات الحرجة من داخل حقيبة ميكي؟ لماذا زودت دائرة شرطة «بي.كي.أي» الألمانية وحدة «كوريا» بالمعلومات السرية؟ هل كانت محض صدفة؟ أو هل حُثَت بواسطة قرار يؤكد بأن نشاطات «كوريا» قد أصبحت غير مقبولة وخطرة على الآخرين في وكالة المخابرات المركزية؟ وما المقصود بـ «أسس الأمن القومي» والتي أدت إلى تلقي وكيل «بان أمريكان ١٠٣» رفضاً شاملاً لكل استدعائاته؟.

وبمرور السنين، طغت هذه الأسئلة على السطح مقصورة على المراتب العليا المقربة من وكالات المخابرات المختلفة، وبقيت الأجوبة متسمة بحذرٍ شديد ـ ليس أقل من الحقيقة بشأن كشف السر النهائي لهذه الكارثة. لماذا أرسل جهاز الموساد أحد رجال الكاتسا المقيمين في لندن إلى الشمال نحو مدينة لوكربي في غضون سويعات من سقوط طائرة «بان أمريكان ١٠٣»؟.

احتفظت المؤسسة لنفسها من الآن، بكل ما تعرفه عن سقوط الطائرة. فقد ادعى عدداً من المصادر، طالبين عدم ذكر أسمائهم كون حياتهم ستكون معرضة للخطر، إن جهاز الموساد يمسك بمعلوماته للاحتفاظ بها كورقة رابحة خوفاً من مضاعفة حكومة واشنطن ضغوطها على جهاز الموساد بتخفيض نشاطاتها الاستخبارية داخل حدود الولايات المتحدة.

هنالك حقيقة مؤكدة أخرى يمكن أن تقلب الأمور رأساً على عقب وتحرج موقف مؤسسة الاستخبارات الأمريكية. حيث تتعلق بموت

أميرام نير، الشخص الولع حد الهوس بروايات جيمس بوند المثيرة والذي حل محل ديفيد كيمحي، كشخصٍ مسؤول في عملية إيران ـ غيت.

كان أميرام نير الرجل المثالي والمناسب يشغل منصب مستشار رئيس الوزراء شمعون بيريز لمكافحة الإرهاب. فتتميز شخصيته ببعض الخصائص منها. إنه، منتهز للفرص، مولع بالبحث والتحقيق، تواق لاكتساب الخبرات، يُعالج الامور ببراعة، وقاسي القلب، كذلك يتمتع نير بجاذبية متسمة بالفسق، وعدم قدرته على كبت شهواته، وقابليته للسخرية من الآخرين، اتخاذ قرارات مفاجئة، تجاوز حدود القوانين للعمل ضد خلفية ثابتة لمزج الحقيقة بالخيال، كونه كان صحافياً.

نبعت معرفته السابقة بالمخابرات من عمله كمراسل صحفي للتلفاز الإسرائيلي، بعدها العمل في أكبر صحيفة يومية تصدر في الدولة، يديعوت أحرنوت، كانت ملكاً لسلالة موسين، حيث تزوج منها. وكانت تعتبر أمبراطورية النشر فهي تتميز بكونها: مدعاة للاحترام، وضمان التمويل، وتعامل موظفيهما على غرارالقرل القديم المأثور، أجراً يومياً أعلى ليوم عملٍ شاق. فلم يجعل زواجه هذا منه زواجاً لواحدة من أغني نساء إسرائيل فقط، بل منحة حرية الوصول والتسلق لأعلى درجات السلطة السياسية للبلد.

على الرغم من ذلك، فمسألة كونه واحداً من الأعضاء المهمين في مؤسسة المخابرات الإسرائيلية، كان مثار دهشة واستغراب، حيث عينه بيريز في منصبٍ بالغ الدقة كمستشاره في مكافحة الإرهاب، حدث ذلك في العام ١٩٨٤.

كان نير وقتها في الرابعة والثلاثين من العمر، والتجربة الوحيدة التي مرّ بها في عمل المخابرات كانت إخضاعه لمنهج قصير في

«آي.دي.أف» «IDF». فحتى على مستوى أصدقائه، كان متبعاً لأسلوب الإجماع العام أكثر من الهيئة الدالة على الصرامة التي يتطلبها عمله الجديد.

كان أول من بدر منه رد فعل سلبي تجاه تعيين نير، هو ناهوم أدموني، رئيس جهاز الموساد: فقد عمل على تغيير تركيبة هيئة مسؤولي المؤسسة الكبار كي يُبعد نير من المشاركة في مشاوراته. وبعيداً عن القلق، أمضى نير أسابيعه الأولى في منصبه منكباً على القراءة ونهم كل ما تقع يديه عليه. وبسرعة قرر تركيز جهوده على عملية «تزويد إيران بالسلاح»، وهي العملية التي لا تزال جارية آنذاك. شاعراً بدنو الفرصة المناسبة لإثبات ذاته، تمكن نير من إقناع بيريز على وجوب اضطلاعه بالدور الذي سبق وتخلى عنه ديفيد كيمحي، في هذه العملية، حيث أشرف على تعليمه آري بن ـ مناشة، الشخص الذي لا يعرف التعب، بعدها وجد نير نفسه عاملاً مع أوليفر نورث.

وفي الحال أصبح الرجلان على أتم الود والائتلاف، مسافرين وقائمين بأعمال تجارية عبر العالم. فقد اتبعوا طوال رحلاتهم المكوكية على خطة عمل لتوصيل عملية السلام مقابل الرهائن إلى نتيجة ناجحة ومذهلة. حيث تراهم مسافرين إلى طهران للالتقاء بالقادة الإيرانيين مفاوضينهم لتحرير الرهائن.

في الخامس والعشرين من أيار ١٩٨٦، متظاهرين بالعمل كتقنيين في الخطوط الجوية الوطنية الإيرلندية «إيرلينغوس»، سافر «نير» و«نورث» من تل ابيب إلى طهران على متن طائرة إسرائيلية مطلية بالعلامة المميزة للخطوط الجوية الإيرلندية، وكان على متنها سبعة وتسعون صاروخاً موجهاً من نوع (تاو) وأدوات احتياطية لمضدات إطلاق صواريخ «هوك». وقد كان نير مسافراً بجواز أمريكي مزور، قد زوده به نورث.

أقنع نورث، بطريقة أو بأخرى، الرئيس ريغان على كتابة صيغة الإهداء على كتاب إنجيل لغرض تقديمه هدية إلى آية الله رفسنجاني، المسلم الورع: مقدماً لهم أيضاً كعكة شوكولا مع مسدسين نوع كولت، كهدية «لمضيفيهم. كانت أياماً مليئة بالذكريات الجميلة، حيث قورنت بالعملية التي قام بها التجار مع الهنود الحمر للاستيلاء على الأرض في مانهاتن.

لم يعلم جهاز الموساد بالعملية إلا بعد دخول الطائرة المجال الجوي الإيراني. حيث اتسم رد فعل تاهوم أدموني بمزيج من «غيظ وغضب».

لحسن الحظ أمر الإيرانيون زوارهم وبكل بساطة بمغادرة البلد، متخذين من المهمة فرصةً لشن حملة إعلامية شعواء متهمين الولايات المتحدة بتآمرها في التخطيط للقيام بانقلاب عسكري. اتسم رد فعل الرئيس ريغان بغيظٍ وغضب شديدين، أما في تل أبيب، فقد انهال أدموني على نير بسيلٍ من الشتائم ناعتاً إياه «براعي البقر». على الرغم من ذلك، نجح نير في تحقيق هدفه والبقاء في منصبه لعشرة أشهر أخرى، حيث تصاعدت أصوات منتقديه ونمت دعوة متصيدوا عثراته من داخل مؤسسة المخابرات بالسعي إلى إزالته حيث تحولت إلى وابلٍ عنيف من الانتقادات اللاذعة والقاسية. وفي تلك الأشهر العصيبة مرت على طاولته عدة قضايا: هنداوي، فانونو، وسوان، لكن أية إسهامات يعرضها في كيفية التعامل مع هذه القضايا كانت تُقابل بالرفض من قبل جهاز الموساد.

استقال أميرام نير من منصبه كمستشار لرئيس الوزراء في آذر من العام ١٩٨٧، بعد شعوره بأنه شخصاً غير مرغوب فيه في واشنطن ويعاني العزلة في تل أبيب. وفي هذه الأثناء، مرّ زواجه بمشاكل عنيفة

عصفت به، وتقلصت دائرة أصدقائه، إلاّ من أري بن ـ مناشة، حيث بقي الشخص والشيء الوحيد من روابط نير القليلة المتبقية بالماضي. وفي أوائل العام ١٩٨٨، غادر نير إسرائيل ليستقر في لندن.

وفي لندن، شيد نير منزلاً أقامت معه فيه امرأة «كندية» بارعة الجمال، ذات شعر أسود، تُدعى أدريانا ستانتوت، في الخامسة والعشرين من العمر والتي ادعت بأنها تعمل سكرتيرة ومن مدينة تورنتو، حيث التقى بها نير في واحدةٍ من زياراته إلى كندا، فقد اعتقد بعض ضباط جهاز الموساد بانها على علاقة بوكالة المخابرات المركزية، وهي واحدة من النساء التي تستخدمها الوكالة للإيقاع بضحاياها في فخ جمالها. أما بالنسبة لنير، فقد تظاهر، أثناء إقامته في مدينة لندن بأنه ممثل أوروبي لشركة تعمل بعقد الصفقات الخاصة باستيراد الأفوكادو المكسيكي، تُدعى نوكال دي مكسيكو، مقرها في مدينة أوروابات المكسيكية، حيث تهيمن هذه الشركة على ثلث سوق تصدير الأفوكادو في البلد.

وفي أحد الليالي الباردة والممطرة طرق أري بن ـ مناشة باب منزل نير، حيث لم تكن الأفوكادو وصفقاتها هي السبب في مجيئه، بل أراد أن يعرف وبالتحديد ماذا ينوي نير أن يكشفه من معلومات، كونه من أكبر الشهود في قضية محاكمة أوليفر نورث القادمة، بخصوص دوره في فضيحة إيران ـ كونترا. حيث أوضح نير بأن شهادته ستتبب حرجاً شديداً ليس فقط لإدارة ريغان، بل أيضاً لإسرائيل.

فمن خلال قيامه بعمليات تهريب الأسلحة، أراد نير أن يثبت سهولة اختراق حواجز التدقيق والتفتيش في إدارة عمليات غير قانونية وكذلك سهولة توريط عدد من الدول بهذه العمليات، بضمنها جنوب

إفريقيا وشيلي. وأضاف مخبراً بن ـ مناشة بأنه يُخطط لتأليف كتاب والذي من المؤمل أن يجعله أعظم لاعب في تاريخ السياسة الإسرائيلية. وكذلك رتب بن ـ مناشة أموره للقاء نير ثانية بعد قيامه بزيارة أخرى إلى شركة نوكال في المكسيك، وفي الوقت نفسه، حذر الزائر نير كي يكون «على حذرٍ من تلك المرأة!»، بعد أن تركتهم أوريانا ستانتوت للتحدث منفردين. فقد رفض بن ـ مناشة الكشف عن السبب الذي حثه على تحذيره من تلك المرأة مكتفياً بالقول، وفي أسلوبه الذي دائماً ما يتسم بالغموض: «أنا أعرفها منذ أمدٍ بعيد، وعلى الرغم من التأكد بأن نير لا يعرفها، فإن اسمها الحقيقي لم يكن، أدريانا ستانتوت».

في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٨٨، سافر نير برفقة ستانتوت إلى مدريد بأسماء مزورة. فقد انتحل هو اسم «باتريك ويبر» نفس الشخصية التي انتحلها في رحلته المنحوسة، طهران. أما ستانتوت فقد أدرجت في بيان أسماء ركاب الطائرة تحت اسم مسافرة من إيبيريا تُدعى «إيستر أريا». فالشيء الغامض في عملية الانتحال هذه «التي بقيت لغزاً محيراً باحثاً عن حل هو اختيارهم لأسماء مستعارة لبطاقات سفرهم بالطائرة، مع العلم أنهم سافروا بجوازاتهم الحقيقية ـ إسرائيلي وكندي. والشيء المحير الآخر هو اختيارهم رحلة مدريد مع وجود بضعة رحلات مباشرة إلى مدينة مكسيكوسيتي. هل هي محاولة من نير في أن يطبع في ذهن حبيبته بعبقريته وسهولة خداع معظم الناس معظم الوقت؟ هل كان يعاني خوفاً مستمراً في عقله الباطن بعد زيارة بن ـ مناشة المفاجئة؟ فحالها حال الكثير من الأسئلة الغامضة القادمة، ستبقى هذه دون إجابة شافية.

وصل نير وستانتوت مطار مكسيكو سيتي في الثامن والعشرين من تشرين الثاني، وكان بانتظارهم في صالة استقبال المسافرين في

المطار رجلاً، لم تُعرف هويته حتى الآن، ترافق الثلاثة مسافرين تجاه مدينة أوروابات، حيث وصلوا المدينة عصراً. بعدها استأجر نير طائرة من نوع سيزنا ـ T 210 ـ من مكتب تاجر صغير في مدينة أوروابات.

تصرف نير مرة أخرى بتناقض ذاتي غريب. فقد استأجر الطائرة تحت اسم «باتريك ويبر» مستخدماً بطاقة ائتمان تحت ذلك الاسم لدفع الأجور، ومتفقاً مع قائد الطائرة على نقلهم إلى منشآت شركة نوكال في غضون يومين. وفي الفندق المحلي حيث أقاما تلك الليلة، تقاسم نير وستانتوت نفس الغرفة، مدوناً اسمه في سجل المقيمين بالفندق تحت اسمه الحقيقي. أما بخصوص الرجل الذي رافقهم من مدينة مكسيكو سيتي فقد اختفى بصورة غامضة كما ظهر أول الأمر.

وفي الثلاثين من تشرين الثاني، وصلوا مطار أوروابات الصغير، هذه المرة برفقة رجل آخر، مدوناً اسمه في بيان أسماء الركاب تحت اسم بيدرو إيبيونوزا هونتادا، فلا يزال السؤال المتعلق بمعرفة لحساب من يعمل لغزاً محيراً؟ أما لماذا استخدموا أسماءهم الحقيقية في درج أسمائهم في بيان بأسماء ركاب الطائرة. فيبقى لغزاً آخر؟ وهل لاحظ قائد الطيارة التناقض بين الاسم المدرج والاسم الحقيقي لنير عند تأجيره الطائرة، فيبقى سؤالاً دون تعليق؟

أقلعت الطائرة في ظروف جوية جيدة، وعلى متنها الطيار ومساعده، والمسافرون الثلاثة. وبعد قطعها مسافة ١٠٠ ميل في الجو، أصيب محرك الطائرة بخلل مفاجيء، وبعد لحظات اصطدمت الطائرة بالأرض، مودياً بحياة نير والطيار فقط، مصيباً ستانتوت بجروح بليغة ومساعد الطيار وهونتادا جروحاً طفيفة. وبعد فترة وجيزة من سقوط الطائرة، ظهر قرب مكان السقوط، بيدرو كروشيت، واختفى هونتادا

ـ ولم يرى ثانيةً قط. كيف قرر كروشيت أن يكون أول الظاهرين قرب الحادث لا يزال أمراً غامضاً؟ فقد ادعى بالعمل الصالح شركة نوكال ـ مع العلم أن منشآت الشركة تقع على مسافة بعيدة جداً. ولم يتمكن من شرح أو توضيح سبب كونه قريباً جداً من موقع الحادث. فعند سؤاله من قبل أحد رجال الشرطة عن هوية إثبات الشخصية، أجابه بالقول بأنه فقدها في أحد حلبات مصارعة الثيران. وقد ثبت في نهاية الأمر أن كورشيت كان أرجنتينياً مقيماً في المسكيك بصورة غير قانونية. وبمرور الوقت اختفى هو الآخر وفي موقع الحادث، مُيِّزت جثة نير وأمكن التعرف على هويته، ورافق كروشيت ستانتوت إلى المستشفى. فقد كان برفقتهما في المستشفى عند زيارتها من قبل أحد المراسلين الصحفيين العاملين لإحدى الصحف المحلية باحثاً عن المزيد من المعلومات المتعلقة بحادث سقوط الطائرة.

يدعي جويل باينرمان، الناشر لملخص قوانين ومبادىء الاستخبارات السياسية الإسرائيلي، قائلاً: «أوضحت امرأة شابة أن كروشيت كان حاضراً، وعندما هجمت لإحضاره ظهرت امرأة أخرى عند باب الغرفة مخبرةً الصحافي بأن كروشيت لم يكن هناك ولم تسمع عنه مطلقاً. وشددت المرأة بالقول إن وجود ستانتوت على متن الطائرة كان محظ صدفة فقط، وليس لها أدنى علاقة بالشخص «الإسرائيلي»، ورفضت الكشف عن هويتها، مكتفيةً بالقول إنها كانت في المكسيك كسائحة أرجنتينية.

والآن أضيفت ستانتوت كلغزاً محيراً آخر مضافاً لما سبق من الغاز. فقد أخبرت ستانتوت المحققين بالحادث، طبقاً لما نشره الصحفي الإسرائيلي ران أوليست في العام ١٩٩٧: «بينما هي ساقطة على وجه الأرض جريحة وتعاني من آثار الصدمة، فقد شاهدت أميرام نير على

بعد امتار قليلة منها، ملوحاً لها بيده ومطمئنها بصوت طبيعي جداً، «سيكون كل شيء على ما يرام. النجدة في طريقها إلينا!، وهي متيقنة كل اليقين في الأيام الأول التي تلت الحادث بأن نير لا يزال على قيد الحياة».

أُعيد جثمان نير إلى إسرائيل لفرض القيام بمراسم دفنه. وحضر مراسيم الدفن أكثر من ألف شخص، وتحدث في حفل تأبينه، وزير الدفاع إسحق رابين عن مهمة نير بأنها «غايات لا تزال طي الكتمان وهي عبارة عن مهام سرية وأسرار يحتفظ بها في قلبه».

هل قُتِل نير للتأكد من عدم كشف تلك الأسرار؟ هل ما موجود في التابوت هو حقاً جثمان نير؟! وهل قُتل قبل حادث تحطم الطائرة؟ وإن كان كذلك، مِن قبل مَن؟ واستمر حاجز الصمت يلف كل تلك التساؤلات.

بعد مضي يومين على حادث الطائرة، ظهر آري بن ـ مناشة للعيان في مكتب بريد وسط العاصمة سانتياغو، شيلي، مصحوباً بحارسين شخصيين، حيث يشعر الآن بضرورة التحوط بتوفير الحماية اللازمة له. فجأة: «تناثر زجاج نوافذ المبنى الذي كنت أسير قربه. ثم اندفع شيئاً ما وبعنف نحو الحقيبة المعدنية، المصنوعة بناء على طلبي، التي كنت حاملها. سقط الحارسان تجاه الأرض، مدركين أن هنالك شخصاً يطلق النار تجاهنا».

كانت ستانتوت تعتقد أن عليها هي الأخرى حماية حياتها المعرضة للخطر وأن عليها توفير الحماية اللازمة لها، وطبقاً لما يورده أوليست، وحسب مصادر معلوماته الخاصة يُفيد بأنها: «أصبحت منعزلة عن العالم الخارجي وأنها خضعت إلى جراحة تقويمية، مغيرةً ملامحها».

اعتقد جهاز الموساد، وبصورة مضطردة، بأن وكالة المخابرات المركزية تقف وراء حادث مقتل نير. وطبقاً لما يورده بن ـ مناشة، «ساد اعتقاد في أوساط المخابرات الإسرائيلية وعلى الدوام بأن عملية قتل نير كانت عملية دقيقة التنفيذ على أيدي رجال وكالة المخابرات المركزية. فبمقتل نير، دُفِنت معلومات كانت ستسبب إحراقاً بالغاً لريغان وبوش في قضية محاكمة أوليفر نورث.

برز إلى ساحة الأحداث ما يدعم هذه النظرية من قبل قائد البحرية الأمريكية والذي رافق نير إلى طهران في مهمته لتحرير رهائن بيروت. تدور القصة حول ادعائه بأن نير قد التقى بجورج بوش، وبعدها برئيس الوزراء، يوم التاسع والعشرون من تموز عام ١٩٨٦، في فندق «كينج ديفيد» في مدينة القدس كي يقدم له تقريراً موجزاً عن عملية مبيعات الأسلحة الأمريكية الجارية عبر إسرائيل إلى إيران. وطبقاً لما يُفيده الكاتب جويل بانيرمان، «سجَّل نير على شريط تسجيل وبصورة سرية ما جرى بينهما من حديث. وهذا يعتبر بحد ذاته دليلاً على تورط بوش في عملية صفقة السلام مقابل الرهائن. في اجتماع جمعهم بميكي وغانون الذي لقي حتفه في طائرة (بان أمريكان ١٠٣) فوق لوكربي».

يصف بايترمان الزيارة التي قام بها القائد إلى مركز قيادة وكالة المخابرات المركزية في مدينة لانغلي حيث قابل أوليفر نورث، لأشهر مضت قبل مواجهته للمحاكمة. وطبقاً لما يورده الكاتب، توجه القائد إلى نورث متسائلاً: «ماذا حصل لنير. أخبره نورث بأن نير قد قُتِل لأنه هدد بنشر شريط التسجيل المتعلق باجتماع القدس على الملأ».

أما بخصوص الصحافيون الذين حاولوا توجيه سؤال إلى نورث

حول نفس الموضوع فلم يعر لهم أي اهتمام. فقد حافظ مساعدوا بوش طوال سنين على إتباع نفس الموقف الكائن: كل شيء على الرئيس السابق للولايات المتحدة أن يقوله بخصوص قضية إيران ـ غيت قد حُدِّدَ مسبقاً.

في أواخر العام ١٩٩١، تعرض منزل أرملة نير، جودي، إلى السرقة. فقد سُرقت أشرطة تسجيلاته ووثائقه فقط. حيث أفادت الشرطة إن عملية اقتحام البيت اتسمت «بحرفنة عالية»، قالت جودي نير بأنها على يقين من أن المواد المسروقة حاوية على «معلومات ستهاجم أناساً معينين». ورفضت الاتساع في الحديث لأكثر من هذا الحد. ولم تُعاد المواد المسروقة. وبقي السؤال المتعلق عن هوية السارق وغرضه معلقاً دون جواب.

بالنسبة للأربع سنين القادمة، فقد استمر شاتباي شافيت بإدارة الموساد، باذلاً جهده في إبعادها عن عناوين الجرائد اليومية الرئيسية، ويحررها من اهتمام مؤلفوا الأساطير حولها أثناء استمرارها بجمع المعلومات الضرورية.

وبعيداً عن أنظار العامة، فلم تفقد المناورات القديمة لاعتلاء السلطة داخل مؤسسة المخابرات نشاطها، فالسياسيون الذين لا يزالون يترأسون اللجنة الفرعية للإشراف على المخابرات يتذكرون تفوق شافيت عليهم بعد حرب الخليج. فما دامت الذكريات المؤلمة تعم إسرائيل، وحملة الهمس بتوسيع دائرتها مستمرة: فقد كان تركيزه ضئيلاً جداً، لذلك ترى مصادر الأخبار السابقة التي حصل عليها جهازه بالكاد منسجمة مع ما حصل عليه من وكالة المخابرات المركزية، لم يكن دقيقاً في عملية التفويض، وكان بعيداً جداً عن ساحة الجند العاديين، وكانت نتيجته هبوط معنوياتهم.

تجاهل شابتاي شافيت إشارات التحذير أول الأمر. وفجأ ، وفي صباح يوماً ربيعياً جميلاً من العام ١٩٩٦، اسـ دعي للمثول إلى مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو لإخباره بقرار استبداله. لم تبدر من شافيت أي محاولة للنقاش، فقد رأى ما فيه الكفاية من نتنياهو ليتيقن بأن النقاش لا بد وأن يكون عقيماً. حيث وجه سؤالاً واحداً فقط: من سيخلفه في منصبه؟.

رد نتنياهو بالرد: داني ياتوم.

الفصل السابع عشر:

(الأسلوب الأخرق)

كان داني ياتوم الرئيس الجديد للموساد في أمس الحاجة لنجاح تلك العملية التي أمضى الأسابيع السابقة في الإعداد لها. فقد كانت كفيلة بأن تثبت لرئيس الوزراء أن رئيس جهاز المخابرات لم يفقد مهاراته.

وانطلقت السيارة البيجو في طريقها بين التلال إلى تل أبيب وقد جهزت بزجاج مضاد لطلقات الرصاص ومقاعد مبطنة بصفائح مضادة للنيران وأرضية مضادة للألغام. ولا توجد سيارة أخرى تتمتع بحماية مشابهة سوى سيارة رئيس الوزراء.

وقد بدا أن ياتوم ونتنياهو صديقان متلازمان لا يفترقان، إلى أن تسببت حادثة محرجة في خلق هوة بينهما. فقد وقعت العملية الفاشلة بعمان وهي العملية التي تمت بناء على أوامر نتنياهو. وعند فشل الخطة وأصبح الموساد نهباً لتحقيقات وسائل الإعلام العالمية، قام رئيس الوزراء بتوجيه اللوم لياتوم وحمله مسؤولية فشل العملية.

ثم وقع حادث آخر آثار حرجاً أكبر. ففي أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٩٧ تم الكشف عن أن أحد كبار الموساد ويدعى يهودا جيل اختلق ولمدة عشرين عاماً تقاريراً صادرة عن عميل وهمي بدمشق.

وكان جيل قد سحب مبالغ ضخمة من الأرصدة الخاصة بالموساد مدعياً تقديمها لهذا العميل واحتفظ بهذه المبالغ لنفسه. وقد انكشفت الفضيحة عندما أثار تقرير للعميل المزعوم عن استعداد سوريا لهجوم وشيك على إسرائيل شكوك أحد محللي الموساد. وقام ياتوم بمواجهة جيل الذي أدلى باعتراف كامل.

بدأ التخطيط لهذه العملية منذ شهر سبق عندما اجتمع عميل عربي من جنوب لبنان بضابط الموساد المكلف بموضوعه، واخبره بأن عبدالله زين قام بزيارة قصيرة إلى بيروت حيث التقى بزعماء حزب الله. ثم انتقل زين بالسيارة جنوباً لزيارة والديه في بلدة كفررمان. واقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة. فزين غاب عن بلدته لمدة عام. وعرض زين على أقربائه صوراً فوتوغرافية لزوجته الإيطالية الشابة ولشقتهما.

وعقد الضابط عزمه على الا يتعجل العميل فقد أدلى بتفاصيل دقيقة حول مغادرة زين لمنزل والديه محملاً بالهدايا العربية لزوجته واصطحاب رجال حزب الله له على طول الطريق لمطار بيروت ليستقل الطائرة عائداً إلى سويسرا.

واخيراً القى الضابط بسؤاله «وهل سويسرا هي خاتمة المطاف؟» فرد عليه العميل بالإيجاب. بيرن في سويسرا. «وهل يقيم زين في بيرن؟» هذا ما يرجحه العميل غير أنه غير واثق. غير أن هذه المعلومات كانت أول معلومات إيجابية عن زين منذ أن غادر لبنان لينظم أنشطة جمع الأموال لصالح حزب الله من اغنياء الشيعة المسلمين في أوروبا. وقد مولت هذه الأموال بالإضافة إلى الأموال الإيرانية من خلال سفارة إيران ببون حرب الاستنزاف التي يشنها حزب الله ضد إسرائيل. وفي العام السابق تعددت التقارير التي تشير إلى نشاط زين في باريس

ومدريد وبرلين. ولكن كلما بعث داني ياتوم بمن يتحرى الأمر لم يجد أثراً لذلك الشاب النحيل الذي يبلغ الثانية والثلاثين من العمر.

وقد أرسل داني ياتوم «كاتسا» من بروكسل إلى بيرن. وأمضى «الكاتسا» يومان يبحث فيهما دون طائل عن زين. فقرر أن يوسع من نطاق تحرياته فانطلق جنوباً إلى ليبفليد.

وفي ليبفيلد أثبت «الكاتسا» أن عميل المخابرات الناجح غالباً ما يعتمد على التجوال الصبور على الأقدام. فقد سار في الطرقات باحثاً عمن يشتبه في أن يكون من الشرق الأوسط، وراجع دليل التليفون بحثاً عن اسم زين واتصل بالمستشفيات المحلية والعيادات ليراجع ما إذا كان مريض يحمل هذا الاسم قد حل بها. وعند كل سؤال كان يقدم نفسه كأحد أقارب زين. ولما جانبه التوفيق بعد يوم من العمل قرر «الكاتسا» أن يقوم بمسح ثان للمدينة مستقلاً سيارته هذه المرة.

ومضى بعض الوقت وهو يجوب الشوارع بسيارته إلى أن شاهد رجلاً أسمر البشرة قد تحصن من البرد بملابس تدثر بها تماماً، وهو يقود سيارة فولفو في الاتجاه المعاكس. ولم تكن إلا لحظة عابرة وقعت فيها عينا «الكاتسا» على الرجل غير أنه أيقن أن من رآه هو زين. وما أن وجد الكاتسا منفذاً في التقاطع المؤدي للاتجاه المعاكس حتى كانت السيارة الفولفو قد اختفت. وفي الليلة التالية عاد «الكاتسا» وأوقف سيارته في موقع يسمح له بمتابعة السيار ة الفولفو. وبعد فترة قصيرة مرت به الفولفو فتبعها. وبعد أن قطعت ميلاً أوقفها قائدها أسفل عمارة سكنية تحمل رقم ٢٧ في شارع فابرزاكر ودلف من بوابتها. ولم يعد لدى «الكاتسا» شك في أن الرجل هو عبدالله زين.

وتبع «الكاتسا» زين إلى داخل العمارة فوجد نفسه بعد عبور

البوابة الزجاجية في مدخل صغير توجد به صناديق البريد. وكان أحد هذه الصناديق يحمل اسم زين. وكان هناك باب في المدخل يؤدي إلى أسفل حيث توجد مساحة مخصصة للخدمات. وفتح «الكاتسا» الباب ونزل إلى البدروم حيث وجد مثبتاً بأحد الجدران صندوقاً يحوي خطوط التليفونات بالمبنى. وما هى إلا لحظات حتى كان في سيارته التي استأجرها.

وفي اليوم التالي استأجر منزلاً آمناً يبعد نصف ميل من شارع فابرزاكر وأخطر الشركة المؤجرة أنه في انتظار بعض الأصدقاء الذين سينضمون إليه لممارسة رياضة التزلج.

وواصل ياتوم التخطيط للعملية، فبعث بأخصائي إلى ليبفيلد ليفحص صندوق الاتصالات. وعاد الأخصائي إلى تل أبيب حاملاً مجموعة من الصور لمحتويات الصندوق، وتمت دراسة هذه الصور في قسم البحوث والتطوير، وأدخلت التعديلات على الأجهزة التي كان يجري إعدادها. وكان أحد هذه الأجهزة جهاز تنصت متطور لمراقبة كافة الاتصالات التليفونية التي يجريها زين ويستقبلها في شقته. ويتصل الجهاز بجهاز تسجيل صغير الحجم تتوافر له القدرة على تخزين ساعات من المكالمات التليفونية، ويمكن أن يتم محو الشريط الكترونياً من خلال وظيفة خاصة بالجهاز تتلقى إشارة معدة مسبقاً من المنزل الذي اتخذه العملاء الإسرائيليون مقراً آمناً لهم. ويجري تفريغ المحادثات في المقر نفسه وترسل بفاكس تم تامينه إلى تل أبيب.

وبقدوم الأسبوع الأول من شهر فبراير (شباط من عام ١٩٩٨، كان قد تم وضع الخطط الفنية كلها. وانتقل ياتوم إلى أخطر مرحلة في العملية الا وهي اختيار الفريق الذي يتولى التنفيذ. وكانت العملية مكوّنة

من مرحلتين، تمثلت المرحلة الأولى في جمع أدلة كافية تثبت أن زين ما زال يلعب دوراً رئيسياً في أنشطة حزب الله، وتمثلت المرحلة الثانية في قتله.

ومع منتصف شهر فبراير (شباط) ١٩٩٨ كانت الاستعدادات كلها قد تمت.

وفي يوم الاثنين ١٦ فبراير (شباط)، وقبل الساعة السادسة والنصف صباحاً بقليل، وصلت السيارة البيجو التي تقل ياتوم إلى ساحة الانتظار الواقعة أسفل مقر الموساد بتل أبيب. وكان بانتظاره رجلان وامرأتان. واتخذ الجميع مجلسهم حول مائدة وانقسم الرجلان والمرأتان إلى زوجين، وهو الدو الذي سيؤديه في سويسرا. وكان الاربعة في أواخل العشرينات من العمر، لوّحت الشمس بشرتهم وبدوا في لياقة عالية. وقد أمضوا الأيام القليلة الماضية على الجليد في شمال إسرائيل لمراجعة مهاراتهم في التزلج.

وكانوا قد أخطروا في الليلة السابقة بمهمتهم وقاموا باختيار شخصياتهم المزيفة. فالرجلان سيدعيان أنهما من العاملين الناجحين في سوق الأوراق المالية، وأنهما في إجازة قصيرة يمضيانها مع صديقتيهما، غير أنهما لم يتمكنا تماماً من نسيان عملهما، الأمر الذي يفسر اصطحاب أحدهما لكومبيوتر محمول. وقد أُعد الكومبيوتر ليربط ما بين جهاز التسجيل المُخبّأ أسفل العمارة السكنية ومقر العملاء المؤمن. وقد عهد لأحد الزوجين بأن يواصلا مراقبة جهاز التسجيل متى بدأت العملية. أما الآخران فقد كانا ينتميان إلى وحدة «الكيدون»، وكانت مهمتهما إيجاد أفضل وسيلة لقتل زين. وكانا سيسافران من دون أسلحة إلى سويسرا على أن يوفر لهما مكتب بروكسل الأسلحة في ما بعد.

واستقر على الطاولة أمامهم جهازا التنصت والتسجيل. وقام ياتوم بفحصهما وأعلن لمن معه أن هذين الجهازين على أعلى مستوى متطور من الأداء. وكان حديثه إليهم قصيراً، فسألهم عن الاسم المستعار الذي اختاره كل منهم لنفسه من القوائم الخاصة بالعمليات. وقد اتخذ الرجلان اسمي: سولي جولدبرج وماتي فينكلشتين، أما المرأتان فاتخذتا اسمي: ليا كوهين وراشيل جاكوبسون. وقد حمل أفراد الفريق جوازات سفر إسرائيلية لسفرهم مباشرة من تل أبيب إلى سويسرا حيث يستخدمون أسماءهم المستعارة عند تسلمهم للجوازات المزيفة التي ستكون قد أُعدت لهم.

كان أفراد الفريق الأربعة على حد قول أحد مصادر المخابرات الإسرائيلية في ما بعد العملية قد استحقوا مكانتهم عن جدارة. غير أن حقيقة الأمر أنه بعد كارثة الأردن لم يعد هناك سوى عدد محدود قادر على أداء مثل هذه المهمة. فقد كان فريق عمّان يضم أفضل العناصر التي أُتيح للموساد أن يجمعها. وكان أفراد هذا الفريق ينتحلون الجنسية الكندية وتتوافر لديهم القدرة على العمل في الساحة الدولية، أما الرباعي الذي تم اختياره للعملية السويسرية فلم تتح له فرصة العمل إلا في القاهرة، وهي تعد هدفاً سهلاً نسبياً للموساد في الوقت الحالي، كما أنهم لم تتوافر لهم الخبرة العملية للعمل تحت أسماء مستعارة في سويسرا من قبل.

ولذلك فإن ياتوم أنهى مقابلته مع أفراد الفريق، كما أشارت صحيفة «صنداي تايمز» اللندنية، بتوجيه انتباههم إلى أن أهل سويسرا الذين يقيمون في المقاطعات الألمانية حيث تقع ليبفليد يميلون إلى الاستنجاد بالشرطة إذا ما لاحظوا شيئاً مخالفاً للمألوف.

وصافحهم ياتوم وتمنى لهم التوفيق في مهمتهم وهو الإجراء الذي يتبعه عادة ويمنح به مباركته لأي فريق في طريقه للقيام بعملية ما. وتسلم أفراد الفريق تذاكر الطيران الخاصة بهم وأمضوا الأربع وعشرين ساعة في أحد بيوت الموساد المؤمنة بتل أبيب.

وفي يوم الثلاثاء التالي، العشرين من فبراير (شباط)، استقل الأربعة طائرة العال، الرحلة رقم ٣٧٤ المتجهة إلى زيوريخ. وكانوا قد التزموا بالوصول إلى مطار بن جوريون في الموعد المحدد لهم قبل ساعتين من الإقلاع، وانتظموا في طابور المسافرين، ومعظمهم من الإسرائيليين أو السويسريين. ومر أفراد الفريق من بوابات الأمن. وفي الساعة التاسعة تماماً كانوا يحتسون كؤوس الشمبانيا ويتبادلون الحديث عن رحلتهم المنتظرة وهم في مقاعدهم بدرجة رجال الأعمال بالطائرة.

بينما استقرت معدات التزلج الخاصة بهم في مخزن الطائرة.

وكان «الكاتسا» من مقر بروكسل في انتظارهم في سيارة ميني باص بمطار كلوتن بزيوريخ. وكان قد اتخذ شخصية دليلهم وانتحل اسم «افرايم روبنشتاين».

وفي وقت متأخر من بعد ظهيرة هذا اليوم استقر بهم المقام في منزل آمن في ليبفيلد. وقامت المرأتان بطهي الطعام واجتمعوا كلهم لمشاهدة التلفزيون. وقبل أن يتقدم المساء، وصلت سيارتان مستأجرتان من زيوريخ يقودهما اثنان من «السيانيم» الذين استقلوا الميني باص ورحلوا ما أن انتهت مهمتهما. وفي حوالي الساعة الواحدة من ظهر يوم السبت، ٢٠ فبراير (شباط)، غادر أفراد الفريق منزلهم الآمن، كل زوجين في سيارة. واستقل روبنشتاين السيارة الأولى ليقودهم جميعاً إلى شارع فابرزاكر. وما أن وصلوا إلى هنالك توقفت

السيارتان أمام العمارة السكنية، ولم تكن الأنوار مضاءة في شقة زين. وأسرع الثلاثة الذين ينتحلون أسماء سولي جولدبرج وراشيل جاكوبسون، وأفريام روبنشتاين في اتجاه البوابة الزجاجية، وكان روبنشتاين يحمل لفة من البلاستيك، بينما حمل جولدبرج الكومبيوتر المحمول وحمل جاكوبسون حقيبة خفيفة تحوي جهاز التنصت. وفي تلك الأثناء اندمج ماتي وليا في تمثيل دور المحبين الذي أعد لهما.

على الجانب الآخر من الطريق كانت تسكن سيدة عجوز تعاني من الأرق، أصرت الشرطة السويسرية بعدئذٍ على الإشارة إليها باسم «السيدة س». وفي تلك الليلة كانت تعاني من الأرق. حينها أطلت السيدة من نافذة حجرتها ورأت مشهداً يتسم بالغرابة. فقد شرع رجل - روبنشتاين - في تغليف البوابة الزجاجية بالبلاستيك ليمنع الرؤية لمن يطل من العمارة السكنية المقابلة. وعبر الغلاف البلاستيكي تمكنت العجوز من رؤية شخصين آخرين، بينما كان هناك رجل وامرأة يكمنان في الظل في سيارة منتظرة. وبالفعل ومثلما تنبأ دانيا اتصلت السيدة بالشرطة.

وحوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل بقليل، وصلت سيارة شرطة (بي.إم.دبليو) بينما كان فينكلشتاين يضم كوهين إلى صدره. وكانت الأوامر الصادرة للشرطة هي الانتظار في السيارة. وفي تلك الأثناء، وصلت قوة شرطة مساندة وطلب من الثلاثة الموجودين بصالة العمارة تفسير وجودهم بها. وقال جولدبرج وجاكوبسون إنهما أخطئا في العنوان الذي يقصدانه حيث يقيم أصدقاؤهما، بينما أصر روبنشتاين أنه ينزع البلاستيك ولا يلصقه.

ثم تحول الأمر إلى مهزلة. فقد طلب جولدبرج وجاكوبسون من رجال الشرطة أن يسمحا لهما بالعودة إلى سيارتهما لمراجعة عنوان

أصدقائهما. فذهبا دون أن يصاحبهما أحد من رجال الشرطة وفي الوقت ذاته سقط روبنشتاين على الأرض مدعياً إصابته بنوبة قلبية. وتجمع رجال الشرطة حوله لتقديم المساعدة واستدعاء طبيب. ولم يتحرك منهم أحد لمتابعة السيارتين اللتين انطلقتا في شارع فابرزاكر في تلك الليلة القارصة البرودة. وبعد فترة قصيرة توقفت السيارتان وانتقل اثنان من إحداهما إلى الأخرى، وعبر الأربعة الحدود الفرنسية ـ السويسرية في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.

وفي الوقت ذاته، نُقِل روبنشتاين إلى المستشفى حيث أعلن الأطباء أنه لا يعاني من نوبة قلبية، فتم التحفظ عليه.

وفي الساعة الرابعة والنصف صباحاً، بتوقيت تل أبيب، قام ضابط المراقبة بمقر الموساد بالاتصال بياتوم وإيقاظه ليخبره بما جرى. وانطلق ياتوم بسيارته إلى مقر الموساد.

وكانت هناك خطة تم وضعها بعد نكبة عمّان للتعامل مع مثيلات هذه النكبات حال وقوعها. وكانت الخطوة الأولى هي أن يتصل ياتوم بالمسؤول الأول المكلف بوزارة الخارجية الذي اتصل بدوره بمدير مكتب رئيس الوزراء الذي نقل الخبر إلى بنيامين نتنياهو. واتصل نتنياهو بسفير إسرائيل لدى المجموعة الأوربية أفرايم هاليفي. وكان ذلك الدبلوماسي الإنجليزي المولد قد أمضى ما يقرب من ثلاثين عاماً من حياته كضابط موساد رفيع المستوى، وتحمل مسؤولية الحفاظ على العلاقات الطيبة بأجهزة مخابرات الدول الأجنبية التي تربطها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. كما لعب هاليفي دوراً مهماً في تسوية العلاقات مع الأردن بعد العملية الفاشلة في عمان.

وقد نُقل عن نتنياهو قوله لهاليفي في ما بعد: «تعامل مع هذا الأمر، تكسب صداقتي طيلة العمر».

وراجع السفير ملفه الذي يحفظ فيه أسماء اتصالاته والذي يحمله معه أينما ذهب، قبل أن يستقر على إجراء اتصال بأول اسم: جاكوب كيللربرجر وهو مسؤول رفيع المستوى بوزارة الخارجية السويسرية. واستغل خاليفي مواهبه الدبلوماسية أفضل استغلال، فقد وقع «حادث مؤسف» ذو صلة بالموساد. وسأله كيللربرجر «إلى أي مدى؟» وجاءت الإجابة «مؤسف للغاية». وأفصحت نبرات الصوت عن كل شيء وجرى التفاهم بين الرجلين. أو هذا ما تصوره هاليفي إلى أن اتصل كيللربرجر بكارلا ديل بونتي التي تشغل منصب المدعي العام السويسري.

وقد كانت كارلا ديل بونتي بما تتميز به من شفة سفلى بارزة ونظارات معدنية مشابهة لتلك التي يستخدمها داني ياتوم نظيره في مجال النظام القانوني السويسري بما تتمتع به من قوة لا تبارى، يمكن مقارنتها بما كان يتمتع به ياتوم من قوة في مجال المخابرات الإسرائيلية في يوم من الأيام. وقد وضع سؤالها الأول خطوط الموقف الذي التزمت به: «لماذا لم تلق الشرطة القبض على عملاء الموساد جميعهم؟». ولم تتوافر لدى كيللربرجر الإجابة عن هذا السؤال. وأثار سؤال ديل بونتي الثاني شبحاً مألوفاً للغاية لكيللربرجر: «هل هناك صلة ما بين العملاء الإسرائيليين وطهران؟». فمنذ نشوب حرب الخليج، أكدت إسرائيل مراراً أن هناك شركات سويسرية تقدم التكنولوجيا اللازمة لصناعة الصواريخ لإيران. «وهل يمكن أن تكون هناك صلة ما بين هذه العملية واهتمام إسرائيل بما يدعى فضيحة ذهب اليهود؟» فقد أخفت البنوك السويسرية مبالغ ضخمة من المال أودعها يهود ألمان في خزائنها واستغلتها في الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية، ثم أصبح هؤلاء اليهود ضحايا للنازية.

وخلال عطلة نهاية الأسبوع، يومي ٢١ و٢٢ فبراير (شباط)

توالت الأسئلة بينما استمرت محاولات هاليفي للتغطية على الأمور.

ولم يكن هاليفي قد أخذ في اعتباره القوى التي تجمعت ضد داني ياتوم في إسرائيل. ففي داخل الموساد انخفضت الروح المعنوية إلى درجة أكبر مع تسرب أخبار الحادثة. وهذه المرة، لم يكن بمقدور ياتوم أن يلوم نتنياهو لما حدث في ليبفيلد. فلم يكن رئيس الوزراء على علم مسبق بالعملية. وبدأت الهمسات تتطاير من مكتب رئيس الوزراء إلى وسائل الإعلام الإسرائيلية مشيرة إلى أن نهاية ياتوم قد اقتربت. وعلى مدى ثلاثة أيام واصل هاليفي محاولاته لإقناع كيللر برجر بإبقاء الامر طي الكتمان. غير أن كارلا ديل بونتي لم تكن لتوافق على هذا. وفي يوم الأربعاء ٢٥ فبراير (شباط) دعت إلى مؤتمر صحفي استنكرت فيه ما قام به الموساد من عمل «غير مقبول ومثير للحرج بين الدول الصديقة».

ما هي إلا ساعات حتى تقدم ياتوم باستقالته. فقد انتهت حياته العملية وتدهورت سمعة الموساد أكثر من ذي قبل. وفي لحظاته الأخيرة كرئيس للموساد أثار دهشة العاملين الذين تجمعوا في الكانتين، فقد حلت نبرة مؤثرة محل الواجهة البروسية الباردة، فقد أبدى ياتوم أسفه أن يتركهم في مثل هذا الوقت، غير أنه حاول أن يكون خير قائد لهم، وعليهم دائماً أن يتذكروا أن الموساد أهم من أي رئيس له. وأنهى كلمته بتمنياته لمن يحل محله بالتوفيق الذي سيكون في أمس الحاجة إليه. وقد كانت كلمة ياتوم تحمل ما كان يود تقريباً أن يقوله في ما يتعلق برئيس للوزراء الذي يعتقد أنه يمكن التحكم في الموساد من مكتبه. وغادر ياتوم الكانتين والكل صامت، غير أنه ما أن وصل إلى الممر حتى تعالت أصوات التصفيق ثم لم تلبث أن سكنت بالسرعة نفسها التي بدأت بها. وبعد أسبوع وافق أفرايم هاليفي أن يتولى شؤون

الموساد بعد أن أعلن رئيس الوزراء صراحة في سابقة هي الأولى من نوعها أنه لا يستطيع أن ينكر أن صورة الموساد قد تأثرت بعدد من المهام الفاشلة.

ولم يرد ذكر في كلمة نتنياهو للدور الذي لعبه هو شخصياً فأثبت أنه لا يزال السياسي المحنك في جميع الأحوال.

وفي يوم الخميس ٧ مارس (آذار) ١٩٩٨ أصبح أفرايم هاليفي الرئيس التاسع للموساد. وخلافاً للتقاليد المتبعة لم يستدع هاليفي كبار المسؤولين بالموساد للاستماع إلى آرائهم حول أسلوب عمل الجهاز خلال العامين التاليين. فقد صرح نتنياهو عند تعيينه لهاليفي أنه في ٣ مارس (آذار) من عام ٢٠٠٠ سيجري تعيين أميرام ليفين، نائب رئيس الموساد الجديد، رئيساً للموساد ليحل محل هاليفي. وقد قوبل الخبر بالدهشة فلم يحدث من قبل أن تم تعيين رئيس للموساد لفترة محددة، كما لم يحدث أن اطمأن أحد النواب إلى حصوله على الدرجة الأعلى في الموساد. وكان ليفين يفتقر إلى الخبرة السابقة في أعمال المخابرات، مثله في ذلك مثل أمير عاميت. غير أنه لعب دوراً بارزاً في قيادة الجيش الإسرائيلي في شمال إسرائيل وجنوب لبنان.

وكانت المهمة الأولى التي أخذها هاليفي على عاتقه هي تخفيف التوتر الهائل والمشاعر السلبية داخل جهاز الموساد وهي الأمور التي شوهت صورة الجهاز داخل إسرائيل وخارجها. وقد تلقى الرئيس الجديد للموساد مكالمات تليفونية تقليدية من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية لتهنئته وفي الوقت ذاته لإبلاغه برغبة هذين الجهازين في الانتظار لترقب ما يصنعه لحل أزمة الموساد على المستوى الداخلي قبل أن يتم التعاون بين أجهزتهم على أساس من المكاشفة الكاملة. وكان أحد العوامل هي كيفية تعامل هاليفي

مع المتشددين في الحكومة الإسرائيلية وخاصة رئيس الوزراء.

وعلى الرغم من مهارات هاليفي الدبلوماسية التي لا يرقى الشك إليها، فقد لعب دوراً مهماً في المفاوضات التي أدت إلى توقيع معاهدة السلام مع الأردن في عام ١٩٩٤، فقد كان بعيداً عن أتون المخابرات لعدة سنين بدا وكأن الموساد قد انفلت خلالها من السيطرة لمحاولات كبار المسؤولين المخاطرة بمطالبهم في الترقيات، وقد استمر معظم هؤلاء المسؤولين من متوسطي العمر في مناصبهم. فهل يستطيع هاليفي أن يتعامل معهم بحسم؟ وهل تتوافر الخبرة المباشرة للرئيس الجديد كي يرفع الروح المعنوية للعاملين بالجهاز؟ إذ لا يبدو أن تمضية الوقت بين حفلات الكوكتيل في بروكسل قد أعدت هاليفي لمهمة إقناع أفضل العملاء بالعدول عن الاستقالة. بل إن أخطر ما في الأمر أن هاليفي لم يكن على أية دراية بمجال العمليات. فقد كان في ما مضى أثناء خدمته بالموساد مسؤولاً يجلس إلى مكتبه، ثم ماذا يمكن أن يحققه في خلال عامين؟ أم لأنه قد تقلد المنصب إرضاءً لنتنياهو أو بالأحرى تنفيذاً لرغبات سارة، زوجة نتنياهو؟ فقد سرت التكهنات في أوساط المخابرات الإسرائيلية حول الدور الذي لعبته سارة في إزاحة ياتوم الذي لم يحظ في يوم من الأيام برضاها. إن تحقيق هاليفي لأهدافه هو اختبار صعب لقدراته الجسمانية والذهنية في مجال المخابرات الإسرائيلية بما تضمه من تقلبات عنيفة. وكان كل من «أمان» و «شين بيت» قد استغلا الاضطرابات التي سادت الموساد لتدعيم مركزيهما ليكونا في المركز الأعلى بين نظرائهما. غير أنه لم يكن لأحد أن يقترح تخلي الموساد عن دوره في أن يكون عين إسرائيل الخاصة على العالم من حولها. فإذا ما فقدت إسرائيل مهاراتها في هذا المجال فإنها تجد نفسها عرضة للهزيمة على أيدي أعدائها في القرن القادم،

فسوريا وإيران والعراق تطور وسائل تكنولوجية يجب أن تتم متابعتها عن كثب.

وفي بادىء الأمر كان أسلوب الموساد يتسم بتحقيق ما يجب فعله، على أن يتم ذلك سراً. وفي إحدى لقاءاته الفردية مع أحد المسؤولين عبر هاليفي عن رغبته في أن تعود المخابرات الإسرائيلية أسرة واحدة وأن يصبح الموساد بمثابة العم القريب الذي لا يتناوله الغير بالأحاديث.

والزمن وحده كفيل بأن يكشف ما إذا كانت رغبة هاليفي حلماً غير قابل للتحقيق أو أن يتحقق ما يخشاه المراقبون من أن الموساد سيعاني سلسلة متواصلة من الإذلال العلني.

مصـادر:

(ملاحظات عن مصادر المعلومات)

أثناء كتابتي لهذه الرواية الموثقة، تمتعت بحرية الوصول إلى حدٍ ما وعلى درجة عالية من الثقة بالنفس إلى دهاليز ومكامن مؤسسة المخابرات الإسرائيلية. حيث شرعت بالكتابة عن موضوع جهاز الموساد الشائك إلى حدٍ ما بلا مؤونة أو ذخيرة، كما هو الحال عند شروعي بتدوين مؤلفاتي السابقة. وكانت مصادري فقط معلومات حصلت عليها من أعضاء وعملاء لجهاز الموساد بطريقة يتبعها أي مؤلف عند تناوله لموضوع مؤسسة مخابراتية ومحاولة الولوج في خفاياها: راجعت وتفحصت، راجعت وتفحصت، راجعت وتفحصت. سجلت ما يناهز الثمانين ساعة مذكرات على شريط تسجيل، متضمنة لقاءات متكررة مع أشخاص لهم ارتباط مباشر أو غير مباشر بجهاز الموساد. ولقاءات أخرى بأشخاص ممن حاول جهاز الموساد اغتيالهم. بضمنها ليلى خالد الفتاة التي طرقت الشهرة بابها من خلال عملية تفجير الطائرة المخطوفة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٧٠ م، ومحمد عباس، العقل المفكر والمدبر لعملية خطف «أشيل لاورو» حيث رُشِقَ بوابل من النيران حينها مسافر يهودي أميركي مُقعد فأُردي قتيلاً في ناحية ما من الطائرة. فقد التقيتهم في شهر مايس من

العام ١٩٩٦ م في قطاع غزة، حيث سُمِحَ لهم بزيارة إسرائيل كجزء من عملية التقارب بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتحدثت أيضاً مع ياسر عرفات، الذي كان هدفاً لعملية اغتيال دبرها جهاز الموساد إحدى المرات. انهمكتُ في مهنة الكتابة عن مواضيع المخابرات العسيرة منذ العام ١٩٦٠ م عندما كنت أعمل مع شابمان بينشر، الكاتب البريطاني صاحب الفكرة الرئيسية عن هذا الموضوع. توظفنا سوية في جريدة «الديلي إكسيبريس» في لندن. ساعد عدداً من رواياتنا ـ هزيمة بيرغس وماكلين الذائعة الصيت للمخابرات البريطانية ـ على تغيير مداركي الحسية تجاه الحيثية التي سأتناول بها هكذا مواضيع روائياً في المستقبل. إنه الوضع المنشود الذي حاولت إداركه عن طريق كتابة مؤلفات تناولت نفس الموضوع تقريباً: «رحلة في عالم الجنون، البابا، ضوضاء تحت الجنة». كتبت تقاريراً تناولت حروب المخابرات السرية التي شنت ضد إيران، والعراق، وسوريا وأفغانستان، المناطق التي لا يزال لجهاز الموساد مواطيء قدم فيها. كذلك تناولت وبصورة موسعة علاقة الموساد بالفاتيكان. كانت اتصالاتي «بمقر الأسقف المقدس» ناجعة ومفيدة ساعدتني في التوصل إلى لقاءات ومقالات أفضت إلى تأليفي هذا الكتاب. في العام ١٩٨٩ م، وفي أوج اضطرابات الطلبة، كنت حينها متواجداً في الصين. ومرة أخرى شهدتُ المكائد التي نصبتها حبائل وكالات المخابرات واستبيت أيدي الموساد الخفية وتورطها فيما يتعلق بموضوع صادرات السلاح الصينية لكلاً من إيران والعراق وما قد يسببه هذا الموضوع من تهديد لأمن إسرائيل. واضبت على الكتابة عن أدوار الموساد، وبالأخص دورها في حرب الخليج العربي والآثار المترتبة على كارثة انهيار الشيوعية السوفيتية. تلقيت اتصالاً هاتفياً من «زفي سبيلمان»، حدث هذا في آب ١٩٩٤ م. يُعتبر سبيلمان شيئاً أشبه

بالأسطورة. فقد شارك وبتفوق في حربها من أجل نيل الاستقلال واستمر على هذا المنوال عن طريق تأسيسه ستوديوهات إسرائيل السينمائية الموحدة. أنتج سبيلمان مجموعة كبيرة من الأفلام بالتعاون مع ستوديوهات هوليوود. سألني سبيلمان إن كنت عازماً على كتابة ونشر مؤلفاً وثائقياً عن جهاز الموساد. طمأنني حينها بأن لي حرية التصرف الكاملة، وأعلمني أيضاً بأن القيد الوحيد المفروض على المعلومات والبيانات التي حصلت عليها سيكون فقط الأسئلة التي طلبت منه الحصول على ردٍ عليها، كلما سألت أكثر، كلما تعلمت أكثر. اكتشفت بأنه، وبمنأى عن كتب (فيكتور أوسترونسكي) وعمل (عاري بن مناشة)، يوجد القليل النفيس لقراءاته عن جهاز الموساد وذلك، لتعسر الحصول على المعلومات. وعلى النقيض من هذا تلاحظ ما كتب عن وكالة المخابرات المركزية ما يناهز المئتي كتاب تناولت أغلب مجالات عملها. ويوجد ما يناهز الخمسين كتاباً قد تكفلت بنشر معلومات عن وكالة المخابرات السرية البريطانية، وأرقام مشابهة عن الإصدارات الخاصة بوكالة المخابرات الروسية والألمانية والفرنسية. ولكن بمراجعة وتفحص دقيقين في محتوياتها يكشف عن وجود فجوات عديدة خصوصاً فيما يتعلق بالحروب السرية التي شنتها. وأصبح من الواضح بأن جهاز الموساد قادراً على سد العديد من هذه الثغرات.

من خلال رحلاتي العديدة لإسرائيل، البعض منها كان لمصلحة القناة الرابعة البريطانية، كانت عملية إجراء لقاء صحفي شبيهة إلى حدٍ بعيد أي لقاء صحفي آخر. ففي إطار الظرف الزمني الذي على ضيوفي الأدلاء به في اللقاءات الصحفية اشتمل باديء ذي بدء على فترات زمنية غريبة، متأرجحة بين الزمن الحاضر ونطاق الذكريات المتلاشية. وبالتدريج، كلما بدأنا نزداد معرفة ببعضنا الآخر كلما دنت رواياتهم

وسردهم للأحداث إلى الوقت الحاضر، حيث يصبحوا أكثر دقة وأفضل قدرة على تذكر التفاصيل - التي تُفصح عن ماذا، متى - وأين. وأصبح من الواضح أيضاً أنه حتى أولئك الذين ساعدوا على تأسيس وإيجاد الموساد كانوا يتمتعوا بذاكرة قوية وحية لتلك الفترة التي تعتبر جزءاً من تاريخ حياتهم - والتي لم تُروى من وجهة نظرهم الشخصية. والأهم من كل هذا، هو قدرتهم على ربط تلك الأيام الغابرة بالأيام الحاضرة، على سبيل المثال، عندما يتحدثوا عن دور جهاز الموساد في الأيام المعاصرة لحكم شاه إيران، يترجمونها على أنها أساس المحنة والبلاء الحالي في التعصب الإسلامي. فعندما كشفوا عن تورط الموساد في جنوب إفريقيا، كانوا قادرين على ربط حالة البلد تلك الأيام بحالة البلد في الوقت الحاضر. ومن وقت لآخر يوضحوا ويشددوا على أن الماضي هو جزء لا يتجزأ من حاضر إسرائيل، كيف استطاعوا سد الفجوة بين الماضي والحاضر. فقد أوضحوا بأن الأساطير المنسوبة للموساد محاطة ومسيجة بتفاهات لا تمت إلى ما حدث واقعاً بصلة.

أتذكر عندما قال «رافائيل إيتان» والابتسامة تعلو وجهه: «تقريباً حقيقة كُتبت فيما يتعلق بمسألة القبض على «إيشمان» يُعتبر محض هراء. أنا أعرف ذلك كوني أنا الرجل الذي قبض عليه شخصياً». في عدة طرق تمكن إيتان وزملائه من تحويل هذه الأساطير إلى حقيقة مفروضة بالقوة. ناشدوني ألاّ أعمل أقل من هذا صاغياً إلى كلام إيتان، تبدوا إنجازاته معين لا ينضب كما هي حال طاقته. فقد اشترك بحرب سرية عظيمة. رجل ذو بصيرة نافذة وذو خيال لا ينضب، كل ما طلبه هو أن يعيش مدة أطول كي يرى اليوم الذي ترفل به إسرائيل بالسلام. أدركت وبسرعة بأنه من بين محدثيَّ جنود متميزون وقساة. أنهم رجال «أيزر هاريل» ورجال «مير عاميت»، والازدراء الذي يكنه

كلاً للآخـر كان جلياً على مـر السنين. وأدركت بأنه لن يكون هناك شيئاً يساعد على تنقية الأجواء بين الطرفين. وأدى هذا إلى مشكلة إضافية؛ التفكير ملياً بتأكيداتهم كـي تضـاف إلى معلوماتهم، كان محدثي في سباق مع الزمن. لا بد لرجال أمثال «مير عاميت» أن يعيشوا فترة انحطاط في حياتهم. فكونه راغباً في تحمل أعباء اللقاءات الصحفية المطولـة والأسئلة المتكررة، يُعتبره بمثابة فخراً له. وافق على إجراء آخـر لقاء صحفي مختصر عقيـب عودته من فيتنام، حيث ذهب هناك كي يتعلم وبصورة مباشرة حـول الماهية التي فاق بها «الفيتناميون» دهاء المخابرات الاميركيـة خـلال الحرب الفيتنامية. يُعتبـر لقائي مع «يوري ساغوي» أحد اللقاءات المتميزة. فقد جلس في مكتب «زفي سبيلمان» وتحدث بصراحة عن مواضيع مختلفة مثل حاجة إسرائيل الماسة بالتوصل إلى التسوية مع سوريا والمشكلة التي واجهها «في الإعهاد إليه بمهمة» مع الموساد عندما كان إجمالاً من أبرز رجال المخابرات الإسرائيلية. «ديفيد كيمـش» نادراً مـا يتخلى عـن حذره، كان خطراً عليّ رؤية كل الأسئلة سلفـاً. برغم ذلك، فقد أفصح من تنبؤات مهمة على صعيد موقفه الشخصي تجاه الناس والأحداث. كمن في ذاكرتي مشهد رؤيتي له وهو يُطعم كلبه بيد بينما تـراه محطماً وبكـل براعـة مصداقية أولئك الذين لم يُضارعوا معاييره، باليد الأخرى.

فتح «يعقوب كوهين» بيته ـ قلبه وعقله لي. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث لعدة ساعات في مزرعته الجماعية ذات السمة اليهودية حيث يعيش الآن، وتذكره لما قاله وشعر به في ذلك الحين. كمثال على ذلك، يمكنه أن يستعيد وبمفرده الخوف والندم اللذين اعترياه عند قتله أول رجل. كان رد فعله متناقضاً بصورة ملحوظة لمشاعر «رافي إيتان»

حول القتل. كان (ليوئيل بين بورات) عقلية المحامي الممارس لمهنته، يتعامل مع الحقائق فقط وذو حدس بطيء. كان قادراً، وفي عدة قضايا على سد الثغرات والفجوات التي تركت مفتوحة تاريخياً. كان «ريوتين ميرهاف» ينبوعاً من المعلومات حول موقع الموساد في إطار السياسات الإسرائيلية. ومن بين الصحفيين الإسرائيليين الذين تكلمت معهم، اثنين هما بحاجة إلى ذكر استثنائي «أليكس دورون» الذي كان مستعداً ليعبر عن آرائه بحرية في الأمور المتعلقة بالمخابرات الإسرائيلية بطريقة تنم عن صراحة وذاكرة طرية. كان دعمه لي ذا أهمية كبرى. ومن ناحية أخرى، «ران أدليست». اعتبر كباحث من قبل القناة الرابعة للفيلم التلفزيوني الذي كنت على وشك تقديمه حول الموساد، وغالباً ما شَغِل منصباً في مجمع ستوديوهات، «زفي سبيلمان»، مصراً على أنه ليس من «المناسب» بمكان إعطاء تفاصيل دقيقة وفي حالات عديدة. ففي بعض الأوقات يبدو مهتماً بما لا يجب أن يكون في البرنامج مقارنة بالذي يجب أن يكون. في بعض اللقاءات الصحفية التي كان طرفاً فيها، غالباً ما يقاطع المتحدثين ليحذرهم كي «يكونوا حذرين»، والقليل أخذو بنصيحته، مشكورين. بصورة مستقلة وبمعزل عن «ران أدليست» التقيت عملاء مخابرات إسرائيلية آخرين والذين كانت لديهم القدرة على أن يكونوا صريحين، برغم ذلك لم يعطوا معلومات مفصلة ودقيقة بصورة مباشرة، فقد دعوني إلى بيوتهم، قابلت عوائلهم وبدأت أعرف شيئاً ما عن حياتهم الخاصة، كانت الزيارة بمثابة تذكير لي بأن الجواسيس لا يعيشوا ببُعد واحد، ولا أزال ذاكراً إتمام مقابلة مطولة مع عميل سابق من «الكاتسا» والذي زودني بتقرير عن عدد قتلاه. فجأة نظر لما حوله في غرفة الجلوس المريحة بمناظرها (صورة عن الكتاب المقدس) وتنهد بعمق وقال «هذا العالم ليس ذاته هذا العالم»

«بقيت كلماته تلازمني». اعتقد بأن ما عناه هو، مقارنة بعمله السابق بموازين ومظاهر الحياة الاعتيادية، قتامة مستقبلة والخطر لا يبارحانه، وجدت الشيء ذاته مع بعض من تكلمت معه من عملاء آخرون، كانت رسالة تذكير متسمة بالاعتدال والرزانة، بأن عالم المخابرات، هو عالم يرى باجمعه من خلال زجاجة معتمة، كما لَمَحَ (القديس باول).

المتحدثون الرئيسيون:

مير عاميت	حاييم كوهين
ناديا كوهين	يعقوب كوهين
ويليام كيسي	ويليام كولبي
رافائيل إيتان	زفي فريدمان
أيزر هاريل	ميري كابونغو
إدوارد كيمبل	ديفيد ليمشي
أوتوكورماك	هنري مكدناشي
أرييل ميراري	رونين ميرهاف
داني ناجير	يوئيل بن بورات
يوري ساغوي	سيحون ويزنيثال.

الصحف والمجلات:

ديلي إكسبرس، لندن ـ ديلي بيلي، لندن ـ

ديلي تلغراف، لندن ـ نيويورك تايمز ـ

لوس انجلس تايمز ـ جيروسالم بوست ـ

سنداي تايمز ـ لندن ـ

المنظمات

أرشيف بالماش، إسرائيل ـ مكتب التسجيل العام، لندن

الأرشيف الوطني، واشنطن ـ مكتبة نيويورك العامة ـ
مكتبة اتحاد الصحافة، لندن ـ
مكتبة كلية ترينيتي، دبلن ـ
الأرشيف السري، دولة الفاتيكان ـ الأرشيف، غيلون، إسرائيل.

المراجع

- آجي، فيليب.: داخل المجموعة: يوميات وكالة المخابرات المركزية. هارموند سورث، إنكلترا: منشورات بنجوين، ١٩٧٥

- آلون بيجال.: درع داوود. لندن: ويدنفلد ونكولسون، ١٩٧٠.

- بايزمان، جويل.: معلومات سرية عن العمليات الخفية لوكالة المخابرات المركزية والموساد الإسرائيلي. نيويورك؛ مؤلفات SPI ١٩٩١.

- بامفورد، جيمس.: القصر اللغز: تقرير عن الوكالة الأمريكية الأكثر سرية. بوسطن: هوفتون ميفلين، ١٩٨٢.

- بار - زوهار، ميشيل: بن غوريون، سرة ذاتية. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٧٧.

- : جواسيس في الأرض الموعودة. لندن: ديفيس - بوينتر، ١٩٧٢.

- بن - بوارت، يشاياهو: عملية إنقاذ مطار عينتبه. نيويورك: مطبعة ديلاكورت، ١٩٧٧.

- بن شاول، موشي : جنرالات إسرائيل. تل أبيب: هادار، ١٩٦٨.

- بلاك، ايان وبيني موريس: حروب اسرائيل السرية. لندن. هامش هاملتون، ١٩٩١.

- بلومنثال، سيد، وهارفي يازيجيان: «مؤلفات» حكومة قائمة بحد السلاح: نظريات مؤامرة اغتيال من دالاس حتى اليوم. نيويورك: سيغنت، ١٩٧٦.

- برزبزنسكي، زبيجنيو: القوة والقاعدة: مذكرات مستشار الأمن القومي، ١٩٧٧ - ١٩٨١. نيويورك: فارار، ستراوس وجيروكس، ١٩٨٣.

- كراس: وكالة المخابرات المركزية الخاص بنيكاراغوا: العمليات النفسية في حرب العصابات. نيويورك: منشورات فينتاج، ١٩٨٥.

ـ كلاين، راي س: وكالة المخابرات المركزية في ظل حكم ريفان، بوش وكيسي. مقاطعة كولومبيا، واشنطن: منشورات اكروبوليس، ١٩٨١.

ـ : أسرار، جواسيس وعلماء: برنامج العمل الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية. واشنطن، مقاطعة كولومبيا: منشورات اكروبوليس، ١٩٧٦.

ـ كالاين، راي س: ويونا الكسندر. الإرهاب الإتحاد السوفياتي. نيويورك: كرين روساك، ١٩٨٤.

ـ كوستانتيندرز، جورج س: المخابرات والجاسوسية مرجع تحليلي. بولدر، كولومبيا: مطبعة ويستفيو، ١٩٨٣.

ـ كوبلاند، مايلز: لعبة الأمم. نيويورك: سيمون وشوستر، ١٩٦٩.

ـ : عالم الجاسوسية الحقيقي. لندن: منشورات سفير، ١٩٧٨.

ـ ديكون، ريشارد.«س»: السيرة الذاتية للسير موريس اولدفيلد. لندن: مكدونالد، ١٩٨٥.

ـ ديكيل، افريم. شاثي: استغلال معلومات الحاغانا الإستخبارية. تل ابيب: يوسليف، ١٩٥٩.

ـ : تاريخ المؤسسة السرية البريطانية. لندن: غراناداا. ١٩٨٠.

ـ دي سيلفا، بير: سب روزا: وكالة المخابرات المركزية واستخدام دائرة الإستخبارات. نيويورك: مؤلفات تايمز، ١٩٧٨.

ـ دوسيون، كريستوفر: ورونالد باين. قاموس الجاسوسية. لندن: هاراب، ١٩٨٤.

ـ دوليس، آلان: خداع المخابرات. وستبورت، كون: مطبعة غرينوود، ١٩٧٧.

ـ ايزنبيرغ، دينيس: يوري دان، وإيلي لانداو. مير لانسكي: قطب العصابة الإجرامية. لندن: منشورات غوركي، ١٩٨٠.

ـ : الموساد: مؤسسة المخابرات السرية الإسرائيلية داخل الروايات. نيويورك: سيغنت، ١٩٧٩.

ـ الون، آموس: الإسرائيليون: المؤسسون وأولادهم. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٧١.

ـ فاراغو، لادسلاس: الحرق بعد القراءة. نيويورك: ماكفادين، ١٩٦٣.

ـ جيلبرت، مارتين: الصراع العربي ـ الإسرائيلي. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٧٤.

ـ جولان، افيزر: وداني بنكاس. شولا، اسم الشيفرة اللؤلؤة. نيويورك: مطبعة ديلاكورت، ١٩٨٠.

ـ كروسارد، سيرجي: دماء اسرائيل. نيويورك: ويليام مورو، ١٩٧٣.

- غولي، بيل: مع ماري الين ريز. انتهاك الستار. نيويورك: منشورات وارنر، ١٩٨١.
- هايغ، الكسندر: م. جي، آر. تحذير الواقعية، ريفان. والسياسة الخارجية. لندن: ويدنفلد و ينكولسون، ١٩٨٤.
- هاريل، ايزر: منزل في شارع غاريبالدي. لندن: آندري ديوتش، ١٩٧٥.
- هاريس، روبرت: وجيرمي باكسمان. أخطر أساليب القتل. لندن: ترياد/ غرانادا، ١٩٨٣.
- هاسويل، جاك: الجواسيس وقادتهم: تاريخ موجز عن المخابرات. لندن: تيمس وهودسون، ١٩٧٧.
- هينز، باول ب: مؤامرة القتل البابا. لندن: كروم هيلم، ١٩٨٤.
- لاكوير، وولتر: «مؤلف»، القاريء الإسرائيلي - العربي. نيويورك: بانتام، ١٩٦٩.
-: الصراع من أجل الشرق الأوسط: الاتحاد السوفياتي والشرق الأوسط، ١٩٤٨ - ١٩٦٨. لندن: روتلدج وكيغان باول، ١٩٦٩.
- لوتز، وولفغانغ: جاسوس الشمبانيا. لندن: فالنتاين ميشيل، ١٩٧٢.
- مكجيمي، رالف و: الخدع المميتة: سنواتي الخمسة والعشرين التي قضيتها في وكالة المخابرات المركزية. نيويورك: منشورات تريردات سكوير، ١٩٨٣.
- مكجي، جورج: مندوب إلى وسط العالم: مغامرات ديلوماسية. نيويورك: هاربر ورو، ١٩٨٣.
- مير، غولدا: حياتي. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٧٥.
- موسين، هانز: الخدمة السرية لوكالة المخابرات المركزية، مكلين، فا: اتحاد ضباط المخابرات السابقين، ١٩٨٣.
- نيف، دونالدز: مقاتلون في السويس: ايزنهاور يدخل امريكا في الشرق الأوسط. نيويورك: مطبعة لندن، ١٩٨١.
- اوفر، يهودا: عملية الرعد: غارة على مطار عينتبة، قصة إسرائيلية. هارموند سورث، إنكلترا: منشورات بنجوين، ١٩٧٦.
- اوسترونسكي، فيكتور: عن طريق الخداع. نيويورك: مطبعة القديس مارتين، ١٩٩٠.
-: الجانب الآخر من الخداع. نيويورك: هاربر كولينز، ١٩٩٤.
- باورز، توماس: الرجل الذي حفظ الأسرار: ريشارد هيلس ووكالة المخابرات المركزية. نيويورك: نوف، ١٩٧٩.
- رابين، اسحق: مذكرات رابين. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٧٩.

- ريشيلسون، جيفري. ت: مؤسسة المخابرات الامريكية. كامبريج، ماس: باليِنجر، ١٩٨٥.
- سبث، رونالد: الجلادون: قصة سميرش. نيويورك: منشورات تيمبو، ١٩٧٠.
- سميث، كولين: لوحة الإرهابي. نيويورك: هلوت، راينهارت ووينستون، ١٩٧٦.
- ستيرليغ، كلاير: شبكة الإرهاب: الحرب السرية للإرهاب العالمي. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٨١.
- ستيفنز، ستيوارت: زعماء الجاسوسية في اسرائيل. لندن: هورد وستاوتون، ١٩٨١.
- ستيفنسون، ويليام: تسعون دقيقة في مطار عينتبة. لندن: منشورات بانتام، ١٩٧٦.
- ستوكويل، جون في البحث عن الأعداء: قصة لوكالة المخابرات المركزية. نيويورك: و. و. نورتون، ١٩٧٨.
- تينين، ديفيد ب: فريق الصدمات. بوسطن: ليتل، براون وكومباني، ١٩٧٦.
- تولي، اندرو: وكالة المخابرات المركزية قصة من الداخل. نيويورك: ويليام مرورو، ١٩٦١ الجواسيس الممتازون: اكثر أسراراً، اكثر قوة من وكالة المخابرات المركزية. نيويورك: ويليام مورو، ١٩٦٩.
- رويست، نايجل: مسالة ثقة: م ي ٥، ١٩٤٥ - ٧٢. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٨٢.
- : م ي ٥: عمليات دائرة الأمن البريطانية، ١٩٠٩ - ١٩٤٥. لندن: ترياد/غرانادا، ١٩٨٣.
- : م ي ٦: عمليات دائرة المخابرات السرية البريطانية. ١٩٠٩ - ١٩٤٥. لندن: ويدنفلد ونيكولسون، ١٩٨٣.
- ويسنتال، سيمون: القتلة بين الأميركيين. لندن: ويليام هاينمان، ١٩٦٧.